الإعداد المعنوي والمادي للمعركة

في

ضوء القرآن والسنة

تأليف

اللواء الدكتور

فيصل بن جعفر بن عبد الله بالي

مكتبة

التوبة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

مكتبة التوبة

الرياض - المملكة العربية السعودية - شارع جرير

هاتف ٤٧٦٣٤٢١ فاكس ٤٧٧٤٨٦٢ ص. ب ١٨٢٩٠ الرمز ١١٤١٥

الإعداد المعنوي والمادي للمعركة
في
ضوء القرآن والسنة

بسم الله الرحمن الرحيم

أصل هذا الكتاب رسالة علمية تقدم بها المؤلف لنيل درجة الماجستير من جامعة أم القرى ، قسم الدراسات الإسلامية ، وتمت مناقشتها عام ١٤٠٧هـ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠]

وقال تعالى:

﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١]

قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ» (رواه مسلم ١٣/٥٦)

المقـــدّمة

إن الحمد للَّه نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده اللَّه فلا مُضلّ له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يا أيُّها الَّذين آمنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حقَّ تُقاته ولا تمُوتُنَّ إلاَّ وأنتم مُّسْلمُون ﴾ (١) .

﴿ يا أيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا ربَّكُمُ الَّذي خلقكُم مّن نَّفْسٍ واحدةٍ وخلق منْهَا زوْجَهَا وبَثَّ منْهُمَا رجَالاً كثيراً ونسَاءً واتَّقُوا اللَّهَ الَّذي تسَاءَلُونَ به والأرْحام إنَّ اللَّهَ كان عليْكُمْ رقيباً ﴾ (٢) .

﴿ يا أيُّهَا الَّذين آمنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وقُولُوا قوْلاً سديداً . يُصْلحْ لكُمْ أعْمالكُمْ ويغْفرْ لكُمْ ذُنُوبكُمْ ومن يُطعِ اللَّهَ ورسُولهُ فقدْ فاز فوْزاً عظيماً ﴾ (٣) (*) .

وبعد :

فإن الناظر إلىٰ الأمة الإسلامية في عصرنا الحاضر يجدها مستهدفة من قِبل أعدائها وهي مشغولة عنهم ، وهم يمكرون لاستدراجها إلىٰ معارك فاصلة دون أن تكون قد أعدت لها الإعداد الكافي ، بينما يقف الأعداء يرصدون وقد أعدّوا واستعدوا علىٰ حين غفلة من الأمة الإسلامية لينقضّوا عليها .

وفي مثل هذا الواقع الأليم يتطلع الفرد من أبناء هذه الأمة ليطمئن قلبه إلىٰ حال أمته ، فلا يجدها قد أعدت للأمر عُدَّته ؛ بل إنك تجد الكثير من الجيوش الإسلامية وأمرُها غير مجموع ، وقد تعددت مشاربها ، واستمدت عقائدها القتالية من أصول لا تمت إلىٰ الإسلام بصلة ، وقد غاب مفهوم المبادئ الأساسية للعسكرية الإسلامية عند أكثر العناصر في الجيوش الإسلامية ، واختلط الحق عندهم بالباطل وضعفت الصلة باللَّه تعالىٰ ، وفي مثل هذا المناخ القاتم الذي لا يقوم علىٰ أساس متين ولا يأوي إلىٰ ركن ركين ، تفشّت الانحرافات السلوكية والأخلاقية عند الكثير من الأفراد في تلك الجيوش الإسلامية ، وقدمت

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٠٢ .

(٢) سورة النساء : الآية ١ .

(٣) سورة الأحزاب : الآيتان ٧٠ـ٧١ .

(*) خطبة الحاجة أخرجها أبو داود والنسائي والحاكم والطيالسي وأحمد وأبو يعلىٰ والطبراني والبيهقي .

المناصب والرتب والرواتب على حساب الهدف العسكري عندهم ، وطبيعي أن يكون ذلك قد أدى إلى استرخاء الفرد المقاتل وركونه إلى الدعة والعيش الرغيد وحب الدنيا وكراهية الموت ، وهو ما لا يتأتى معه النصر أبداً ولا تقوم معه للأمة قائمة .

وبالنظر إلى تسليح بعض الجيوش الإسلامية نجدها متخلفة عن أعدائها ، تأتي دائماً في المؤخرة : فلا هي تملك مصادر السلاح ، ولا هي تسعى في طريق امتلاك تلك المصادر ، وقد سبقها الأعداء في تطوير مصادر القوة لديهم وإعداد أفرادهم وتدريبهم ، مما هو معلوم ومشاهد ، وهو أبين من أن نسهب في وصفه وتفصيله .

وهذا القصور في الإعداد بشقيه المادي والمعنوي يقابله قصور من الكتاب والباحثين المسلمين في كتاباتهم عن هذا المجال ؛ فإنك لا تكاد تجد في المكتبة العربية بحثاً وافياً مستفيضاً جمع بين شقي الإعداد المادي والمعنوي في كتاب مستقل جامع ، وإنك لواجد ذلك متناثراً ضمن مباحث مختصرة غير وافية هنا وهناك ، بعضها لم يخلُ من خلط ما هو من الإسلام بما ليس منه . وبعضهم استمد كتاباته مما كتبه المفكرون الغربيون أو الشرقيون ، والكثير منهم جاءت كتاباته متأثرة بكتابات المستشرقين ؛ فتجده قد انبرى في حماسٍ للدفاع عن نظرة الإسلام إلى الحرب والسلام ، وقد تأثر بحيلِ المستشرقين حينما وصفوا الإسلام بأنه انتشر بحد السيف ؛ فيقع في تلك الشُرُك المنصوبة حينما يصف العقيدة الإسلامية بكونها عقيدة دفاعية ، وينفي عنها طابع الهجومية دون أن يعلم أنه بذلك قد جرى وفق هوى المستشرقين وتدبيرهم ، وهو بذلك يجعل للحرب في الإسلام طابعاً محدداً لا يُخرجها عنه .

وكثير من الكتاب إلا من عصم اللّه ، جرت كتاباتهم عن الإعداد وفق أهوائهم فلم يردوا عن القرآن والسنة فيما كتبوا فجروا بذلك مجرى كتاب الشرق أو الغرب ، ولم يضيفوا بذلك جديداً إلى المكتبة الإسلامية .

من هذا المطلق أمضيت في المكتبات الساعات الطوال باحثاً منقباً عن مؤلفات من كتبوا عن العقائد العسكرية والإعداد المادي والمعنوي ، فما وجدت - فيما وجدت - إلا بحوثاً وكتابات لم تستوعب الموضوع بشقيه ، أو أخرى مالت نحو إحدى كنتيه على حساب الأخرى . ولما كانت مثل هذه الدراسات تدخل في باب الإعداد الذي تؤمر به الأمةُ ، فقد رأيت لزاماً عليَّ أن أشخّص هذا الواقع

المؤلم، حتىٰ يقوم غيري معي بتلمس العلاج له وفق خطة متكاملة وأن أسهم ـ ولو باليسير مما ينعم اللّه عليّ به من جهد ـ في القيام مع من ينوبون عن هذه الأمة في سد هذه الثغرة لتتنبه الأمة الإسلامية إلىٰ مكامن قوتها ومصادرها وتستجيب لنداء ربها الموجَز المعجِز ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾[1].

ولما مَنَّ اللّه عليّ بأن جعلني من ضمن حملة السلاح للدفاع عن ثغور هذه الأمة، كان من تمام توفيقه أن جمع لي السيف والقلم في الجهاد ليتم نعمته عليّ، فجعلني طالب علم مثلما كنت قبل ذلك جندي قتالٍ. وقد أتيحت لي الفرصة بذلك لأتعرف علىٰ طبيعة العمل العسكري والإعداد المادي عن كثب، وأعايشه معايشة يومية، نظراً لطبيعة عملي. ولعل مما يجب عليّ أن أحدث به من نعمة ربي أن جعلني ممن عمل في مجال التوجيه المعنوي؛ لإدراك قيمة الإعداد المعنوي وأهميته للجندي قبل المعركة وأثناءها؛ فوقفت بذلك علىٰ أهمية الإعداد بشقيه المادي والمعنوي. ولعل ذلك هو أحد الأسباب التي دفعتني إلىٰ اختيار هذا البحث والكتابة فيه، ثم حفّزني خلوُ المكتبات من سِفْرٍ جامع في الإعداد المادي والمعنوي؛ إذ لم أحصل علىٰ كتاب مستقل جمع بينهما، وإنما يتعرض لهما بعض من كتب عن الجهاد بالشيء اليسير، فأردت أن يُضاف إلىٰ المكتبة العربية الإسلامية بحثٌ يجمع بين الإعداد بنوعيه فينهل من معين القرآن والسنة ويجعلهما مصدره في الورود والصدور.

ومثلما حفزني خلو المكتبات من أمثال هذه المؤلفات أو قلة المادة العلمية في الموجود منها، فقد أضاف ذلك إلىٰ أعباءِ الكتابة عبئًا جديداً؛ إذ سبقني الكثير من الكتاب عن الإعداد، ولكن القليل منهم من كان يرد في ذلك عن القرآن والسنة، فكان واجبًا عليّ أن أستعرض بين يدي البحث بعض كتابات من كتبوا عن الإعداد أو العسكرية الإسلامية، خصوصاً من كتابنا العسكريين أو الذين أسهموا في هذا المجال بأكثر من مصنف واحد، فاستعرضت بعض ما كتبوا، وبينت بعض ملاحظاتي عليها. ولقد كان لتشجيع أستاذي المشرف وتوجيهاته أثر كبير في أن يخرج هذا البحث إلىٰ النور.

وقد رأيت أن يكون موضوع البحث هو: (**الإعداد المعنوي والمادي للمعركة في ضوء القرآن والسنة**) ليتميز بذلك عما سواه من مؤلفات عن أنواع الإعداد التي استندت إلىٰ غير الكتاب والسنة ولم تجعلهما مصدرين أساسيين

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٠.

تعتمد عليهما وترجع إليهما .

ولما كان الإعداد بطبيعة الحال ذا شقين : معنوي ومادي ، **فقد جعلت البحث يتألف** من بابين :

الباب الأول عن الإعداد المعنوي للمعركة **والباب الثاني** عن الإعداد المادي للمعركة ، وقدمت لهما بتمهيد ولخصتهما بخاتمة .

التمهيد كان عن الحرب والسلام في الإسلام، تعرضت فيه لتعريف السلام وما يعنيه، والحرب وما يرادفها من القتال والغزو والجهاد، ثم استعرضت علاقة الإسلام بالحرب والسلام، فذكرت أهداف الحرب في الإسلام، وعلاقة الإسلام بالسلام، واستعرضت بعض أقوال العلماء والمفسرين حول مفهوم السلام في الإسلام بين دعوىٰ النسخ وعدمه، وحول طبيعة الحرب في الإسلام: هل هي هجومية أم دفاعية .

أما **الباب الأول** فقد كان عن الإعداد المعنوي للمعركة، وجاء مشتملاً علىٰ خمسة فصول :

١ ـ **الفصل الأول** ويتناول المبادئ الأساسية للعسكرية الإسلامية وقسمته إلىٰ أربعة مباحث: فكان المبحث الأول عن العقيدة العسكرية، تعرضت فيه لكتابات بعض المعاصرين وتعريفاتهم للعقيدة العسكرية، فبينت بعض الخلط الذي وقع فيه أولئك الكتاب حينما لم يفرّقوا بين ما هو عقيدة وما هو ركن من أركان العقيدة، وكيف أن كثيراً منهم نحا منحىٰ التقليد لكتابات الشرقيين أو الغربيين. ثم عرّفتُ العقيدة العسكرية الإسلامية، وبينت لماذا فضلت استخدام كلمة (المبادئ) علىٰ كلمة (العقيدة). وتحدثت في المبحث الثاني عن بواعث الحرب في الإسلام التي من أجلها ينفر المسلمون، وبينتُ أن الدين أوجب ما ينبغي الدفاع عنه؛ لأن بقية القيم الأخرىٰ من أموال وأنفس وأعراض وأوطان تأتي تباعاً لحماية العقيدة وتأمينها، فإذا حُميت العقيدة ساد العدل والسلام وحميت بقية القيم الأخرىٰ. أما المبحث الثالث فقد كان عن غايات الحرب في الإسلام التي لأجلها تراق الدماء ويُحمل السلاح. وفي المبحث الرابع تحدثت عن القيم الإسلامية التي أعلىٰ الإسلام من شأنها وحضّ علىٰ المحافظة عليها وحرص علىٰ إقامتها وكان من ضمن بواعث الحرب والسلام في الإسلام، المحافظة علىٰ تلك القيم وترسيخها في المجتمعات من عدل ومساواة، ووفاء بالعهود والمواثيق واحترام للإنسانية وتكريم للبشرية ورفع شأن الأخوة في اللّه .

أما **الفصل الثاني** فقد كان عن تزكية النفس وجاء في ثمانية مباحث: اشتمل المبحث الأول منها على معنى التزكية والمراد منها وأهميتها للفرد المقاتل وكونها أساسية في إعداده للدخول للمعركة. ثم توالت المباحث السبعة الباقية في استعراض ركائز تزكية النفس وتطهيرها وإعدادها: فتناول المبحث الثاني عن حب اللَّه والحب في اللّه وكونه من أساسيات الإيمان وشروطه، وهو من أهم ما يحتاج إليه العسكري المسلم ليكون هواه تبعًا لما جاء عن اللَّه ورسوله. وتناول المبحث الثالث الإيثار وتقديم الغير على النفس وكونه من أعظم أسباب تهيئة الأمة لتتحد ضد أعدائها. وأختص المبحث الرابع الصبر والمصابرة وهما عدة الجندي وعتاده المعنوي الذي يستعين به على لأواء القتال ويحقق به النصر على الأعداء. أما المبحث الخامس فقد كان عن الترغيب في الشهادة، وفيه استعرض الباحث فضل الشهيد وما يلقى من الكرامة والنعيم الأبدي وكيف رفع الإسلام من شأن الشهداء ومنزلتهم في الدنيا والآخرة. وأحتوى المبحث السادس الترهيب من المعاصي؛ لأنها تفتح أبواب الهزيمة، وهي أشد على الجندي من أعدائه، ومن تلك المعاصي الكفر والفسوق والرياء وحب الجاه والرئاسة والحسد، وغير ذلك، من الرذائل. وتناول في المبحث السابع الترهيب من الخيانة وكونها صفة ذميمة يترفع عنها المسلم، وإذا كان الإسلام يريد للبشرية أن ترتفع وتسمو فهو لا يبيح الغدر في سبيل الغلب، ولا يستخدم أخس الوسائل في سبيل أسمى الغايات وأشرف المقاصد. وتناول المبحث الثامن الترهيب من التولي يوم الزحف؛ إذ إنه جُبن ونكوص وخُلق ذميم يتنافى مع الرجولة الحقة ويتناقض مع ما يدعو إليه الجندي ويقاتل في سبيله.

أما **الفصل الثالث** فقد كان عن تهيئة الأمة للمعركة واشتمل على خمسة مباحث: تناول المبحث الأول ترغيب الأمة في الجهاد والبذل والتضحية، وتناول المبحث الثاني التهوين من قوة العدو من حيث فساد الغاية التي يحارب من أجلها، ويقابله المبحث الثالث عن إعلام الأمة بأن شرف الغاية التي يقاتلون من أجلها يستوجب الصبر على ما يصيبهم. واحتوى المبحث الرابع إعلاء شأن الشهداء وكفالة أُسَرِهم وتحدثَ عن الطرق والوسائل التي تُحيي ذكرى الشهداء بيننا وتحسن إلى ذويهم وتُعلي من شأنهم: أما المبحث الخامس فقد كان عن إنقاذ المستضعفين وفداء الأسرى.

و في **الفصل الرابع** عرض الباحث الحرب النفسيةوآثارها واشتمل الفصل

علىٰ أربعة مباحث: استعرض المبحثُ الأول منها مفهومَ الحرب النفسية ونشأتها ومراحلها وأنواعها من دعاية سافرة ومستترة وشائعات وأزمات. واستعرض المبحث الثاني أسس وأهداف الحرب النفسية وأساليبها المختلفة باختلاف نوع الدولة التي توجه إليها تلك الحرب. واستعرض المبحث الثالث وسائل الحرب النفسية: من إظهار للتفوق الحربي واستخدام للدعاية المضادة وتأثيرها في الجبهتين الداخلية والخارجية، وذكر أساليب تطبيقات الحرب النفسية في عهد النبي - صلىٰ اللَّه عليه وسلم - المبحث الرابع استعرض الحديث عن طرق الوقاية من الحرب النفسية.

وأما **الفصل الخامس** فقد تناول عن التحريض علىٰ القتال، واحتوىٰ علىٰ ثلاثة مباحث كان المبحث الأول يختص بتعريف التحريض ومشروعيته وأهميته، واستعرض المبحث الثاني أساليب التحريض علىٰ القتال من ترغيب وترهيب ومبالغة وغير ذلك. أما المبحث الثالث فقد قدم نماذج من التحريض علىٰ القتال واستمدها من التاريخ الإسلامي الحافل بالروائع الخالدة.

وقد تناول **الباب الثاني** من هذا البحث عن الإعداد المادي للمعركة، واشتمل علىٰ تمهيد وخمسة فصول:

تحدث التمهيد عن القوة في الإسلام، فاستعرض معانيها وأسبابها وأنواعها، ثم تحدث الفصل الأول عن نوع من أنواع القوة وهو الاستراتيجية والتخطيط والتنظيم، فكان محتويًا علىٰ ثلاثة مباحث: المبحث الأول عن الاستراتيجية العسكرية، فعرّف الاستراتيجية وتحدث عن مفهوم الاستراتيجية العسكرية الإسلامية، وكان المبحث الثاني عن التخطيط للمعركة فبين عناصرها المختلفة وأورد نماذج تطبيقية لبعض المعارك. وأما المبحث الثالث فكان عن التنظيم، حيث عرضت مراحله ومبادئه وملامحه في الجيوش الإسلامية.

أما الفصل الثاني فقد كان عن التجنيد والتدريب واحتوىٰ علىٰ مبحثين: المبحث الأول عن التجنيد، استعرض فيه الجندية وشروط التجنيد التي وردت في الإسلام، ثم استعرض التجنيد في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب - رضي اللَّه عنه - كنموذج للجندية في الإسلام، وأما المبحث الثالث فكان عن التدريب وأهمية التدريب العسكري في الجيوش الحديثة ومراحل التدريب وأنواعه؛ مثل تدريب اللياقة (التربية البدنية)، وحيث تم شرح أنواعها

مصحوبة بالصور التوضيحية والرسوم وكذلك تدريبات الدفاع عن النفس ورياضاتها المختلفة، ثم استعرضت الدراسات النظرية العسكرية التي تزود العسكريين بالمعلومات النظرية والخبرات الفنية، كما استعرضت عن التطبيقات العملية الميدانية.

أما الفصل الثالث فقد كان عن القيادة، واشتمل على خمسة مباحث: تحدث المبحث الأول عن أهمية القيادة وضرورتها للحياة العسكرية، وتحدث المبحث الثاني عن اختيار القادة والمأثور في ذلك، واستعرض المبحث الثالث صفات القائد التي تؤهله لتولي القيادة، أما المبحث الرابع فقد حدد العلاقة بين القائد وجنوده، وطرق معاملة القادة لمرؤوسيهم وأنواع القيادة، وحض على المحافظة على هيبة القائد وشخصيته. أما المبحث الخامس فقد تم إفراده للحديث عن الشورى؛ لكونها من أهم دعائم القيادة الناجحة التي تنأى بالقرارات عن الزلل وتجنب القائد مزالق الاستبداد بالسلطة والانفراد بالرأي، فعرّفتُ الشورى وبيّنتُ أهميتها وحكمها وأوردنا نماذج من الاستشارات في العهد النبوي والخلافة الراشدة، ثم عرضت تطبيقات مبدأ الشورى في النظام العسكري الحديث.

وفي الفصل الرابع تم استعراض إعداد المعلومات للمعركة، وقد جاء محتويًا على ثلاثة مباحث: المبحث الأول عن العيون والعملاء وأهميتهم في جمع المعلومات ورصد الأعداء، وهدي النبي - ﷺ - في اختيار العيون، وعُرضت بعض نماذج من العيون ودورهم في التأريخ الإسلامي كما تم استعراض أنواع العملاء ونماذجهم. وأما المبحث الثاني فقد كان عن الطلائع والسرايا، عرّفت فيه الطلائع وذُكرت فيه نماذج ثم عُرفت السرايا مع نماذج لسرايا الاستطلاع وجمع الأخبار ووسائل إخفاء المعلومات من استخدام الرموز والشفرات وتعلم لغة الأعداء. وقد أفرد مبحثًا مستقلاً عن الاستخبارات هو المبحث الثالث، حيث تم فيه تصنيف الاستخبارات حسب مجالاتها مع ذكر مصادر المعلومات في الاستخبارات والتحدث عن الاستخبارت المضادة ومكافحة التجسس والإجراءات المتبعة في ذلك.

أما الفصل الخامس فقد تناول التسليح والتحصين واحتوى على مبحثين: المبحث الأول عن التسليح، مشروعيته واهتمام النبي - ﷺ - بالتسليح، ثم

كيفية صناعة الأسلحة وحاجة الأمة الإسلامية إلى الحصول على السلاح الفعال وأهمية التسليح في المعارك الحديثة والعوامل المؤثرة في التسليح، ثم استعرضت أنواع الأسلحة القديمة من سيف ورمح وقوس، والدروع وأنواعها، وخلافه. وفي المبحث الثاني استعرض التحصين في مطلبين: المطلب الأول عن التحصينات الدائمة بأنواعها، القديم منها والحديث، وعن الحماية في العصر النووي، و في المطلب الثاني التحصينات الميدانية القديمة، والتحصينات الميدانية المتطورة الدفاعية من خنادق ودشم خرسانية مسلحة وحقول ألغام وشبكات إنذار وكمامات الغاز، وغير ذلك من التحصينات الوقائية.

وقد أُفرد للبحث خاتمة حيث استعرضت فيها نتائج البحث وما توصلت إليه، حيث تم تلخيصها في نقاط لتمام الفائدة، كما أفردت قائمة بالمصادر والمراجع العربية والأجنبية التي تم الرجوع إليها في الدراسات السابقة والحديث بأسماء مؤلفيها مرتبة حسب حروف المعجم، وقد فهرست الآيات القرآنية التي وردت ضمن سياق البحث مرتبة حسب حروف المعجم وكذلك الأحاديث النبوية، كما تضمن البحث ملحقًا عن تراجم الأعلام، وفُهرستُ الرسوم والأشكال التوضيحية حتى يسهل الرجوع إليها كما فُهرست موضوعات البحث.

وبعد:

لقد اراد الباحث بهذا البحث أن يسهم ولو باليسير في تنبيه الأمة إلى مكامن قوتها وأسباب عزتها بالاستجابة إلى أمر ربها في قوله عز وجل: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ** ﴾ [**الأنفال**:٦٠] فإن وفقه الله لذلك فبفضل الله ورحمته وإن قصر وأخطأ فذلك من نفسه، ويستغفر الله العظيم على ذلك كما يسأل الله سبحانه أن يجعل هذا الجهد خالصًا لوجهه الكريم ويثيب به كل من أسهم فيه ولو بالقدر اليسير، وأن ينفعنا بما علمنا ويرزقنا العمل به والإخلاص فيه، إنه سميع مجيب، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المؤلف

د. فيصل جعفر بالي

التمهيد :

الحرب والسلام في الإسلام

التمهيد

الحرب والسلام في الإسلام

إن الإسلام يعتبر الإعداد للمعركة أمرًا بالغ الحيوية، وله عظيم الأهمية.

وليس في الإعداد واتخاذ الحيطة، ما يوُهم أن الإسلام مولع بالحروب وإشعال نارها كما يروج أعداء الإسلام والمفترون عليه، وإنما الإعداد ليكون وسيلة إلى ردع العدو ومنعه من الاعتداء؛ وبذلك يكون الإعداد سببًا للسلام دون الدخول في معركة، ولكن إذا اقتضى الأمر ولم يكن من الحرب مفر، فيكون المسلمون على استعداد كي لا يؤخذوا على غرة.

ولنا من معارك رسول الله - ﷺ - أوضح دليل على ما ذُكر، فلقد قاد رسول الله - ﷺ - ثمانٍ وعشرين غزوة ضد المشركين، نشب القتال في تسع منها فقط وهي: (بدر، أحد، الخندق، بنو قريظة، بنو المصطلق، خيبر، فتح مكة، حنين، الطائف) بينما فر الأعداء في تسع عشرة غزوة دون قتال.

ومن حروبه - ﷺ - ومسالمته في بعض هذه الغزوات نرى أن نبين أن موقف الإسلام من الحرب والسلام كتمهيد بين يدي موضوعنا.

فمنذ خلق الله آدم - عليه السلام - وأنزله إلى الأرض أطلت الحرب برأسها لتعكر صفوًا كان بين شقيقين، وهما ابنا آدم - عليه السلام - قابيل وهابيل. يحدثنا القرآن الكريم فيقول: ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ (١).

المبحث الأول: السلام وما يعنيه:

السلام في الأصل: البراء من العيوب والآفات. والسلام: السلامة. والسلام: الاستسلام، والسلام: الاسم من التسليم.

---

(١) سورة المائدة: الآيات ٢٧ - ٣٠.

والسلم : ـ بكسر السين وفتحها ـ : الصُّلْحُ . يذكر و يؤنث ، وسَالَمَهُ مسَالمة وسلامًا .

والسلم : الإسلام . والسلام : التحية عند المسلمين ، والسلام : الأمان والصلح . ويطلق السلام اسمًا لمكة ــ شرفها اللّٰه ــ وكذلك هو اسم لبغداد . ودار السلام : الجنة ، وتَسَالما من السِّلم مثل تَصَالحا من الصلح ، وسالما مسالمة : صالحا ، ومنه الحديث « أَسْلَمُ سَالَمَهَا اللّٰهُ » (١) . هو من المسالمة وترك الحرب ، والسلام : اسم من أسماء اللّٰه تعالىٰ لسلامته من النقص والعيب ، وانتقد السهيلي هذا التأويل في شرحه قول خديجة ـ رضي اللّٰه عنها ـ : « اللّٰه السلامُ ومنه السلامُ ، وعلىٰ جبريلٍ السلامُ » حيث قال : علمي بفقهها أن اللّٰه سبحانه لا يُرَدُّ عليه السلام كما يُردُّ علىٰ المخلوق ؛ لأن السلام دعاء بالسلامة فكان معنىٰ قولها « اللّٰه السلام » : فكيف أقول عليه السلام ، والسلام منه يُسأل ومنه يَأتي ؟ فلا يليق باللّٰه ــ سبحانه تعالىٰ ــ إلا الثناء عليه ، والفرق بين السلام والسلامة فرق عظيم بينما أكثر أهل اللغة يقولون إنهما بمعنىٰ واحد ، فالرضاعة تقع علىٰ الرضعة الواحدة والرضاع أكثر من ذلك ، والجلال أعمُّ من الجلالة ، واللّذاذُ أبلَغُ من اللّذاذَة ، وتسمىٰ ـ سبحانه ـ بالسلام لِما شمل جميعَ الخليقة وعمَّهم بالسلامة من الاختلال والتفاوت ، وكذلك سلِم الثقلان من جور وظلم أن يأتيهم من قبله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ فهو ـ سبحانه ـ في أفعاله سلام ، لا حيف ولا ظلم ولا تفاوت ولا اختلال ، وإنما السلام من سُلِمَ منه والسالم من سَلِمَ من غيره (٢) وانظر إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا ﴾ (٣) وقوله تعالىٰ : ﴿ سلامٌ هِي ﴾ (٤) ولا يُقال سالم في الحَجَرِ أنه سالم من الزكام أو من السعال ، وإنما يُقال سالم فيمن تجوز عليه الآفة ويتوقعها ثم يسلم منها ،

---

(١) محمد مرتضىٰ الزبيدي ـ تاج العروس من جواهر القاموس (٨ : ٣٣٨) ـ ٣٤٠) و«أسلم سالمها الله» جزء من حديث رواه الترمذي في سننه ٥ : ٧٣٢ برقم ٣٩٤٨ وتكملة الحديث (وغفار غفر الله لها) وقد حكم الترمذي بصحته . انظر سنن الترمذي ، تحقيق إبراهيم عطوة عوض طبعة دار إحياء التراث العربىٰ .

(٢) السهيلي ـ الروض الآنف ، ومعه السيرة النبوية لابن هشام (١ : ٢٧٩ ـ ٢٨٠) (١ : ٢٦٥) طبعة دار الفكر .

(٣) سورة الأنبياء : الآية ٦٩ .

(٤) سورة القدر : الآية ٥ .

والقدوس ـ سبحانه ـ متعالٍ عن وقوع الآفات، متنزهٌ عن جواز النقائص، ومن هذه صفته لا يقال سلم ، ولا يتسمىٰ بسالم ، وهم قد جعلوا سلامًا بمعنىٰ سالم، والسلامة خصلة واحدة من خصال السلام[1]

المبحث الثاني : الحرب وما يرادفها

الحرب لغة : القتال بين فئتين، مؤنثة وقد تذكر علىٰ معنىٰ القتال، وجمعها حروب، والحرب: القتل، والحرب : نقيض السلم ، ويعنون به القتال. والحرب : السَّلَب، وفي الحديث: «المَحروبُ مَن حُرِبَ دينُهُ»[2]. والحرب : المعصية ، يؤخذ من قوله تعالىٰ : ﴿يُحَارِبُونَ اللَّهَ ورَسُولَهُ﴾[3] وقال بعض أهل اللغة : الحرب هو الترامي بالسهام ثم المطاعنة بالرماح ثم المجالدة بالسيوف. والتحريب : إثارة الحرب[4].

أما الحرب اصطلاحًا : فهي صراع مسلح بين دولتين أو فريقين من الدول يكون الغرض منها الدفاع عن حقوق ومصالح الدولة المتحاربة[5].

وهناك تعريف للحرب العادلة : وهي التي توجه ضد شعب ارتكب ظلمًا نحو شعب آخر لم يشأ رفعه ، ويشترط فيها أن تكون مطابقة للقواعد الإنسانية، وتكون لغرض تحقيق سلم دائم، كما يشترط فيها وجوب احترام حياة الأبرياء وأملاكهم، وحسن معاملة الأسرىٰ والرهائن[6].

ومن مرادفات الحرب : القتال ، والغزو، والجهاد.

فالقتال لغةً : مِن قَاتَلَهُ مُقاتَلَةً وقتالاً : حاربه ودافعه. وفي حديث المار بين

---

(١) ابن هشام ـ الروض الآنف في تفسير السيرة النبوية، بتصرف واختصار، (١ : ٢٧٩ ـ ٢٨٠ ـ ٢٨١) طبعة دار الفكر، بيروت.

(٢)الزبيدي ـ تاج العروس (١ : ٢٠٥)، وقد نقل الزبيدىٰ عن الزمخشري حديث «المحروب من حرب دينه» فأورده ضمن السياق ولم أجده في الصحاح ولا السنن ولا غريب الحديث. الراغب ـ المفردات (ص ١١٢)، الأزهري ـ تهذيب اللغة (٥ : ٢١ ـ ٢٢).

(٣) سورة المائدة : الآية ٣٣.

(٤) الزبيدي ـ تاج العروس (١ : ٢٠٥).

(٥) وهبة الزحيلي ـ آثار الحرب في الفقه الاسلامي (٣٥).

(٦) محمود شيت خطاب ـ الرسول القائد (ص٣٩).

يدي المصلي قوله ـ ﷺ ـ « **فَلْيُقَاتِلْهُ فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ** »[١] وقتله قتلاً : أماته، ويقال : قتل اللهُ فلانًا : دفع شره، وقاتل الله فلانًا : لعنه الله، ومنه قوله تعالى : ﴿ **قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ** ﴾[٢].

والغزو لغةً : الخروج لمحاربة العَدُوِّ. يُقال غَزَا العدوَ غَزْوًا : سار إلى قتالهم وانتهابهم في ديارهم.

والجهاد لغةً : بذل الجهد واستفراغ الوسع. قال صاحب اللسان نقلاً عن الزمخشري : جاهد العدو مجاهدة وجهادًا : قاتله، وهو المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل[٣].

أما تعريف الجهاد شرعًا : فعرّفه الحنفية بأنه : بذل الوسع والطاقة بالقتال في سبيل الله ـ عز وجل ـ بالنفس والمال واللسان أو غير ذلك، أو المبالغة في ذلك[٤] وبأنه الدعاء إلى الدين الحق وقتال من لم يقبله[٥] وعرّفه المالكية بأنه : قتال مسلم كافرًا غير ذي عهد لإعلاء كلمة الله تعالى[٦]. وهو كذلك عند الشافعية : قال الحافظ ابن حجر : (وشرعًا بذلُ الجهد في قتال الكفار)[٧]. وعرفه الحنابلة : بأنه قتال الكفار[٨].

وأشمل هذه التعريفات ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ حيث قال : (والجهاد هو بذل الوسع ـ وهو القدرة ـ في حصول محبوب الحق ودفع ما يكرهه الحق) وذكر في موضع آخر أن الجهاد (حقيقته الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان[٩].

---

(١) أبو داود ـ السنن (١ : ٢٦٠) ح ٦٩٧. وهذا الحديث رواه الجماعة إلا الترمذي وابن ماجة، انظر الشوكاني ـ نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار (٣ : ٧) طبعة البابي الحلبي، مصر.

(٢) سورة المنافقون : الآية ٤.

(٣) محمد بن مكي بن منظور ـ لسان العرب ـ، مادة جهد، وانظر الزمخشري ـ أساس البلاغة (١ : ٧٨). والجهاد هو (قتال الكفار خاصة) انظر أصل التعريف في كشاف القناع لمنصور البهوتي، تحقيق هلال مصيلحي، طبعة عالم الكتب بيروت ١٤٠٣هـ (٣ : ٣٢)، وانظر حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع للشيخ عبد الرحمن بن قاسم (٤ : ٢٥٣).

(٤) الكاساني ـ بدائع الصنائع (٩ : ٤٢٩٩).

(٥) ابن عابدين ـ حاشية رد المحتار (٤ : ١٢١) الشوكاني ـ فتح القدير (٥ : ٣٦).

(٦) الدردير ـ الشرح الصغير على أقرب المسالك (٢ : ٢٦٧).

(٧) ابن حجر ـ فتح الباري (١٠ : ١٩١ ـ ١٩٢).

(٨) د. عبد الله بن أحمد القادري ـ الجهاد في سبيل الله حقيقته وغايته (١ : ٤٩).

(٩) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى (١٠ : ١٩١ ـ ١٩٢).

(١) حسن البنا ـ السلام في الإسلام (ص٢٩).

المبحث الثالث : علاقة الإسلام بالحرب والسلام

المطلب الأول : علاقة الإسلام بالحرب .

الحرب ضرورة اجتماعية تُقدر بقدرها ، هكذا هي في نظر الإسلام ، والحرب شر لابد منه إذا احتيج إليها لدرء الشر بالشر .

يقول الشاعر :

وَالشَّرُ إنْ تَلْقَهُ بالخَير ضقْتَ به ... ذَرْعاً وإنْ تَلْقَهُ بالشَّرِ يَنْحَسِمِ
وَالنَّاس إنْ ظَلَمُوا البُرْهَانَ وَاعْتَسَفُوا ... فَالَحْرُب أَجْدَى عَلَى الدُّنْيَا مِنَ السَّلَمِ

فالحرب شر ؛ لا يفتح الإسلامُ بابَه، ولا يهيج نارَه، ولكن مع هذا فالإسلام يواجه واقعًا لا مفرّ منه ؛ فالحياة مملوءة بالنفوس التي لها أهواء ومطامع وميول ونوازع، وهناك بغي وظلم وعدوان ، وإفساد في الأرض، وإزعاج الآمنين، وتسلط عليهم، وإذلال لهم . إذن فلابد من الحرب لردع المعتدي وكف الظالم ، ونصرة المظلوم ، وتأمين الخائف ، ففي هذه الحالة تكون فضيلة من أسمى الفضائل[1] . وفي هذا يقول اللّه تعالى : ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ [2]

وقد يتبادر إلى الذهن أن الحرب شرٌ في كل أحوالها ولكنها قد تكون خيراً لما تحققه من مصالح ضرورية ، مثلها مثل عملية جراحية تتوقف عليها حياة مريض ؛ فمع ما يصحبها من الألم لكنها تؤدي إلى خير . وصدق اللّه العظيم إذ يقول : ﴿ **وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [3] ولقد ذكر اللّه سبحانه وتعالى كلمة (الحرب) في كتابه العزيز أربع مرات بمعنى (القتال) وهذه الآيات هي [4] .

١ـ قوله تعالى : ﴿ **كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ** ﴾[5] وهذه الآية وردت في سياق وصف اليهود وإثارتهم للفتن المستمرة، وسعيهم للفساد في الأرض .

---

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥١ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢١٦ .

(٤) محمد فؤاد عبد الباقي ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ١٩٦ .

(٥) سورة المائدة : الآية ٦٤ .

(١) سورة الأنفال : الآية ٥٧ .

٢ ـ قوله تعالىٰ : ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾[١] وقد جاءت هذه الآية في سياق من يعاهدون المسلمين على السلم ثم يغدرون بهم ويشهرون الحروب، وقد سبقها قول الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ ﴾ [٢]. فهو بيان واضح على أن نقض العهد صار دأبًا لهؤلاء الكفار وعادة، وقد تكرر منهم غير مرة، فهؤلاء ينبغي أن ينزل بهم عقاب يكون عبرة لغيرهم حتىٰ تحترم العهود والمواثيق.

٣ ـ قوله تعالىٰ : ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ [٣]. فهذه الآية تعالج بعض الآثار المترتبة علىٰ نشوب الحرب بين المسلمين والكفار.

٤ ـ قوله تعالىٰ : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [٤]. وهذه الآية لا تعلّق لها بالحرب الاصطلاحية، وهي نشوب القتال بين طرفين؛ ولكن معناها هنا غضب الله وعقابه الذي ينزل على من يخالف أمره.

والغزو : الخروج في سبيل الله، في قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِ الغَازِي شَيْءٌ» [٥].

ثم ذكر ـ سبحانه وتعالىٰ ـ الغزو في آية واحدة في قوله تعالىٰ : ﴿ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى ﴾ [٦]، وغُزَّىٰ ـ بضم الغين وتشديد الزاي ـ جمع لغازٍ، سواء كان غزوهم في وطنهم أو في بلاد أخرىٰ [٧]. وكلمة القتال جاءت في عشر آيات، وأما مادتها، فجاءت في آيات كثيرة ومقيدة بكونه في سبيل الله [٨]، وكذلك كلمة الجهاد جاءت في أربعين موضعًا في القرآن الكريم، غالبًا ما تكون مقيدة بكونه في سبيل الله[٩]، ولقد كان لورود كلمة

---

(٢) سورة الأنفال : الآيتان ٥٥ ـ ٥٦.

(٣) سورة محمد : الآية ٤.

(٤) سورة البقرة : الآية ٢٧٩.

(٥) ابن ماجة ـ سنن ابن ماجة (٢ : ٩٢٢) ح ٢٧٥٩ كتاب الجهاد، باب من جهز غازيًا.

(٦) سورة آل عمران : الآية ١٥٦.

(٧) رشيد رضا ـ تفسير المنار (٤ : ١٩٤).

(٨) محمد فؤاد عبد الباقي ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة قتل (ص٥٣٣ ـ ٥٣٦) ومادة جهد (١٨٢ ـ ١٨٣).

(٩) أبو الأعلى المودودي ـ الجهاد في سبيل الله (ص١٢).

(١) انظر : محمد فؤاد عبدالباقي ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٥٣٥ ـ ٥٣٦.

الجهاد في سبيل الله والقتال في سبيل الله واختيار الإسلام لهما بدلاً من كلمة الحرب حكمة؛ لأن كلمة الحرب كانت ولا تزال تطلق على القتال الذي يشبُّ لهيبه وتستعر ناره بين الرجال والأحزاب والشعوب لمآرب شخصية وأغراض ذاتية، والغايات التي ترمي إليها أمثال هذه الحروب لا تعدو أن تكون مجرد أغراض شخصية أو اجتماعية لا تكون فيها رائحة لفكرة، أو انتصارٌ لمبدأ[1].

والحرب في الإسلام واجب لغيره؛ لإقامة العدل في الأرض (بتطبيق الشرع الإسلامي) عملاً بقوله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ**﴾[2].

والواجب قسمان: واجب لذاته وواجب لغيره، فالواجب لذاته كالصلاة والصوم، وهو أمر يريد الشارع فعله بعينه، والواجب لغيره هو وسيلة إلى الواجب لذاته، فأداء الصلاة جماعة في المسجد لايتأتّى إلا بالمشي إليها؛ فأصبح المشي واجبًا لغيره، والصلاة واجبة لذاتها[3] ومقدمة الواجب مقدمة وجود ومقدمة وجوب، وهناك ما هو مقدور للإنسان وهو الذي عليه التكليف، وهناك ما هو غير مقدور للإنسان كحولان الحَوْل وزوال الشمس للصلاة فهذه غير مكلف بها، لكن الوضوء للصلاة وإحضار الماء والمشي للصلاة جاء التكليف بها.

أهداف الحرب في الإسلام:

الأصل في الإسلام عصمة الدماء؛ ولهذا كان النبي - صلى الله عليه وسلم - ينهى عن قتل الشيوخ والصبيان والنساء والعسيف والرهبان، و ألا يجهزوا على جريح وألا يلحقوا مدبراً[4].

عن عمرو بن الحمق - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «**أيّما رجلٍ أمّن رجلاً على دمه ثمّ قتله فأنا من القاتل بريءٌ، وإنْ كان**

---

(٢) سورة الأنفال: الآية ٣٩.

(٣) الفرض والواجب - هو ما يثاب فاعله ويستحق العقاب تاركه. انظر الواضح في أصول الفقه للمبتدئين د. محمد سليمان الأشقر ص ٣٤ وانظر شرح الكوكب المنير (١: ٣٥٧) طبعة مركز البحث العلمي جامعة الملك عبد العزيز.

(٤) الشوكاني - نيل الأوطار، باب الكف عن قصد النساء بالقتل (٧: ٢٤٧)، وفي الباب عدة أحاديث منها ما رواه الجماعة إلا النسائي والعسيف: الأجير.

المقتُولُ كـافرًا»[1]. وفي رواية ابن ماجه: «**مَنْ أمَّنَ رَجُلاً عَلَى دَمِه فقتَلَه فإنَّه يَحْملُ لِوَاءَ غَدْرٍ يَوْمَ القِيَامَة**» [2] وعن أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «**من قَتَلَ نَفسًا مُعاهدةً بغَيرِ حقِّها لَم يرح رائحةَ الجنَّة وإنَّ ريحَ الجنَّة لَيُوجَدُ مِنْ مَسيرَةِ مائةِ عَام**»[3] فالإسلام يحرم القتل والحرب ولا يدعو إليهما إلا لغايات وأهداف سامية. دلنا على ذلك الكتاب والسنة. وتتلخص في الآتي:

١ ـ رد العدوان والدفاع عن النفس والأهل والمال والوطن والدين: وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿**وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين**﴾[4] كما أن أول آية نزلت من آيات القتال فيها الإذن في قوله تعالى: ﴿**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير**﴾[5] وروى مسلم والنسائي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال «جاء رجل إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله: أرأيت إن عدي على مالي؟ قال: فانشد بالله. قال: فإن أبوا علي؟ قال: فانشد بالله. قال: فإن أبوا علي؟ قال: فقاتل، فإن قتلت ففي الجنة، وإن قتلت ففي النار»[6].

وروى الترمذي والنسائي وابن ماجة عن سعد بن زيد ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «**من قُتلَ دُونَ مَاله فهو شهيد، ومَنْ قُتلَ دُونَ دمه فهو شهيد، ومَنْ قُتلَ دُونَ دينه فهو شهيد، ومَنْ قُتلَ دُونَ أهْله فهو شهيد**»[7]. وروى البخاري والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «**مَنْ أُريدَ مالُه بغيرِ حقٍ فقاتَلَ فقُتِلَ فهُوَ شهيدٌ**»[8].

---

(١) المنذري ـ الترغيب والترهيب (٤ : ١٢).

(٢) ابن ماجة ـ سنن ابن ماجة (٢ : ٢١) ح ح ٢٦٨٨.

(٣) المنذري ـ الترغيب والترهيب (٤ : ١٢).

(٤) سورة البقرة: الآية ١٩٠.

(٥) سورة الحج: الآية ٣٩.

(٦) حسن البنا ـ السلام في الإسلام (ص٥٢) والحديث رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره بغير حق كان القاصد مهدر الدم في حقه، انظر مسلم بشرح النووي (١ : ١٢٤)، ورواه النسائي في كتاب تحريم الدم باب ما يفعل من تعرض لماله (٧ : ١١٤)، وأحمد في مسنده (٢ : ٣٣٩ ـ ٣٦٠) واللفظ هنا للنسائي.

(٧) الترمذي ـ سنن الترمذي (٤ : ٢٨) ح ١٤١٨، وكذلك (٤ : ٢٩) ح ١٤٢٠ ابن ماجة ـ سنن ابن ماجة (٢ : ٨٦١ ـ ٨٦٢) باب من قتل دون ماله ح ٢٥٨٠، ٢٥٨١، ٢٥٨٢، والنسائي باب من قتل دون ماله (٧ : ١١٤ ـ ١١٥).

(٨) البخاري ـ الجامع الصحيح (٣ : ١٧٩) والترمذي ـ سنن الترمذي (٤ : ٢٩).

٢ ـ تأمين حرية الدين والاعتقاد للمؤمنين : الذين يحاول الكافرون أن يفتنوهم عن دينهم ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ **يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل** ﴾[١] .

٣ ـ حماية الدعوة حتى تبلغ الناس جميعًا : ويتحدد موقفهم منها تحديدًا واضحًا ، وذلك أن الإسلام جاء للناس جميعًا ، يقول الله تعالى : ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا** ﴾[٢] فيجب علينا إبلاغ الدعوة لجميع الناس وأن نزيل كل عقبة تقف في طريق التبليغ ، ولا نكره أحدا على قبول الدعوة أو الدخول في الإسلام . يقول الله تعالى : ﴿ **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي** ﴾[٣]

٤ ـ تأديب ناكثي العهد من المعاهدين أو الفئة الباغية على جماعة المؤمنين ، التي تتمرد على أمر الله وتأبى حكم العدل ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ **وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون (١٢) ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين** ﴾[٤] .

ويقول تعالى : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين** ﴾[٥] .

٥ ـ إغاثة المظلومين من المؤمنين : أينما كانوا ، والانتصار لهم من الظالمين ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ **والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير** ﴾[٦] فالإسلام لا يجيز الحرب لغير ما ذكر ؛ ليحمي السلام ، ويكون حارسًا لحماه من أهل البغي والعدوان ، ولذلك

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢١٧ .
(٢) سورة سبأ : الآية ٢٨ .
(٣) سورة البقرة : الآية ٢٥٦ .
(٤) سورة التوبة : الآيتان ١٢ ـ ١٣ .
(٥) سورة الحجرات : الآية ٩ .
(٦) سورة الأنفال : الآية ٧٢ .

يقول اللّه تعالىٰ : ﴿ **يا أيُّها الَّذين آمنوا إذا ضرَبْتُمْ في سَبيلِ اللّه فتبيَّنوا ولا تقُولُوا لمَنْ ألقَىٰ إليكُمُ السَّلام لسْتَ مؤمنًا تبْتغُون عرضَ الحياة الدُّنيا فعند اللّه مغانمُ كثيرةٌ كذَلك كُنتُم من قبْلُ فمنَّ اللّهُ عليْكُم فتبيَّنُوا إنَّ اللّه كان بما تعْمَلُون خبيرًا** ﴾ (١) .

وسبب نزول هذه الآية ماجاء في سنن ابن ماجة عن عمران بن حصين قال : بعَثَ رسول اللّه - ﷺ - جيشًا من المسلمين إلىٰ المشركين فقاتلوهم قتالاً شديدًا فمنحوهم أكتافهم فحمل رجل من لحمتي علىٰ رجل من المشركين بالرمح فلما غشيه قال : أشهد أن لا إله إلا اللّه ، إني مسلم . فطعنه فقتله ، فأتىٰ رسول اللّه - ﷺ - فقال يا رسول اللّه : هلكتُ . قال : وما الذي صنعتَ؟ مرّة أو مرّتين ، فأخبره بالذي صنع ، فقال له رسول اللّه - ﷺ - : « **فهلا شَقَقْتَ عَنْ بَطْنه فعَلمْتَ مَا في قَلْبه ؟!** » قال : يا رسول اللّه لو شَقَقْتُ بطْنَهُ لَكُنْتُ أعْلَمُ مَا في قَلْبه؟ قال : **فَلا أنتَ قَبلْتَ مَا تكَلَّمَ به ولا أنتَ تعلَمُ ما في قَلْبه** . » قال : فسكت عنه رسول اللّه - ﷺ - فلم يلبث إلا يسيرًا حتىٰ مات فدفَنَّاه فأصبح علىٰ ظهر الأرض ، فقالوا : لعل عدوًا نبشه . فدَفَنَّاه ثم أمرنا غلماننا يحرسونه ، فأصبح علىٰ ظهر الأرض ، فقلنا : لعل الغلمان نعسوا . فدفناه ثم حرسناه بأنفسنا فأصبح علىٰ ظهر الأرض فألقيناه في بعض تلك الشعاب . وقيل إن القاتل أسامة بن زيد ، والمقتول مرداس بن نهيك الغطفاني ثم الغزواني من بني مُرَّة من أهل فَدَك (٢) فنزلت الآية الكريمة توضح لنا فضيلة التثبت والتأني قبل الحكم علىٰ الناس بالكفر بدون تدبر وروية ، وتنهانا عن أن نقول لمن ألقىٰ إلينا السلام لَسْتَ مُؤْمنًا بل يجب أن نؤمِّنه ، وأن نقبل ما ظهر منه ونعامله بموجبه ، وهذا ما يدل علىٰ سمو الإسلام ودعوته للسلام ، وطلبه الكفَّ عن القتال بمجرد الإعلان بكلمة السلام مع التثبت وإعطائه الفرصة الكافية لتظهر حقيقة قوله دون المطالبة بدليل علىٰ ذلك . وكذلك تبين لنا الأحاديث النبوية أن ذمة المسلمين وجوارهم واحدة يسعىٰ بها أدناهم ، فلا تخفر لهم ذمة ولا جوار ، فهذه أم هانىء ابنة أبي طالب تقول : «ذهبت إلىٰ رسول اللّه - ﷺ - عام الفتح فوجدتُه يغتسل وفاطمة ابنته تستره ، فسلمتُ عليه فقال : مَن هذه ؟ فقلتُ : أنا

---

(١) سورة النساء : الآية ٩٤

(٢) ابن ماجة - سنن ابن ماجة (٢ : ١٢٩٦) ح ٣٩٣٠ ، ولم تصح رواياته الثلاث؛ لأن في سند الحديث ثويب بن سعيد الأنباري ضعفه البخاري وابن معين .

أم هانئ بنت أبي طالب. فقال: مرحبًا بأم هانئ. فلما فرغ من غسله قام فصلَّىٰ ثماني ركعات ملتحفًا في ثوب واحد فقلت: يا رسول اللّه، زعم ابن أمي علي «أنه قاتلٌ رجلاً قد أَجَرْتُه، فلان بن هبيرة. فقال رسول اللّه ـ ﷺ ـ: قد أَجَرْنا من أجرت يا أم هانئ. قالت أم هانئ: وذلك ضُحىً»(١).

تلك هي الحرب في الإسلام، لا يخوضها المسلمون إلا حين لا يكون لهم بُدٌّ من خوضها، إما ردًا لعدوان، أو دفاعًا عن دين، أو عرض، أو دم، أو حماية للدعوة، أو تأديبًا لناكث أو باغ، أو إغاثة لمظلوم، فالمسلم لا يحارب إلا مكرهًا على القتال ـ(٢) أي حينما لا تبقىٰ أمامه وسيلة لدفع الظلم غير القتال ـ وذلك بعد استنفاد جميع وسائل المسالمة. يعرض الإسلام، وهو السلام بعينه، فإن أَبَوا فالجزية، وهي سلام، فإن أَبَوا فليس لنا خيار إلا القتال، لذلك لم يكن القتال غاية أساسية، وإنما هو علاج، وآخر الدواء الكي فالغاية من الجهاد أن ينتشر الإسلام، ويقوم العدل، وينعم الناس في ظله.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب الجزية والموادعة، باب أمان النساء وجوارهن. انظر ابن حجر ـ فتح الباري (٦ : ٢٧٣).

(٢) ليس شغوفًا بسفك الدماء ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ الآية ٢١٦ من سورة البقرة.

المطلب الثاني : علاقة الإسلام بالسلام

السلام في الإسلام مبدأ أصيل عميق يرجع إلىٰ نظام الإسلام، ويلتقي عنده تشريعاته وتوجيهاته، ولقد اختار اللَّه لدينه اسم الإسلام، فكان علماً له، وجعل السلام ملاك أمره، وجوهر حقيقته، وأصدق دلالة يحمله الاسم عن حقيقة مسماه فيؤخذ من الإسلام السلام والسلم والسلامة فيجد المرء السكينة والأمن والسلام مع نفسه ومع الإنسانية كلها (١).

والإسلام شريعة السلام ودين الرحمة، لا يخالف في ذلك إلا جاهل بأحكامه، أو حاقد علىٰ نظامه، أو مكابر لا يقتنع بدليل ولا يسلّم لبرهان، والمؤمنون بهذا الدين لم يسموا اسماً أفضل من أن يكونوا مسلمين ﴿ **مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ** ... ﴾(٢).

ولقد ذُكر السلام ومشتقاته في القرآن الكريم في مائة وثمان وثلاثين آية (٣) والقرآن كله سلام، لأنه نور وهداية للبشرية ممن آمن به واتبع هداه، ونزل هذا القرآن في موكب من الملائكة يحف به السلام: ﴿ **تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ** (٤) **سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ** ﴾(٤).

وتحيتنا فيما بيننا هي السلام؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ **فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً** ﴾(٥) وتحية الملائكة للمؤمنين يوم القيامة: ﴿ **سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ** ﴾(٦) وتحية المؤمنين يوم يلقون ربهم: ﴿ **تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا** ﴾(٧) وختام صلواتنا بالسلام علىٰ النبي - ﷺ - والسلام علىٰ أنفسنا ومناجاتنا في أعقاب صلاتنا اللّهم أنت السلام

---

(١) سيد قطب ـ السلام العالمي والإسلام (ص١١).

(٢) سورة الحج : الآية ٧٨.

(٣) محمد فؤاد عبدالباقي ـ المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم ٣٥٥ـ٣٥٧، المكتبة الإسلامية، إستنبول تركيا.

(٤) سورة القدر : الآيتان ٤ , ٥ .

(٥) سورة النور : الآية ٦١ .

(٦) سورة الرعد : الآية ٢٤ .

(٧) سورة الأحزاب : الآية ٤٤ .

ومنك السلام فحيِّنا ربَّنا بالسلام وأدخلْنا دارَك دارَ السلام ، [1] وهي التي أعد اللّه لعباده الصالحين وهو سبحانه ﴿ **الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ** ﴾ [2] .

والمسلمون دعاة إسلام وسلام ، والمسلم لا يكون مسلمًا حقًا إلا إذا كان على هذا الوصف لفظًا ومعنى وعملاً كما يقول الرسول ـ ﷺ ـ « **الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ** »[3] .

وليس في الدنيا شريعة دينية ولا نظام اجتماعي فرض السلام تدريبًا عمليًا ، وعدَّهُ شعيرة من شعائره ، وركنًا من أركانه ، كما فرض الإسلام السلام رياضة للنفس عند الإحرام بالحج ، فمتى أهلَّ المسلم بالحج فقد حرم عليه منذ تلك اللحظة أن يقص ظفرًا ، أو يحلق شعرًا ، أو يقطع نباتًا ، أو يعضد شجرًا ، أو يقتل حيوانًا ، أو يرمي صيدًا ، أو يؤذي أحدًا بيد أو لسان ولو وجد قاتل أبيه وجهًا لوجه لما استطاع أن يمَسَّهُ بشيء : ﴿ **فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ** ﴾ [4] .

فهو بهذا الإحرام قد أصبح سَلَمًا لنفسه ، سَلَمًا لغيره من إنسان أو حيوان ، أو نبات ، فالسلام إذن هو القاعدة الدائمة ، والحرب هي الاستثناء ؛ لأن الإسلام ينفي منذ الخطوة الأولى معظم الأسباب التي تثير في الأرض الحروب ، ويستبعد ألوانًا من الحرب لا يقر بواعثها وأهدافها ، والحرب الوحيدة التي يقرها الإسلام مأخوذة من قوله ـ ﷺ ـ : « **مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** » [5] (وإنّ من تحقيق إعلاء كلمة اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ أن يصل هذا الخير والهدى الذي جاء به الإسلام إلى الناس جميعًا ، وألا يحُول بينهم وبينه حائل ، فمن وقف في طريق هذا الخير أن يصل إلى الناس كافة وحَالَ بينهم وبينه بالقوة ـ فهو إذن معتدٍ على كلمة اللّه فوجب إزالته من

---

(١) رواه مسلم ـ انظر صحيح مسلم بشرح النووي، طبعة دار الفكر ـ بيروت ٥/ ٨٩، ولفظ مسلم اللهم أنت السلام ومنك السلام يا ذا الجلال والإكرام .

(٢) جزء من الآية ٢٣ من سورة الحشر .

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون ١/ ٩ .

(٤) جزء من الآية ١٩٧ من سورة البقرة .

(٥) أخرجه الخمسة عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ .

طريق الدعوة لتحقيق كلمة اللّه ، لا لغرض المجيء بالإسلام فرضًا على الناس، ولكن لمنحهم حريةَ المعرفة وخير الهداية)[1].

مفهوم السلام بين دعوى النسخ وعدمه :

اختلف الباحثون في مفهوم السلام بين مؤيد الاستجابة الفورية دون قيد أو شرط مستشهداً بقوله تعالىٰ : ﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾[2] وبين معارضٍ يرىٰ أنه لا يلجأ إلىٰ السلم أبداً وأن الدعوة إلىٰ السلم منسوخة .

ويتضح الرأي الصحيح بين هذين الرأيين بعد البحث ـ إن شاء اللّه ـ في ضوء ما قاله المفسرون .

وإيضاحًا لنوعية السلام الذي أمر اللّه به في الآيتين الكريمتين من قوله تعالىٰ : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً** ﴾[3] وقوله تعالىٰ : ﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾[4] يقول صاحب تفسير المنار « السلم : المسالمة والانقياد والتسليم ، فيطلق علىٰ الصلح والسلام وعلىٰ دين الإسلام، وقد فسره بعضهم بالصلح ، وبعضهم بالإسلام، وجعل بعضهم (كافة) حالاً من السلم ، أي ادخلوا في جميع شرائع الإسلام، والأساس هو الاستسلام لأمر اللّه والإخلاص له » .

ومن أصولها الوفاق والمسالمة بين الناس وترك الحروب والقتال بين المهتدين به ، والحاصل أن الآية تفيد أخذ الإسلام بجملته وذلك بالنظر في جميع ما جاء به الشارع والعمل به .

وهناك تفسير للفظ : (كَافَّة) بمعنىٰ جميعًا، وأنها حال من ضمير الجماعة في قوله (آمنوا) أي لا يتخلف منكم أحد عن الإسلام، والمراد بالذين آمنوا علىٰ هذا الوجه الأخير مؤمنوا أهلِ الكتاب ، أي ياأيها الذين آمنوا بالأنبياء السابقين . ولكنه ضعّف هذا القول الذي دل علىٰ أن الآية نزلت في شأن

---

(١) سيد قطب ـ السلام العالمي والإسلام (ص ١٨ ـ ٢٠).

(٢) جزء من الآية ٦١ من سورة الأنفال.

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٠٨ .

(٤) سورة الأنفال : الآية ٦١ .

جماعة من اليهود طلبوا منه - ﷺ - أن يقوموا الليل بالتوراة) . . إلى آخر كلامه فانظره [١] .

وذكر صاحب الكشاف ما يفيد أن المراد بالآية الاستسلام والانقياد للَّه تعالى أي استسلموا للَّه وأطيعوه، و(كافّة) أي لا يخرج منكم أحد عن طاعته، وقيل هو : الإسلام، والمراد بالخطاب أهل الكتاب، لأنهم آمنوا بأنبيائهم أو المراد المنافقون؛ لأنهم آمنوا بألسنتهم دون قلوبهم [٢] .

فتحصّل أن المراد بالدخول في السلم هنا : الطاعة للَّه والانقياد له في جميع ما شرعه على لسان رسوله محمد - صلى اللَّه عليه وسلم - أو الأمر لمن آمن من أهل الكتاب أن يؤمنوا بجميع الإسلام ويتركوا ما كانوا عليه من شرائع أنبيائهم السابقين، وإن كان هذا القول ضعيفًا، ولكن هذا لا يمنع من دخول المسالمة والمصالحة في ذلك ، إذ إن الإسلام يدعو إلى ذلك . ويرشد إليه لأن المعنى : استسلموا للَّه وانقادوا له بالطاعة، فمن طاعة اللَّه أن يسالم المسلمون من سالمهم ويصالحوا من صالحهم عملاً بقوله تعالى : ﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾ [٣] مع أن بعض العلماء فسر الآية بأن المراد منها المصالحة والمسالمة وترك الحرب كما ذكره صاحب المنار .

أما ابن كثير فقد جعل الآية تدل على الأمر للمؤمنين بالعمل بجميع شعب الإيمان كلها ما استطاع المسلمون ذلك . وقد حكى قولاً عن قتادة أنها في الموادعة [٤] .

وفي الآية الثانية يقول اللَّه تعالى : ﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾ [٥] السلم كالسلام والصلح ،وهو ضد الحرب ، والإسلام دين السلم والسلام . فالمعنى أن الكفار إذا مالوا عن جانب الحرب خلاف ما هو معهود منهم إلى جانب الصلح فمِلْ أيها الرسول إليه؛ لأنك أولى بالسلم منهم .

---

(١) رشيد رضا - تفسير المنار (٢ : ٢٥٦ - ٢٥٨) .

(٢) الزمخشري - الكشاف (١ : ١٢٧) .

(٣) سورة الأنفال : الآية ٦١ .

(٤) ابن كثير - تفسير القرآن العظيم (١ : ٢٤٧ - ٢٤٨) .

(٥) سورة الأنفال : الآية ٦١ .

وقيل : إن الآية خاصة بأهل الكتاب لأنها نزلت في بني قريظة، ولكن ابن كثير جعل هذا القول محل نظر إذ قال : إن هذه السورة كلها نزلت في وقعة بدر، ولكن صلحه ـ عليه السلام ـ مع المشركين عام الحديبية يكون مخصصًا للعموم على فرض أنها في بني قريظة، وقيل : هي عامة ولكنها نسخت بآية السيف في براءة؛ لأن مشركي العرب لا تُقبل منهم الجزية فلا يُقبل منهم إلا الإسلام، روي ذلك عن مجاهد وزيد بن أسلم وعطاء الخراساني وعكرمة والحسن وقتادة، ومع هذا فإن ابن كثير جعل هذا أيضًا محل نظر إذ قال : (إن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك، فأما إذا كان العدو كثيرًا فإنه تجوز مهادنتهم كما دلت عليه هذه الآية، وكما فعل عليه السلام يوم الحديبية فلا نسخ ولا تخصيص على هذا)[1] وقال الزمخشري : (إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ **قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ** ... ﴾[2] ذكر ذلك ابن عباس، وذكر عن مجاهد أن الناسخ لها قوله تعالى : ﴿ **فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ** ﴾[3] ثم قال : والصحيح أن الأمر موقوف على ما يرى فيه الإمام صالح الإسلام وأهله من حرب أو سلم، وليس بحتم أن يقاتلوا أبدًا، أو يجابوا إلى الهدنة أبدًا)[4].

قلت : إن كلام الزمخشري يؤكد أن الأمر هنا مقيد بالمصلحة للمسلمين فإذا كانت المصلحة لهم في الميل إلى الصلح تعيَّن الميلُ، وإن كانت في عدمه تعين تركُه. وقد تقدم من كلام صاحب المنار نقلاً عن ابن كثير ما يؤيد هذا وأنه لا نسخ ولا تخصيص، ويؤيده أيضًا كلام ابن العربي إذ قال عند هذه الآية ﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾ : قيل : إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ **فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ** ﴾ وقيل إن معنى الآية : إنْ دعاك الكفار إلى الصلح فأجبهم قاله ابن زيد والسدي، وقيل معناها : وإن جنحوا إلى الإسلام فاجنح لها، يعني قريظة فكأن الضمير (لها) على هذا التفسير عائد على قريظة لا على السلم؛ لأن الجزية تقبل منهم ولا تقبل من

---

(١) انظر رشيد رضا ـ تفسير المنار (١٠ : ٦٩ ـ ٧٠)، وابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم (٢ : ٣٢٢).

(٢) سورة التوبة : الآية ٢٩.

(٣) سورة التوبة : جزء من الآية ٥.

(٤) الزمخشري ـ الكشاف (٢ : ١٣٣).

المشركين (١) وعزا هذا القول لمجاهد من طريق محمد بن إسحاق.

ثم قال: أما قول من قال: إنها منسوخة بقوله تعالىٰ: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ فدعوىٰ؛ فإن شروط النسخ معدومة فيها. وأما من قال: إن دعوك إلىٰ الصلح فأجبهم فإنه يختلف الجواب فيه وقد قال اللّه تعالىٰ: ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ (٢) إذا كان المسلمون علىٰ عزة وفي قوة ومنعة ومغانب (٣) عديدة وعدة شديدة:

فَلا صُلْحَ حَتَّى تُطْعَنَ الخَيلُ بِالقَنَا وَتُضْرَبَ بِالبِيضِ الرِّقَاقِ الجَمَاجِمُ

وإذا كان للمسلمين مصلحة في الصلح لانتفاع يجلب به، أو ضر يندفع بسببه، فلا بأس أن يبتدئ المسلمون به إذا احتاجوا إليه أو يجيبوا إذا دعوا إليه ثم ذكر صلحه ـ صلىٰ اللّه عليه وسلم ـ مع قريش وغيرهم إلىٰ أن قال: (عقد الصلح ليس بلازم للمسلمين وإنما هو جائز باتفاقهم أجمعين). ثم قال أيضًا: (ويجوز عند الحاجة للمسلمين عقد الصلح بمال يبذلونه للعدو، والأصل في ذلك موادعته ـ ﷺ ـ لعيينة بن حصن وغيره يوم الأحزاب علىٰ أن يُعطيه نصف تمر المدينة) (٤).

أما ابن كثير فإن ثمرة كلامه عند آية ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ تقدم نقلنا لها عند نقل كلام صاحب المنار فإنه نقل كلامه كله وزاد عليه، وخلاصته كما تقدم أن الآية لا نسخ فيها ولا تخصيص ولا منافاة بينها وبين آيات السيف التي ادعىٰ نسخها بها (٥).

وقال ابن كثير أيضًا عن قوله تعالىٰ من سورة محمد: ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ ما نصه: (فلا تهنوا أي لا تضعفوا عن الأعداء،

---

(١) أبو بكر بن العربي ـ أحكام القرآن (١ : ٣١٢).

(٢) جزء من الآية ٣٥ من سورة محمد.

(٣) المغانب: العدد من الخيل.

(٤) انظر أبو بكر بن العربي: أحكام القرآن (٢ : ٨٧٦) وهذه الصفقة لم تتم إذ لم يرض بها السعدان سعد ابن عبادة وسعد بن معاذ فانظر ذلك في مواضعه من كتب السيرة وكتب التفاسير ـ بيد أن قدوم النبي ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ وإبرامه له معه دليل جوازه. انظر ص١٨ من هذا البحث.

(٥) انظر ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم (٢ : ٣٢٢).

وتدعوا إلىٰ السلم أي المهادنة والمسالمة ، ووضع القتال بينكم وبين الكفار حال قوتكم وكثرة عَدَدكم وعُدَدكم ، أما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلىٰ جميع المسلمين ، ورَأَىٰ الإمَامُ في المهادنة والمعاهدة مصلحةً فله أن يفعل ذلك كما فعل رسول اللَّه ـ ﷺ ـ حين صده كفار قريش عن مكة ودعوه إلىٰ الصلح[(١)] .

أما القرطبي فإنه أيضًا يميل إلىٰ أن آية ﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ** ﴾ غير منسوخة ؛ وذلك أنه ذكر عن قتادة وعكرمة وابن عباس أنها منسوخة ، فابن عباس يرىٰ أن الناسخ لها الآية التي في سورة محمد ﴿ **فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ** ﴾ وقتادة وعكرمة يريان أنها منسوخة بآية السيف من براءة ، ثم قال : وقيل غير منوسخة ؛ بل أراد قبول الجزية من أهل الجزية ، ثم قال القرطبي : وقد صالح أصحاب رسول اللَّه ـ ﷺ ـ في زمن عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ ومن بعده من الأئمة كثيراً من بلاد العجم علىٰ ما أخذوه منهم وتركوهم وهم قادرون علىٰ استئصالهم ، ثم ذكر كلام ابن العربي الذي أوردناه ، والذي ذكر فيه أن المسلمين إذا كانت لهم مصلحة في الصلح أجابوا له ، وإن كانوا في عزة ومنعة وعَدَدٍ وعُدَدٍ فلا صلح [(٢)] .

وعلىٰ هذا فحاصل ما ذكره هؤلاء المفسرون الأعلام أن آية البقرة/ ٢٠٨/ ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً** ﴾ المفهوم من معناها أن المراد منها دخول الناس ، أي عملهم بجميع جزئيات الإسلام ما استطاعوا إلىٰ ذلك سبيلاً ، سواء أكان الخطاب بها لمؤمني أهل الكتاب ـ فإن العِبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ـ أم كان الخطاب لعامة المؤمنين . وقد حُكِيَ فيها قول بأن المراد الموادعة للكفار ومهادنتهم ، وإن كان الكثيرون يرجحون غير ذلك ، وإن آية الأنفال ﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾ غيرُ منسوخة بل هي محكمة ، وعليه فقد أمروا بالاستجابة إلىٰ السلم فيها إذا دعوا إليه ولكنهم جعلوا ذلك مقيداً بالمصلحة العامة للمسلمين ، وما يراه الإمام فىٰ ذلك من المصلحة للإسلام والمسلمين ، فإذا كانت المصلحة متمحضة في الجنوح للسلم

---

(١) المصدر السابق (٤ : ١٨١) .

(٢) القرطبي ـ الجامع لأحكام القرآن (٨ : ٣٩ ـ ٤٠) .

والمهادنة والصلح ودعوا إلىٰ ذلك تعيَّنَ عليهم ، فإذا علموا في أنفسهم أن عدوهم أقوىٰ منهم وأكثر عَدداً أو عُدداً ولا طاقة لهم به ولا مصلحة لهم في مواجهته ودعوا إلىٰ ذلك فالواجب عليهم الاستجابة له أسوة برسول اللّه - ﷺ - وأصحابه من بعده ، كما تقدم توضيحه .

فظهر من ذلك أن موقف المسلمين في هذا هو مظنة المصلحة أو عدمها . ومن هذا يتبين خطأ أحد الباحثين عندما أوجب الصلح علىٰ المسلمين من أول بادرة تعرض عليهم الصلح إذ يقول ما نصه : فالإسلام من أجل تحقيق السلام دعا إلىٰ الاستجابة إلىٰ أية دعوة إلىٰ السلام حتىٰ لو جاءت الدعوة والمسلمون في موقع القوة أو يملكون القدرة ، فقد أمر اللّه تبارك وتعالىٰ في سورة الأنفال ﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا** .. ﴾ أمر واضح صريح ، فإذا طلب أعداؤك السلامَ فإن الاستجابة لازمة وواجبة وواقعة بأمر اللّه الذي لا يمكن لمؤمن أن يعصيه أو يخالفه (١) .

ولعل هذا النص لا يتماشىٰ مع قول المفسرين إذا قلنا بأن الآية محكمة وليست منسوخة أَخْذاً بقول الإمام الشاطبي : من أن الجمع بين الأدلة أولىٰ من القول بالنسخ(٢) ، إلا أن هذا النص لم يشمل إلا شرطاً واحداً وفقد منه شرطان :

فالشرط الموجود هو الجنوح إلى السلم من قبلهم، والمفقودان هما :

الأول : اشتراط عدم الهوان للمسلمين ، لقوله تعالىٰ : ﴿ **فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ** ﴾ (٣)

الثاني : مراعاة مصلحة المسلمين من قِبَلِ الإمام ، كما أن هذه المصلحة لم تُترك هكذا ، وإنما هناك شروط للمصلحة ذكرها الأصوليون في كتبهم :

---

(١) محمد فرج - العبقرية العسكرية في غزوات الرسول - ﷺ - (ص١١٤) . دار الفكر العربي ، الطبعة الثالثة ١٩٧٧ .

(٢) انظر : الشاطبي - الموافقات (٤ : ٢٩٤-٢٩٥) تعارض الأدلة ، طبعة دارالمعرفة - بيروت ، وانظر الجزء (٣/ ١٠٦) المصدر نفسه في النسخ .

(٣) سورة محمد : الآية ٣٥ .

١- أن تكون مصلحة حقيقيةً غير وهمية .

٢- أن تكون مصلحة عامةً غير خاصة .

٣- ألا تُصادِمَ نصًا من كتاب أو سنة(١).

ويذكر صاحب (ظلال القرآن) عند تعرضه لهذه القضية في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله** ﴾ أن الآية لا تتضمن حكمًا مطلقًا نهائيًا في الباب، وأن الأحكام النهائية نزلت فيما بعد في سورة براءة، إنما أمر اللَّه رسوله أن يقبل مسالمة وموادعة ذلك الفريق الذي اعتزله فلم يقاتله، سواء كان قد تعاهد أو لم يتعاهد معه حتى ذلك الحين، وأنه ظل يقبل السلم من الكفار وأهل الكتاب حتى نزلت أحكام سورة براءة فلم يعد يقبل إلا الإسلام أو الجزية، وهذه حالة المسالمة التي تقبل ما استقام أصحابها على عهدهم أو هو القتال ليكون الدين كله للَّه .

ثم يقول إنه ذكر ذلك: لجلاء الشبهة الناشئة من الهزيمة الروحية والعقلية التي يعانيها الكثيرون ممن يكتبون عن (الجهاد في الإسلام)؛ فيثقل ضغط الواقع الحاضر على أرواحهم وعقولهم، ويستكثرون على دينهم الذي لا يدركون حقيقته أن يكون منهجه الثابت هو مواجهة البشرية كلها بواحدة من ثلاث : الإسلام، أو الجزية ، أو القتال، وهم يرون القوى الجاهلية كلها تحارب الإسلام وتناهضه وأهله الذين ينتسبون إليه، وهم لا يدركون حقيقته ولا يشعرون بها شعوراً جديًا، ضعافٌ أمام جحافل أتباع الديانات والمذاهب الأخرى، كما يرون طلائع العصبة المسلمة الحقّة قلةً بل ندرةً ، ولا حول لهم في الأرض ولا قوة ، وعندئذ يعمد الكتاب إلى لَيِّ أعناق النصوص؛ ليُؤَوِّلُوها تأويلاً يتماشى مع ضغط الواقع وثقله، ويستكثرون على دينهم أن يكون هذا منهجه وخطته .

إنهم يعمدون إلى النصوص المرحلية فيجعلون منها نصوصًا نهائية، وإلى النصوص المقيدة بحالات خاصة فيجعلون منها نصوصًا مطلقة الدلالة. حتى إذا وصلوا إلى النصوص النهائية المطلقة أولوها وفق النصوص المقيَّدة المرحلية؛

---

(١) انظر : د. عبدالعزيز بن عبدالرحمن الربيعة ـ أدلة التشريع المختلف في الاحتجاج بها ص ٢٢٧-٢٢٨، الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ، نشر مؤسسة الرسالة ـ بيروت، بتصرف

وذلك كله كي يصلوا إلىٰ أن الجهاد في الإسلام هو مجرد عملية دفاع عن أشخاص المسلمين ، وعن دار الإسلام عندما تُهاجم ، وأن الإسلام يتهالك علىٰ أي عرْضٍ للمسالمة ، والمسالمة معناها : مجرد الكف عن مهاجمة دار الإسلام ، إن الإسلام في حَسْبهم يَتَقَوْقَعُ ، أو يجب أن يتقوقع داخل حدوده في كل وقت وليس له الحق أن يطالب الآخرين باعتناقه ولا بالخضوع لمنهج اللَّه! اللَّهم إلا بكلمة أو نشرة أو بيان ، أما القوة المادية الممثلة في سلطان الجاهلية علىٰ الناس فليس للإسلام أن يهاجمها إلا أن تهاجمه فيتحرك حينئذ للدفاع ، ولو أراد هؤلاء المهزومون روحيًا وعقليًا أمام ضغط الواقع الحاضر أن يلتمسوا في أحكام دينهم ما يواجه هذا الواقع دون لَيِ أعناق النصوص لوجدوا فيه هذه الواقعية الحركية في أحكامه ، وتصرفاته المرحلية التي كان يواجه بها ضغط الواقع المشابه لما نواجهه نحن اليوم ، ولاستطاعوا أن يقولوا إنه في مثل هذه الحال كان الإسلام يتصرف علىٰ هذا النحو ، ولكن هذه ليست هي القواعد الدائمة إنما الأحكام والتصرفات التي تواجه الضرورة [1] .

هل الحرب في الإسلام هجومية أم دفاعية ؟

قبل أن نتعرض لهذه التسمية لابد من الإشارة إلىٰ المراحل التي مر بها الجهاد منذ بعثة النبي ـ صلىٰ اللَّه عليه وسلم ـ إلىٰ أن أكمل اللَّه هذا الدين وكتب له النصر والتأييد ، ولقد أمر اللَّه المسلمين بكف أيديهم عن القتال في مكة علىٰ الرغم من تعدي المشركين عليهم وإيذائهم بكل ألوان الأذىٰ ، وكان للَّه حكمة في ذلك ؛ وقد علل بعض المفسرين ذلك بسبب قلة عددالمسلمين ، وأنهم في بلد حرام فلم يُؤمَروا بالجهاد إلا بالمدينة لما صارت لهم دار منعة وأنصار [2] .

وكانت الدعوة بمكة دعوة إلىٰ اللَّه محققة بدون قتال ، ثم تبدأ المرحلة الأولىٰ بالإذن بالقتال في قوله تعالىٰ : ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** ﴾ [3] .

---

(١) سيد قطب ـ في ظلال القرآن ، مجلد ٣ ، ج ١٠ (ص ١٥٤٦ ـ ١٥٤٧) مسلسل .

(٢) د . عبد الله القادري ـ حقيقة الجهاد في سبيل الله وغايته في الإسلام (ص ٢٠١) .

(٣) سورة الحج : الآية ٣٩ .

ثم تأتي المرحلة الثانية ، وهي فرض القتال على المسلمين لقوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾(١) ، وتدل هذه الآية وأمثالها على أن القتال هنا للدفاع عن النفس فهو فرض في حالة بدء الكفار بالقتال ومحظور مقاتلة من سالم من الكفار .

ثم تأتي المرحلة الأخيرة، وهي قتال الكفار من بدأ منهم بالقتال ومن لم يبدأ، لأن الأصل في الكفار عدم المسالمة بل المقاتلة والفتنة ، يقول اللَّه تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾(٢) ، وهذه الآية وأمثالها تدلُّ على قتال الكفار من أهل الكتاب حتى يدخلوا في الإسلام أو يعطوا الجزية ، وهذه آخر مراحل الجهاد التي استقر عليها . ولقد رجح المحققون عدم النسخ لأي مرحلة من مراحل الجهاد ، وهو الظاهر (٣) ، وعلى ذلك فإن للمسلمين أن يعملوا بحكم أي مرحلة منها إذا كانت ظروفهم مشابهة للظروف التي نزلت فيها آياتها ، والقول بغير هذا يؤدي إلى مواجهة الواقع بما لا يكافئه ، وبالتكليف بما هو فوق الطاقة (٤) .

أما أن يقف بعض الكُتَّاب الإسلاميين عند مرحلة من هذه المراحل كمرحلة الدفاع ويسمون بها الجهادَ الإسلاميَّ بأنه الحرب الدفاعية فهذه تسمية غير صحيحة ، وكذلك من يأخذ من الكُتَّاب بالمرحلة الأخيرة من الجهاد ويطلق عليها الحرب الهجومية فلم يحالفه التوفيق في هذه التسمية ، إن من يحاول حصر الجهاد الإسلامي في الدفاع أو الهجوم فيريد أن يجعل من الجهاد صورة لما يقع من الحروب بين الناس اليوم فهو كذلك لم يوفق . ولكن الجهاد له بواعثه وأغراضه وغاياته فلنتلمسها في الإسلام ذاته ، إن ما اصطلحوا عليه اليوم من تقسيم القتال الهجومي والدفاعي لا يصح إطلاقه على الجهاد الإسلامي البتة ،

---

(١) سورة البقرة الآية ١٩٠ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٢٩ .

(٣) د. عبد الله القادري ـ حقيقة الجهاد (ص ٢١٠) والطبري ـ جامع البيان (١٠ : ٣٤) والقرطبي ـ الجامع لأحكام القرآن (٨ : ٣٩) وابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم . (٢ : ٣٢٢) .

(٤) د. عبد الله القادري ـ حقيقة الجهاد (ص ٢١١) .

وإنما يصدق هذا المصطلح على الحروب القومية والوطنية فقط[1] كما أن كلمتي الدفاع والهجوم مصطلحان عسكريان لهما مفهومهما في العمليات الحربية والتخطيط (التكتيك) العسكري، فالجهاد اسم شامل كامل لجميع العمليات الحربية من دفاع وهجوم ومبادأة وتطويق وانسحاب وتقهقر، وتقدم والتفاف، يؤخذ من كل منها بما يمليه الموقف ويرتضيه الإسلام، دون تخصيصه باسم الدفاع أو الهجوم.

(١) أبو الأعلى المودودي ـ الجهاد في سبيل الله (ص٤١).

الباب الأول

الإعداد المعنوي للمعركة

ويشتمل على خمسة فصول:

الفصل الأول: المبادئ الأساسية للعسكرية الإسلامية

الفصل الثاني: تزكية النفوس

الفصل الثالث: تهيئة الأمة للمعركة

الفصل الرابع: الحرب النفسية

الفصل الخامس: التحريض على القتال

الفصل الأول

المبادئ الأساسية للعسكرية الإسلامية

ويحتوي المباحث التالية :

المبحث الأول : العقيدة العسكرية

المبحث الثاني : بواعث الحرب في الإسلام

المبحث الثالث : غايات الحرب في الإسلام

المبحث الرابع: القيم الإسلامية

الفصل الأول

المبادئ الأساسية للعسكرية الإسلامية

تمهيد :

يجد الباحث في الدراسات العسكرية مسميات ومصطلحات حديثة [1] قد لا يُفهم معناها لأول وهلة ، وحيث إننا سوف نتعرض لبعض هذه التسميات خلال هذا البحث فلابد من التنويه عنها بإيجاز ، ليكون القارئ علىٰ بينة منها .

ولما كانت المبادئ الأساسية للعسكرية الإسلامية تنبع مما اصطلح العسكريون علىٰ تسميته بالعقيدة العسكرية الإسلامية ، أصبح لزاماً أن نُعَرِّف : (العقيدة العسكرية) من حيث مفهومها الاصطلاحي العسكري ، وما ينبني عليها من مبادئ حربية ، حتىٰ يتبين ما نقصده من المبادئ الأساسية للعسكرية الإسلامية .

---

(١) كالعقيدة العسكرية ، الاستراتيجية ، التكتيك . . . .

المبحث الأول

العقيدة العسكرية

العقيدةُ لغةً : من عقد الحبل والبيع والعهد : أي شَدَّهُ ووَثَّقَهُ، والعَقْدُ نقيض الحل، واستعمل للدلالة على التصميم والاعتقاد الجازم ، قال اللّه تعالىٰ : ﴿ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ﴾ (١) أي بما عزمتم عليه وعقدت عليه قلوبكم (٢) وقيل : أي ولكن يؤاخذكم بما وثقتم الأيمان عليه بالقصد والنية إذا حنثتم . وعاقدته : بمعنىٰ عاهدته .

والعقيدة : ما يدين الإنسان به (أي ما يؤمن به دينًا) أو الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدىٰ مُعْتَقِدِه .

أو : هي التصديق بالشيء والجزم به دون شك أو ريبة ، فهو بمعنىٰ الإيمان(٣) .

ومن الكتاب العسكريين المعاصرين الذين عرَّفوا العقيدة بهذا المعنىٰ : اللواء محمود شيت خطّاب حيث قال عن العقيدة : (هي مُثُل عُليا يؤمن بها الإنسان فيُضَحِّي من أجلها بالأموال والنفس لأنها أغلىٰ من الأموال والنفس)(٤) .

وقد حاول بعض الكتاب المعاصرين وضع تعريف شرعي للعقيدة العسكرية فعرفها بعضهم بأنها : (خلاصة الدراسات والتجارب والحروب التي تجرىٰ في الدولة للوصول إلىٰ عقيدة عسكرية توضع في إطارها مبادئ وأسس الاستراتيجية . والعقيدة العسكرية لأية دولة تنبع من أهدافها الوطنية ومصالحها

---

(١) سورة المائدة : الآية ٨٩.

(٢) الزبيدي ـ تاج العروس (٢ : ٤٢٦)، وانظر مجمع اللغة العربية ـ المعجم الوسيط (٢ : ٦٢٠) والفيومي ـ المصباح المنير (٢ : ٧١) والرازي ـ مختار الصحاح (ص ٤٤٥) وابن سعدي ـ تيسير الكريم الرحمن (٢:٣٣٦).

(٣) سيد سابق ـ العقائد الإسلامية ، ص٨.

(٤) محمود شيت خطاب ـ العقيدة والقيادة (ص ٣٣).

الخاصة وتتماشى مع قدراتها الذاتية وظروفها المحلية وطبيعة عدوها التقليدي)[١] . بيد أن هذا التعريف يصلح وصفًا لمصادر استنباط العقيدة العسكرية أكثر من كونه تقعيداً لها .

وذكر بعضهم أن العقيدة العسكرية للدولة : (هي السياسة العسكرية المعبرة عن وجهات النظر الرسمية للدولة والمتعلقة بالمسائل والقواعد الأساسية للصراع المسلح والمتضمنة لطبيعة الحرب من وجهة نظرها، وطرق إدارتها والأسس الجوهرية لإعداد البلاد والقوات المسلحة لها، وهي نتاج مركب لأبحاث علمية ودراسات تاريخية تشمل كافة الأنشطة الحيوية للدولة ككل؛ بغرض خلق وتطوير وجهات النظر الرسمية في الصراع المسلح)[٢] . وهذا التعريف كسابقه جاء وصفًا للعقيدة وأثرها وبعض مجالاتها، إلا أنه لم يُحقق تحديد مفهومها .

ومن هذه التعاريف للعقيدة العسكرية نجد أن هناك خلطًا عند بعض الكتاب بين مفهوم العقيدة ومفهوم (الخطة الاستراتيجية)، كما نجد أنهم يعرّفون العقيدة العسكرية الإسلامية بما يتوافق مع التعاريف السابقة .

ومعلومٌ بَدَاهةً أن هناك فرقًا شاسعًا بين مفهوم العقيدة، ومفهوم الاستراتيجية؛ فالعقيدة «مبدأ» راسخ وثابت لا يتغير، وهي «أصل» تنشأ عنه وتبنى عليه الاستراتيجات والأساليب المختلفة ، ويخطئ الكتّاب دائمًا حينما لا يفرقون بين العقيدة « الأصل والمبدأ» وبين الاستراتيجية « الأسلوب» فالعقيدة من صفاتها الثبات، أما الاستراتيجية فمن صفاتها التقلب وعدم الاستقرار .

ولقد عُرِّفَت العقيدة العسكرية الإسلامية بأنها : (العقيدة التي وردت تفاصيلها في القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه الإسلامي، مبادئ طبقها المسلمون الأولون على عهد الرسول القائد - عليه الصلاة والسلام - وبعد التحاقه بالرفيق الأعلى، فأحرزوا بتطبيقها الانتصارات المتوالية على أعدائهم

---

(١) عدلي حسن سعيد - الأمن القومي العربي واستراتيجية تحقيقه (ص ٢٨٥) .
(٢) محمد جمال الدين محفوظ - المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية (ص٢٣) .

في داخل شبه الجزيرة العربية، من العرب والمشركين واليهود، وفي خارج شبه الجزيرة العربية من الفُرس والروم وغيرهما من الأمم الأخرىٰ، حتىٰ امتدت فتوح المسلمين من المحيط إلىٰ المحيط؛ فلما تَخلّىٰ المسلمون عن تطبيق هذه العقيدة العسكرية الإسلامية تخلىٰ عنهم النصر)[1] وأرىٰ أن هذا أثر وجود العقيدة في نفوس المجاهدين وليس فيه بيان للمراد منها، ويلاحظ علىٰ هذا التعريف أيضًا أنه : لم يبين حقيقة العقيدة، لكنه أحال القارئ علىٰ الكتاب والسنة ليعرف تفاصيلها، أما هو فلم يبين حقيقتها لا إجمالاً ولا تفصيلاً، اكتفاءً بما ذكره عن آثارها عند تطبيقها وعند التخلي عن هذا التطبيق.

ثم ذكر صاحب التعريف السابق أن العقيدة العسكرية الإسلامية غائبة غيابًا تامًّا عن القوات المسلحة العربية والإسلامية، ولا يقدرون قيمتها العظيمة، ومكانتها الرفيعة بين العقائد العسكرية الشرقية والغربية المعروفة ولا يعملون بها؛ لأنهم يجهلونها ويجهلون أثرها وتأثيرها في العرب والمسلمين، وأن الذي يُطبق الآن ثلاثة أنواع من العقائد العسكرية الأجنبية وهي : العقيدة العسكرية الغربية، وتتمثل في أمريكا وبريطانيا وفرنسا، وتطبق تلك العقيدة الدولة التي تستورد من هذه الدول أسلحتها وتبتعث إليها ضباطها وطلابها أو يكون تدريب جيشها علىٰ أيدي مدربي هذه الدول. وهناك عقيدة شرقية وتتمثل في الدول الشيوعية. والعقيدة الثالثة هي العقيدة الغرابية التي تتأرجح بين الشرق والغرب فلا هي شرقية ولا غربية. ولقد ميز الكاتب بأن العقيدة الغربية ترتكز علىٰ مبدأ «مزيد من النيران وقليل من المقاتلين»، والعقيدة الشرقية ترتكز علىٰ مبدأ «مزيد من المقاتلين وقليل من النيران» فيُصوّر أن العقيدة العسكرية الغربية عبارة عن إفراط في النيران وتفريط في المقاتلين، والعقيدةَ العسكرية الشرقية عبارة عن إفراط في المقاتلين وتفريط في النيران، أما العقيدة العسكرية الإسلامية فلا إفراط فيها ولا تفريط بل هي وسط في كل شيء وصدق الله العظيم : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**

(١) هذا تعريف اللواء محمود شيت خطاب للعقيدة العسكرية الإسلامية في كتاب الأمة القطري بعنوان العسكرية العربية الإسلامية (ص٢١ ـ ٢٢).

(٢) انظر محمود شيت خطاب العسكرية العربية الإسلامية (ص٢٢)، والآية هي رقم ١٤٣ من سورة البقرة.

﴿ويكونَ الرَّسُولُ عليكُمْ شهِيدًا ﴾ (٢).

أما وصف العقيدة العسكرية الإسلامية بأنها عقيدة وسط في كل شيء - مع تحفظنا على استخدام لفظ (العقيدة العسكرية) مما سنعرض له لاحقًا في هذا البحث - فإن قصد بذلك كونها ليست مُستمَدةً من عقيدة أهل الشرق أو أهل الغرب فحَسَنٌ وجميلٌ، ولو قصد كونَها متميزةً عن هؤلاء وأولئك وأنها ليست متطرفة فذاك أيضًا مقبول، ولو قصد كونَها مستمدة من عقيدة الأمة الوسط بكل معاني الوسط، سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل، أو من الوسط بمعنى الاعتدال والقصد، أو من الوسط بمعنى عدم الغلو والشطط، أو بمعنى قيامها على مبدأ الوسطية الذي هو الفطرة والمنهج الذي اختاره اللَّه للأمة، أو أنه الوسط في التناسق والاعتدال ومراعاة الظروف والأحوال والأوضاع - فهي «عقيدة» وسط بلا جدال، أما إن قصد بذلك كونها لا تميل إلى الإفراط أو التفريط في المقاتلين أوالنيران فذلك أمر تحدده ظروف ومعطيات كثيرة، وخطط مرتبطة بواقع كل دولة، وهي ليست شيئًا ثابتًا ولا محدداً، ولا يمكن قياسه أو تفصيله على جميع الظروف، ولكنه يجري مجرى الإعداد الشرعي المأمورة به الأمةُ في قوله تعالى ﴿**وأعدوا لهم** ....﴾ ، سواء كانت تلك القوة نيرانًا أو مقاتلين أو غير ذلك من وسائل القوة المعنوية والمادية، ولا يمكننا أن نصف العقيدة العسكرية الإسلامية في ذلك بكونها وسطًا أو غير ذلك في المقاتلين والنيران؛ لتعذر القياس أصلاً، ولتحفظنا على استخدام لفظ (عقيدة) وإطلاقه على العسكرية الإسلامية، كما سوف يتضح في موضع آخر من هذا البحث .

إن كثيراً من الكتاب الذين حاولوا تعريف العقيدة العسكرية الإسلامية وقعوا في خطأ كبير نتيجة لكونهم نحَوا منحى التقليد لكتابات غيرهم من الكتاب الشرقيين أو الغربيين، أو حتى من أبناء المسلمين الذين كتبوا عن العقائد العسكرية المعاصرة - الشرقية منها والغربية - أو ما يسميه أهله (بالعقائد) العسكرية والتي لا تعدو كونها نصوصًا لبعض التطبيقات العملية والتجارب العسكرية القائمة على المحاولة والخطأ، أو بعض التكتيكات العسكرية والسياسية التي يذهب إليها هذا المعسكر أو ذاك .

ومعلوم أن تلك التطبيقات والتجارب والنظريات العسكرية ليست مستمدة من عقيدة آلهية تسمو بها عن أهواء البشر ومطامعهم، وإنما ناتجة من مفكرين ومنظرين وقادة عسكريين تكتنفهم الأهواء والمطامع والأهواء الشخصية، ولا يمكن تنزيههم بحال عن الأغراض والمطامع والخطأ والانحراف، فجاءت تلك (العقائد) بجملتها مبنية على سياسة المنفعة (PRAGMATISM) والمصلحة (SELF CENTERED INTEREST) والصراع على مناطق النفوذ وتقسيم المستعمرات واقتسام الغنائم ونهب خيرات الشعوب الأخرى والإفساد في الأرض، وهي بالتالي ليست عقائد راسخة ولا ثابتة بل يمكن تغييرها تبعاً للمصلحة والمنفعة. ولقد شهد التاريخ المعاصر نماذج كثيرة لتغير العقائد العسكرية أو التنازل عن بعض النظريات أو التحول من هذا المعسكر إلى ذاك.

إضافة إلى كون تلك العقائد ـ التي هي من صُنع البشر ـ تبرر الوسيلة التي يتخذها هذا المعسكر أو ذاك، فلا عجب إذن أن نرى ونسمع عن هذا الصراع المحموم بين الدول، وحشد الأسلحة، والتنافس الرهيب في مجال التسلح، والحرب الدعائية التي تستعر نيرانها ولا يخمد لها أوار، والفتك بالشعوب الآمنة وإشاعة الرعب والفساد في الأرض.

ووسط هذا الظلام العقائدي تاه كُتاب المسلمين الذين حاولوا التنصيص على العقيدة العسكرية الإسلامية؛ وأول ما تاهوا فيه هو عدم تفريقهم بين ما هو (عقيدة) وأصل كلي تُستمد منه المبادئ والقيم والمُثل والاستراتيجيات الأخرى الفرعية وبين ما هو (ركن) من أركان العقيدة وفرع من فروعها، فالعقيدة العسكرية عند الغربيين أو الشرقيين من المعسكرات المختلفة مثلاً هي (المصلحة) وهي (المنفعة) وهي (السيادة على الشعوب) من أجلها يحيون ويقاتلون ويقتلون، ولا شيء غيرها يقدسونه؛ فهي عندهم أصل كلي تتفرع منه الاستراتيجيات والخطط والنظريات؛ وما ذاك إلا لغياب العقائد الأساسية والأديان عندهم ، والتي يستمدون منها مبادئهم العسكرية وغير العسكرية، ولوجود الخواء الروحي الذي يكتنف دول العالم شرقيها وغربيها، ونسي كُتَّابُنا من المسلمين أو فاتهم أن العقيدة الإسلامية إنما هي أولاً وأخيراً طاعة اللّه

والإنصياع بأوامره، والورود والصدور عن شرعه، وردّ جميع الأمور التشريعية إليه وإلىٰ رسوله، وأن المبادئ العسكرية الإسلامية هي بالتالي جزء من تلك العقيدة المنزلة، وأنها ليست مبادئ أو نظريات قابلة للتبديل والاختراع مثلما يفعل الغربيون أو الشرقيون، ولامجال فيها لاتباع نظريات هذا المعسكر أو ذاك في الحرب والسلام، وإنما كل شيء ملتزم بقواعد الدين وأحكام الشرع، بدءاً ببواعث الحرب والسلام وانتهاءً بأخلاقيات الجندي المسلم في المعركة، فلا مجال فيها لأهواء البشر ولا لنقصهم، وأيّ اتباع لعقيدة غيرها - شرقية أو غربية - يعني التخلي بالتالي عن مبدأ من المبادئ الإسلامية العسكرية التي وردت في الإسلام.

والنماذج التي سوف نستعرضها فيما يستقبلنا من مباحث تعطينا أمثلة من التطبيقات العملية للمبادئ العسكرية الإسلامية، وكيف أن المسلمين في حروبهم ضد أعدائهم وضعوا للعالم كله نماذج عملية للمبادئ العسكرية الإسلامية المستمدة من التشريع الإلهي. والتي ظلت غرة بيضاء ناصعة تزين التاريخ البشري بأجمعه، مما سوف يرِد في موضعه.

وفي غمرة التقليد الذي انتهجه كثير من الكتاب تاهوا عن القاعدة التي ذكرناها، وهي كون المبادئ جميعها مرجعها التشريعات الإسلامية في الحرب والسلام؛ فنجد أن بعض الكتاب يندفع في حماس إلىٰ الكتابة عن العقيدة العسكرية الإسلامية فيصفها بأنها عقيدة دفاعية وليست هجومية، متأثراً في ذلك بكتابات المستشرقين وهجومهم علىٰ الإسلام بزعمهم أن الإسلام انتشر بالسيف. فيخرج بذلك عن التنصيص للتعريف بالعقيدة إلىٰ الحديث عن طابع العسكرية الإسلامية، وهو بذلك يخطئ مرتين: يخطئ حينما يستجيب لاتهامات المستشرقين فيصف (طابع) العقيدة العسكرية بأنها عقيدة دفاعية، وهو لا يعلم أنه بذلك يُفتي في مسائل لا يمكن الفصل فيها مجردة عن الظروف والأوضاع والدواعي وبواعث الحرب. فالعسكرية الإسلامية يتحدد (طابعها) الدفاعي أو الهجومي تبعًا لطبيعة القتال (والتكتيكات والاستراتيجيات) التي تنتهجها الأمة في سياساتها مع الأعداء وغيرهم وذلك وفق الضوابط الشرعية المعلومة.

وهو يخطئ مرة ثانية حينما يخرج عن التعريف بالعقيدة العسكرية إلى الحديث عن (طابع) العقيدة العسكرية؛ فلاهو حدد نص العقيدة العسكرية الإسلامية، ولا هو أصاب في الحديث عن طابع العقيدة العسكرية الإسلامية .

وهناك بعض الكتاب العسكريين يعقد بابًا كاملاً باسم العقيدة العسكرية الإسلامية [1] وفيه ثلاثة فصول: الفصل الأول : عن الطابع السلمي والدفاعي للعقيدة العسكرية الإسلامية، والفصل الثاني : عن الجهاد جوهر العقيدة العسكرية الإسلامية، أما الفصل الثالث فهو: عن الحرب العادلة وآثارها؛ إلا أنك لا تجد في ذلك الباب تعريفًا للعقيدة العسكرية الإسلامية يوضح المراد منها .

كما أنني لم أقف على تعريف للعقيدة العسكرية الإسلامية ـ عند من كتبوا عنها ـ يحدد إطارها ويميزها من غيرها من العقائد ، لذا فقد استعنت بالله لأكتب تعريفًا يمكن التوصل منه إلى البيان المناسب الذي يقربنا من المراد بالمبادئ العسكرية الإسلامية فأقول :

المبادئ العسكرية الإسلامية: هي الموقف الإسلامي إلى بواعث الحرب، وتتضمن المحافظة على الأمن والمقدسات وتطبيق المثل والقيم، واتخاذ الوسائل المناسبة المحققة لأهداف الدولة وفق الإطار الشرعي الإسلامي الذي تنتهجه تلك الدولة .

هذه الموقف أو التصور الإسلامي نحو الحرب والسلم مرتبط بالبواعث والغايات للحرب في الدولة الإسلامية، وهي مانطلق عليه (بالمبادئ الأساسية للعسكرية الإسلامية) كما أن هذا الموقف يتأثر أحيانًا بالإمكانات المتاحة والظروف الواقعية المحيطة بالدولة وقوة الخصم وغير ذلك من المؤثرات الأخرى .

---

(١) محمد جمال الدين محفوظ ـ المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية ، الباب الثاني : العقيدة العسكرية الإسلامية (ص٣٣).

لماذا اخترت كلمة (المبادئ) بدلا من كلمة (العقيدة) ؟

وقد فضلت استخدام كلمة المبادئ على استخدام كلمة العقيدة لسببين:

الأول : لأميّز بين ما يسميه غيرنا ـ من أصحاب النظريات العسكرية ـ عقيدة والتي هي مستمدة من نظريات البشر وأهوائهم ومطامعهم وبين مبادئ العسكرية الإسلامية التي تنبع من (العقيدة) الإسلامية بوصفها الأصل الكلي الجامع الذي تنبع منه المبادئ الإسلامية المختلفة العسكرية وغير العسكرية.

الثاني : لأن استخدام كلمة (العقيدة) في هذا الموضع وإطلاقها على المبادئ العسكرية الإسلامية ـ حينما نقول العقيدة العسكرية الإسلامية ـ يوهمان القارئ بأن هناك عقائد كثيرة في الإسلام، كل واحدة منها تخص فرعًا من فروع الإسلام، فهناك عقيدة عسكرية، وهناك عقيدة اجتماعية، وهناك عقيدة سياسية، وهذا يوهم بأنه قد يوجد اختلاف في أصول هذه العقائد أو أنها تستمد من منابع شتى. ولما كان لفظ (العقيدة) يدل ـ أول مايدل ـ على الديانة؛ فإنه ليس من اللائق في الإسلام استخدام لفظ العقيدة على غير العقيدة بمعنى (الإسلام) بوصفه من العقائد مقارنة بغيرها من الأديان الأخرى كالنصرانية واليهودية والمجوسية.. ولذا فإن استخدام كلمة (المبادئ) يُقرّب المعنى إلى الأذهان ويزيل اللبسَ ويُوضّح الصورة؛ فالمبادئ والأسس والأصول والقواعد كلها، تعبر عن فروع متعددة تستمد من بحر العقيدة الواسع وتجري من منبعه ومعينه.

وبين يدي حديثنا عن المبادئ العسكرية الإسلامية رأيت أن أقدم بتعريف المبدأ.

معنى المبادئ:

المبدأ: هو أول الشيء ومادته التي تَكوَّن منها. ومبادئ العلم: قواعده الأساسية التي يقوم عليها، فالمبادئ والأسس والأصول والقواعد كلمات مترادفة بمعنى واحد[1] والمبدأ هو الفكر الأساسي الذي تنبثق منه أفكار رأيية.

---

(١) مجمع اللغة العربية ـ المعجم الوسيط (١ : ٤٢). والرازي ـ مختار الصحاح (ص ١٦ ـ ١٨ ـ ٥٤٤).

المبادئ الأساسية للعسكرية الإسلامية : هي مجموعة المُثل والقيم وبواعث الحرب وغاياتها في الدولة الإسلامية ، فالمراد بالمبادئ ، بواعث الحرب وغاياتها والقيم للدولة الإسلامية .

ومن البواعث مثلاً : تأمين سلامة الدولة وأمنها ودفع العدوان وتأمين الدعوة وقمع المفسدين ونصرة المظلوم .

ومن الغايات مثلاً : إعلاء كلمة لا إله إلا اللّه ، وتأمين الهداية للناس وعصمة الدماء ، وتأمين حقوق الإنسان هي مهمة المسلمين التي ألقيت على عواتقهم وأنها مما كرمهم اللّه بها وفضلهم على غيرهم .

ومن القيم : العدل والمساواة والسلام والوفاء بالعهود والمواثيق واحترام الإنسانية وتكريم البشرية والأخوة الإسلامية .

المبحث الثاني
بواعث الحرب في الإسلام

١ـ حماية الدين والنفس والوطن والمال والعرض :

معلوم أن الحرب في الإسلام إنما شُرعت لإعلاء كلمة لا إله إلا اللَّه والدفاع عن دينه القويم، ولمنع الفساد في الأرض، ولحماية أركان الإسلام؛ ولذا فقد جعل ذروة سنام الإسلام الجهاد لدفع الظلم والفساد بتسخير عباده المؤمنين ليدفع بهم المفسدين ﴿**وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾[١] وأول ما يُدافع عنه هو العقيدة؛ إذ إنها أثمن ما يملكه الإنسان، ثم يأتي بعد ذلك الدفاع عن النفس والوطن والمال والعرض، وفي الحديث : «**مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِه فَهُوَ شَهِيدٌ وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِه فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِه فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِه فَهُوَ شَهِيدٌ**»[٢] .

ونجد أن الحديث قد ساوىٰ الدفاع عن المال والنفس والعرض بالدفاع عن الدين؛ فهي لا تقل أهمية عن الدين، وإذا كان الشهيد هو من يُقاتل لإعلاء كلمة اللَّه فإن النفس والوطن والمال والعرض من الأمور التي دعانا الشرع للقتال في سبيلها والتضحية من أجلها [٣]؛ ولذا فإن حماية الدين والأنفس والأرض والأموال والأعراض هي من أوجب واجبات الحرب، فإذا اعتُدي علىٰ أي منها تعين القتال لحمايتها والدفاع عنها .

والدين هو أوجب ما ينبغي الدفاع عنه؛ لأن حماية الأموال والأنفس والأعراض والوطن تأتي بالتبع لحماية العقيدة وتأمينها، فإذا تم حماية العقيدة من الاعتداء ساد العدل والسلام، وتم حماية بقية القيم الأخرىٰ بالتبعية .

٢ـ تأمين سلامة الدولة وأمنها باعتبار المنشأ :

إن تأمين سلامة الدولة الإسلامية وأمنها في أن يعيش مواطنوها والوافدون إليها علىٰ أرضها في أمن وسلام واستقرار هو أيضًا من بواعث الحرب في الإسلام ولن يتحقق الأمن والسلام إلا إذا أدّىٰ كل مقيم علىٰ أرضها مستقر

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥١ .

(٢) سبق تخريجه . انظر ص ١١ من هذا البحث.

(٣) د. إسماعيل إبراهيم محمد أبو شريعة ـ نظرية الحرب في الشريعة الإسلامية (ص٣٥) .

بأمنها منتفع بخيراتها واجبَه تجاه هذه النعم الجليلة والفضيلة العظيمة التي امتنّ اللَّه بها على عباده حيث قال سبحانه: ﴿ **فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ** ﴾[1] فالأمان نعمة عظيمة، لا يعرف قدرها إلا من فقدها، ومن عصى اللَّه تعالى ولم يقدّر هذه النعمة كان جزاؤه بنقيضها؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾[2] فإذا فُقد الأمن، انشلت حركة الحياة واختلت الموازين فلا قيمة للإنسان ولا لما يملكه، الكُل يعيش في قلق وخوف وذعر، وأهم ما يفكر فيه الإنسان في هذه الحالة كيف يأمن على نفسه؛ لذا كان استتباب الأمن وتأمين سلامة الدولة من أهم بواعث الحرب.

ومما يوجب الحرب لتأمين سلامة الدولة ما يلي:

أ ـ قتال أهل الردة:

ولذلك كانت حرب أبي بكر ـ رضي اللَّه عنه ـ للمرتدين ضرورة لا محيد عنها، وقد أرسل الجيوش لحرب المرتدين فما عارضه إلا عمر أول الأمر فكان ذلك إجماعًا على وجوبه، وداعية من دواعي الجهاد وبواعث الحرب، وكانت نتيجته درء فتنة كبيرة؛ إذ عادت القبائل المرتدة فأسلمت، وساد الأمن ربوع الدولة الإسلامية.

ب ـ قتال أهل البغي:

وهم الذين يخرجون على الإمام ويرون خلعه، ولهم منعة وشوكة، فواجب على الناس معونة إمامهم في قتال هؤلاء البغاة[3]؛ لأن البغي والخروج من شأنهما إضعاف شوكة المسلمين وتفككهم وطمع أعدائهم فيهم وبث الفوضى وعدم الأمان في الدولة الإسلامية.

ج ـ قتال قُطّاع الطريق (المحاربين):

وهم الذين يبْرُزون للقتل والسرقة والنهب وإشاعة الرعب اعتمادًا على القوة لقطع الطريق، وهؤلاء تجب محاربتهم لإعادة الأمن وحتى لا تسوّل

---

(١) سورة قريش: الآيتان ٣ ـ ٤.

(٢) سورة النحل: الآية ١١٢.

(٣) الكاساني ـ بدائع الصنائع (٩ : ٤٣٩٦) وانظر ابن كثير ـ البداية والنهاية (٤ : ٢٤١ ـ ٢٤٢).

لأحد نفسه الخروج للعبث في الأرض والاعتداء على الآمنين .

د ـ قتال من نكث العهد :

سواء كان من أهل الذمة ، أو من أهل الأمان أو من أهل الحرب ، بأن نقضوا عهداً أو هدنة ، أو فعلوا ما يوجب النقض ، أو خالفوا شرطاً من شروطه ، كأنْ قاتلوا المسلمين أو ظاهروا عدواً للمسلمين .

٣ ـ دفع العدوان :

ليس الإسلام دين استسلام ، وليست الفضيلة فيه الركون إلى الدَعَة وطلب المعيشة الذليلة ، إنما الفضيلة في الإسلام رد الاعتداء ومنع الخضوع للظالمين ؛ ولذلك شرع القتال لمنع الفساد في الأرض ؛ إذ لو ترك الأشرار يعيثون في الأرض فساداً من غير رادع يردعهم ولا مانع يمنعهم ، لعمّ الفساد البر والبحر [١] . وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ [٢] . فالآية الكريمة صريحة في تحديد الباعث على القتال ـ مع تقييدها له بأن يكون القتال في سبيل اللّه مع عدم الاعتداء ـ فهي تحدد العدو الذي يقاتله المسلمون : ﴿ **قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ** ﴾ أي الذين يناصبونكم القتال ، لا من كف يده عن قتالكم ومن ليس من أهل المناصبة من الشيوخ والصبيان والرهبان [٣] .

وقال القرطبي : لا تعتدوا في القتال لغير وجه اللّه ، كالحَميَّة وكَسْبِ الذِّكْرِ ، بل قاتلوا في سبيل اللّه الذين يقاتلونكم يعني ديناً وإظهاراً للكَلِمَة [٤] .

والأصل في الإسلام هو السلام ـ كما قدمنا ـ وفي ظل ذلك يقوم العدل وتنتشر دعوة الخير والإسلام ، فإذا وقع العدوان تعيّن القتال ، وفي الآية أمر صريح بالقتال دفاعاً عن الدين وحماية للأنفس المسلمة من اعتداء المعتدين . وسبيل اللّه ـ في الآية ـ هو سبيل الحق ، فكل قتال لأجل الدين والدفاع عنه هو في سبيل إعلاء كلمة اللّه [٥] .

---

(١) محمد أبو زهرة ـ الجهاد (ص ٤) من أعمال المؤتمر الرابع للبحوث الإسلامية .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٩٠ .

(٣) الزمخشري ـ الكشاف (١ : ٣٤٢) .

(٤) القرطبي ـ الجامع (٢ : ٣٥٠) .

(٥) عفيف عبد الفتاح طبارة ـ روح الدين الإسلامي (ص ٢٩٤) .

ولقد كان في تصدي النبي - ﷺ - لقريش وحلفائها في غزوة أحد وغزوة الأحزاب دليل واضح لدفع العدوان ورد الاعتداء؛ ففي غزوة أحد أرادت قريش أن تثأر ليوم بدر فاستعدت وتجهزت لغزو النبي - ﷺ - في المدينة فخرجت قريش بحدّها وحديدها وعَرَبها وأحابيشها ومن تابعها من بني كنانة وأهل تهامة، وأخرجوا معهم ظعائنهم التماس الحفيظة وحتىٰ لا يفرّوا، وخرج لهم رسول اللّه - صلىٰ اللّه عليه وسلم - في ألف رجل وانخذل عنه ابن سلول في ثلاثمائة ولكن ذلك لم يمنع رسول اللّه - صلىٰ اللّه عليه وسلم - من المضي في القتال لرد العدوان.

وكذلك في غزوة الأحزاب خير شاهد علىٰ دفع العدوان حينما تألبت القبائل من قريش ويهود بني النضير وغطفان وبني فزارة وبني مرة وأشجع وتحزبوا لقتال النبي - ﷺ - والاعتداء علىٰ المدينة، وكان ذلك موقفًا صعبًا: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ (١). ونصر اللّه جنوده وهزم الذين كفروا وردهم علىٰ أعقابهم لم ينالوا خيراً.

٤ ـ تأمين الدعوة وحماية الدعاة:

إن الأمة الإسلامية مكلفة بنشر الدعوة الإسلامية اقتداءً بنبيها محمد - صلىٰ اللّه عليه وسلم - فالمتتبع لكتبه - صلىٰ اللّه عليه وسلم - إلىٰ كسرىٰ (٢) وإلىٰ النجاشي، وكتبه إلىٰ المقوقس وغيره يجد أن مضمونها واحد، وإن كانت الأساليب تختلف فهي تدعو إلىٰ شيء واحد هو نشر دين اللّه في أرضه، وإفساح الطريق أمامه دون إكراه، ولكن من يقف في طريق حرية نشر الدعوة لابد أن يزال بالوسائل السلمية وإذا لم تُجْدِ فبالقتال، ولابد من قتال من يصدّون الناس عن سماع الحق ويفتنون العبادَ عن دينهم الذي ارتضاه لهم ربهم وخالقهم.

كما يجب حماية الدعاة المبلّغين لهذه الدعوة ونصرتهم. يقول اللّه تعالىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ١١.

(٢) ابن القيم - زاد المعاد (٣: ٦٨٨ - ٦٨٩) وابن سيد الناس - عيون الأثر (٢: ٢٦٢) والزيلعي - نصب الراية (٤: ٤٢١).

هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(١). فلم يكن الإكراه في الدين ولا قهر الناس على الإسلام هو سبب القتال في مكة التي حرم اللّٰه القتال فيها، والتي يقول الرسول - صلى اللّٰه عليه وسلم - إنها أبيحت له ساعة من نهار هي بعدها حرام، وإنما كان الغرض أن يوضع حدٌّ للظلم والقسر، وأن يُباح للناس حق اختيار العقيدة من غير إكراه ولا قهر(٢) فهذا دفاع عن عقيدة الأمة الإسلامية، ولا أدلّ على ذلك من فعله - ﷺ - في فتح مكة حينما دخلها ظافراً على رأس عشرة آلاف من أبطاله وجنوده واستسلمت قريش ووقفت أمامه على باب الكعبة تنظر حكم الرسول فيها بعد أن قاومته إحدى وعشرين سنة، ما زاد - ﷺ - على أن قال: «**يا معشر قريش، ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم. فقال: اليوم أقول لكم ما قال أخي يوسف من قبل ﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر اللّٰه لكم وهو أرحم الرّاحمين ﴾ اذهبوا فأنتم الطلقاء**»(٣). وقد كانوا إذ ذاك لا يزالون على كفرهم في صف الأعداء ولم يكره أحداً على الإسلام.

٥ - نصرة المظلوم:

مما يشرف الدعوة الإسلامية أنها أباحت القتال - بل جعلته من الفضائل - لرد المظالم ودفع العدوان عن الضعيف سواء أكان فرداً أم جماعة؛ رغبة منها في إقامة صرح العدل الذي يريده اللّٰه على الأرض(٤) فنصرة المظلوم باعث من بواعث الحرب التي أباحها الإسلام بقوله تعالى: **﴿ أذن للّذين يقاتلون بأنّهم ظلموا وإنّ اللّٰه على نصرهم لقدير ﴾**(٥) ويقول اللّٰه تعالى: **﴿ وما لكم لا تقاتلون في سبيل اللّٰه والمستضعفين من الرّجال والنّساء والولدان الّذين يقولون ربّنا أخرجنا من هذه القرية الظّالم أهلها واجعل لنا من لّدنك وليّاً واجعل لّنا من لّدنك نصيراً ﴾**(٦). لذا يستفاد من هذه الآية أن الظلم والفساد في الأرض إنما هما سبب يجيز للمسلمين القتال للقضاء على الظلم سواء كان هذا الظلم موجهاً إلى شعب

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠٤.

(٢) عبد الرحمن عزام - الرسالة الخالدة (ص٢٩٨).

(٣) ابن كثير - البداية والنهاية (٤: ٣٠١) والآية هي رقم ٩٢ من سورة يوسف.

(٤) عبد الرحمن عزام - الرسالة الخالدة (١٢٥).

(٥) سورة الحج: الآية ٣٩.

(٦) سورة النساء: الآية ٧٥.

مسلم أو دولة أخرى مظلومة، حتى وإن كانت غير إسلامية، ذلك أن مقاومة الظلم والفساد في الأرض أمر تحتّمه الأخوة في النسب والدين والتضامن المفروض بين البشر، فكل اعتداء على أحدهم يعدّ موجهًا إلى الإنسانية جميعها، ويستدل على هذا التضامن الإنساني من الآية الكريمة: ﴿**من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا**﴾[1]. ويصبح قتال المسلمين لنصرة الضعيف واجبًا أقوى إذا كان هناك عهد أو ميثاق للمساعدة المتبادلة.

وعلى ذلك فإنه من الجائز للدولة الإسلامية أن تلجأ إلى القتال خارج النطاق الإقليمي للجماعة الإسلامية إذا توافرت شروط ثلاثة :-

أ - أن تستغيث بها الجماعة المستضعفة المعتدى عليها سواء كانت مجرد طائفة من جماعة أجنبية أو أقلية فيها، أوكانت جماعة إقليمية معتدى عليها مع عجزها عن صد العدوان أو الهجرة إلى دار الإسلام.

ب - ألا تكون ثمة معاهدة تقيد الدولة الإسلامية في التصدي للدولة المعتدية.

ج - أن يسبق تدخل الدولة الإسلامية في القتال إعذارٌ أو إنذارإلى الدولة المعتدية بالكف عن العدوان أو العمل على إزالة أسبابه[2].

ولقد كان في غزوة الفتح دليل رائع على نصرة المظلوم، وذلك أن صُلح الحديبية أباح لكل قبيلة أن تدخل في عقد رسول الله - ﷺ - إن شاءت أو تدخل في عقد قريش، وارتضت خُزاعة أن تدخل في عقد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفي تلك السنة (الثامنة للهجرة) اعتدت بنو بكرٍ على خُزاعة فقتلت منها نحو عشرين رجلاً وأمدت قريش بني بكر بالمال والسلاح، فلما بلغ ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غضب غضبًا شديداً وتجهز لقتال قريش ونصرة خزاعة، والمستضعفين بمكة ممن فتنوا في دينهم[3] فهذا دليل واضح على أن نصرة المظلوم باعث من بواعث الحرب في الإسلام.

---

(١) جزء من الآية ٣٢ من سورة المائدة.

(٢) د. عبد الواحد محمد الفار - الثقافة الإسلامية (ص٢٧٤-٢٧٦).

(٣) ابن كثير - البداية والنهاية (٤ : ٢٧٨ وما بعدها).

المبحث الثالث

غايات الحرب في الإسلام

١ ـ رفع راية التوحيد في كل مكان :

إن غاية القتال في سبيل اللّه، هي إعلاء كلمة اللّه ونُصرة دينه ورفع راية التوحيد، وفي ذلك يقول اللّه تعالىٰ: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾[١] عطف علىٰ ﴿ وَقَاتِلُوا ﴾[٢] في الآية الأولىٰ، فتلك بينت بداية القتال، وهذه بينت غايته، وهي ألا يوجد شيء من الفتنة في الدين، وحتىٰ لا تكون لهم قوة يفتنونكم بها ويؤذونكم لأجل الدين ويمنعونكم من إظهاره أو الدعوة إليه[٣] ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [٤] أي إعلاءً لكلمة اللّه تعالىٰ .

روىٰ البخاري في صحيحه (عن أبي موسىٰ ـ رضي اللّه عنه ـ قال : جاء رجل إلىٰ النبي ـ ﷺ ـ فقال : الرَجُلُ يُقَاتِلُ للمَغْنَم، والرجلُ يُقَاتلُ للذِّكْر وَالرجلُ يقُاتلُ لِيُرَىٰ مكانُه، فَمن فِي سَبِيلِ اللّه ؟ قال: « **مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللّهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللّه** »[٥]. وفي صحيح مسلم عن أبىٰ موسىٰ رضي الله عنه سُئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويُقاتل حمية ويُقاتل رياءً أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال ﷺ: « **مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللّهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللّه** »[٦]. وقد فسر بعضهم العبارة (كَلِمَةُ اللّه) بالدعوة إلىٰ الإسلام [٧] ولا أدلّ علىٰ ذلك من كتبه ـ ﷺ ـ التي بعث بها إلىٰ ملكي الروم والفرس وغيرهما، فكتابه ـ ﷺ ـ إلىٰ هرقل عظيم الروم «بسم اللّه الرحمن الرحيم، من

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٩٣

(٢) سورة البقرة : الآية ١٩٠

(٣) رشيد رضا ـ تفسير المنار (٢ : ٢١١)

(٤) سورة البقرة : الآية ١٩٣

(٥) البخاري ـ الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا (٤ : ٢٤ ـ ٢٥) طبعة مصطفي البابي الحلبي .

(٦) مسلم ـ صحيح مسلم (٣ : ١٥١٣) والحديث متفق عليه واللفظ لمسلم .

(٧) ابن حجر العسقلاني ـ فتح الباري (٦ : ٢٨) .

محمد عبد اللّه ورسوله إلىٰ هرقل عظيم الروم، سلام علىٰ من اتبع الهدىٰ، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، أَسْلِم يُؤْتكَ اللّهُ أَجْرَكَ مَرَّتين، فَإِنْ تَوَلَّيتَ فَعَلَيكَ إِثْمُ الأَرِيسِيِّين: و﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾»[1].

٢ ـ حمل الخير للناس بتأمين الهداية لهم:

إن الغاية الثانية التي يُسعىٰ إليها بالقتال في الإسلام هي إنقاذ البشرية من الضلال، وهدايتها ورفع الظلم والاستعباد عنها، ويظهر ذلك جليًا فيما دار من حوار بين رستم قائد جيش الفرس وربعي بن عامر ـ رضي اللّه عنه ـ لما أرسله سعد بن أبي وقاص ـ رضي اللّه عنه ـ إلىٰ رستم القائد الفارسي فسأله رستم: ما جاء بكم؟ فقال: اللّه ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلىٰ عبادة اللّه، ومن ضيق الدنيا إلىٰ سعتها، ومن جور الأديان إلىٰ عدل الإسلام[2] غاية سامية وجليلة تدفع بجيش يتحمل المشاق ويقطع المسافات الطويلة علىٰ ما هو معروف من وسائل المواصلات في ذلك الوقت لتكون غايته إنقاذ البشرية بإخراجها من عبادة العباد إلىٰ عبادة اللّه ومن ضيق الدنيا إلىٰ سعتها، ومن جور الأديان إلىٰ عدل الإسلام، لا هَمّ له في الدنيا وزخرفها أو استعمار أرض واستعباد شعب واستغلال خيرات بلاد، وفي هذه الموقعة نفسها يقول المغيرة بن شعبة وهو أحد رسل سعد بن أبي وقاص ـ رضي اللّه عنه ـ إلىٰ رستم: (إنَّا ليس طلبنا الدنيا؛ وإنما هَمُّنا وطلبنا الآخرة)[3]، وهم بذلك رسل خير وهداية للبشرية جمعاء، يريدون أن تشاركهم في ذلك الخير، فإذا وقف بينهم وبين ذلك الخير إلىٰ الناس طاغية أو جبار متسلط قاتلوه حتىٰ يُذعن للحق فيتاح بذلك للخير أن ينتشر ويعم البشرية قاطبة، ومعلوم أن الإسلام إنما جاء لعموم البشر أبيضهم وأسودهم، والعرب والعجم منهم.

---

(١) أخرجه البخاري في أول صحيحه في كتاب بدء الوحي ثم أخرجه بعد ذلك في أحد عشر موضعًا د. محمد حميد الله ـ مجموعة الوثائق السياسية (ص ٨٠ ـ ٨١) والآية هي رقم ٦٤ من سورة آل عمران.

(٢) ابن كثير ـ البداية والنهاية (٧ : ٣٩).

(٣) المصدر نفسه.

٣ ـ عصمة الدماء وتأمين حقوق الإنسان :

لقد جعل اللّه الغاية من الإسلام عصمة الدماء؛ فلا يُقتل شخص لمجرد مخالفته للإسلام أولكفره ، إنما يُقتل لاعتدائه على الإسلام ـ خلاف المرتد فإنه يُقتل بحكم خاص ـ واختلف الفقهاء في العلة الموجبة للقتل (١) فقال الجمهور إن مناط القتال هو المقاتلة. وقال الشافعي : الكُفر محتجًا بعموم الآية : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ (٢) ولم يستثن قتل من قاتل. وقال الجمهور: إذا كانت العلة الكفر فيجب أن تطَّرد في جميع الكفار. ومما يؤيد رأي الجمهور قوله تعالى :﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾(٣) . جعلت غاية القتال هي الوصول إلى المعاهدة، ولو كان القصد منها أنهم يقاتلون لكفرهم وأن الكُفر سبب لقتالهم؛ لجعلت غاية القتال إسلامهم ولما قبلت منهم الجزية وأقروا على دينهم (٤) .

وقال فقهاء الحنفية : (الآدمي معصوم ليتمكن من حمل أعباء التكاليف ، وإباحة القتل عارض سمح به لدفع شره). وقالوا أيضًا : (الكُفر من حيث هو كُفر ليس علة لقتالهم). وقال الإمام مالك : (لا ينبغي لمسلم أن يهريق دمه إلا في حق، ولا يهريق دمًا إلا بحق)(٥) .

وثبت عنه ـ ﷺ ـ في وصاياه لأمراء الجيوش والسرايا ما يدل على عصمة الدماء والمحافظة على حقوق الآدميين وإن كانوا لم يدخلوا في الإسلام بعد؛ لأن الإسلام لم يأت للقتل والتدمير والتخريب والإفساد، وإنما جاء للهداية والعصمة وإعلاء كلمة اللّه .

وقد عمل خلفاؤه من بعده بهذا الهدي واتبعوا هذه السنة، فكانت وصاياهم لجيوشهم ألا يغلوا، ولا يغدروا، ولا يُمثّلوا، ولا يقطعوا شجرًا للفساد، ولا يحرقوا زرعًا أو يتلفوه ، ولا يقتلوا بهيمة إلا للأكل، ولا يعتدوا

---

(١) ابن رشد ـ بداية المجتهد (١ : ٣٨٤ ـ ٣٨٥)، والشوكاني ـ فتح القدير (٤ : ٢٩١) وسحنون ـ المدونة (٣ : ٦).

(٢) سورة التوبة : الآية ٥ .

(٣) سورة التوبة : الآية ٢٩ .

(٤) الشيخ محمود شلتوت ـ الإسلام والعلاقات الدولية (ص٣٦).

(٥) الطبري ـ اختلاف الفقهاء (ص١٩٥) تحقيق الدكتور شخت .

علىٰ الآمنين من النساء والأطفال والشيوخ كبار السن والعجزة، وألا يقاتلوا إلا من قاتلهم؛ إذ إن رسالتهم ليست في القتل وسفك الدماء، والبغي في الأرض بغير الحق، وإنما هم رسل خير إلىٰ الناس ورسل سلام ومحبة وهدىٰ ونور، وما حملوا السلاح للقتال إلا حينما اضطروا إلىٰ حمله. وقد روىٰ أحمد في مسنده عن ثوبان مولىٰ رسول اللَّه ـ ﷺ ـ قال: «**مَنْ قَتَلَ صَغِيرًا أو كَبِيرًا أو أحْرَقَ نَخْلاً أو قَطَعَ شَجَرَةً مُثْمِرَةً أو ذَبَحَ شَاةً لإهَابِهَا لَمْ يرْجِعْ كَفَافًا**»(١) وذكر مالك في موطئه عن أبي بكر الصديق ـ رضي اللَّه عنه ـ لما بعث جيوشه إلىٰ الشام خرج يمشي مع يزيد بن أبي سفيان وكان أمير ربع من تلك الأرباع فقال يزيد لأبي بكر: إما أن تركب وإما أن أنزل. فقال أبو بكر: ما أنت بنازل وما أنا براكب، وإني أحتسب خطاي هذه في سبيل اللَّه. ثم قال له: إنك ستجد قومًا زعموا أنهم حبسوا أنفسهم للَّه فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له، وستجد قومًا فحصوا عن أوساط رؤوسهم من الشعر فاضرب ما فحصوا عنه بالسيف. وإني موصيك بعشر:

لا تقتلن امرأة، ولا صبيًا، ولا كبيرًا هرمًا، ولا تقطعن شجرًا مثمرًا، ولا تخربن عامرًا، ولا تعقرن شاة ولا بعيرًا إلا لمأكلة، ولا تحرقن نخلاً، ولا تغرقنه، ولا تغلل، ولا تجبُن(٢).

---

(١) الإمام أحمُد ـ المسند (٥ : ٢٧٦) ومعنىٰ كفَافًا ـ بالفتح ـ أي مقدار حاجته من غير زيدة ولا نقص؛ سمي بذلك لأنه يكف عن سؤال الناس. انظر أساس البلاغة للزمخشري (ص٥٤٧ك) ومنه قوله ليتني أنجو منه كفافًا لا لي ولا عليّ. والمقصود أن من ذبح الشاة لأجل الإهاب ليبيعه فلا رجع وهو مكتف، أي لا كفاه الله حاجة السؤال. انظر الفيومي ـ المصباح المنير (٢ : ١٩٧).

(٢) مالك بن أنس ـ الموطأ (٢ : ٤٤٨) تخريج محمد فؤاد عبد الباقي باب الجهاد، ح ١٠.

المبحث الرابع

القيم الإسلامية

وهي أمور ذات شأن عظيم في المجتمع منها :

أ ـ **العدل** : وهو أساس كل علاقة إنسانية في الإسلام ، وإن إقامة العدل بين الناس سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين واجب يحتمه الإسلام ؛ ومن هنا نجد أن آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة تدعو إلىٰ العدل وإحقاق الحق ، محذرة من الظلم والبغي ، ومحرمة لهما تحريمًا قاطعًا ومتوعدة عليهما ؛ ولهذا أمر اللّه ـ جل جلاله ـ بالعدل فقال : ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾(١) . ولقد فسر ابن العربي العدل هنا تفسيرًا جميلاً ؛ فالعدل الذي تعنيه الآية الكريمة ، يشمل العدل بين الإنسان وربه ، والعدل بينه وبين نفسه ، والعدل بينه وبين الناس : (فالعدل بين العبد وربه إيثار حقه تعالىٰ علىٰ حظ نفسه وتقديم رضاه علىٰ هواه ، والاجتناب للزواجر والامتثال للأوامر ، وأما العدل بينه وبين نفسه فمنعها مما فيه هلاكها ، وعزوب الأطماع عن الاتباع ، ولزوم القناعة في كل حال ومعنىٰ . وأما العدل بينه وبين الخلق ؛ فبذل النصيحة وترك الخيانة فيما قلّ وكثر ، والإنصاف من نفسك لهم بكل وجه ، ولا يكون منك إساءة إلىٰ أحد بقول ولا فعل ، لا في سر ولا في علن ، والصبر علىٰ ما يصيبك منهم من البلوىٰ ، وأقلُّ ذلك الإنصاف وترك الأذىٰ)(٢) .

وقد أخبر ـ صلىٰ اللّه عليه وسلم ـ بفضل أهل العدل الذين وُلّوا فعدلوا فيها فقال ـ ﷺ ـ : «**إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا**»(٣) . وقال ـ ﷺ ـ : « **اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ**

---

(١) سورة النحل : الآية ٩٠ .

(٢) أبو بكر بن العربي ـ أحكام القرآن ٣/ ١١٦٠ .

(٣) صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، نشر دار الإفتاء رقم الحديث ١٨ : ١٨٢٧ (٣ : ١٤٥٨) ورواه أحمد في مسنده (٢ : ١٦٠) ط الثانية ١٣٩٨هـ نشر المكتب الإسلامي بيروت .

أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِه»[1]. وقال ـ ﷺ ـ : «**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ؛ فَالأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْهُمْ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْؤُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْهُ؛ أَلا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»[2].

وعن معقل بن يسار المزني قال: إني سمعت رسول اللّه ـ ﷺ ـ يقول: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ الجَنَّةَ**» وقال ـ ﷺ ـ «**مَا مِنْ أَمِيرٍ يَلِي أَمْرَ المُسْلِمِينَ ثُمَّ لا يَجْهَدُ لَهُمْ وَيَنْصَحُ إِلا لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمْ الجَنَّةَ**»[3] وهناك الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة تحث على العدل وتأمر به وتبين أجر من عمل به وعقاب من أعرض عنه، والعدل الذي يتطلبه الإسلام عدل في الحكم ﴿**وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**﴾[4] والإمام العادل أحد سبعة «**يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلا ظِلُّهُ**»[5]. وعدل في القضاء بين المتخاصمين، وعدل مع الأعداء، وفي ذلك يقول ـ ﷺ ـ : «**مَنْ آذَى ذِمِّيًا فَأَنَا خَصْمُهُ وَمَنْ كُنْتُ خَصْمَهُ خَصَمْتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ**»[6] فالعدل يجب أن يكون مع العدو والصديق على السواء؛ فلا عداوة العدو تشفع للحاكم أن يظلمه، ولا صداقة الصديق تسمح له أن يظلم الآخرين ليجامله، وقد قال اللّه تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**﴾[7]

---

(١) صحيح مسلم برقم ١٩ ـ ١٨٢٨ (٣: ١٤٥٨)، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣: ٩٣).

(٢) صحيح مسلم برقم ٢٠ ١٨٢٩ (٣: ١٤٥٩).

(٣) أخرج هذه الأحاديث مسلم في كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل، وأخرج البخاري حديث «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**» في كتاب الجمعة وفي كتاب الاستقراض باب العبد راع في مال سيده ولا يعمل إلا بإذنه. وحديث «ما من عبد يسترعيه الله رعية» في كتاب الأحكام، باب من استرعي رعية.

(٤) سورة النساء: الآية ٥٨.

(٥) متفق عليه: البخاري كتاب الجمعة باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد (١: ١٦٨)، ومسلم كتاب الزكاة باب إخفاء الصدقة (٢: ٧١٥).

(٦) ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٢: ٢٦٩) وعزاه للخطيب ورمز إليه بالحسن، وقال المناوي: إن الخطيب أعله، وقال: إنه منكر. وحكم ابن الجوزي بوضعه. انظر فيض القدير (٦: ١٩)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير وزيادته (٥: ١٤٤) رقم ٥٣٢٠ ط المكتب الإسلامي.

(٧) سورة المائدة: الآية ٨.

ب - المساواة : لقد قرر الإسلام المساواة بين الناس وأعلن وحدة الجنس البشري منذ أربعة عشر قرناً، ووضع التشريع المناسب الذي يؤمن تحقيق المساواة الحقة، وقد أعلن الإسلام القضاء على نظام الأجناس والطبقات والطوائف، وخلف وراءه كل ما يظنه الناس من أسباب التمايز وعدم المساواة: كالجنس، واللغة، والطبقة، واللون، والغنى، إلى غير ذلك؛ مع أن جنس العرب أفضل الأجناس ولغتهم أفضل اللغات(١) .

جاء الإسلام ليُقرر وحدة الجنس البشري في المنشأ والمصير ، وفي المحيا والممات، وفي الحقوق والواجبات ، أمام اللّه والقضاء وفي الدنيا والآخرة ، لا فضل إلا بالعمل الصالح ، ولا كرامة إلا للأتقى(٢) . وفي هذا يقول اللّه تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾(٣) أي أن ميزان التفاضل أمام اللّه هو التقوى والإيمان والعمل الصالح . وثبت في الصحيح عن أبي هريرة ـ رضي اللّه عنه ـ قال : «سئل رسول اللّه ـ ﷺ ـ أي الناس أكرم ؟ فقال : **أتقاهم للّه**»(٤) .

ولقد حرص الإسلام على المساواة بين أفراد المجتمع وعدم التمييز بينهم في الحقوق والواجبات المستمدة من انتمائهم للدولة الإسلامية وعلى الحاكم أن يقيم دعائم حكمه على هذا المبدأ، وفي ذلك يقول اللّه تعالى :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا** ﴾(٥) . والمساواة بين أفراد المجتمع تعني أمرين؛ أولهما : المساواة في الحقوق، وثانيهما : المساواة في الواجبات : أما المساواة في الحقوق فإن أفراد المجتمع جميعهم سواء في التمتع بأسباب السعادة الدنيوية وتقصيها والمطالبة بها، فالمساواة في نظر الإسلام هي محاولة إعطاء الجميع فرصاً متماثلة بقدر الإمكان لينتفع كل فرد بما قد يكون بين يديه من إمكانات(٦) . وأما المساواة

(١) وذلك لكون النبي ـ ﷺ ـ عربياً، وفضلت اللغة العربية لأنها لغة القرآن .

(٢) عبد الكريم عثمان ـ معالم الثقافة الإسلامية (ص٧٢ ـ ٧٣) .

(٣) سورة الحجرات : الآية ١٣ .

(٤) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول اللّه تعالى «لقد كان في يوسف . . .» انظر فتح الباري (٨ : ٣٦٢) ح ٤٦٨٩ طبعة دار المعرفة .

(٥) سورة النساء : الآية ١٣٥ .

(٦) د. عبد الواحد الفار ـ الثقافة الإسلامية، (ص١٠) سلسلة الكتاب الجامع .

في الواجبات فهذا يعني التزام كل فرد بأن يؤدي ما عليه من واجبات، ووجوب مؤاخذة كل امرئٍ بما جنىٰ دون أن يكون هناك أي تمييز أو تفرقة تؤدي إلىٰ إعفاء البعض من هذه الواجبات أو الإفلات من القصاص علىٰ ما يرتكبونه من جنايات؛ أي أن الحاكم يجب عليه في كل الأحوال أن يعطي كل ذي حق حقه من غير تفضيل أو تمييز، وأن يعاقب المسيء أو المقصر من غير نظر إلىٰ مكانته، وقد روي عنه - ﷺ - قوله: «**إنَّمَا أهْلَكَ الذين مِنْ قَبْلِكُمْ أنَّهم كَانُوا إذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تركُوهُ، وإذَا سَرقَ فِيهِمُ الضَعِيفُ أقَامُوا عَلَيهِ الحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ لَو أنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**»(١).

ومن أهم ما تعانيه الإنسانية في عالمنا الحاضر التفرقة العنصرية، وقد شغلت هذه المشكلة منظمة الأمم المتحدة وغيرها من المنظمات الدولية الأخرىٰ منذ العام ١٩٤٥م حتىٰ الآن، علىٰ الرغم من صدور الكثير من الاتفاقات والتوصيات والقرارات الدولية(٢).

ولقد كان العلاج الشافي لهذه المشكلة في الإسلام وتعاليمه وتطبيقه؛ فقد أنكر زعماء قريش علىٰ النبي - صلىٰ اللّه عليه وسلم - جلوسه مع بلال الحبشي، وسلمان الفارسي، وصهيب الرومي - رضي اللّه عنهم اجمعين - وأمثالهم من عامة الناس، وطلبوا منه أن يطردهم من مجلسه فأبىٰ رسول اللّه - صلىٰ اللّه عليه وسلم - فقالوا اجعل لنا يومًا ولهم يومًا، فكاد أن يجيب رغبتهم فنزل عليه الوحي(٣) بقوله تعالىٰ: ﴿**ولا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾(٤) والتاريخ الإسلامي زاخر بالشواهد علىٰ ذلك.

ج - الوفاء بالعهود والمواثيق: إن المحافظة علىٰ الوفاء بالعهد والميثاق في الحرب والسلم من أحكام الإسلام القطعية النافذة علىٰ الأفراد والجماعات،

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الحدود، باب ما جاء في كراهية أن يشفع في الحدود ج ٤ ص ٣٨، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. والحديث أخرجه الجماعة واللفظ للترمذي.

(٢) انظر الإعلان العالمي لحقوق الانسان الذي أصدرته منظمة الأمم المتحدة في العاشر من كانون الأول ١٩٤٨م.

(٣) القرطبي - الجامع (: ٤٣١ - ٤٣٢).

(٤) سورة الأنعام: الآية ٥٢.

والآيات في ذلك متعددة محكمة لا تدع مجالاً لإباحة نقض العهد بالخيانة فيه وقت القوة وعده قصاصة ورق عند إمكان نقضه بالحيلة، وفي ذلك يقول اللَّه تعالىٰ: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** ﴾ (١) ويقول تعالىٰ: ﴿ **وأوفوا بالعهد إنَّ العهد كان مسئولا** ﴾(٢) ويقول تعالىٰ: ﴿ **وأوفوا بعهد اللَّه إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها** ﴾(٣) كما أن اللَّه لم يبح لنا أن ننصر إخواننا المسلمين غير الخاضعين لحكمنا علىٰ المعاهدين من الكفار، وفيه يقول تعالىٰ: ﴿ **وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلاَّ علىٰ قوم بينكم وبينهم ميثاق** ﴾(٤) فتبين لنا أن اللَّه جعل حق الميثاق من الحقوق المرعية، وكل ما يعقد من العهود نتيجة للحرب يكون مخالفًا لروح الإسلام إن أقام ظلمًا أو استعبادًا، أو أقر استغلالاً واستباحة لما هو من حق الإنسان بصفة كونه أخًا في البشرية(٥) فالعهد عهدان: عهد بين العبد وربه، وعهد بين العباد، وكلاهما مطلوب فيه الوفاء بالعهد ومذموم إخلافه، وقد ثبت عنه ـ ﷺ ـ أنه قال: « **آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاثٌ: إذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإذَا وَعَدَ أخْلَفَ، وَإِذَا أُوتُمِنَ خَانَ** » (٦) وقال ـ ﷺ ـ: « **ألا أُخْبِرُكُمْ بِخِيَارِكُمْ، خِيَارُكُمْ المُوفُونَ بعُهُودهمْ** » وثبت في صحيحي البخاري ومسلم « **فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا فَعَلَيه لَعَنَةُ اللَّه وَالمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** » (٧).

د ـ احترام الإنسانية وتكريم البشرية:

إن الإنسان في التصور الإسلامي قمة الكائنات الحية التي تعيش علىٰ وجه البسيطة وأفضلها وأكرمها؛ لما أودعه اللَّه فيه من مزايا وميزه بصفات، ولما أعد له من جليل الغايات. وقد أشار القرآن الكريم إلىٰ هذا المعنىٰ في آيات

---

(١) سورة المائدة: الآية ١.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٣٤.

(٣) سورة النحل: الآية ٩١.

(٤) سورة الأنفال: الآية ٧٢ رشيد رضا ـ تفسير المنار (١٠ ـ ١٠٨).

(٥) عبد الرحمن عزام ـ الرسالة الخالدة (ص١٦٨ ـ ١٦٩).

(٦) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان باب علامة المنافق (١: ١٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب خصال المنافق. انظر صحيح مسلم بشرح النووي (٢: ٤٧).

(٧) البخاري كتاب فضائل المدينة، باب حرم المدينة (٢: ٢٢١) المكتبة الإسلامية إستانبول تركيا، ومسلم باب فضل المدينة ودعاء النبي ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ فيها بالبركة. انظر مسلم بشرح النووي (٩: ١٤٥) طبعة دار الفكر.

كثيرة: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [1] وسبب هذا التفضيل أنه تعالىٰ أعدّ الإنسان لخلافته علىٰ هذه الأرض ولإعمار الكون بالخير والعمل الصالح؛ فالإنسان أشرف ما علىٰ الأرض وأشرف ما فيه قلبه، وأشرف ما في قلبه الإيمان باللّٰه خالق الوجود وواهب الحياة، والإنسان بهذه الصفة من التكريم الإلهي له حقوق ليس لأحد أن يهدرها أو يتنازل عنها لتحقيق مبدأ حفظ الحياة الإنسانية وعلىٰ ذلك فلا يجوز مثلاً التمثيل بالعدو؛ لقوله ـ ﷺ ـ «**وينهى عن المُثْلَة**»[2] ولا يصح التجويع والإظماء والنهب والسلب، فلا يحل قتال غير المقاتلين ولا التخريب ولا التدمير، إلا في حدود الضرورة، ولا تنتهك الأعراض وإن ارتكب العدو شيئًا من ذلك؛ لأن الأعراض حرمات اللّٰه تعالىٰ، لا تباح في أرض ولا يختلف التحريم لها باختلاف الأشخاص أو الأجناس أوالأديان، ولاتعدّ المعاصي والمحرمات حلالاً؛ لأن الدين والخلق يصاحبان المسلم أينما كان، فإكرام الأسرىٰ مثلاً في الشرع ورعاية الحرمات أمر مقرر بصفة أصيلة في الدين[3] وأما معاملة العدو بالمثل لقوله تعالىٰ: ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾[4] فإنما يتحقق هذا فيما تَتَأَتّىٰ فيه المماثلة، وسمىٰ الجزاء اعتداء للمشاكلة، وقد استدل الإمام الشافعي بالآية علىٰ وجوب قتل القاتل بمثل ما قتل به، بأن يُذبح إذا ذَبح ويُخنق إذا خنَق، ويُغرق إذا أَغرق، وقال مثل ذلك في الغصب والإتلاف[5] والقصد أن يكون الجزاء علىٰ قدر الاعتداء بلا حيف ولا ظلم، وأزيد علىٰ هذا ما هو أولىٰ بالمقام وهو المماثلة في قتال الأعداء، كقتل المجرمين بلا ضعف ولا تقصير، فالمقاتل بالمدافع والقذائف النارية أو الغازية السامة يجب أن يقاتل بها؛ وإلا فاتت الحكمة لشرعية القتال، وهي منع الظلم والعدوان والفتنة

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٠.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب قصة عكل وعرينة (٥ : ٧١) طبعة المكتبة الإسلامية إستانبول تركيا.

(٣) وهبة الزحيلي ـ آثار الحرب في الفقه الإسلامي (ص١٤٣).

(٤) سورة البقرة: الآية ١٩٤.

(٥) الشافعي ـ الأم (٧ : ٣٢٢).

والاضطهاد، وتقرير الحرية والأمان والعدل والإحسان[1].

هـ - **الأخوة في الله**: ومما لاشك فيه أن الأخوة والمناصرة في الله والحب والبغض فيه عامل أساسي في كيان المسلم بل في تكوين الفرد والمجتمع؛ ذلك أن الرابط الحقيقي الذي يربط بين أفراد الأسرة المسلمة هو الأخوة الإسلامية؛ ولهذا يقول الله - جل وعلا -: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾[2] وقال - ﷺ -: «**المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا. ثم شبّك - ﷺ - بين أصابعه**»[3] وقال تعالى: ﴿**لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[4] قال بعض العلماء: إنّ قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ**﴾ نزلت في أبي عبيدة بن الجراح لما قتل أباه يوم بدر أو يوم أحد. وقيل: نزلت في عبدالله ابن عبدالله بن أُبي بن سلول حينما استأذن النبي - ﷺ - في قتل أبيه، فنهاه عن ذلك، وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق لما سب أبوه أبو قحافة النبي - ﷺ - قبل إسلامه فضربه أبو بكر حتى سقط. وقوله ﴿**أَوْ أَبْنَاءَهُمْ**﴾ قيل: نزلت في أبي بكر، حين طلب مبارزة ابنه عبدالرحمن يوم بدر. وقوله: ﴿**أَوْ إِخْوَانَهُمْ**﴾ قيل نزلت في مصعب بن عمير حين قتل أخاه عبيد بن عمير، وقيل إنه مر بأخيه يوم بدر أسيراً عند رجل من المسلمين فقال: أشدد عليه الأسر؛ فإن أمه مليئة وسوف تفديه. وقوله: ﴿**أَوْ عَشِيرَتَهُمْ**﴾ قيل نزلت في عبيدة بن الحارث بن المطلب وحمزة ابن عبدالمطلب وعلي بن أبي طالب - رضي الله عنهم - لما قتلوا عتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة في المبارزة يوم بدر وهما من بني عمومتهم[5].

فدلت هذه الآية الكريمة أن رابطة الإسلام أقوى من رابطة الأبوة والبنوة

---

(١) رشيد رضا - تفسير المنار (٢ : ٢١٢ - ٢١٣).

(٢) سورة الحجرات: الآية ١٠.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً، وفي المساجد باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب (٤ : ١٩٩٩ - ٢٠٢٦).

(٤) سورة المجادلة: الآية ٢٢.

(٥) محمد الأمين الشنقيطي - أضواء البيان (ص٨٢٥ - ٨٢٦).

والأخوة والعشيرية؛ لأن الآية وإن كان لفظها خبراً فإن معناها إنشاء، فهي بمعنى النهي.

والمتأمل في صنيع هؤلاء المذكورين في سبب نزول الآية يعلم حقًا أن الجندي المسلم يرتكز في تكوينه على الأخوة في اللّه؛ لأن اللّه تعالى أخبر أنه كتب في قلوب هؤلاء الموصوفين بهذه الأوصاف الإيمان وأنه أيدهم بروح منه وأنه سوف يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي اللّه عنهم ورضوا عنه، كما أخبر أنهم حزب اللّه وأن حزب اللّه هم المفلحون.

وقد هدّد اللّه في كتابه العزيز من كان آباؤه وأبناؤه وإخوانه وأزواجه وعشيرته وأمواله أحبَ إليه من اللّه ورسوله، وتوعدهم بانتظار أمره فيهم وذلك في قوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ** .. ﴾[1].

فالأخوة الحقيقية إنما هي الأخوة في اللّه؛ فلا ينبغي للجندي المسلم أن يوالي من ليس أخًا في الإسلام حقًا، ولو كان أقرب الناس إليه. ولو كان للأخوة في النسب اعتبار - حيث لم يكن هناك إسلام - لكان الكافر يرثه أخوه المسلم والعكس، ولكن الإسلام منع الكافر من إرث المسلم، لقوله - ﷺ - «**لا يَرِثُ المسلمُ الكافرَ ولا يرث الكافرُ المسلمَ**»[2] ومنع المسلمات من نكاح الكفار فقال تعالى: ﴿ **لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ** ﴾[3] فالجنود المسلمون إذا تآخوا في اللّه وتحابوا فيه وأخلصوا دينهم للّه وصدقت نيّاتهم كانوا أقرب إلى نصر اللّه وتأييده.

وخير مثال للأخوة في الإسلام هم أصحاب رسول اللّه - صلى اللّه عليه وسلم - من مهاجرين وأنصار، فكان أول عملٍ عَمِلَهُ - صلى اللّه عليه وسلم - بعد أن قدم المدينة هو أن آخى بين المهاجرين والأنصار؛ ليتلاحم المجتمع الإسلامي ويتكون الجيش من أخوة في اللّه متحابين فيه، يستجيبون لنداء

---

(١) سورة التوبة: الآية ٢٤.

(٢) مسلم - صحيح مسلم ١-١٦١٤ (٣: ١٢٣٣).

(٣) سورة الممتحنة: الآية ١٠.

أحدهم أول مرة، يتألمون لألمه ويفرحون لفرحه ، وبهذا كوّنوا مجتمعًا فتح بلاد المشرق والمغرب في مدة وجيزة، ولقد كانت هذه المؤاخاة في الإسلام يتوارث بها المسلمون دون أقربائهم من النسب حتىٰ انتشر الإسلام ثم نسخ ذلك، ولكن بقي بعد ذلك نصيبهم من النصرة والمودة وغير ذلك.

ويروي لنا البخاري بسنده عن ابن عباس -رضي اللَّه عنه- ﴿ **وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ** ﴾ قال : ورثة ﴿ **وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا** ﴾(١) : كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجريُّ الأنصاري دون ذَوي رحمه؛ للأخوة التي آخىٰ النبي -ﷺ- بينهم، فلما نزلت : ﴿ **وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ** ﴾ نسخت ثم قال : ﴿ **وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا** ﴾ من النصر والرفادة والنصيحة ، وقد ذهب الميراث ويُوصَىٰ له(٢).

---

(١) سورة النساء : الآية ٣٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، في باب ولكل جعلنا موالي، فتح الباري (٩ : ٣١٦) مطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي مصر ١٣٧٨هـ. وانظر : البخاري- فتح الباري (٨ : ٢٤٧) الطبعة السلفية، وصحيح البخاري- كتاب التفسير، باب ٧ (٥ : ١٧٨-١٧٩) طبعة تركيا

الفصل الثانى

تزكية النفس

ويحتوي المباحث التالية :

المبحث الأول : معنى التزكية والمراد منها

المبحث الثاني : حب الله والحب في الله

المبحث الثالث : الإيثار

المبحث الرابع : الصبر والمصابرة

المبحث الخامس : الترغيب في الشهادة

المبحث السادس : الترهيب من المعاصي

المبحث السابع : الترهيب من الخيانة

المبحث الثامن : الترهيب من التولي يوم الزحف

الفصل الثاني
تزكية النفس

تمهيد

إن تزكية النفس من أهم الأمور التي يحتاج إليها الرجل العسكري في حياته، فإذا كان على جانب من تقوى الله ـ سبحانه وتعالى ـ بصّره الله بعيوب نفسه، وأعانه على إصلاحها والتسامي بها في درجات الكمال الإنساني، وحملها على مكارم الأخلاق، وترويض هواها؛ حتى يصير خاضعاً لتعاليم الإسلام، ممتثلاً أوامره، متشبعاً بتوجيهاته، متحمساً لأهدافه، غيوراً على قيمه، فيتحرك إلى الخير في كل موقع، ويبتعد عن الشر ولو كان بمفرده؛ لأنه يعلم أن الله سبحانه مطّلع عليه لا تخفى عليه خافية، فإذا زكى العسكري المسلم نفسه تزكية صحيحة سليمة حصل على هذه الثمار؛ فطابت بها نفسه، واطمأن قلبه، وتهيأ للقتال في سبيل الله لإعلاء كلمة لا إله إلا الله.

ولتزكية العسكري المسلم نفسه وسيلتان أساسيتان هما: التحلية والتخلية. فالتحلية: أن يتحلى بجميع الصفات الحميدة التي تبرز شخصيته الإسلامية الملتزمة والمتميزة. والتخلية: أن يطهّر نفسه من كل خصلة رذيلة لا تليق به كعسكري مسلم، فالذي لا يصمد أمام عدو نفسه ـ وهو شهواتها المحرمة ـ لا يصمد ولا يثبت أمام عدوه الخارجي، ومن باب أولى لا ينتصر عليه.

وسوف أقتصر في هذا الصدد على الصفات التي تهم العسكري المسلم في إعداده لدخول المعركة وتحقيق النصر فيها ـ إن شاء الله تعالى ـ وذلك ضمن المباحث الآتية.

المبحث الأول

معنى التزكية والمراد منها

التزكيـة في اللغة : من الزكاة ، وهي لفظ مشترك في العربية ، أي تستعمل لأكثر من معنى ؛ فترد لفظة الزكاة ويُراد بها النماء والزيادة ، وبهذا جاءت زكاة الأموال ؛ لأن المال المزكّى ينمو ، إما في الدنيا بأن يُبارك اللَّه فيه ، أو في الآخرة بأن يُضاعف اللَّه الأجر للمزكي .

وترد الزكاة بمعنى : الإصلاح والتطهير ، وفي هذا جاء قوله تعالى : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا** ﴾ [1] ، أي : أصلحها وطهرها . وترد أيضًا بمعنى : المدح والثناء وذلك في قوله تعالى : ﴿ **فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ** ﴾ [2] ، أي : لا تمدحوا أنفسكم وتثنوا عليها وتنسبوا الصلاح إليها ، هو أعلم بالصالحين منكم .

ويقال زكّى نفسه : مدحها ونسبها إلى الزكاء ، وزكى الشهود : عدّلهم ووصفهم بأنهم أزكياء [3] .

والمقصود بالتزكية هنا : إصلاح النفس وتطهيرها بترسيخ الصفات الحميدة النافعة وتنميتها : كمحبة اللَّه ، والإخلاص له ، والصدق ، والزهد ، والتوكل ، وكل صفة يأمربها الله ويحبها اللَّه ورسوله ؛ وتخليصها من الصفات الرذيلة الضارة : كالحسد والعجب والكبر والشح والغرور ، وكل صفة سيئة يبغضها اللَّه ورسوله ، وكذلك الابتعاد عن المدح والثناء ، حتى لا يقع الإنسان في الغرور ؛ لقوله تعالى : ﴿ **لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [4] .

وهناك آيات كثيرة وردت في القرآن الكريم ذكرت التزكية ، منها قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ**

---

(1) سورة الشمس : الآية ٩ .

(2) سورة النجم : الآية ٣٢ .

(3) الفيومي ـ المصباح المنير (١ : ٢٧٢) ، وانظر الزمخشري ـ أساس البلاغة (ص ٢٧٣) وانظر الجوهري ـ الصحاح (٦ : ٢٣٦٨) ، وانظر الزواوي ـ ترتيب القاموس (٢ : ٤٦٤) .

(4) سورة آل عمران : الآية ١٨٨ .

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾[1] .

وسوف نستعرض هنا أقوال المفسرين في التزكية والمراد منها .

يقول صاحب تفسير المنار : ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ أي يطهر نفوسكم من الأخلاق السافلة والرذائل الممقوتة ، ويخلّقها بالأخلاق الحميدة بما لكم في رسول اللَّه - ﷺ - من حسن الأسوة لا بالقهر والسطوة ، وقد زكاها النبي - ﷺ - باقتدائهم بأخلاقه العظيمة في عباداته الكاملة وآدابه العالية ، وجمعهم بعد تلك الفرقة وألف اللَّه بينهم على يديه حتى صاروا كرجل واحد ، وجعلت شريعته ذمتهم واحدة يسعى بها أدناهم ، فإذا أعطى مولى أو رقيق لهم أمانًا لأي إنسان محارب كان ذلك كتأمين أمير المؤمنين له . فأي تزكية أعلى من هذه التزكية ؟!

وأقول : إنهم بتزكية أنفسهم هذه فتحوا العالم ، وكانوا أئمة أمم المدنية التي كانت تحتقر جنسهم كله ، فإن الأعاجم إنما عرفوا فضل الإسلام بعدلهم وفضلهم في فتوحهم ، وما فهموا القرآن إلا بعد إسلامهم وتعلمهم العربية ، والرسول الذي زكى هذه الأمة التي زكت أممًا كثيرة حقيق بأن تكون نفسه أزكى الأنفس وأكملها[2] ؛ فقوله تعالى : ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ يعني يطهر نفوسكم من الشرك ويربيها على الأخلاق الجميلة ويرتفع بها عن الأخلاق الرذيلة ؛ فتزكية نفوسكم من الشرك إلى التوحيد ومن الرياء إلى الإخلاص ، ومن الكذب إلى الصدق ومن الخيانة إلى الأمانة ، ومن الكبر إلى التواضع ، ومن التباغض والتهاجر والتقاطع إلى المحبة والتواصل والتوادد ، وغير ذلك من أنواع التزكية هي نعمة عظيمة ما كان لكم تحصيلها لولا هذا النبي الكريم ، الذي هو أعظم نعمة من اللَّه عليكم[3] .

وقال ابن كثير عند قوله تعالى : ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾[4] ، أي لا تمدحوها وتشكروها وتمنّوا بأعمالكم ، وفي قوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾[5] وقوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾[6] ، أي : طهر

(١) سورة البقرة : الآية ١٥١ .

(٢) رشيد رضا - تفسير المنار (٢ : ٢٨) .

(٣) عبد الرحمن بن محمد الدوسري - تفسير صفوة الآثار والمفاهيم (٢ : ٤١٦) .

(٤) سورة النجم : الآية ٣٢ .

(٥) سورة الأعلى : الآية ١٤ .

(٦) سورة الشمس : الآية ٩ .

نفسه من الأخلاق الرذيلة وتابع ما أنزل اللّه علىٰ الرسول ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ.. وقد أفلح من زكىٰ نفسه بطاعة اللّه ـ كما قال قتادة ـ وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل، ويروي نحوه عن مجاهد وعكرمة وسعيد ابن جبير[١] وعنه ـ ﷺ ـ قال: «**لا تُزكّوا أنفُسَكُمْ اللّهُ أعْلَمُ بأهْلِ البِرِّ منكُمْ**»[٢]، أي: لا تمدحوا أنفسكم وتثنوا عليها؛ فاللّه أعلم بأهل البر والتقوىٰ منكم. وقوله ـ ﷺ ـ للرجل الذي مدح آخر: «**وَيْلَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ ـ يقوله مرارًا ـ إنْ كَانَ أحَدُكُمْ مَادِحًا لامَحَالَةَ فَلْيَقُلْ أحْسَبُ كَذَا وكَذَا، إنْ كَانَ يرَى أنَّهُ كَذَلِكَ، وَحَسِيبُهُ اللّهُ وَلا يُزَكِّي عَلَى اللّهِ أحَدًا**» وفي رواية «**وَلا أُزَكِّي عَلَى اللّهِ أحَدًا**»[٣] فهذا ما أردته من التزكية في هذا البحث، وحتىٰ تحصل للعسكري المسلم هذه المعاني السامية من الائتمار بأوامر اللّه واجتناب نواهيه، فيعلم علم اليقين أن ماأصاب صاحبه لم يكن ليخطئه، وماأخطأه لم يكن ليصيبه؛ فتقوىٰ بذلك عزيمته ويصلب عوده ويحسن توكله علىٰ اللّه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ.. قال اللّه تعالىٰ: ﴿**قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾[٤].

---

(١) ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم (٤: ٥٠١ ـ ٥١٦)

(٢) رواه مسلم في كتاب الآداب (٣: ١٦٨٨)

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الشهادات، باب إذا زكىٰ رجل رجلاً. وفي كتاب الأدب الطبعة التركية باب (٥٤) ما يكره من التمادح (٧: ٨٧)؛ ومسلم في كتاب الزهد، باب النهي عن المدح إن كان فيه إفراط (٦٥ ـ ٦٦ ـ ٣٠٠٠) (٤: ٢٢٩٦).

(٤) سورة التوبة: الآية ٥١.

المبحث الثاني

حب الله و الحب في الله

وفيه مطلبان : الأول محبة اللّه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ والثاني : الحب في اللّه .

المطلب الأول : محبة الله ـ سبحانه وتعالى :

وردت في حب اللّه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ آيات كثيرة في القرآن الكريم ، قسم يحبهم اللّه، وقسم لا يحبهم اللّه ، فذكر سبحانه وتعالىٰ من يحبهم ، وذكر صفاتهم فقال ـ عز وجل ـ : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾(١) ، فالتوبة علامة الإيمان؛ لأن فيها الإنابة إلىٰ اللّه والإقلاع عن المعاصي، وفيها الندم علىٰ ما فات وفيها دليل علىٰ حياة القلب ومراقبة اللّه ـ عز وجل ـ والخوف منه والرغبة فيما عنده، فكل ذلك يستوجب محبة اللّه ـ عز وجل ـ للعبد، كما أن المتطهر المتنزه يتصف بصفة من صفات الإيمان «**فالطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَان**» (٢) .

وقال تعالىٰ : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾(٣) . لما في الإحسان من دلائل الرغبة فيما عند اللّه ـ عز وجل ـ فالمحسن يقدم ما عنده رغبة فيما عند اللّه ـ عز وجل .

وقال تعالىٰ : ﴿ **وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ** ﴾ (٤) . فالصبر من الفضائل التي تدل علىٰ الرضىٰ بقضاء اللّه وبلائه والصبر حظ عظيم يتفضل اللّه به علىٰ من يشاء من عباده وقد مدح اللّه عبده ونبيه أيوب ـ صلوات اللّه عليه وسلامه ـ فقال عز وجل : ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ (٥) .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٢٢ .

(٢) رواه مسلم في أول كتاب الطهارة باب فضل الوضوء مسلم بشرح النووي (٣ : ٩٩ ـ ١٠٠)

(٣) سورة البقرة : الآية ١٩٥

(٤) سورة آل عمران : الآية ١٤٦

(٥) سورة ص : الآية ٤٤

وقال تعالى :﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١) فالتقوى خير زاد يتزود به المؤمن في هذه الحياة الدنيا ، وهي دليل على مراقبة اللَّه ـ عز وجل ـ والخوف منه والطمع فيما عنده ؛ إذ التقوى رجاء وخوف وكلاهما دليل على مراقبة العبد لربه ، مما يستوجب المحبة من اللَّه ـ عز وجل ـ.

وقال تعالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٢) ، لما في القسط من العدل وعدم الجور .

ولكون العدل مما أمر اللَّه به في كتابه في قوله تعالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ .. ﴾(٣) .

ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾(٤) ، لكونهم يقاتلون في سبيل اللَّه ومن أجل مرضاته فيقدمون أنفسهم للموت والقتل ابتغاء رضوان اللَّه ، والجود بالنفس أقصى غاية الجود .

فمن الآيات المتقدمة نستخلص أنه ـ سبحانه وتعالى ـ جعل محبته لمن زكى نفسه واتصف بهذه الأوصاف ، فحب اللَّه لا يتحقق فينا إلا إذا تحققت فينا هذه الخصال الحميدة : من التوبة والتطهر والإحسان والصبر والتقوى والعدل وتحقيق الجهاد في سبيله ؛ فهذه دعائم محبة اللَّه ، فإذا نقص منها شيء كان حب العبد للَّه ناقصاً بقدر ما يفقد من هذه الدعائم .

وإذا استعرضنا القسم الآخر ممن لا يحبهم اللَّه ـ بصريح قوله سبحانه وتعالى ـ نجد أنهم اتصفوا بصفات استحقوا بها عدم محبته ، فمنها قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾(٥) ، لكونهم قد جعلوا بينهم وبينه حجاباً بكفرهم ، فالكفر جحود ونكران وعدم اعتراف بالجميل وهي من أذم الصفات .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٧٦

(٢) سورة المائدة : الآية ٤٢

(٣) سورة النحل : الآية ٩٠

(٤) سورة الصف : الآية ٤

(٥) سورة آل عمران : الآية ٣٢

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) . ومعلوم ما في الظلم من التعدي ومجاوزة الحد وحب النفس وتفضيلها علىٰ حساب الغير ، والظلم يجمع كل الصفات الذميمة فما من خصلة من خصال الشر إلا هي نوع من أنواع الظلم ، واللَّه قد حرم الظلم علىٰ نفسه وجعله بين عباده محرمًا وأمرهم بعدم التظالم .

وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٢) . فالاعتداء مجاوزة الحد وظلم النفس أو الغير ، وهو بغي بغير الحق إذا لم يكن ردًا علىٰ اعتداء مثله .

وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾(٣) . فالاستكبار من أبغض الصفات إلىٰ اللَّه - عز وجل - وهو نقيض صفات الإيمان ؛ إذ إن من صفات الإيمان التواضع والخضوع والذلة للَّه .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾(٤) . لكون : الفساد مما يناقض الفطرة التي فطر اللَّه عليها الإنسان ، فهو معصية للَّه - عز وجل - الذي أمرنا بتعمير الأرض وإصلاحها وعدم الإفساد فيها بعد إصلاحها ، ولكون الفساد علامة علىٰ وجود الشر في النفس المفسدة ، وتمكن الشيطان منها .

وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾(٥) . فالإسراف فيه مجاوزة الحد وعدم التوازن ، وهو مذموم في كل شيء وعلىٰ كل حال ، والإسراف نوع من أنواع الفساد . وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾(٦) ؛ إذ الفرح غفلة كبيرة ، لكونه من علامات الرضا بما أوتيه الإنسان من حظ والاكتفاء به عما عند اللَّه - عز وجل - وقال تعالىٰ : إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا ﴾(٧) .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٥٧

(٢) سورة البقرة : الآية ١٩٠

(٣) سورة النحل : الآية ٢٣

(٤) سورة المائدة : الآية ٦٤

(٥) سورة الاعراف : الآية ٣١

(٦) سورة القصص : الآية ٧٦

(٧) سورة النساء : الآية ٣٦

فالاختيال والفخر من علامات التطاول والاستكبار والغفلة ، وهما نقيض التواضع فالفخر والاختيال من صفات المترفين الذين لا يرجون الآخرة .

وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا** ﴾(١) . والخيانة من أركان النفاق، والأثيم هو المتمادي في ارتكاب المعاصي ، و كلاهما مبغض عند اللَّه .

فكانت الأوصاف السابقة في الآيات الكريمة موانع محبة اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ من الكفر والظلم و الاعتداء والكبر والفساد والإسراف والخيانة وغيرها . . ولا تسل عن الهالكين كيف هلكوا ، وسل عن الناجين كيف نجوا .

فلابد للعسكري المسلم الذي يُهيأ لأن يُقاتل في سبيل اللَّه أعداء اللَّه أن يُزكي نفسه بأن يطهرها من موانع محبة اللَّه حتى يحظى بحب اللَّه فيكون متواضعًا لعباد اللَّه المؤمنين ، وفيه عزة وغلظة وشدة على الكافرين ، فهذا النوع ممن يحبهم اللَّه ويحبونه ، يقول تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾(٢) . ثم يخبرنا سبحانه وتعالى أن المؤمنين هم أشد الناس حبًا للَّه ؛ لأنهم رضوا باللَّه ربًا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد ـ ﷺ ـ نبيًا ورسولاً ، يقول اللَّه تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾ (٣) . ولحب اللَّه شروط يجب أن يلتزم بها ؛ لأن حب اللَّه ليس كلمة تقال باللسان ، بل هو ما وقر في القلب من الحب والتصديق ، وظهر على الجوارح من الامتثال لمنهاج اللَّه في جميع جوانب الحياة ، وطاعة لصاحب الرسالة المرسلة من اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ وفي ذلك يقول اللَّه تعالى : ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾ (٤) . ومحبة اللَّه لا تنال بالتمني واتباع غير هدي اللَّه ؛ لأنك إذا أحببته على غير هدي فلن تنال حبه ، وإنما ينال حب اللَّه باتباع أوامره وسلوك منهجه واجتناب نواهيه . يقول الشيخ

---

(١) سورة النساء : الآية ١٠٧

(٢) سورة المائدة : الآية ٥٤

(٣) سورة البقرة : الآية ١٦٥

(٤) سورة آل عمران : جزء من الآية ٣١

أحمد بن قدامة المقدسي في كتابه - مختصر منهاج القاصدين - (إن المحبة للّه يدعيها كل أحد، فما أسهل الدعوىٰ وأعز المعنىٰ ، فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان وخداع النفس إذا ادعت محبة اللّه تعالىٰ، فمن العلامات :

حب لقاء اللّه تعالىٰ في الجنة؛ فإنه لا يتصور أن يحب القلب محبوبًا إلا ويحب لقاءه ومشاهدته .

ومنها : أن يكون مؤثرًا ما أحبه اللّه تعالىٰ علىٰ ما يحبه في ظاهره وباطنه ، فيجتنب اتباع الهوىٰ ، ويعرض عن دعة الكسل، ولا يزال مواظبًا علىٰ طاعة اللّه تعالىٰ متقربًا إليه بالنوافل . ومن أحب اللّه فلا يعصيه؛ إلا أن العصيان لا ينافي أصل المحبة ، إنما يضاد كمالها، فكم من إنسان يحب الصحة ويأكل ما يضره!

ومن العلامات أن يكون مستمراً لذكر اللّه تعالىٰ، لا يفتر عنه لسانه، ولا يخلو عنه قلبه؛ فإن من أحب شيئًا أكثرَ من ذكره بالضرورة، ومِن ذكر ما يتعلق به فعلامة حب اللّه حب ذكره، وحب القرآن الذي هو كلامه، وحب رسول اللّه - ﷺ - قال اللّه تعالىٰ : ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** ﴾(١)

ومنها : أن يكون أنسه بالخلوة ، ومناجاة اللّه تعالىٰ، وتلاوة كتابه فيواظب علىٰ التهجد، ويغتنم هدوء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق، فإن أقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب والتنعم بمناجاته .

ومنها : أن يتنعم بالطاعة، لا يستثقلها، ويَسقط عنه تعبُه . قال ثابت البُنَاني - يرحمه اللّه - كابدت الصلاة عشرين سنة، وتنعمت بها عشرين سنة .

ومنها : أن يكون شفيقًا علىٰ جميع عباد اللّه، رحيمًا بهم، شديدًا علىٰ أعدائه كما قال تعالىٰ : ﴿ **أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ﴾ (٢) . لا تأخذه في اللّه لومة لائم، ولا يصرفه عن الغضب صارف؛ فالمؤمن الحقيقي لا يحب شيئًا حُبَّه للّه، ولا نفسَه ولا سواه ، لا أشخاصًا ولا اعتباراتٍ ولا شاراتِ الرتب، ولا

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٣١

(٢) سورة الفتح : الآية ٢٩

قيمًا من قيم هذه الأرض التي يجري وراءها الناس، يقول تعالىٰ: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾ (١) . فحب المؤمنين للَّه حب مطلق من كل موازنة، ومن كل قيد، أشد حبًا للَّه من كل حب يتجهون به إلىٰ سواه.

المطلب الثاني: الحب في الله

إن الحب في الأصل هو حب اللَّه - سبحانه وتعالىٰ - وقد تقدم في المطلب الأول، ولكن محبوب المحبوب محبوبٌ، فمحبة الرسول - ﷺ - ومحبة أولياء اللَّه ومحبة المؤمنين جميعًا واجبة وبها يتحقق الإيمان؛ قال تعالىٰ: ﴿ **مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ﴾(٢) . جعل اللَّه الرحمة والمحبة صفتين لرسول اللَّه - ﷺ - ومن معه من الصحابة فهذه الرحمة وهذا الحب والتعاطف والتراحم كله في اللَّه ومن أجل اللَّه - سبحانه وتعالىٰ - ليرضىٰ عنهم ولتكون هذه المحبة بينهم، وأما الكفار فليس لهم إلا الشدة والغلظة، فيتحقق البغض في اللَّه؛ لأن من أحب شيئًا لابد أن يبغض نقيضه، وقال تعالىٰ: ﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ** ﴾(٣) . يقول الأستاذ سيد قطب في تفسير هذه الآية، (لم يعرف تاريخ البشرية كله حادثًا جماعيًا كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين بهذا الحب الكريم، وبهذا البذل السخي، وبهذه المشاركة الرضية، وبهذا التسابق إلىٰ الإيواء، واحتمال الأعباء، حتىٰ ليروىٰ أنه لم ينزل مهاجر في دار أنصاري إلا بقرعة، لأن عدد الراغبين في الإيواء المتزاحمين عليه أكثر من عدد المهاجرين) (٤) فهذا الحب في الاستقبال وهذا الكرم والسخاء من الأنصار نابع من إيمانهم وحبهم لإخوانهم.

وعن أنس بن مالك - رضي اللَّه عنه - عن النبي - ﷺ - قال: «**ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ حَلاوَةَ الإيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيه مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلا للَّه، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ» وفي رواية عن أنس أيضًا: «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ طعم**

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٥

(٢) سورة الفتح: الآية ٢٩

(٣) سورة الحشر: الآية ٩

(٤) سيد قطب - ظلال القرآن (٦: ٣٥٢٦)

الإيمان، من كان يُحبُ المَرْءَ لا يُحبُهُ إلا للّه، ومَنْ كَانَ اللّهُ وَرَسُولُهُ أَحبَّ إلَيـه ممَّا سـواهُمَـا ، ومَنْ كَانَ أنْ يُلْقَى فِي النَّارِ أَحَبَّ إلَيـه منْ أنْ يَرْجعَ إلَى الكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللّهُ منْهُ »(١) . وثبت عنه - ﷺ - أنه قال : «**لاَ يُؤْمنُ أحَدُكُمْ حَتَّى يُحبَّ لأخيه مَا يُحبُّ لنَفْسه**»(٢)

فمن الأحاديث السابقة يتبين لنا منزلة المحبة في اللّه ، وأن من لم يحب أخاه في اللّه لم يذق طعم الإيمان ، وأن من لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه لم يبلغ درجة الإيمان التي أشار إليها النبي - ﷺ - في حديثه الشريف .

من ذلك تكون المحبة في اللّه من عوامل تزكية النفس التي لابد لكل مسلم أن يزكي نفسه بها ؛ حتى يكون حبه وبغضه موافقين لما أمر اللّه به ولما نهى عنه .

والرجل العسكري - الذي نعده لمعركة الحق - لابد أن يكون حبه في اللّه وللّه ؛ فلا يحب لمنصب أو جاه أو مال أو متاع من الدنيا ، فعليه أن يحب المرء لذاته وما يتمتع به من استقامة وتطبيق لمنهج اللّه والتزام بشريعته ، فيصير حبه لقائده وإخوانه من هذا المنطلق فيكون حبًا في اللّه .

وفي ذلك يقول المصطفى - ﷺ - : « **مَا تَحَابَّ اثْنَانِ فِي اللّهِ إلا كَانَ أحَبُّهمَا إلَى اللّهِ أشَدَّهُمَا حُبًا لصَاحبِه**»(٣) وعن أبي هريرة - رضي اللّه عنه - عن النبي - ﷺ - «**أنَّ رَجُلاً زَارَ أخًا لَهُ فِي قَرْيَة أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللّهُ عَلَى مَدْرَجَته**(٤) **مَلَكًا فَلَمَّا أتَى عَلَيه قَالَ: أيْنَ تُرِيدُ ؟ قَالَ: أُرِيدُ أخًا لي في هَذه القَرْيَة. قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيه منْ نعْمَة تَرُبُّها**(٥) **قَالَ: لا، غَيْرَ أنِّي أُحبُّهُ فِي اللّهِ، قَالَ: فَإنِّي رَسُولُ اللّهِ إلَيْكَ**

---

(١) البخاري - الجامع الصحيح كتاب الإيمان، باب (٩) ص٩ - ١٠ طبعة تركيا ومسلم - صحيح مسلم كتاب الايمان، باب خصال الإيمان (٢ : ١٣) (١ : ٦٦) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

(٢) البخاري - الجامع الصحيح ، كتاب الإيمان ، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (١ : ٩) طبعة تركيا . ومسلم - صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب من خصال الإيمان أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك (٢ : ١٦) وانظر طبعة الافتاء (١ : ٦٧)

(٣) الحافظ المنذري - الترغيب والترهيب (٤ : ١٦) وعزاه للطبراني وأبي يعلى وابن حبان .

(٤) المدرجة - بفتح الميم والراء - الطريق

(٥) تربها - أي تقوم بإصلاحها وتنهض إليه بسبب ذلك .

أنَّ اللَّهَ قَدْ أحَبَّكَ كَمَا أحْبَبْتَهُ فيه(١) . وعنه أيضًا قال : قال رسول اللَّه ـ ﷺ ـ «**إنَّ اللَّهَ يَقُولُ يومَ القِيامَةِ: أينَ المُتَحَابُّونَ بجَلالِي**(٢) **اليومَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يومَ لا ظِلَّ إلاَّ ظِلِّي**»(٣) .

وعن معاذ ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : سمعت رسول اللَّه ـ ﷺ ـ يقول : «**قَالَ اللَّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ المُتَحَابُّونَ فِي جَلالِي لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمْ النَّبِيُّون وَالشُّهَدَاءُ**»(٤) .

فيتبين لنا من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ، أن تزكية النفس بالحب في اللَّه من أهم ما يحتاج إليه العسكري المسلم ليكون حبه وهواه تبعًا لما جاء عن اللَّه ورسوله، وأن يتمثل بقوله تعالى : ﴿**قُلْ إنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾(٥) .

---

(١) مسلم ـ صحيح مسلم، طبعة دار الإفتاء، الحلبي ، بتحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ، رقم الحديث ٢٥٦٧، (٤ : ١٩٨٨).

(٢) أي بعظمتي وطاعتي

(٣) اخرجه مسلم في كتاب البر والصلة، باب الحب في الله وفضل عيادة المريض (١٦ : ١٢٣) وطبعة دار الإفتاء برقم ٢٥٦٦ (٤ : ١٩٨٨)

(٤) الترمذي ـ صحيح الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في الحب في الله (٤ : ٥٩٧ ـ ٥٩٨) وقال الترمذي حديث حسن صحيح

(٥) سورة الأنعام : الآيتان ١٦٢ ـ ١٦٣

المبحث الثالث

الإيثار

مما لا شك فيه أن الإيثار أثر من آثار الإيمان، وحب المؤمنين بعضهم بعضًا، وهو علامة على صدق الإيمان، وقد مدح اللَّه تعالى به الأنصار في كتابه العزيز إذ يقول: ﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾(١)

(والإيثار هو تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية رغبةً في الحظوظ الدينية، وذلك ينشأ عن قوة اليقين وتوكيد المحبة، والصبر على المشقة، يقال: أثرته بكذا أي خصصته به وفضلته)(٢).

وقد قام الأنصار بدور مهم في الإيثار، عندما قدم عليهم المهاجرون فقراء لا مال لهم ولا دور ولا خبرة لهم بالبلد ولا بأهله، بحيث لم يكونوا متمكنين من الكسب فشاطروهم أموالهم وديارهم وآثروهم على أنفسهم في الغنيمة والفيء وغيرها، حتى استقروا وتمكنوا واستوطنوا، وفتح اللَّه على يد رسوله محمد - ﷺ - بعض البلدان كخيبر، فلما أغناهم اللَّه ردوا عليهم منائحهم وما كان لهم عندهم(٣) بعد أن تهيأت الأمة الإسلامية للمعركة وكونت جيشًا من المهاجرين والأنصار قادرًا على مجابهة العدو ذا عدة وعدد؛ وذلك بسبب الإيثار الذي وقع من الأنصار لإخوانهم المهاجرين، فقد آخى النبي - ﷺ - بينهم لّما قدم المدينة، ولما آخى بينهم رضيت الأنصار بأن تشاطر المهاجرين إخوانهم فيما يملكون، وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره أنه - عليه الصلاة والسلام - لما قدم المدينة وآخى بين المهاجرين والأنصار آخى بين عبدالرحمن بن عوف المهاجري وسعد بن الربيع الأنصاري، فقال سعد لعبدالرحمن: إني أكثر

---

(١) سورة الحشر: جزء من الآية ٩

(٢) القرطبي - الجامع لأحكام القرآن (١٨: ٢٦)

(٣) انظر البخاري - الجامع الصحيح، كتاب الهبة، باب فضل المنيحة (٣: ١٤٤)

الأنصار مالاً فاقسم مالي نصفين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمّها لي أطلقها، فإذا انقضت عدتها تزوجتها. قال: بارك اللّه لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلوه علىٰ سوق بني قينقاع..[1].

وفي البخاري أيضًا أن المهاجرين لما قدموا المدينة قالت الأنصار: اقسم بيننا وبينهم النخيل. قال: لا. فقالوا: تكفونا المؤونة ونشرككم في الثمرة. قالوا: سمعنا وأطعنا[2].

فهذا النوع من الإيثار لا شك أنه من أعظم أسباب تهيئة الأمة الإسلامية لتتحد ضد أعدائها؛ إذ بالإيثار يحصل التوادّ والتراحم وتقوىٰ بين المسلمين الروابط ويذوقون طعم المؤاخاة في اللّه والمحبة فيه، فكل منهم يؤثر أخاه علىٰ نفسه فيفاديه بنفسه وماله، وبهذا قامت دولة الإسلام، وقُهر ملوك الدنيا بأسرها شرقًا وغربًا، فقهروا دولة الفرس بهذا الإيثار والبذل والإخاء والتعاطف والتراحم، كما كان سببًا توصلوا به إلىٰ قهر القياصرة وغيرهم.

من هذا يتبين لنا أن الإيثار هو قمة التزكية للنفوس المسلمة، وهو درجة من درجات الإيمان، عندما تصل إليها الأمة المسلمة، فإنه لن يقف أمامها عدو أو متربص، كائنًا من كان، وكائنة ما كانت قوته أو سطوته؛ لأنها تكون حينها قد أخذت بأسباب قوتها ونصرها.

---

(١) اخرجه البخاري في كتاب مناقب الانصار باب إخاء النبي بين المهاجرين والأنصار (٤ : ٢٢٢) وفي كتاب النكاح، باب الوليمة ولو بشاة (٦ : ١٤٢)

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الحرث والمزارعة، باب إذا قال أكفني مؤنة النخل (٣ : ٦٧) وفي كتاب مناقب الانصار، باب إخاء النبي ـ ﷺ ـ بين المهاجرين والأنصار (٤ : ٢٢٢).

المبحث الرابع

الصبر والمصابرة

الصبر في اللغة : الحبس، ويقال: صبره أي حبسه، وفي هذا يقول اللّه تعالىٰ: ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ** ﴾(١) أي احبس نفسك معهم .

الصبر نقيض الجزع، والجزع: الحزن، فالصبر: حبس النفس عن الجزع، ويقال: صبر فلان عند المصيبة، إذا حبس نفسه عن الجزع والتسخط ولسانه عن الشكوىٰ، وجوارحه عن التشويش(٢).

وقال الجرجاني: الصبر هو ترك الشكوىٰ من ألم البلوىٰ لغير اللّه لا إلىٰ اللّه؛ لأن اللّه تعالىٰ أثنىٰ علىٰ أيوب ـ عليه السلام ـ بالصبر بقوله: ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا** ﴾(٣). مع دعائه في رفع الضر عنه بقوله: ﴿ **وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾(٤). فعلمنا أن العبد إذا دعا اللّه تعالىٰ في كشف الضر عنه لا يقدح في صبره(٥).

والمصابرة: من صابره مصابرة وصباراً، غالبه في الصبر، وناصره وظاهره(٦).

والمصابرة هي مصابرة الأعداء، وقيل هي: إدامة مخالفة النفس عن شهواتها، فهي تدعو وهو ينزع، وقال عطاء والقرظي: صابروا الوعد الذي

---

(١) سورة الكهف : الآية ٢٨

(٢) الجوهري ـ الصحاح (٢ : ٧٠٦) والرازي ـ مختار الصحاح (ص٣٥٥)

(٣) سورة ص : الآية ٤٤

(٤) سورة الأنبياء : الآية ٨٣

(٥) الجرجاني ـ التعريفات (ص١٣١)

(٦) الزبيدي ـ تاج العروس (٣ : ٣٢٦)، ومجمع اللغة العربية ـ المعجم الوسيط (١ : ٥٠٨)

وعدتم أي لا تيأسوا وانتظروا الفرج [١].

والمصابرة : مفاعلة من الصبر ، ومصابرة الأعداء الذين يحاولون جاهدين أن يفلوا من صبر المؤمنين فلا ينفد صبر المؤمنين على طول المجاهدة ، بل يظلون أصبر من أعدائهم وأقوى [٢].

وقد ذكر الصبر في القرآن الكريم في مواضع كثيرة فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[٣] يبين الله تعالى أن أجود ما يستعان به على تحمل المصائب في سبيل الله الصبر والصلاة وتحقيق معيته للصابرين، وقوله تعالى : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾[٤] وفي ذلك يبين الله لنا أشد مواقف الصبر فـ(البَأْسَاء) هي : الشدة عند حلولها بهم، و(الضَّرَّاء) هي الحالة التي تضر وهي نقيض السراء و(حِينَ البَأْسِ) أي وقت مجاهدة العدو في موطن الحرب، وزيادة (الحين) للإشعار بوقوعه أحيانًا ،وسرعة انقضائه، ومعنى (البَأْسِ) في اللغة الشدة، يقال لا بأس عليك في هذا أي : لا شدة، (عذاب بئيس) شديد، وسميت الحرب بأسًا لما فيها من الشدة، والعذاب يسمى بأسًا لشدته ، وقال الراغب : استوعبت هذه الجملة أنواع الضر؛ لأنه إما أن يحتاج إلى الصبر في شيء يعوز الإنسان ، أو يريده فلا يناله وهو البأساء ، أو فيما نال جسمه من ألم وهو الضراء، أو في مدافعة مؤذيه وهو البأس.

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ في إيمانهم لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال؛ فلم تغيرهم الأحوال ولم تزلزلهم الأهوال، وفيه إشعار بأن من لم يفعل أفعالهم لم يصدق في دعواه الإيمان .﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ عن الكفر وسائر الرذائل[٥].

والآيتان الكريمتان تدلان بوضوح أن على كل مسلم أن يُروض نفسه على

(١) القرطبي ـ الجامع لأحكام القرآن (٤ : ٣٢٢ـ ٣٢٣)

(٢) سيد قطب ـ ظلال القرآن (١ : ٥٢٢)

(٣) سورة البقرة : الآية ١٥٣ .

(٤) سورة البقرة : الآية ١٧٧ .

(٥) محمد جمال الدين القاسمي ـ تفسير القاسمي (٣: ٥٣ ـ ٥٤).

الصبر، ولكن الصبر للعسكري المسلم شيء أساسي ومهم جداً، وفي ذلك يبين لنا اللّٰه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ كيف أعد طالوت جيشه ممن لم يتولوا عن فريضة الجهاد ولم ينكصوا عن عهدهم مع نبيهم من أول الطريق، يقول اللّٰه تعالىٰ: ﴿ **فلمّا فصل طالوت بالجنود قال إنّ اللّه مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منّي ومن لّم يطعمه فإنّه منّي إلاّ من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلاّ قليلا منّهم** ﴾(١). ولابد للقائد ـ إذاً ـ أن يبلور إرادة جيشه وصموده وصبره: صموده للرغبات والشهوات وصبره علىٰ الحرمان والمتاعب، فاختار هذه التجربة وهم ـ كما تقول الروايات ـ عطاش، ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب علىٰ عقبه ويؤثر العافية. وصحت فراسته ﴿ **فشربوا منه إلاّ قليلاً منّهم** ﴾ فانفصلوا عنه بمجرد استسلامهم لرغباتهم ونكوصهم فأصبحوا لا يصلحون للمهمة الملقاة علىٰ عواتقهم فكان من الخير والحزم أن ينفصلوا عن الجيش الزاحف؛ لأنهم موطن ضعف وخذلان وهزيمة.

والجيوش ليست بالعدد الضخم، ولكن بالقلب الصامد والإرادة الجازمة، والإيمان الثابت المستقيم علىٰ الطريق، ولقد كان هذا الابتلاء لتمييز الخبيث من الطيب وكانت وسيلته الصبر، فكان علىٰ العسكري المسلم أن يزكي نفسه بالصبر لتظهر مقدرته في السيطرة علىٰ إرادته، وصموده أمام رغباته وشهواته وقوة جلده في المكاره، ومجابهة الأعداء؛ فبالصبر يبرز اللّٰه الفئة المؤمنة القليلة المنتصرة، ويفرغ اللّٰه عليها صبراً من عنده، فتنتصر علىٰ عدوها مهما كان عدده، وفي ذلك يقول اللّٰه تعالىٰ: ﴿ **كم مّن فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن اللّه واللّه مع الصّابرين** ﴾(٢). هذا منطق الفئة الصابرة الصادقة في إيمانها مع ربها، صدقوا ما عاهدوا اللّٰه عليه، ففي هذه القصة التي يحكيها القرآن الكريم تظهر نتيجة الصبر والابتلاء، وفي صبرهم علىٰ العطش، وتظهر المصابرة في مقاتلتهم الأعداء وصبرهم علىٰ البأساء والضراء، وفي هذا يقول اللّٰه تعالىٰ: ﴿ **يا أيّها الّذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتّقوا اللّه لعلّكم تفلحون** ﴾(٣). النداء للمؤمنين بأن يصبروا علىٰ مشاق الطاعات، وما يمسهم من المكاره والشدائد،

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٤٩.

(٢) سورة البقرة: جزء من الآية ٢٤٩.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٢٠٠.

وقوله (وَصَابِرُوا) أي غالبوا أعداء اللّه في الصبر على شدائد الجهاد ولا تكونوا أقل صبراً منهم وثباتاً، والمصابرة باب من الصبر ذُكر بعد الصبر على ما يجب الصبر عليه تخصيصاً لشدته وصعوبته، (وَرَابِطُوا) أي : أقيموا على مرابطة الغزو في نحر العدو بالترصد والاستعداد لحربهم[(١)] ولقد أمر اللّه عباده المؤمنين بالصبر، ونهى عن ضده، وأثنى على أهله وأوجب محبته ومعيته لأهل الصبر، وذكر سبحانه أن الصبر خير لأصحابه، وأنه سبب للمدد من اللّه والبُشرى والجزاء بغير حساب، وأن أهل الصبر هم أهل العزائم والحظوظ العظيمة، وأنهم ممن ينتفعون بالآيات والعبر، وبالصبر تنال الإمامة في الدين[(٢)] وكل ذلك له شواهد في القرآن منها ما قدمنا، وشواهد في الحديث والأثر، ومنها :

ما ورد في الحديث الصحيح : «**عَجَبًا لأمْرِ المُؤْمنِ؛ إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، ولَيسَ ذَلكَ لأحَدٍ إلا للمُؤْمنِ؛ إنْ أصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيرًا لَه، وإنْ أصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيرًا لَهُ**» [(٣)].

وعن أبي سعيد الخدري - رضي اللّه عنه - قال : قال رسول اللّه - ﷺ - «**مَا يَكُونُ عِنْدي مِنْ خَيرٍ فَلَنْ أدَّخِرَهُ عَنْكُم، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعطِيَ أحَدٌ عَطَاءً خَيرًا وَأوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**»[(٤)].

فمن الأحاديث السالفة الذكر نجد أن المسلم لا غنى له عن الصبر، وهو عدة العسكري المسلم وعتاده، يُزكي به نفسه فيصبر عن الشهوات المحرمة ويُلزم نفسه بطاعات اللّه وأوامره، ويكون صابراً لقضاء اللّه وقدره، راضياً محتسباً ما يناله من الأذى، مصابراً لأعداء اللّه، ينتظر إحدى الحسنيين، إما الشهادة وإما النصر، فعلى العسكري المسلم أن يصبر على طاعة اللّه بالقيام بكل ما أوجبه عليه، وأن يصبر عن معصية اللّه باجتناب ما نهى اللّه عنه من

---

(١) محمد جمال الدين القاسمي . . تفسير القاسمي (٤ : ٣٣٦).

(٢) ابن القيم - مدارج الساكين (٢ : ١٥٢) والمقدسي - منهاج القاصدين (ص٢٩٤).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الزهد (١٨ : ١٢٥).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة (٢ : ١٢٩) وفي كتاب الرقاق باب الصبر عن محارم الله (٧ : ١٨٣). ومسلم في كتاب الزكاة باب فضل التعفف والصبر (٧ : ١٤٥).

الصغائر والكبائر وأن يصبر على امتحان اللَّه فيما يبتلى به مما ليس له كسب فيه، وأن يُصابر الأعداء يوم اللقاء؛ فهو اليوم الذي أعد له واحتاج إلى صبره في مصابرة الأعداء ومجالدتهم، وفي ذلك يقول المودودي - رحمه اللَّه - (فمهما بلغ الرجل الغاية في الصبر، واستولى على الأمد في حلبته فلابد له أن يقف تحمله وينفد ثباته عند حد معلوم إذا كان لأغراض عاجلة؛ لأنه يستمد قوته ويتغذى من الجذور الفكرية للشرك والعبودية المادية، أما الصبر الذي يستجلب قوته من جذور التوحيد والذي لا يُبتغى من ورائه إلا وجه اللَّه تعالى فهو كنز مكنوز لا تصل إليه يد السارق وجيش عرمرم من الثبات والبسالة لا يقدر أن يقف في وجهه سائر الشدائد والأهوال الممكنة في هذه الدنيا.

ثم إن الصبر لغير المسلمين من نوع محدود ضيق جداً، فبينما تراه خائضاً غمار المعركة ثابتاً أمام هجمات الرشاشات، والقنابل ثبات الجبال الراسيات، إذ به تراه مستسلماً لشهوات النفس الجانحة، لا يكاد يملك نفسه وعواطفه أمام هزة يسيرة من هزات الغريزة الثائرة. أما الإسلام فيطبّق الصبر ويوسع تطبيقه على سائر الحياة الإنسانية ويجعله سداً منيعاً ومعقلاً حصيناً ليس دون أخطار وأهوال معدودة فقط، بل دون كل من يحاول تنكيب الإنسان عن الصراط المستقيم من المطامح والأخطار والوساوس والرغبات[1].

وفي المصابرة التي سجلها التاريخ للمسلمين ما ذكره ابن كثير - رحمه اللَّه - حيث قال: (لما وصل أبو عبيدة في اتّباعه الروم المنهزمين إلى حمص نزل حولها يُحاصرها، ولحقه خالد بن الوليد فحاصروها حصاراً شديداً، وذلك في زمن البرد الشديد، وصابر أهل البلد رجاء أن يصرفهم عنهم شدة البرد، وصبر الصحابة صبراً عظيماً؛ بحيث أنه ذُكر غير واحد أن من الروم من كان يرجع وقد سقطت رجله وهي في الخف والصحابة ليس في أرجلهم شيء سوى النعال، ومع هذا لم يصب منهم قدم ولا أصبع أيضاً، ولم يزالوا كذلك حتى انسلخ فصل الشتاء واشتد الحصار، وأشار بعض كبار أهل حمص عليهم بالمصالحة، فأبوا عليه ذلك وقالوا: أنصالح والملك منا قريب؟)، إلى أن قال: (فجاءت عامّتهم إلى خاصّتهم فقالوا: ألا تنظرون إلى ما أنزل بنا وما نحن فيه؟ ألا تصالحون القوم عنا؟ فصالحوهم على ما صالحوا عليه أهل دمشق على

(١) المودودي ـ الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية (ص٢٦).

(٢) ابن كثير ـ البداية والنهاية (٧ : ٥٢).

نصف المنازل وضرب الخراج على الأراضي وأخذ الجزية على الرقاب)[٢].

المبحث الخامس

الترغيب في الشهادة

معنى الشهيد : الشهيد في اللغة مشتق من الشهادة ومعناها الخبر أو الحضور.

والشهيد في الشرع : القتيل في سبيل اللّه، وقال ابن الأثير : الشهيد في الأصل من قُتل مجاهداً في سبيل اللّه، واختلف في سبب تسميته؛ فقيل لأن الملائكة تشهده أي تحضر غسله، أو نقل روحه إلى الجنة، أو لأن اللّه وملائكته شهود له بالجنة، أولأنه ممن يستشهد يوم القيامة مع النبي - ﷺ - على الأمم الخالية التي كذبت أنبياءها في الدنيا، قال اللّه - عز وجل - ﴿ **لِيكونَ الرّسولُ شهيداً عليكُمْ وتكُونُوا شُهداءَ على النّاسِ** ﴾[١] وقد ذكر ابن حجر تعليلاً لهذه التسمية عند شرحه لكتاب الجهاد في فتح الباري، فقال :

١ - إن الشهيد حي فكأنما روحه شاهدة أي حاضرة.
٢ - لأن اللّه وملائكته يشهدون له بالجنة.
٣ - وقيل لأنه يشهد عند خروج روحه ما أعد اللّه له من الكرامة.
٤ - وقيل : لأنه يشهد له بالأمان من النار.
٥ - وقيل : لأن الملائكة تشهد له بحسن الخاتمة.
٦ - وقيل : لأن الأنبياء تشهد له بحسن الاتباع.

وهناك أقوال أخرى ذكرها ابن حجر حول التسمية تراجع في محلها[٢].

وقد عرف الفقهاء الشهيد فقالوا : (مسلم مكلف مقتول مظلوم، وألا يكون في قتله مال إلا القصاص، سواء كان مقاتلاً لأهل الحرب أو قطاع الطرق

---

(١) سورة الحج : الآية ٧٨. انظر الفيومي - المصباح النير (١ : ٣٤٨)، والرازي - مختار الصحاح (ص٣٤٩)، ومجمع اللغة - المعجم الوسيط (١ : ٥٠٠) والزبيدي - تاج العروس (٢ : ٣٩١).
(٢) ابن حجر - فتح الباري، كتاب الجهاد، باب الشهادة سبع سوى القتل (٦ : ٤٢ - ٤٣).
(٣) الكاساني - بدائع الصنائع (١ : ٣٢٠).

و مدافعًا عن نفسه وماله وأهله أو أحد من المسلمين أو أهل الذمة، وأما المبطون والغريق والحريق والغريب فلهم ثواب الشهيد لا لقب الشهيد)(٣).

فالشهادة أسمى درجات الإخلاص والتفاني في سبيل المبدأ والعقيدة وأصدق برهان على صحة الإيمان وطريق الخلود في جنان اللّه والفوز برضوان اللّه تعالى(١).

ولقد خص الله الشهيد بالذكر في القرآن الكريم في أربع آيات كريمات :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ **وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ** ﴾(٢).

وفي هذه الآية إشارة واضحة إلى أن الشهادة إنما هي اصطفاء وتكريم من الله عز وجل لبعض عباده الأخيار، وأن الشهادة لا تكون لكل أحد من الناس، فالله سبحانه وتعالى يكرم بها من يشاء من خلقه .

والثانية : قوله تعالى : ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا** ﴾(٣). وفي هذه الآية يبين لنا الله سبحانه وتعالى درجة المصطفين الأخيار من شهدائه أنهم مع النبيين والصديقين، ومن تكون له هذه المنزلة إلا من أكرمه الله بالشهادة .

ثم تأتي الصورة الناصعة للشهداء يوم القيامة، يوم يؤتى بهم مع النبيين ليشهدوا يوم القيامة لمن ذب عن دين الله، وذلك شرف عظيم وموقف عظيم نالوه بالشهادة، يقول الله عز وجل في هذه الآية الثالثة : ﴿ **وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ** ﴾(٤).

ثم يبين الله لنا أنهم لم يصلوا إلى رتبة الصديقين والشهداء إلا بعد أن جعلوا الإيمان بالله عقيدتهم فبذلوا النفوس رخيصة لله ولإعلاء كلمة الله .

وذلك في قوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ** ﴾(٥).

(١) د. وهبة الزحيلي ـ الفقه الاسلامي وأدلته (٢ : ٥٥٢).
(٢) سورة آل عمران : الآية ١٤٠ .
(٣) سورة النساء : الآية ٦٩ .
(٤) سورة الزمر : الآية ٦٩ .
(٥) سورة الحديد : الآية ١٩ .

لقد أعد الله للشهداء من الكرامة والنعيم الأبدي ما يجعل كل نفس زكية تتوق إلىٰ الشهادة وترغب فيها لتفوز بالأجر العظيم .

قال تعالىٰ : ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾(١) .

وقال تعالىٰ : ﴿ **وَلا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ** ﴾(٢) . فالآيتان الكريمتان من سورة آل عمران يؤكد اللَّه سبحانه وتعالىٰ فيهما حياة الشهداء عند ربهم ، وما نالهم من الرزق والفرح والسرور بفضله وإحسانه وتوفيقه لهم علىٰ هذه المرتبة العظيمة ، والحياة الكريمة واستبشارهم بإخوانهم ممن هم علىٰ طريق الشهادة أو النصر ، ويطمئنونهم علىٰ لسان الحق سبحانه وتعالىٰ بعدم الخوف أو الحزن وإنما يقولون لهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبىٰ الدار .

وفي الآية الأخيرة ينهانا اللَّه سبحانه وتعالىٰ أن نقول لهم أمواتٌ ؛ لأنهم أحياء عند اللَّه ولا نشعر بكيفية حياتهم ، فهي حياة برزخية ولكن اللَّه وفقهم في الحياة الدنيا لرفع كلمة لا إله إلا اللَّه فأحيا اللَّه ذكرهم بما قاموا به من الأعمال المجيدة والفتوحات الإسلامية ونشر الدعوة ، فأضحىٰ الناس لا يمكن أن ينسوا لهم ذلك ، وكان كل من أسلم علىٰ يديهم هداية أو فتحًا جعل اللَّه لهم مثل أجره في صحائفهم متسلسلاً في ذرياتهم ؛ فالشهادة في سبيل اللَّه منزلة عظيمة لا ينالها إلا العظماء من المسلمين ممن وفقهم اللَّه لها فأخلصوا النية وصبروا وصابروا ورابطوا في سبيل اللَّه ، ومما ورد في السنة الثابتة عن النبي ـ ﷺ ـ « **إِنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي جَوْفِ طَيرٍ خُضْرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الجَنَّةِ حَيثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ القَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيهِمْ رَبُّهُمْ اطِّلاعَةً، فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيئًا؟ قَالُوا: أَيَّ شَيءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الجَنَّةِ حَيثُ شِئْنَا! فَعَلَ بِهِمْ ذَلِكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يَسْأَلُوا قَالُوا:**

(١) سورة آل عمران : الآية ١٦٩ـ١٧٠ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٥٤ .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة (٣ : ١٥٠٢) .

يَارَبُّ نُرِيدُ أَنْ تُرَدَّ أَرْوَاحُنَا فِي أَجْسَادِنا؛ حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى. فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا»(٣).

وعن أنس بن مالك - رضي اللَّه عنه - عن النبي - ﷺ - قال : «**مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ لَهَا عِنْدَ اللَّهِ خَيرٌ يَسُرُّهَا أَنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى الدُّنْيَا وَلا أَنَّ لَهَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا إِلا الشَّهِيدُ؛ فَإِنَّهُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ فَيُقْتَلَ فِي الدُّنْيَا؛ لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَة**» وعنه - رضي اللَّه عنه - عن النبي - ﷺ - قال : «**مَا مِنْ أَحَدٍ يَدْخُلُ الجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا وَأَنَّ لَهُ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَيءٍ غَيرَ الشَّهِيدِ؛ فَإِنَّهُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ؛ لِمَا يَرَى مِنَ الكَرَامَةِ**»(١).

فالشهيد فضله عظيم ومكانته رفيعة، فإذا كان اللَّه - سبحانه وتعالىٰ - فضل المجاهدين علىٰ القاعدين فالشهداء أكثر فضلاً وأعظم تشريفًا.

فالمسلم الذي أكرمه اللَّه بالإسلام لابد أن تتوق نفسه إلىٰ منازل الشهداء. وهنيئًا لمن كانت الشهادة مطلبه و الجندية الإسلامية حرفته، والجهاد في اللَّه وسيلته، فنعمت الغاية ونعمت الوسيلة.

وإليك هذا النموذج من الشهداء في سبيل اللَّه وحبهم لقاء اللَّه - عز وجل - وتَوْقِهِمْ إلىٰ ذلك :

في بدر حين أصدر النبي - ﷺ - أوامره الأخيرة في الهجمة المضادة فقال : شدوا، وحرضهم علىٰ القتال، قائلاً : «**وَالذي نَفْسُ مُحَمَّد بيَده لا يُقَاتِلُهُمُ اليَومَ رَجُلٌ فَيُقْتَلُ صَابِرًا مُحْتَسِبًا مُقْبِلاً غَيرَ مُدْبِرٍ إلا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ**» وقال وهو يحضهم علىٰ القتال : «**قُومُوا إِلَى الجَنَّةِ عَرْضُهَا السَّمواتُ وَالأَرْضُ**». و حينئذ قال عمير بن الحمام - رضي اللَّه تعالىٰ عنه - : بَخٍ بَخٍ (٢) فقال رسول اللَّه -

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٣ : ١٤٩٨) والبخاري، كتاب الجهاد، باب تمني المجاهد أن يرجع إلىٰ الدنيا (٣ : ٢٠٨).

(٢) بَخْ : كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشيء أو المدح أو الفخر، تقول : بَخْ وبَخٍ، وتقول مكررا : بَخٍ بَخٌ و بَخٍ بَخٍ . مجمع اللغة ـ المعجم الوسيط (١ : ٤).

ﷺ ـ: مَا يَحْمِلُكَ عَلَىٰ قَوْلِكَ : بَخٍ بَخٍ ؟ قال: لا واللَّه يارَسُول اللَّهِ، إلا رَجَاءَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، فقال ـ ﷺ ـ: إِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا. فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قَالَ : لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّىٰ آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ، إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ ! فرمىٰ بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتىٰ استشهد ـ رضي اللَّه عنه[1].

---

(١) المباركفوري ـ الرحيق المختوم (ص٢٤٢) . وانظر صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد طبعة دار الإفتاء (٣١ : ١٥٠٩ ـ ١٥١٠).

المبحث السادس

الترهيب من المعاصي

الترهيب : مصدر رهَّبَ تَرْهِيبًا إِذَا أخافه ، يقال رَهِبَ بالكسر يَرْهَبُ رَهْبَةً وَرُهْبًا بالضم ، وَرَهَبًا بالتحريك أي خاف ، ويقال : أَرْهَبَهُ وَاسْتَرْهَبَهُ إذا أخافه .

المعاصي : جمع معصية ، وهي مصدر ميمي ، وفي الصحاح : عصاه بالفتح يعصيه عصيا ومعصية ، وهو خلاف الطاعة(١) ، وفي الشرع : هو مخالفة الشارع بترك واجب أو فعل محرم ، والمعصية اسم مرادف للحرام (ما ذُمَّ فاعله ولو قولاً أو عمل قلب)(٢) .

ومن أهم عوامل تزكية النفس وتطهيرها الترهيبُ من المعاصي ؛ لأن النفس لا تزكىٰ إلا بالطاعة وتقوىٰ اللَّه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ؛ لأن في الطاعة سببًا للهداية ، يقول اللَّه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ﴿ **وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ** ﴾(٣) . والمعاصي لا تكسب العبد إلا ظلمة في قلبه وظلمة في وجهه ، وضيقًا وقلقًا في نفسه ، وتعاسة وشقاء في الدنيا والآخرة ، والمعاصي سبب في زوال النعم وحلول النقم والندم ؛ حيث لا ينفع الندم ، وهي سبب في زوال الإيمان وحلول اللعنة وغضب الرحمن والذل والمسكنة والهوان قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ **ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ** ﴾ ، ثم قال : ﴿ **ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ** ﴾(٤) . والمعاصي سبب في لعن أهل الكتاب وامتحانهم بما أخبر اللَّه تعالىٰ عنهم مرة بالقتل والسبي ، وجور الملوك حيث يسومونهم سوء العذاب يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ، وأخرىٰ بخراب الديار ونهب الأموال ، قال تعالىٰ : ﴿ **لُعِنَ**

---

(١) الجوهري ـ الصحاح ، مادة رهب (١ : ١٤٠) ومادة عصىٰ (٦ : ٢٤٢٩)

(٢) المدخل إلىٰ مذهب الإمام أحمد بن حنبل للعلامة عبد القادر بن بدران الدمشقي ، تحقيق د . التركي ، ط مؤسسة الرسالة ط٣ ١٤٠٥هـ ص١٥٣ .

(٣) سورة النور : الآية ٥٤ .

(٤) سورة آل عمران : الآية ١١٢ .

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾(1). فهي المعصية والاعتداء يتمثلان في كل صورهما العقدية والسلوكية على السواء، وقد حفل تاريخ بني إسرائيل بالمعصية والاعتداء، حيث لم تكن أعمالاً فردية في مجتمع بني إسرائيل، ولكنها انتهت إلى أن تصبح طابع الجماعة كلها وأن يسكت عنها المجتمع ولا يُقابلها بالتناهي والنكير، والعصيان والعدوان قد يقعان في كل مجتمع من الشريرين والمفسدين المنحرفين، فالأرض لا تخلو من الشر، والمجتمع لا يخلو من الشذوذ، ولكن طبيعة المجتمع الصالح لا تسمح للشر والمنكر أن يُصبحا عرفًا مصطلحًا عليه، وأن يصبحا سهلاً يجترئ عليه كل من يهمّ به(2).

ويحذرنا اللَّه - سبحانه وتعالى - من المعاصي ظاهرها وباطنها ويأمرنا بالابتعاد عنها، فيقول اللَّه تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾(3).

والإثم في اللغة: القبيح الضار، وفي الشرع: كل ما حرّمه اللَّه تعالى، وهو لم يحرم على العباد إلا ما كان ضاراً بالأفراد في أنفسهم أو أموالهم أوعقولهم أو أعراضهم أو دينهم أو ضاراً بالجماعات في مصالحهم السياسية أو الاجتماعية، والظاهر منه ما فعل علنًا، والباطن ما فعل سراً، أو الظاهر: ما تعلق بالأعمال الجوارح، والباطن ما تعلق بأعمال القلوب كالنيات والكبر والحسد والتفكير في تدبير المكايد الضارة والشرور(4) وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾(5). والفواحش كل ما أفحش - أي تجاوز الحد وإن كانت أحيانا تخص بنوع منها وهو فاحشة الزنا، ويغلب على الظن أن يكون هذا هو المعنى المراد في هذا الموضع؛ لأن المجال مجال تعديد محرمات بذاتها فتكون هذه واحدة منها بعينها، وإلا فقتل النفس فاحشة، وأكل مال اليتيم فاحشة، والشرك باللَّه فاحشة الفواحش، فتخصيص الفواحش هنا بفواحش الزنا أولى

---

(1) سورة المائدة: الآية 78.

(2) سيد قطب - ظلال للقرآن (2: 947)

(3) سورة الأنعام: الآية 120.

(4) رشيد رضا - تفسير المنار (8: 21)

(5) سورة الأنعام: جزء من الآية 151.

بطبيعة السياق وصيغة الجمع ؛ لأن هذه الجريمة ذات مقدمات وملابسات كلها فاحشة مثلها فالتبرج والتهتك والاختلاط المثير والكلمات والإشارات والحركات والضحكات الفاجرة والإغراء والتزين والاستثارة كلها فواحش تحيط بالفاحشة الأخيرة ، وكلها فواحش منها الظاهر ومنها الباطن ، منها المستتر في الضمير ومنها البادي في الجوارح . . وكلها مما يحطم قوام الأسرة وينخر في جسم الجماعة فوق ما يلطخ ضمائر الأفراد ويحقر من اهتماماتهم ؛ ولأن هذه الفواحش ذات إغراء وجاذبية كان التعبير ﴿وَلا تَقْرَبُوا﴾ للنهي عن مجرد الاقتراب سدا للذرائع واتقاءً للجاذبية التي تضعف معها الإرادة ، لذلك حرمت النظرة الثانية بعد الأولىٰ غير المتعمدة ، ولذلك كان الاختلاط ضرورة تباح بقدر الضرورة ، ولذلك كان التبرج حتىٰ بالتعطر في الطريق حرامًا ، وكانت الحركات المثيرة والضحكات والإشارات المثيرة ممنوعة في الحياة الإسلامية النظيفة ، فهذا الدين لا يريد أن يعرض الناس للفتنة ثم يكلف أعصابهم عنتًا في المقاومة ؛ فهو دين وقاية قبل أن يقيم الحدود ويوقع العقوبات ، وهو دين حماية للضمائر والمشاعر والحواس والجوارح[1]

وهذه وصية عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ أمير المؤمنين إلىٰ سعد بن أبي وقاص ومن معه من الأجناد الذين توجهوا لحرب فارس : (أما بعد ، فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوىٰ اللَّه علىٰ كل حال ، فإن تقوىٰ اللَّه أفضل العُدّة علىٰ العدو وأقوىٰ المكيدة في الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسًا من المعاصي منكم من عدوكم ؛ فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم للَّه ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ؛ لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعتدهم ، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل (الزيادة) من القوة علينا وإن لم ننتُصر بفضلنا فلن نغلبهم بقوتنا ، واعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من اللَّه يعلمون ماتفعلون فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصي اللَّه وأنتم في سبيله ، ولا تقولوا عدونا شر منا فلن يسلط علينا فرب قوم سلط اللَّه عليهم شراً منهم كما سلط علىٰ بني إسرائيل لما عملوا بمساخط اللَّه كفار المجوس ﴿فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً﴾

---

(١) سيد قطب : ظلال القرآن (٣ : ١٢٣١) .

واسألوا اللّه العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل اللّه ذلك لنا ولكم . .)[1]

فمن هذه الوصية العظيمة من الخليفة الراشد، وهو يوصي جيوش المسلمين، ويحذرهم من المعاصي، ويبين لهم خطرها، ويوضح لهم أسباب النصر، فيجب على المسلم أن يتجنب المعاصي صغيرها وكبيرها، كما يجب على العسكري المسلم الحذر من المعاصي لأنه سائر في سبيله لإعلاء كلمة اللّه، فمن كان هذا طريقه وهذه غايته لابد له أن يزكي نفسه بالتخلي عن الصفات الرذيلة والخصال السيئة.

وسوف نتعرض فيما يلي باختصار إلى بعض الصفات الذميمة التي ينبغي أن يتجنبها الجندي المسلم، وما كان يحتاج إلى مباحث أفردنا له مبحثًا خاصًا به.

الكفر والفسوق والمعاصي:

قال اللّه تعالى: ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ** ﴾[2]. فاللّه - جل وعلا - حبب الإيمان إلى نفوسنا وزينه في قلوبنا وبغض إلينا الكفر والفسوق وهي الذنوب الكبار[3] والعصيان وهي جميع المعاصي، وفي الحديث الشريف: « **اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الكُفْرَ وَالفُسُوقَ وَالعِصْيَانَ وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ** »[4].

الرياء:

يجب على المسلم أن يُطهر نفسه من الرياء، كما أن المسلم الذي سلم من الكفر والنفاق واعتنق الدين الإسلامي تباعد من إعطاء الربوبية لغير مستحقها،

---

(١) ابن عبد ربه - العقد الفريد (١ : ١٣٠) وقوله: ﴿فجاسوا خلال الديار﴾، هو جزء من الآية الخامسة من سورة الإسراء.

(٢) سورة الحجرات: الآية ٧.

(٣) ابن كثير - تفسير القرآن العظيم (٤ : ٢١٠).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣ : ٤٢٤).

ومن عبادة من لا يستحق العبادة، ولكنه كثيراً ما يقع في الشرك الخفي الذي هو الرياء وفي الحديث: «**إنَّ أخْوَفَ مَا أخَافُ عَلَيكُم الشِّرْكُ الأصْغَرُ. قالوا: وَمَا الشِّرْكُ الأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّه؟ قال: الرِّيَاءُ**»(١). يَقُولُ اللَّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لَهُمْ يَومَ القِيَامَةِ إذا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِم اذْهَبُوا إِلَى الذِينَ كُنْتُمْ تُرَاؤُونَ فِي الدُّنْيَا، فَانْظُرُوا: هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً؟!

فيجب على المسلم أن يحرص غاية الحرص على تطهير نفسه من جرثومة الرياء؛ فإن من الذين تسعر بهم النار يوم القيامة قبل كل أحد المرائي بعمله فالرياء خطير على الفرد والمجتمع.

حُب الجاه والرئاسة:

إن حُب الجاه والرئاسة مرض عظيم يبتلى به بعض الناس فيجب على كل مسلم أن يطهر نفسه ويزكيها منهما، فلا يطلب الجاه ولا الرئاسة لأنهما مزلة خطيرة ومظنة للوقوع في هوة عظيمة؛ ولهذا نهى النبي ـ ﷺ ـ عبدالرحمن بن سمرة عن طلب الإمارة: «**فإنَّكَ إنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إلَيهَا، وإنْ أُعْطِيتَهَا مِنْ غَيرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيهَا**»(٢).

الحسد:

إن الحسد هو تمنى زوال النعمة عن المحسود، وهذا فيه نوع من الاعتراض على تصرف الخالق في خلقه؛ حيث أنعم على بعض عباده بنعم ومنع آخرين لحكم يعلمها ومصالح يريدها، فإذا حسد المخلوق مخلوقاً آخر على صنع اللَّه فيه فكأنه اعترض على فعله هذا، يقول اللَّه تعالى: ﴿**لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾(٣). وقد ذم اللَّه الحسد في كتابه العزيز، ونهى عنه نبينا ـ صلوات اللَّه

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥ : ٤٢٨).

(٢) أخرجه البخاري في أول كتاب الإيمان والنذور (٧ : ٢١٦) وفي كتاب الكفارات، باب الكفارة قبل الحنث وبعده (٧ : ٢٣٩). ومسلم في كتاب الإيمان، باب من حلف يمينا فرأى غيرها خيرا منها (١١ : ١٠٨). وكتاب الامارة، باب النهي عن طلب الإمارة (١٢ : ٢٠٦ ـ ٢٠٧).

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٢٣.

وسلامه عليه قال تعالىٰ : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾[1] فاللَّه ـ جل وعلا ـ أخبرنا بأن هذا الحسد جاء من قبل الكفار أنفسهم تمنيًا لزوال نعمة الإيمان عن المؤمنين؛ ليشاركوهم في العذاب الأليم في الآخرة. والحسد سبب في الهلاك والخسران في الدنيا والآخرة، فحمل إبليس علىٰ عدم السجود لآدم ـ عليه السلام ـ فعصىٰ أمر اللَّه، واستحق بذلك الطرد من رحمة اللَّه، وحمل الحسد ابن آدم علىٰ قتل أخيه[2].

فهذه أنواع من الخصال المذمومة التي ذكرناها، وهناك خصال أخرىٰ كالعجب والكبر والشح واتباع الهوىٰ وإيثار الدنيا علىٰ الآخرة، كل هذا يجب علىٰ المسلم أن يطهر نفسه ويزكيها ويبتعد عن جميع تلك الخصال المذمومة.

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٠٩

(٢) سعيد حوىٰ ـ المستخلص في تزكية الأنفس (ص١٧٣)

المبحث السابع

الترهيب من الخيانة

الخيانة : مخالفة الحق بنقض العهد في السر . والخائن : هو الذي خان ما جُعل عليه أمينًا ، وقيل : الخيانة هي التفريط في الأمانة . وقال القرطبي : الخيانة : الغدر وإخفاء الشيء ، والاختيان : تحرك شهوة الإنسان لتحري الخيانة . وذلك في قوله تعالىٰ : ﴿**عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ**﴾(١) . والاختيان مراودة الخيانة ، ولم يقل تخونون أنفسكم لأنه لم تكن منهم خيانة ، بل كان منهم الاختيان ، وذلك هو المشار إليه بقوله تعالىٰ : ﴿**إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي**﴾(٢) . وخائنة الأعين : ما يُسارق من النظر إلىٰ ما لا يحل ، أو النظر بريبة ، للحديث الشريف : « **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ الأَعْيُنِ** » أي يضمر في نفسه غير ما يظهر(٣) .

ولقد جاء القرآن الكريم بالتحذير من الخيانة ، يقول اللَّه تعالىٰ : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾(٤) . وقد فسر ابن عباس خيانة اللَّه بترك فرائضه وارتكاب معصيته ، والأمانةَ بكل ما(ائتمن اللَّه عليه العباد بأن لا ينقضها والمعنىٰ : ﴿**لا تَخُونُوا اللَّهَ**﴾ بتعطيل فرائضه أو تعدي حدوده ، وانتهاك محارمه التي بينها لكم في كتابه ، ﴿**وَالرَّسُولَ**﴾ بالرغبة عن بيانه لكتاب اللَّه تعالىٰ إلىٰ أهوائكم وآراء مشايخكم أو آبائكم أو المخالفة عن أمره إلىٰ أوامر أمرائكم ، وترك سنته إلىٰ سنة أوليائكم بناء علىٰ زعمكم أنهم أعلم بمراد اللَّه ورسوله منكم ، ﴿**وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ**﴾ أي لا تخونوا أماناتكم فيما بينكم وبين أولياء أموركم من الشؤون السياسية ـ ولا سيما الحربية ـ وفيما بينكم بعضكم مع بعض من المعاملات المالية وغيرها ، حتىٰ

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٨٧ .

(٢) سورة يوسف : الآية ٥٣ .

(٣) الراغب ـ المفردات (ص١٦٣) الفيومي ـ المصباح المنير (١ : ١٩٨) الزبيدي ـ تاج العروس (٩ : ١٩٤) القرطبي ـ الجامع (٧ : ٣٩٥)

(٤) سورة الانفال : الآية ٢٧ .

الاجتماعية والأدبية فقد ورد الحديث: «**المَجَالِسُ بِالأَمَانَةِ**»(١).

والذي يظهر للباحث من تعدد الأمانات في قوله تعالىٰ: ﴿**وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ**﴾ أن المقصود بالأمانات هو أن اللَّه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ جعل أعضاء الإنسان جميعها أمانة عنده؛ فعقلُه أمانة عنده وحواسّه وبقية أعضاء جسده، وجعل هذه الأعضاء أمانة ائتمنه اللَّه عليها؛ فهو لا يملكها: فليس من حقه أن يقطع أحد أطرافه ويلقي به، أو يشرب الخمر فيُفسد عقله ورئته، أو يمشي بقدمه إلىٰ المحرمات، أو يبطش بيده أو يسرق بها أو يكتب بها شهادة زور أو قولاً باطلاً، أو يأكل الربا أو لحم خنزير فإن معدته؛ لم تخلق لذلك، أو يزني أو يلوط؛ فهذا العضو ائتمنه اللَّه عليه في أن يجعله فيما أحل له أو يستنشق شيئًا من المخدرات والمحرمات؛ فلم يخلق اللَّه الأنف لذلك، ولسانه أمانة عنده فلا ينطق به فحشًا ولا نفاقًا ولا كذبًا ولا زورًا؛ فالقوىٰ: السمع والبصر والكلام مخلوقة من اللَّه تعالىٰ وممنوحة لنا منه ـ جل جلاله ـ فهو الخالق المالك الأصلي لها، وأعطانا اللَّه تعالىٰ الإرادة للتصرف في ملكه، فإن وافق تصرفنا منهاج اللَّه وشرعه كنا أمناء، وإن خالفناه كنا خونة، فكل جزئية خلقها اللَّه في جسم الإنسان اختصها بعمل وائتمنك فلا تخن الأمانة، فتعددت الأمانات.

وهناك تفسير آخر: وهو أن المسلم أوجب اللَّه عليه أمانات من خارج نفسه: فالعبادات جميعها أمانات لابد للإنسان أن يؤديها، وزوجتك وأولادك أمانة عندك، أمانة أن ترعاهم وتقوم بحقوقهم، ووالداك إذا كبرا وأصبحا في حاجة إليك فهما أشد أمانة، ومالك أمانة، ووقتك أمانة، فلا تضيعه؛ فمن ذلك تعددت الأمانات. ومهما يكن الأمر فقد خرج الباحث بنتيجة هي أن هذه الأمانات قسمان: قسم داخل النفس، والقسم الآخر خارجي، كما نستقي أيضاً أن القسم الداخلي أهم؛ فإذا انضبط الداخل انضبط كل شيء؛ ولذلك يظهر عظم هذه الآية الكريمة من قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا**

---

(١) رشيد رضا ـ تفسير المنار (٩ : ٦٤٢ ـ ٦٤٣) والحديث أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب نقل الحديث (٤ : ٣٦٩).

جَهُولاً﴾[٢] . واشتهرت الأمانة في ودائع الأموال وأدائها إلىٰ أصحابها، كما أن الذي يتعلم العلم قد أودع أمانة وأخذ عليه العهد بالتعامل والعرف بأن يؤدي هذه الأمانة ويفيد الناس ويرشدهم بهذا العلم، وقد أخذ اللّٰه العهد العام علىٰ الناس بهذا التعامل المتعارف بينهم شرعًا وعرفًا بنص قوله تعالىٰ : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ** ﴾[١] .

ولذلك عد علماء أهل الكتاب خائنين بكتمان صفات النبي - ﷺ - فيجب علىٰ العالم أن يؤدي أمانة العلم إلىٰ الناس كما يجب علىٰ من أودع المال أن يرده إلىٰ صاحبه، ويتوقف أداء أمانة العلم علىٰ تعرف الطرق التي توصل إلىٰ ذلك؛ فيجب أن تعرف هذه الطرق لأجل السير فيها. وإعراض العلماء عن معرفة الطرق التي تُؤدىٰ بها هذه الأمانة بالفعل هو ابتعاد عن الواجب الذي أُمروا به، وإخفاء الحق بإخفاء وسائله هو عين الإضاعة للحق، فإذا رأينا الجهل بالحق والخير فاشيًا بين الناس واستبدلت به الشرور والبدع، و رأينا أن العلماء لم يعلموهم ما يجب في ذلك أيمكننا أن نجزم بأن هؤلاء العلماء لم يؤدوا الأمانة، وهي ما استحفظوا عليه من كتاب الله، وتختلف الطرق باختلاف الزمان والمكان[٢] .

ثم نجد أن القرآن الكريم يشير إلىٰ ثبات القيم الإسلامية وعدم تغيرها بتغير الأشخاص أوتغير الأزمان، يقول اللّٰه تعالىٰ : ﴿ **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ** ﴾[٣] . إن الإسلام يعاهد ليصون عهده، فإذا خاف الخيانة من غيره نبذ العهد القائم جهرة وعلانية ولم يخن ولم يغدر ولم يغش ولم يخدع، وصارح الآخرين بأن نفض يده من عهدهم فليس بينه وبينهم أمان؛ وبذلك يرتفع الإسلام بالبشرية إلىٰ آفاق من الشرف والاستقامة، وإلىٰ آفاق من الأمن والطمأنينة، إنه لا يبيت الآخرين بالهجوم الغادر الفاجر وهم آمنون مطمئنون إلىٰ عهود ومواثيق لم تنقض ولم تنبذ، ولا يروع الذين لم يأخذوا حذرهم حتىٰ وهو يخشىٰ الخيانة من جانبهم، فأما بعد

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٧٢ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٨٧ .

(٣) رشيد رضا ـ تفسير المنار (٥ : ١٧٠)

نبذ العهد فالحرب خدعة؛ لأن كل خصم قد أخذ حذره، فإذا جازت الخدعة عليه فهو غير معذور به إنما هو غافل، وكل وسائل الخدعة حينئذ مباحة؛ لأنها ليست غادرة.

إن الإسلام يريد للبشرية أن ترتفع، ويريد للبشرية أن تعفّ، لا يبيح الغدر في سبيل الغلب، وهو يكافح لأسمى الغايات وأشرف المقاصد، ولا يسمح للغاية الشريفة أن تستخدم الوسيلة الخسيسة(١).

وفي السنن أن معاوية بن أبي سفيان كان بينه وبين الروم عهد، وكان يسير نحو بلادهم حتى إذا انقضى العهد غزاهم، فجاء رجل على فرس أو برذون وهو يقول: اللّه أكبر، اللّه أكبر، وفاء لا غدر، فنظروا فإذا عمرو بن عبسة فأرسل إليه معاوية فسأله فقال: سمعت رسول اللّه - ﷺ - يقول «**مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَومٍ عَهْدٌ فَلا يَشُدُّ عُقْدَةً وَلا يحِلّهَا حَتَّى يَنْقَضِيَ أَمَدُهَا أو يَنْبِذَ إِلَيهِمْ عَلَى سَوَاءٍ**» فرجع معاوية(٢).

وعن ابن عمر قال: سمعت رسول اللّه - ﷺ - يقول: «**إِنَّ الغَادِرَ يُنْصَبُ لَهُ لِوَاءٌ يَومَ القِيَامَةِ**»(٣) فالخيانة مذمومة حتى لو كانت للكفار أعداء الإسلام والمسلمين؛ وذلك لما في تركها من تزكية النفس وتهذيبها وتطهيرها، وتعودها أفعال الخير وعدم الاعتداء، حتى لو كان على كافر؛ لأن الكافر إذا صار معاهداً صارت له ذمة، لا يجوز نقض تلك الذمة و لا خفرها حتى ينقضي ذلك العهد الذي بينك وبينه. وفي السنن عن أبي هريرة - رضي اللّه عنه - أن رسول اللّه - ﷺ - قال: «**أدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ وَلا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**»(٤)

---

(٣) سورة الأنفال: الآية ٥٨.

(١) سيد قطب - ظلال القرآن (٣ : ١٥٤٢).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد، باب الوفاء للمعاهد (٣ : ١٩٠) والترمذي في السير (٤ : ١٤٣) ح ١٥٨٠.

(٣) الترمذي - صحيح الترمذي، باب السير (٤ : ١٤٤) ح ١٥٨١.

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب البيوع، باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده (٣ : ٣٩٣) ح ٣٥٣٥، وأخرجه الترمذي في كتاب البيوع (٣ : ٥٥٥) ح ١٢٦٤ والدارمي (٢ : ٢٦٤) وإسناده حسن، وأخرجه أحمد في مسنده (٣ : ٤١٤) من حديث رجل عن النبي - ﷺ -.

وروى البيهقي في شعب الإيمان عن ميمون بن مهران قال : ثلاثةٌ المسلم والكافر فيهن سواء : من عاهدته فوفِّ بعهده مسلمًا كان أو كافرًا ، فإنما العهد لله ، ومن كانت بينك وبينه رحم فصِلْها ، مسلمًا كان أو كافرًا ، ومن ائتمنك على أمانة فأدِّها إليه مسلمًا كان أو كافرًا» .

وعنه أيضا - رضي اللَّه عنه - أن رسول اللَّه - ﷺ - مر على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً ، فقال : «**ما هذا يا صاحب الطعام؟**» قال : أصابته السماء يا رسول الله . قال : «**أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس مَنْ غَشَّنَا فَلَيسَ مِنَّا**»(١) وللترمذي : « **مَنْ غَشَّ فَلَيسَ مِنَّا** » وفي رواية لمسلم : « **مَنْ غَشَّ فَلَيسَ مِنِّي** » . وبالتأمل في ألفاظ هذا الحديث وتدبرها والوقوف على ما تضمنته من خطورة الغش فإننا نجد النبي - ﷺ - يصرح في بعض ألفاظ الحديث ببراءته من الغاشّ ، إذ يقول : « **مَنْ غَشَّ فَلَيسَ مِنِّي** » ومن لم يكن من حزب النبي - ﷺ - كان من حزب الشيطان ، ومن كان من حزب الشيطان كان من الهالكين ؛ لأن الله سبحانه وتعالى - يقول : ﴿**أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾(٢) .

وتارة يقول - عليه الصلاة والسلام - «**مَنْ غَشَّنَا فَلَيسَ مِنَّا**» يعني من غش المسلمين فليس منهم ؛ وذلك يستدعى أن الغاش لم يكن من جملة المسلمين ، ومن لم يكن من المسلمين تعين أن يكون من الكفار أو المنافقين ، هذا ظاهر الأحاديث ولكن بعض العلماء ، قد تأولها على أن الغاش لم يبلغ به الغشُّ إلى أن يخرجه من دائرة الإيمان إلى دائرة الكفر .

قال الخطابي : قوله « **لَيسَ مِنَّا مَنْ غَشَّ** » معناه : ليس على سيرتنا ومذهبنا ، يريد أن من غش أخاه وترك مناصحته فإنه قد ترك اتباعي والتمسك بسنتي . وقد ذهب بعض العلماء إلى أنه أراد بذلك نفيه من دين الإسلام وليس هذا التأويل بصحيح ، وإنما وجهه ما ذكرت سابقًا ، وهذا كما يقول الرجل

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب قول النبي - ﷺ - من غشنا فليس منا (٢ : ١٠٨) وابن ماجة في التجارات (٢ : ٧٤٩) ح ٢٢٢٤ ، وأبو داود في كتاب البيوع، باب النهي عن الغش (٣ : ٣٧٠) ح٣٤٥٢ ، والترمذي في البيوع ، ما جاء في كراهية الغش (٣ : ٥٩٧) ح ١٣١٥ .

(٢) سورة المجادلة : الآية ١٩ .

لصاحبه : أنا منك وإليك ، يريد بذلك المتابعة والموافقة ، ويشهد لذلك قوله تعالىٰ : ﴿ **فمن تبعني فإنَّه منِّي ومن عصاني فإنَّك غفورٌ رَّحيمٌ** ﴾[1] . ومجانبة الخيانة وتركها تلزم منه النصيحة لكل مسلم ومسلمة ؛ لأن المسلم إذا لم ينصح لأخيه المسلم فقد خانه ، ومن خان فقد غش ، ومن غش فقد برئت منه ذمة محمد ـ ﷺ ـ كما تقدم آنفا ، فحث ـ ﷺ ـ علىٰ النصيحة لله وكتابه ولرسوله ولعامة المسلمين وأئمتهم ، أخبر أن هذا الدين هو النصيحة وذلك في قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « **إنَّ الدين النَّصيحَةُ، إنَّ الدِّينَ النَّصيحةُ. قالوا: لمَنْ يَا رَسُولَ اللَّه ؟ قال : للَّه وكتابه ورَسُولِه وأئمَّةِ المُؤمنينَ وَعَامَّتِهِمْ. أَوْ أئمَّةِ المُسْلمينَ وَعَامَّتِهِمْ** » هذا لفظ أبي داود[2] .

وهذا الحديث عظيم ويحمل معاني كثيرة وفوائد جَمَّة ، قال العلماء : النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة هي إرادة الخير للمنصوح له ، ولا يمكن أن يُعبر عن هذا المعنىٰ بكلمة واحدة تحصرها وتجمع معناها غيرها ؛ فإن هذه الجملة من جوامع الكلم الذي أُعطيه ـ ﷺ ـ قال الخطابي ـ رحمه اللَّه : « وأصل النصح في اللغة : الخلوص ، يُقال : نصحت العسل إذ خلصته من الشمع . ومعنىٰ النصيحة للَّه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ : صحة الاعتقاد بوحدانيته وإخلاص النية في عبادته ، والنصيحة لكتاب اللَّه الإيمان به والعمل بما فيه ، والنصيحة لرسول اللَّه ـ ﷺ ـ : التصديقُ بنبوته وبذل الطاعة له فيما أمر به ونهىٰ عنه ، ولأئمة المسلمين : أن يطيعهم في الحق ، وألا يرىٰ الخروج عليهم بالسيف إذا جاروا ، والنصيحة لعامة المسلمين إرشادهم إلىٰ مصالحهم»[3] فتحصّل أن النصيحة هي عماد الدين وقوامه ، كقوله ـ ﷺ ـ «**الحَجُّ عَرَفَةُ**»[4] : عِماده

---

(١) سورة إبراهيم : الآية ٣٦ .

(٢) أشار البخاري اليه في كتاب الإيمان ، باب الدين النصيحة (١ : ٢٠) ، معلقا مرفوعا ولم يخرجه لكونه علىٰ غير شرطه ، انظر فتح الباري (١ : ١٣٧) ، وانظر معالم السنن للخطابي (٣ : ٧٣٢) ط دار الكتب العلمية تحقيق الدعاس والسيد . وأخرجه أبوداود في كتاب الأدب ، باب في النصيحة (٥ : ٢٣٣) . وأخرجه مسلم في الإيمان ، حديث ٥٥ ، باب بيان أن الدين النصيحة (١ : ٧٤) ط الإفتاء بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي / الحلبي .

(٣) الخطابي ـ معالم السنن ، عند شرحه لحديث أبي داود هذا (٤ : ١٢٦) .

(٤) أخرجه الترمذي في الحج ، باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج (٣ : ٢٢٨) =

ومعظمهُ عرفةُ .

ومن هنا يتبين لنا أن النصيحة لله وكتابه ولرسوله ولعامة المسلمين تستلزم عدم الخيانة لمن ذُكِروا، وترك الخيانة سبب في تزكية النفس وتطهيرها؛ لأن النفوس لا تزكىٰ ولا تطهر إلا بالطاعة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين لتحصل تقوىٰ الله، وبالتقوىٰ تزكو النفوس. فالواجب علىٰ كل مسلم أن ينصح لأخيه المسلم وأن يعاشره عشرة طيبة وأن يعينه ما استطاع. و ثبت في الصحيحين وغيرهما عن جرير بن عبدالله أنه قال: «بايعت رسول الله ـ ﷺ ـ علىٰ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والسمع والطاعة والنصح لكل مسلم»[1].

من النصح أن أحذّر العسكري المسلم من الخيانة، وأطالبه بالأمانة؛ لأنها في حقه ألزم، والخيانة من جانبه أسوأ؛ فالعسكري المسلم يتمتع بشخصية إسلامية وعسكرية منضبطة أمينة، فأمانته مزدوجة يأخذها أولاً من إسلامه ثم من عسكريته؛ ولذلك تكون خيانته مضاعفة، فيزاد في عقوبته تعزيرًا وهي ما يعبر عنها بعقوبة النظام؛ فسلاح العسكري المسلم أمانة عنده إن فرط فيه، أو أهمله، أو أساء استعماله، أو تعمد خرابه فقد خان الأمانة، وكل ما يعرفه عن عمل من أسرار وغيرها أمانة، فلا يجوز أن يتكلم عن عمله في بيته أمام زوجته وأبنائه أو مع أصدقائه، فهذه خيانة قد يستفيد العدو من كلمة ربما لا يلقي إليها بالاً؛ كتحرك أحد القطاعات العسكرية من جهة إلىٰ أخرىٰ، أو انتداب مسؤول إلىٰ دولة أخرىٰ أو وصول معدات إلىٰ مستودعاتنا، أو أية معلومات قد تكون في نظرك تافهة، ولكن ربما يستفيد منها الأعداء، فلابد من الأخذ بالحكمة العسكرية القائلة: (كلّ ما تعمله، كلّ ما تسمعه، كلّ ماتراه اتركه في مكتبك)[2]. لا تتحدث به .

=ح٨٨٩، وأبوداود في المناسك، باب من لم يدرك عرفة (٢: ٢٦٥) ح ١٩٤٩. والنسائي في الحج، باب الوقوف بعرفة (٥ : ٢٥٦)، وابن ماجة في المناسك، باب من أتى عرفة قبل الفجر ح٣٠١٥.

(١) أخرجه البخاري في كتاب البيوع، باب هل يبيع حاضر لباد بغير أجر (٣ : ٢٧) ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدين النصيحة (١ : ٣٩).

(٢) ملصقات تحذيرية.

والمبتعثون من العسكريين إلىٰ الدول الأجنبية للحصول علىٰ الدورات العسكرية لابد أن يكونوا أمناء علىٰ أسرار جيشهم وبلدهم؛ فلا تستهويهم الصداقات المغرضة لمعرفة ما عندهم، ولابد أن يكونوا سفراء لبلدهم ودينهم، فيترفّعون ويحافظون علىٰ ما اؤتمنوا عليه.

فعلىٰ العسكري المسلم أن يطهر نفسه من الخيانة في جميع أمور حياته؛ ليكون أميناً مستقيماً، بشرف وظيفته ومهمته؛ حتىٰ يلقىٰ اللّٰه وهو عنه راضٍ.

المبحث الثامن

الترهيب من التولي يوم الزحف

التولي يوم الزحف هو الفرار من وجه الأعداء إذا التقى الجمعان، وهو كبيرة من الكبائر، كما أخبر بذلك رسولنا محمد ـ ﷺ ـ في السنّة الثابتة عنه، وقد توعد اللّه من يتولى بغضبه عليه وبأن مصيره إلى النار، فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾[1]. وفي الآية الكريمة وعيد شديد لمن فرّ من الزحف، ومعنى الزحف هنا الهجوم؛ لأن الجيش إذا أقبل على العدو كأنما يزحف من شدة بطء مشيهم كالصبي الذي يزحف على بطنه فيكون مشيه بطيئًا، فتشير الآية إلى أنكم إذا تقاربتم ودنوتم منهم فلا تولوهم الأدبار، والمعنى ألا تفروا وتتركوا أصحابكم، أو لا تفروا جميعًا من عدوكم، ثم بعد النهي توعد من خالف وارتكب ما نهى عنه من التولي فقال ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ فيشير ـ سبحانه وتعالى ـ إلى أن التولي لغرض استدراجهم لإيقاعهم في كمين، أو انسحاب ليصطدموا بقوة أكبر ـ واشترط ألا تكون التولية فرارًا ـ وبذلك -جعل مجالاً واسعًا للفنون العسكرية من فرٍّ وكرٍّ والتفاف واستدراج، وأصبح المحظور هو الفرار، وهو الذي أشار إليه الرسول ـ ﷺ ـ أنه من المهلكات؛ فعن أبي هريرة ـ رضي اللّه عنه ـ أن رسول اللّه ـ ﷺ ـ قال: **«اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ[2]: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَومَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ الغَافِلاتِ المُؤْمِنَاتِ»**[3].

---

(١) سورة الأنفال: الآيتان ١٥ ـ ١٦.

(٢) المهلكات.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا) (٣ : ١٩٥).

ومحل الشاهد من الحديث قوله - ﷺ - : «وَالتَّوَلِّي يومَ الزَّحْفِ» ؛ فإن فيه ترهيبًا عظيمًا من هذا الأمر ؛ حيث كان من المهلكات الموردة صاحبها النار، فتحصّل أن تزكية النفس لابد فيها من الحذر من هذه الكبيرة العظيمة والتخلي عنه، ويعدّ الفرار من الوغىٰ جريمة قبيحة ورذيلة مريرة، إنه إيثار الحياة الرخيصة علىٰ الخلود أو النصر ، إنه أنانية مقيتة تستحق كل الكلمات القاسية .

ولعَمري إن الذي يفر من حومة الوغىٰ ستظل أشباح الهرب تطارده، وسيعيش وفي نفسه صراع يأكله ؛ لأنه إن ستر هذه السوأة عن الناس فإن هذه السوأة تعيش داخله تلتهمه وتنهش عقله وقلبه، وإنْ اعترف بها نال من احتقار الناس واستهجانهم ما يجعله ميتًا وهو حي ويقضي عليه شر قضاء(١) .

وروىٰ عن النبي - ﷺ - أنه قال : **«ثَلاثَةٌ لا يَنْفَعُ مَعَهُنْ عَمَلٌ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، وَالفِرَارُ يومَ الزَّحْفِ»**(٢) .

فقد ساوىٰ رسول اللَّه - ﷺ - في هذا الحديث بين عظائم الأمور التي لا يقبل اللَّه معها عمل عامل، و الفرار يوم الزحف بما في كل منها من الأضرار الجسيمة التي تسيء إلىٰ الفرد والمجتمع ؛ ففي الشرك باللَّه ردةٌ عن الإسلام ، وفي عقوق الوالدين تنكر للجميل، ومقابلة الإحسان بالإساءة، وفي الفرار يوم الزحف جلب العار وخذلان للمسلمين، وعدم يقين بقضاء اللَّه وقدره وعدم ثقة بنصره : ﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾(٣) .

ولو سأل الذي يفر من حومة الوغىٰ نفسَه لماذا أفر لوجد الإجابة حاضرة لا تحتاج إلىٰ تفكير، إنه يفر من الموت مع أن الموت لابد أن يشمل كل حي ؛ ولذلك نجد القرآن الكريم يخاطب الناس بأسلوب تفكيرهم ويبين لهم أن الفرار من الموت لن يجدي فتيلاً ، يقول اللَّه تعالىٰ : ﴿ **قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾(٤) . ويقول تعالىٰ : ﴿ **قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي**

---

(١) د. أحمد شلبي ـ الجهاد والنظم العسكرية في التفكير الإسلامي (ص٩٩).

(٢) المنذري ـ الترغيب والترهيب (٣ : ١٢٦) وعزاه للطبراني في الكبير.

(٣) سورة الحج : الآية ٤٠ .

(٤) سورة الأحزاب : الآية ١٦ .

تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلىٰ عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾(١) . ويقول تعالىٰ : **﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾**(٢) . ويقول سبحانه وتعالىٰ : **﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾**(٣) . فبعد هذا التأكيد من أصدق القائلين هل بقي للإنسان مجال من أن يفر من الموت في ساحة الشرف والعزة والكرامة ، في الساعة التي تنبعث رائحة الجنة ، وإلىٰ أين المفر؟ والله ـ عز وجل ـ يقول : **﴿ ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين ﴾** (٤) . ففي الآية الكريمة يوجهنا الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ إلىٰ أن يكون الفرار إليه ولا يكون الفرار منه «**ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه. قالت عائشة : فقلت يانبي الله: أكراهية الموت؟ فكلنا يكره الموت. قال: ليس كذلك، ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله وكره الله لقاءه**» (٥) فالتولي يوم الزحف كبيرة من الكبائر ، على الجندي المسلم أن يترفع عنها ، وعليه أن يكثر من ذكر الله وشكره أن شرفه الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ بهذه العبادة وهي شرف الجندية والجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ؛ فالعسكرية ليست مهنة يتكسب من ورائها ، وإنما هي شرف الدفاع عن الدين وبلاد المسلمين .

وهناك حالات في السلم تستدعي القوات المسلحة أن ترابط وأن تتأهب في درجة معينة من درجات استعدادها ؛ فلا يجوز للعسكري المسلم أن يترك موقع عمله لأي ظرف من الظروف ، إلا بعد أن تتولىٰ قيادته وضع من ينوب عنه ويقوم بواجبه ، وإلا عرّض نفسه لعقاب الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وعقاب رؤسائه ، إذ يطبق في حقه السجن والفصل من الخدمة العسكرية ؛ لأن الذي لا

---

(٥) سورة الجمعة : الآية ٨ .

(١) سورة النساء : الآية ٧٨ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٨٥ .

(٣) سورة الذاريات : الآية ٥٠ .

(٤) رواه مسلم في صحيحه (٤ : ٢٠٦٥) ح رقم ١٥ (٢٦٨٤) ط الإفتاء / الحلبي تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

يثبت معنا في السلم لا يثبت معنا في الحرب، فلابد من التخلص من هذه النوعيات، كما أنه لا يجوز للعسكري الذي يقوم بالحراسة على أي مكان أن يترك أو يتخلف عن حراسته لأي عذر ديني أو دنيوي، فعلى سبيل المثال يقول العسكري الذي يقوم بالحراسة: سمعت أذان الظهر ولابد أن أصلي. فيترك موقع حراسته ليتوضأ ويصلي أو يكون على وضوء فيضع بندقيته على الأرض ويصلي في مكان حراسته، فربما عرض نفسه أو المكان الذي هو قائم على حراسته، أو ربما عرض جيشه لكارثة كان سببها الفهم السقيم للدين؛ لأن العسكري المسلم لابد أن يكون حذرًا فطنًا، ولابد له أن ينظر إلى أخف الضررين فيأخذ به، فنقول له إذا كانت حراستك ستنتهي قبل خروج الوقت فلا بأس أن تبقى حتى انتهاء الحراسة وتصلي وما زلت في الوقت، وهذا التأخير بالنسبة إلى الصلاة في آخر وقتها لا تُلام عليه.

وإذا كان بعض من حضر مع رسول اللّه - ﷺ - لم يصلوا معه ووقفوا للحراسة ومعهم سلاحهم آخذين حذرهم لا يصلون إلى أن وقف غيرهم موقفهم من الحراسة مع شرف الصلاة مع النبي - ﷺ - فإن هذا يدل على جواز تأخير الصلاة ما دام لم يخرج وقتها حتى يأتي من يقوم بالحراسة، فيترك حينئذ موقعه للصلاة بعد أن اطمأن إلى أن الموقع لم يخل من الحراسة، واللّه أعلم.

يقول اللّه تعالى: ﴿ **وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ** .. ﴾(1).

وإن رأيت أن الموقف يسمح لك بأن تستدعي المسؤول عن الحراسات وتخبره أنك تريد أن تصلي قبل خروج الوقت فيعينك على أداء الصلاة فهذا خير.

ولقد عرضت لمثل هذا الموقف في حياة العسكري المسلم؛ لأن في كل منها فرارًا من الواجب - صَغُر أم كَبُر - وليعلم أنه محاسب أمام اللّه عن كل تقصير، سواءٌ اطّلع المسؤولون عليه أم لم يطلعوا، وليتأكد أن اللّه مطلع على كل شيء

(1) سورة النساء: الآية ١٠٢.

فيُجازي المحسن على إحسانه ، ويُعاقب المسيء على إساءته ، فلابد للعسكري المسلم أن يُزكي نفسه ويُطهرها من ظاهرة الفرار ، سواء أكانت على المستوى الأعلى أم المستوى الأدنى ؛ حتى يفوز برضوان اللَّه تعالى ، وينال أجر الرباط في سبيل اللَّه .

الفصل الثالث

تهيئة الأمة للمعركة

ويحتوي المباحث التالية :

المبحـــث الأول : ترغيب الأمة في الجهاد والبذل والتضحية

المبحـــث الثاني : التهوين من قوة العدو من حيث فساد الغاية التي يُحارب من أجلها

المبحـــث الثالث : إعلام الأمة بأن شرف الغاية التي يقاتلون من أجلها تستوجب الصبر على ما يصيبهم

المبحـــث الرابع : إعلاء شأن الشهداء وكفالة أسرهم

المبحث الخامس : إنقاذ المستضعفين وفداء الأسرى

الفصل الثالث

تهيئة الأمة للمعركة

بيان المقصود من التهيئة

التهيئة : هي الإعداد والتأهب والإصلاح، وهيّأته للأمر، أعْدَدْتَه، وتَهَيَّأَ للأمر تأهب له وأعدّ نفسه لمزاولته وأخذ أهبته له وتفرّغ له، هيّأَ فلانٌ الأمرَ تهيئة وتهييئًا : أصلحه ويسره، وفي التنزيل العزيز :﴿ **وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا** ﴾(١) . والأمّة من الناس : هي الجماعة أو العدد الكثيف، وهي التي تجمعها روابط مشتركة، كالجنس أو الدين أو الأرض أوالأهداف المشتركة أوالتاريخ المشترك أو اللغة، أو غير ذلك من الروابط، وقد يطلق لفظ الأمة على الملأ من الناس، فيقصد به الجماعة أو العدد الكثير، قال تعالى : ﴿ **وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ** ﴾(٢) . وقد يطلق على الفرد الواحد ويراد به الإمام الذي يقود الناس ويؤم بهم، كما في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً** ﴾(٣) أي : إمامًا وهاديًا للخير(٤) .

وتهيئة الأمة للمعركة : إعدادها وجعلها متأهبة مستعدة ومتيقظة ومتحسبة لكل ما يخططه العدو من النيل من معنوياتها بنشر وبث دعاياته الكاذبة المضللة أو اللجوء إلى الضغوط السياسية أو الاقتصادية أو الحربية، فمتى ما كانت الأمة على وعي تام بما يحاك حولها وما يبيَّت لها من أعدائها ولديها الاستعداد لتتحمّل كل ما يواجهها بعزيمة وصبر وإيمان، محتسبة ذلك عند الله شاكرة على نعمائه، صابرة على بلائه، كانت أمة عظيمة تستحق خيرية الله لها في قوله تعالى : ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾(٥) . ولقد قيل إن وراء كل جيش عظيم

---

(١) مجمع اللغة ـ المعجم الوسيط (٢ : ١٠٠٢) والآية هي رقم ١٠ من سورة الكهف . الفيومي ـ المصباح المنير (٢ : ٣٢٠)

(٢) سورة القصص : جزء من الآية ٢٣

(٣) سورة النحل : جزء من الآية ١٢٠

(٤) الماوردي ـ النكت والعيون (٢ : ٤١٥) والقاسمي ـ تفسير القاسمي (١٠ : ١٧٥)

(٥) سورة آل عمران : جزء من الآية ١١٠ .

أمة عظيمة تكون له درعًا واقيًا، وهي الفئة التي ينحاز إليها الجيش إن حَزَبه أمرٌ أو ضاقت عليه الأرض بما رحبت، ولنا مثل حي بتلك الأمة التي رباها رسول اللَّه - ﷺ - بالمدينة المنورة حين قدم خالد بن الوليد - رضي اللَّه عنه - ومن معه من غزوة مؤتة منسحبًا، وكان انسحابه نصراً كبيراً إذا ما قورن عدد المسلمين بعدد أعدائهم من الروم، يقول ابن هشام: وجعل الناس يَحْثون على الجيش التراب ويقولون: يا فُرَّار فررتم في سبيل اللَّه، قال: فيقول رسول اللَّه - ﷺ -: لَيسُوا بالفُرّار ولَكِنَّهُمُ الكُرَّارُ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى[1] فهذه الأمة التي رباها رسول اللَّه - ﷺ - لم تفرح بعودة إخوانهم سالمين من معركة كان الانسحاب فيها نصراً.

وسوف نعرض في هذا الفصل الموضوعات التي لها مساس بإعداد الأمة للمعركة وتهيئتها، وذلك ضمن المباحث التالية:

المبحث الأول: ترغيب الأمة في الجهاد والبذل والتضحية.

المبحث الثاني: التهوين من قوة العدو من حيث فساد الغاية التي يحارب من أجلها.

المبحث الثالث: إعلام الأمة بأن شرف الغاية التي يقاتلون من أجلها تستوجب الصبر على ما يصيبهم.

المبحث الرابع: إعلاء شأن الشهداء وكفالة أسرهم.

المبحث الخامس: العمل على إنقاذ المستضعفين وفداء الأسرى.

---

(١) ابن هشام - السيرة النبوية (٣: ٥١٥).

المبحث الأول

ترغيب الأمة في الجهاد والبذل والتضحية

المطلب الأول : ترغيب الأمة في الجهاد

من عوامل تهيئة الأمة الإسلامية للمعركة ترغيبها في الجهاد ببيان فضل المجاهد على القاعد، وبيان ما أعده اللّه من الثواب والأجر له في الآخرة، وبيان منزلته يوم القيامة، وما يناله من فضل ورضوان إن هو نال الشهادة في سبيل اللّه؛ لكون الشهادة لاتعطى لكل المجاهدين، وإنما هي درجة عالية لا ينالها إلا من اصطفاه اللّه واتخذه شهيداً، فترغب الأمة في نيل تلك الدرجة العالية من الرضوان، فتفزع إلى الجهاد في سبيل اللّه ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ﴾[1] .

بالإضافة إلى بيان ما يناله المجاهد من غنيمة يغنمها من الأعداء، والغنيمة لها وقع حسن وأثر جميل في نفس المجاهد؛ فبالإضافة إلى قيمتها المادية فإن لها دلالة أخرى على تكريم المجاهد في الدنيا؛ إذ فيها اعتراف ضمني بما بذل من جهد ومشاركة في المعركة ضد أعدائه وأعداء الدين، وفي ذلك حافز له ولغيره إلى الخروج جهاداً في سبيل اللّه .

ومما يرغب في الجهاد اطمئنان المجاهد إلى وجود من يرعى أهله وأبناءه من بعده وفي غيبته وتكفل الأمة جميعها برعاية أبناء المجاهدين وأُسَرِهم؛ فإن ذلك حافز للأمة إلى الخروج للجهاد وهي مطمئنة إلى وجود من يعتني بشأن أبنائها، فيتفرغون للجهاد بنفوس مطمئنة ومعنويات عالية .

وقد يتم ذلك بطرق شتى وأساليب مختلفة، من ضمنها أن تُنشِئ الدولة جمعيات ومؤسسات لرعاية أسر المجاهدين والشهداء، وغير ذلك من الطرق الأخرى المناسبة، كما يمكن من خلال مؤسسات الإعلام تشجيع المتطوعين لرعاية أسر المجاهدين والشهداء وتبيان فضل من خَلَفَ غازيًا في سبيل اللّه في أهله .

(١) سورة آل عمران : الآية ١٤٠

ومن الطرق والوسائل لتهيئة الأمة تنشئةُ الأجيال في المدارس على حب الغزو والجهاد، وبثّ روح الجهاد في الشباب وإدخال أنظمة التدريب الطوعي والإلزامي، وإقامة المعسكرات التدريبية، وإدخال مقررات عن الجهاد ضمن المقررات الدراسية ليتعلم الطلاب فقه الجهاد؛ فينشأ النشء على حب الغزو والجهاد والمرابطة.

ومن طرق تهيئة الأمة استنفار العلماء لندب الأمة للخروج في سبيل اللَّه وتبيان أنواع الجهاد، وأن أيّ عمل يؤديه الإنسان في ثغرة من الثغور مما من شأنه أن يقود إلى النصر أو يعين في الجهاد فهو من الجهاد في سبيل اللَّه الذي يعطي اللَّه عليه الأجر والثواب، وأن كل فرد في الأمة يقوم على ثغرة من الثغور يجب عليه المحافظة عليها فلا يُؤتى المسلمون من قبلها.

المطلب الثاني: البذل

إن البذل عامل مهم في تهيئة الأمة الإسلامية للمعركة؛ ذلك أن المال هو الذي تقوم به بنية المجاهدين ويتمكنون من الوصول إلى العدو به ويستعدون به الاستعداد الذي أمرهم اللَّه به، وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ..﴾(١).

وقد فسر رسول اللَّه - ﷺ - القوة في الآية بأنها الرمي. فقد ثبت في صحيح مسلم من حديث عقبة بن عامر قال: سمعت رسول اللَّه - ﷺ - وهو على المنبر يقول: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ» أَلا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ»(٢). وكيف يُعدُّ المسلمون لعدوهم ما استطاعوا من القوة إلا بالبذل والسخاء؟ لأن الأمة الإسلامية لم تكن متساوية في المال؛ بل فيها الغني والفقير والمتوسط، ولا شك أن الأغنياء وحدهم لا يستطيعون مجابهة أعداء المسلمين، ولا شك أن الفقراء إذا لم يجدوا من يحملهم ويجهزهم إلى ميدان المعركة لا يستطيعون المشاركة في المعركة؛ فمن هنا يتعين البذل على الأغنياء حتى يتمكن جميع المجاهدين من الاستعداد التام

---

(١) سورة الأنفال: جزء من الآية ٦٠

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٣: ١٥٢٢) بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي

للمعركة، وقد ظهر أثر ذلك عندما همّ رسول اللّه - ﷺ - بغزوة تبوك زمن العسرة وطلب من الأغنياء مواساة الفقراء، فقام عثمان بن عفان - رضي اللّه عنه - بدوره المعروف: حيث جهز الكثير من جيش المسلمين بأن حملهم على الإبل وزودهم بالنقود الكثيرة كما هو معروف في محله من كتب السير والحديث عند الكلام على غزوة تبوك، وفي مناقبه - رضي اللّه عنه - روى الترمذي في سننه أنه - رضي اللّه عنه - أعطى ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل اللّه لتجهيز جيش العسرة لتبوك، وقال رسول اللّه - ﷺ - في شأنه: **«ما عَلَى عُثْمَانَ ما عَمِلَ بَعْدَ هَذِهِ»** (١).

ولأهمية البذل نرى القرآن الكريم أمر بالجهاد بالأنفس والأموال، وقدم ذكر الأموال على الأنفس؛ لأن المال هو الذي به قوام الجهاد، بل هو الذي به قوام الحياة كما قال تعالى: ﴿**وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا**﴾ (٢). وتقديم الأموال على الأنفس لهذا المعنى ورد في آيات كثيرة من القرآن الكريم، مثل قوله تعالى في سورة الصف: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ**﴾ (٣). وكقوله تعالى في سورة التوبة ﴿**انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ (٤). وقال تعالى: ﴿**وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾ (٥). وهذا الأمر يدل دلالة واضحة على أهمية البذل وكونه عاملاً أساسيًا في تهيئة الأمة الإسلامية للمعركة؛ لأن التهيئة بدون بذل المال غير ممكنة، والجهاد دون وجود المال غير ممكن، واللّه - جل وعلا - فاضل بين عبيده في رزقه كما قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ فَضَّلَ**

(١) سنن الترمذي (٥: ٢٨٧) وما بعدها

(٢) سورة النساء: جزء من الآية ٥ ومعنى قياما: أي تقوم بها معايشكم ابن كثير - تفسير القرآن العظيم (١: ٤٥)

(٣) سورة الصف: الآيتان ١٠ - ١١

(٤) سورة التوبة: الآية ٤١

(٥) سورة الحديد: جزء من الآية ١٠

بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾(١). فإن لم يحصل بَذْلٌ من الأغنياء لم يتمكن الفقراء من تهيئة أنفسهم للمعركة، ولم يتمكن الأغنياء من مواجهة العدو ولا من نصرة الإسلام وأهله. وقد قدم علىٰ رسول اللَّه - ﷺ - ناس من فقراء أصحابه عجزوا عن السفر معه إلىٰ تبوك لعدم وجود ما يحملون عليه، ولما أخبرهم - ﷺ - أنه لا يجد ما يحملهم عليه رجعوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا علىٰ عدم وجود ما يمكنهم من الخروج معه - ﷺ - في تلك الغزوة العظيمة غزوة تبوك، وذلك في قوله تعالىٰ: **﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴾**(٢).

وقد كان الرعيل الأول يدركون مدىٰ فعالية البذل، وكانوا لا يقصرون فيه كما تقدم عن عثمان - رضي اللَّه عنه - في غزوة تبوك.

وثبت في صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك - رضي اللَّه عنه - أن فتىً من أَسلمْ قال: يارسولَ اللَّه إنِّي أريدُ الغزو وليس معي ما أتجهَّزُ. قال: ائت فُلانًا؛ فإنَّهُ كانَ قدْ تَجهَّزَ فَمرِضَ. فَأَتَاهُ فقال: إنَّ رسُولَ اللَّه - ﷺ - يُقرئُكَ السَّلامَ ويقول: أَعْطه الذي تَجهَّزْتَ به، قال: يَا فُلانَةُ، أَعْطه الذي تَجهَّزْتُ به، ولا تَحبِسي عَنْهُ شَيئًا؛ فَوَاللَّهِ لا تَحْبِسِي مِنْهُ شيئًا فَيُبَارِكُ لكَ فيه(٣).

وفيه أيضًا من حديث زيد بن خالد الجهني، عن رسول اللَّه - ﷺ - أنه قال: **«مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَّفَهُ فِي أَهْلِهِ فَقَدْ غَزَا»**(٤).

فترىٰ الصحابي - رضي اللَّه عنه - لما عجز عن الخروج للجهاد أدرك أنه يتحتم عليه أن يعطي جميع ما كان قد تجهز به للغزو لغيره؛ ليتمكنوا بذلك من تهيئة أنفسهم لقتال عدوهم، وأخبر امرأته بأنها إن ضَنّت عن ذلك الرجل

---

(١) سورة النحل: جزء من الآية ٧١

(٢) سورة التوبة: الآيتان ٩١ - ٩٢

(٣) صحيح مسلم (٣: ١٥٠٦)

(٤) صحيح مسلم (٣: ١٥٠٧)

المسلم بشيء مما كان قد أعده للخروج به فإنّ اللّه لن يبارك لها فيه؛ فهم يدركون تمامًا أهمية البذل، ويطبقون ذلك، ونظائر هذا كثيرة؛ لأن الصحابة كانوا يسابقون إلىٰ الخيرات.

المطلب الثالث: التضحية:

لا شك أن التضحية عامل مهم في تهيئة الأمة الإسلامية للمعركة ومواجهة أعدائها؛ فالتضحية لها أثرها الفعال في التهيئة للمعركة، والتضحية في سبيل تهيئة الأمة الإسلامية للمعركة أنواع: منها تضحية المرء بجميع ما يملك من المال، فمثال من ضَحّىٰ بجميع مالِه أبو بكر الصديق ـ رضي اللّه عنه ـ كما يروي الترمذي عن عمر بن الخطاب ـ رضي اللّه عنه ـ أنه قال: أمرنا رسول اللّه ـ ﷺ ـ أن نتصدق، ووافق ذلك عندي مالاً فقلت اليوم أَسْبِقُ أبا بكر ـ إنْ سبقتُه يومًا ـ قال: فجئت بنصف مالي. فقال رسول اللّه ـ ﷺ ـ: مَا أَبْقَيتَ لأَهْلِكَ؟ قلت: مثله. وأتىٰ أبو بكر بكلِّ ما عنده، فقال: يا أبابكر، مَا أَبْقَيتَ لأَهْلِكَ؟ فقال: أَبْقَيتُ لَهُمُ اللّهَ وَرَسُولَهُ، قلت: لا أسبقه إلىٰ شيءٍ أبدًا. قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح.[1] فهذه لا شك تضحية في سبيل اللّه؛ فإن أبا بكر ضحّىٰ بنفسه وولده وزوجه؛ إذ لم يترك لهم قليلاً ولا كثيرًا مما يملكه مع وجوب نفقتهم عليه، فحمله حب الإنفاق في سبيل اللّه علىٰ أن يضحّي بالجميع في سبيل دين الإسلام ونصرته وتهيئة الأمة للمعركة.

---

(١) الترمذي ـ سنن الترمذي (٥ : ٢٧٧)

المبحث الثاني

التهوين من قوة العدو من حيث

فساد الغاية التي يحارب من أجلها (وضوح الهدف يُحدد الغاية)(١)

إن الأمة الإسلامية الواعية الفطنة المتفهمة لقضيتها، العارفة لواجبها لا تهاب قوى العدو ولا تخشاه؛ لأنها تستمد قوتها من إيمانها بالله - سبحانه وتعالى - ويقينها بعدالة قضيتها وفساد الغاية التي يقاتل من أجلها العدو، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ **الَّذين آمَنُوا يُقَاتلُونَ في سَبيلِ اللَّه والَّذين كَفَرُوا يُقَاتلُونَ في سَبيلِ الطَّاغُوت فَقَاتلُوا أُوْلياءَ الشَّيْطَان إنَّ كَيْدَ الشَّيْطَان كَانَ ضَعيفًا** ﴾(٢). فقد بين اللَّه - سبحانه وتعالى - في هذه الآية أن المؤمنين باللَّه المصدّقين بما جاء به نبيهم - ﷺ - الموقنين بما يجب عليهم تجاه دينهم وأمتهم وأوطانهم إذا قاتلوا فإنما يكون قتالهم في سبيل اللَّه ويكونون من حزب اللَّه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ومن فساد الغاية التي يُقاتل من أجلها العدو أنه يُقاتل في سبيل الطاغوت، وسماه اللَّه طاغوتًا (من الطغيان) لتعديه وتجاوزه الحق؛ فهو يقاتل ليعتدي ويظلم ويبطش ويستعمر الأرض ويستعبد البشر ويصد عن سبيل اللَّه وينشر الفساد في الأرض بجميع أشكاله وصوره يسعى في الأرض فسادًا، ويهلك الحرث والنسل. ولكن اللَّه - سبحانه وتعالى - يخبرنا بأن كيد هذا العدو ضعيفٌ إذا ما أخذنا حذرنا وأعددنا للأمر عدته، وتهيأت الأمة وأصبحت كالجسد الواحد في تعاطفها وتراحمها وتآزرها، كما أخبر بذلك - ﷺ - في الحديث الشريف « **مَثَلُ المؤْمنِينَ في تَوادِّهِمْ وتَعَاطُفِهِمْ وتَرَاحُمِهِمْ مَثَلُ الجَسَدِ إذَا**

---

(١) ينص مبدأ الهدف على أنه يجب توجيه جميع الجهود نحو غاية واضحة محددة حاسمة. مبادئ الحرب - كلية القيادة والأركان ص٤.

(٢) سورة النساء: الآية ٧٦.

اشْتَكَى مِنْهُ عُضوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى»[1] . وإذا كانت الأمة على هذا المستوىٰ من التماسك والتعاضد فسوف تتحطم علىٰ صخورها جميع الموجات العدائية التي يحملها تيار أعداء الله، وتذهب زبداً جفاء، وفي ذلك يقول ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ** ﴾[2] . وهذا كتاب الله يوضح لنا ويؤكد أن فساد الغاية من قتال المنافقين والكفرة يؤدي بهم إلىٰ الكذب وعدم الوفاء؛ لأنه ليس هناك هدف سامٍ يحاربون من أجله. ثم يبين لنا الله تعالىٰ مع سياق الآيات أنهم يرهبوننا ويخشوننا أشد خشية، وأنهم جبناء لا يقوون علىٰ مواجهتنا؛ لحرصهم علىٰ الحياة الدنيا، فيقول الله تعالىٰ: ﴿ **لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ** ﴾[3] . وفي الآية السابقة ما يُوضح تحالف قوىٰ الطغيان والكفر ضد المسلمين؛ فعلىٰ الرغم من أن قوىٰ الشر والبغي تتنازعهم الأهواء والمصالح، ﴿ **بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ** ﴾، وقلوبهم متنافرة وأحزابهم متناحرة، نسوا خلافاتهم إذا كان الطرف المقابل لهم الأمة الإسلامية، واتحدوا ضدها للقضاء عليها، وأكبر دليل علىٰ ذلك تبرئة الكنيسة لليهود من قتل عيسىٰ ـ عليه السلام ـ ومع كل ما نراه من تجمعهم وتآمرهم علىٰ الأمة الإسلامية نجد القرآن الكريم ينهانا عن الوهن في طلب العدو، أو التكاسل عن القتال؛ حيث يقول الله تعالىٰ: ﴿ **وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ** ﴾[4] أي لاتضعفوا في طلبهم وأظهروا القوة والجلد، والآية تشير إلىٰ مبدأ عسكري

---

(١) رواه مسلم في صحيحه في كتاب البر والصلة والآداب باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (١٦ : ١٤٠) والإمام أحمد في مسنده (٤ : ٢٧٠).

(٢) سورة الحشر : الآيتان ١١ ـ ١٢

(٣) سورة الحشر : الآيتان ١٣ ـ ١٤

(٤) سورة النساء : الآية ١٠٤

مهم يعدّه القادة العسكريون من أهم المبادئ التي تؤدي إلى النصر وهو مبدأ المبادأة (٤) .

ومن الحقائق المعروفة أنه كلما أدركت الأمة أنها تقف خلف جيش محارب من أجل قضية عادلة ، وأن الهدف الذي يُقاتل من أجله يستحق التضحية كانت هذه الأمة وفية مع جيشها ، قادرة على مواجهة أقسى التحديات من عدوها ، وأن تعرف زَيْف الأهداف التي يدعيها العدو ويقاتل من أجلها ؛ فالأمة الإسلامية مستهدَفة من العدو في عقيدتها ، وهي - أي العقيدة - من أهم ما يريد العدو القضاء عليه بأن يجعل الأمة الإسلامية أمة بلا عقيدة ؛ لأن العدو على يقين من خطورة العقيدة عليه ، ولقد أثبت تاريخ الأمم أن الجيوش لا تهزم لقلة موادها ، بل لضعف عقيدتها ، ومن مخططات العدو تشكيك الأمة في دينها واتهام الدين بالرجعية والتخلف ، وأنه سبب لكل تأخر وفقر يصيب الأمة ليصل إلى قتل روح الجهاد والمقاومة في الأمة ؛ فيتسلط عليها ويستعمرها ويسلب حريتها وينتفع بخيراتها ، وليوقف المد الحضاري الذي ينبع من دينها ، والواقع شاهد على ما نقوله ؛ فلا تكاد تجد دولة استعمرها العدو إلا أفسد عقائدها ونشر الفساد فيها ، وإذا خرج منها سلّم مقاليد الحكم إلى من تربوا على موائده لينهجوا نَهْجه ويسيروا في ركابه دون أن يكلفه ذلك شيئًا .

---

(٤) المبادأة : مبدأ عسكري يفسح المجال أمام القائد لاختيار الأهداف والمكان والوقت والوسائل اللازمة لإنجاز المهمة . انظر محاضرة مبادئ الحرب - كلية القادة والأركان ص ٤ .

المبحث الثالث

إعلام الأمة بأن شرف الغاية التي يقاتلون من أجلها يستوجب الصبر على ما يصيبهم

لقد أوضح اللَّه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ الهدف الذي تقاتِل من أجله الأمة، فتُقدِّم فِلْذات أكبادها راضية طائعة مختارة، مشتاقة إلىٰ جنة عرضها السموات والأرض أُعدت للمتقين، فكلما كان الثمن غاليًا كانت السلعة أغلىٰ علىٰ صاحبها. وفي ذلك يقول الشاعر:

وَمَنْ يَخْطبُ الحَسْنَاءَ لَمْ يُغْلِهِ المَهْرُ

فبيع الأنفس في سبيل اللَّه تجارة رابحة بلا شك، ومن فضل اللَّه علىٰ الناس أنه يشتري منهم تجارةً البائع فيها لا يملك السلعة؛ فالسلعة ـ وهي الأنفس ـ ملكٌ للَّه ـ عزَّ وجلَّ ـ والمشتري يشتري منهم ما يملكه بأثمن منه وأعز وأقوم فهو هدف ثمين وغال بلا شك، ويستحق التضحية والثبات والصبر، بل إنهم يشترون ما هو أثمن من ذلك وأقوم، وهو رضوان اللَّه ـ عزّ وجلّ ـ الذي ما فوقه شيء. ومن علم ذلك واستيقنه هانت عليه نفسه التي بين جنبيه، ورآها لا تساوي شيئًا إلىٰ جانب عظيم ما وعد اللَّه به من الرضوان والثواب.

إن الأمة التي عرفت طريقها إلىٰ اللَّه تعلم علم اليقين أنها سوف تلاقي الشدائد والمحن ونقص الأموال وفقد الأنفس (ولذلك ذكر اللَّه الصبر في القرآن كثيراً لعلمه ـ سبحانه ـ بضخامة الجهد الذي تقتضيه الاستقامة علىٰ الطريق بين شتىٰ النوازع والدوافع، والذي يقتضيه القيام علىٰ دعوة اللَّه في الأرض بين شتىٰ الصراعات والعقبات، والذي يتطلب أن تبقىٰ النفس مشدودةَ الأعصاب مجندةَ القوىٰ يقِظة للمداخل والمخارج، ولابد من الصبر في هذا كله: لابد من الصبر علىٰ الطاعات، والصبر عن المعاصي، والصبر علىٰ

الجهاد، والصبر على الكيد بشتى صنوفه، والصبر على بطء النصر، والصبر على المشقة، والصبر على انتفاش الباطل، والصبر على قلة الناصر، والصبر على طول الطريق الشائك، والصبر على التواء النفوس وضلال القلوب وثِقْلة العناد ومضاضة الإعراض)[1].

وهناك آيات كثيرة تشير إلى أن منهج اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ يحتاج إلى صبر، وأن الجنة محفوفة بالمكاره، والنار محفوفة بالشهوات، وفي ذلك يقول اللَّه تعالى: ﴿ الٓمٓ (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴾[2]. ويقول ـ ﷺ ـ: « **لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الدِّينِ ظَاهِرِينَ لَعَدُوِّهِمْ قَاهِرِينَ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ إِلا مَا أَصَابَهُمْ مِنْ لأْوَاءٍ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ...** »[3] فالشاهد أن الأمة الإسلامية سوف تواجه أنواع الأذى وشتى المصائب من أعدائها؛ فلابد أن تُعَدَّ هذه الأمة إعداداً معنويًا وماديًا وروحيًا: وألا تنصت إلا لداعي الحق، وأن تصبر وتحتسب؛ فهي موعودة بالنصر من اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[4] ويقول ـ عز وجل ـ ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[6].

وقد أجمعت الأمة على أن الصبر واجب، وهو نصف الإيمان؛ فإن الإيمان نصفان، نصف صبر ونصف شكر،[7] فما من فضيلة إلا والصبر دعامتها، ولا رذيلة إلا والصبر الدرع الواقي من شرها، فهو خُلُق الأنبياء وزاد العظماء، ولقد كان لنا أسوة في رسول اللَّه ـ صلى اللَّه عليه وسلم ـ والمسلمين الأوائل أمثال عمار بن ياسر وبلال وصهيب، أولئك الذين حوصّروا مع رسول

(١) سيد قطب ـ ظلال القرآن (١ : ١٤١).

(٢) سورة العنكبوت: الآيتان ١ ـ ٢.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥ : ٢٦٩).

(٤) سورة الحج: الآية ٤٠.

(٥) سورة غافر: الآية ٥١.

(٦) سورة محمد: الآية ٧.

(٧) ابن القيم ـ تهذيب مدارج السالكين (ص ٣٥١).

اللّه - ﷺ - في الشِّعب بمكة حتى أكلوا أوراق الشجر، وقطعت قريش عنهم الأسواق حتى كان يسمع أصوات نسائهم وأبنائهم يتضاغَوْن من وراء الشعب من الجوع، واشتدت قريش على من أسلم ممن لم يدخل الشعب، وعظمت الفتنة على رسول اللّه - ﷺ - وعلى أصحابه - رضوان اللّه عليهم - وزلزلوا زلزالاً شديداً [1] فما وهنوا لما أصابهم، وما ضعفوا وما استكانوا .

هذا نموذج لأمة رباها رسول اللّه - ﷺ - عرفت الغاية فصبرت على كل ماتُلاقيه، وفي ذلك يقول شاعرهم خبيب بن عدي :

وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللّهِ مَصْرَعِي

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ ... يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ[2]

والتاريخ الإسلامي حافل بالبطولات والصمود؛ فهذا عمار بن ياسر من السابقين الأولين هو وأبوه وكانا ممن يُعذَّب في اللّه، فكان النبي - ﷺ - يمر عليهما فيقول : «**صبراً آل ياسر، موعدكم الجنة**.»[3] وغيرهم كثير ممن صبروا في ميادين الشرف والتضحية يجدون في الصبر لذتهم؛ لثقتهم بحسن الجزاء وما سيكون لهم من العوض عند اللّه .

ولقد أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم، وأن من وافق الراحة حصل على المشقة وقت الراحة في دار الراحة، فإنّ على قدر التعب تكون الراحة[4] . يقول اللّه تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ (١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾[5] .

---

(١) الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب - مختصر السيرة (ص٨٩).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، انظر فتح الباري (٧ : ٣٠٩).

(٣) ابن حجر العسقلاني - الإصابة (٢ : ٥١٢).

(٤) ابن القيم - تهذيب مدارج السالكين (ص٣٥٩).

(٥) سورة البقرة : الآيات ١٥٣ - ١٥٧ .

نداء من اللَّه - سبحانه وتعالىٰ - إلىٰ الأمة المسلمة أن تستعين بالصبر ؛ لأنه مفتاح الفرج وما أُعطيت أمةُ الإيمان خيراً من الصبر ، فإن احتملت مكروهًا كان صبرها رضًا وتسليماً بما قدّر اللَّه ، وإن كان ضبطًا للنفس كان حلمًا ، وإن كان قتالاً سمّي شجاعه وقوة ، وإن كان صبراً عن الشهوات كان عفةً ، فلا تكاد تستغني عنه الأمة التي وصفها اللَّه بالإيمان ، ثم أضاف إلىٰ الاستعانة بالصبر الصلاة ، الركن الأساسي الذي لا يسقط عن المسلم بأي حال من الأحوال ، وقد سماه بعض العلماء ركن المسلم)[(١)] إنتجتمع فيه جميع أركان الإسلام ، وفي الصلاة تذكر الشهادة أثناء التشهد ، وتمتنع فترة من الوقت عن الأكل والشرب والكلام ، وفيه معنىٰ الصيام أكثر ، واستقبالك القبلة فيه معنىٰ الحج ، وباقتطاعك وقت الصلاة معنىٰ الزكاة ؛ لأن المال لا يكون إلا عن وقت عملت فيه فاستحققت أجراً ؛ فالصلاة لا تسقط عن المؤمن لا في حرب ولا سلم ، ولا سفر ولا إقامة ، ولا مرض ولا صحة ، فله أن يصلي قائمًا وقاعداً ومضطجعًا ومستلقيًا علىٰ جنبه ، ومشيراً بعينه وبأصبعه حسب استطاعته ، وقد سماها بعض العلماء المعراج الأصغر ؛ فلذلك أمرنا اللَّه أن نستعين بها :

(كان رسول اللَّه - ﷺ - إذاحَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّىٰ)[(٢)] .

يوجهنا اللَّه - سبحانه وتعالىٰ - إلىٰ أن الاستعانة بالصبر والصلاة والذكر تأكيد لمعيته - سبحانه وتعالىٰ - ومن كان اللَّه معه لا يخشىٰ شيئًا أبدًا ؛ فهذا نبي اللَّه موسىٰ - عليه السلام - يقابل فرعون وزبانيته ومُلْكه بما ذكره اللَّه تعالىٰ ﴿**إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ**﴾[(٣)] . وفي الصحيحين عن أنس أن أبا بكر قال : « نظرت إلىٰ أقدام المشركين فوق رؤوسنا ونحن في الغار فقلت : يا رسول اللَّه ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ أَبْصَرَنَا فقال : « **يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا** »؟[(٤)] . يعني : بالمعونة والنصر .

---

(١) ابن القيم - مدارج السالكين (ص ٣٦١) .

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده (٥ : ٣٨٨) .

(٣) سورة طه : الآية ٤٦ .

(٤) رواه البخاري في الفتح (٩ : ٤٩٥) ، مطبعة البابي الحلبي وأخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة ، باب فضل أبي بكر الصديق حـ رقم ٢٣٨١ (٤ : ١٨٥٤) طبعة دار الإفتاء .

ويعقب آية البقرة المذكور في الصفحة السابقة إخباره تعالىٰ بأن قتلَىٰ سيخرُّون شهداء في معركة الحق، شهداءَ في سبيل اللَّه، قتلىٰ أعزاء أحياء، قتلىٰ كَراماً أزكياء، فهؤلاء الذَين يقتلون في سبيل اللَّه ليسوا أمواتًا، إنهم أحياء؛ فلا يجوز أن يقال عنهم أموات، إنهم أحياء بشهادة اللَّه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ .

ثم تجد أن سياق الآيات يبدأ بنداء المؤمنين للاستعانة بالصبر والصلاة، ـثم تأتي آية الشهداءـ لتستعدّ الأمة بالصبر علىٰ ما تُبتلىٰ به: من الخوف ونقص الأموال والأنفس والثمرات، ولابد من هذا البلاء (ليؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة، كي تعزّ علىٰ نفوسهم بمقدار ما أدوا في سبيلها من تكاليف، فالتكاليف هنا هي الثمن الذي تعز به العقيدة في نفوس أهلها قبل أن تعز في نفوس الآخرين، وكلما تألموا في سبيلها، و بذلوا من أجلها كانت أعز عليهم وكانوا أضنَّ بها. كذلك لن يدرك الآخرون قيمتها إلا حين يرون ابتلاء أهلها بها وصبرهم علىٰ بلائها، إنهم عندئذ سيقولون في أنفسهم لو لم يكن ما عند هؤلاء من العقيدة خَيراً مما يبتلون به وأكبر ما قبلوا هذا البلاء ولا صبروا عليه، وعندئذ ينقلب المعارضون للعقيدة باحثين عنها مقدرين لها، مندفعين إليها، وعندئذ يجيء نصر اللَّه ويدخل الناس في دين اللَّه أفواجًا)[(١)].

إن الأمة الإسلامية وهي تمر اليوم بأحرج فترة من حياتها، وتواجه هذه التيارات والصراعات والمؤامرات والحروب والاعتداءات الكافرة، في فلسطين ولبنان وأفغانستان وفي كثير من دول العالم جدير بها أن تفيء إلىٰ أمر اللَّه، وأن تأخذ من الصبر الوقاية التي تحفظها من ويلات ما تعاني: من اضطهاد وتشريد وتدمير وقتل جماعي، دون تفريق بين شيوخ وأطفال ونساء، وأن تتسلح بجميع ما أمر اللَّه به من أنواع القوة، سواء كانت المعنوية أو المادية؛ لتقف في وجه خصومها وأعدائها، وأن تقف في وجه البغي والطغيان والظلم والعدوان، وما أحرىٰ بأمة الإسلام أن تتمسك بدينها، وتتسامىٰ بأخلاقها عن كل ما يقعد بهمتها ويزري بكرامتها ويحط من قدرها، وأن تتسم بالشجاعة والقوة والاعتزاز بهذا الدين في البأساء والضراء إيمانًا بأن العاقبة للمتقين، وإن علىٰ أبناء الأمة الإسلامية ألا يستهويهم بريقُ الحياة فينسوا الواجب، ولا

---

(١) سيد قطب ـ في ظلال القرآن (١: ١٤٥).

تزعجهم حادثات الليالي فيخلدوا إلىٰ الضعف، ولا تستحوذ عليهم تيارات الهوىٰ فينحدروا عن الجادة ويميلوا إلىٰ الاستكانة، إنّ عليهم أن يوطنوا أنفسهم علىٰ مواجهة تصاريف الحياة حلوها ومرها، خيرها وشرها، بقلوب مؤمنة صادقة، وليعلموا أن النصر مع الصبر وأن مع العسر يسراً.

يقول اللّه تعالىٰ: ﴿**أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾(١). في هذه الآية الكريمة يبين اللّه تعالىٰ شرف الغاية التي لابد أن يطمع الإنسان فيها، ويتنافس عليها، ويهون من أجلها كل شيء، وتصغر أمامها جميع الطموحات والمغريات؛ لأنه شتان بين رضوان اللّه وسخطه، فالرضا هو الغاية العظمىٰ التي يسعىٰ لها كل مؤمن، فنرضىٰ برضاه ونسعد بلقائه، وفي هذا يقول اللّه تعالىٰ لنبيه الكريم: ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ**﴾(٢)، فشرف الغاية التي يقاتل من أجلها كل مؤمن هو إعلاء كلمة لا إله إلا اللّه لنسعد برضوان اللّه؛ فلذلك يجد المؤمن لذةً للمحن التي تلاقيه ويتلذذ بها؛ لأنه ينظر إلىٰ الغاية التي سيصل إليها ويعمل من أجلها، ويقارن بما يعترضه في طريق وصوله إلىٰ هذه الغاية، فيجد أن هذه الدنيا كلها لا تساوي جزءاً مما ينتظره عند اللّه، إذا أخلص النية وأراد بعمله وجه اللّه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ فهنيئًا لأمة أعدت نفسها لأسمىٰ غاية، فكانت راسخة رسوخ الجبال لا تؤثر فيها أعاصير الكفر والأهواء.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٦٢.

(٢) سورة الضحىٰ: الآية ٥.

المبحث الرابع

إعلاء شأن الشهداء وكفالة أسرهم

للشهداء فضل عظيم ومنزلة عالية عند اللّه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وقد جاءت بذلك آيات كثيرة وأحاديث نبوية، نذكر منها قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]. ويقول تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾[2].

فالآية الأولىٰ نص في النهي عن حسبان الذين قتلوا في سبيل اللّه أمواتًا، بل أحياء عند ربهم يرزقون؛ حتىٰ لا نظن أنهم بمفارقتهم للحياة وبعدهم عن أعيننا أموات، ثم نص كذلك أنهم أحياء، ثم يصف اللّه سبحانه وتعالىٰ خصائص هذه الحياة بصفات منها:

الأولىٰ: أنهم عند ربهم يرزقون.

الثانية: الفرح بما نالوا من فضل اللّه.

الثالثة: الاستبشار بإخوانهم الشهداء دليل علىٰ عدم انقطاع صلتهم بمن خلفهم، وتطمينهم بعدم الخوف والحزن، واستبشارهم بنعمة اللّه وفضله، واليقين بأنه سبحانه لا يضيع أجر المؤمنين.

ثم يؤكد اللّه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ في الآية الأخرىٰ حياة الشهداء، وينهانا عن القول بأنهم أموات؛ وفي ذلك ما يشعرنا بأن يكون هؤلاء الشهداء أحياءً بيننا بإحياء ذكرهم، وإظهار مناقبهم، والفخر بهم، وأن ينسب أبناؤهم إليهم

(١) سورة آل عمران: الآيات ١٦٩ ـ ١٧١

(٢) سورة البقرة: الآية ١٥٤

للفخر ؛ كأن يقال لهم أبناء الشهداء منقبة عظيمة لآبائهم وفخراً لهم بأن يكونوا أبناء لهؤلاء الشهداء الأبطال الذين ضحوا بأنفسهم في سبيل اللّه ؛ حتىٰ ننقش في قلوبهم طريق آبائهم، طريق العزة والكرامة والرجولة والشهامة وبذلك نهيء جيلاً تتوق نفسه إلىٰ الجهاد في سبيل اللّه، جيلاً ذا نفس جياشة لأنْ تلحق بركب الشهداء، جيلاً عرف قدوته في أبيه وأخيه وصديقه الذين استشهدوا في سبيل اللّه، فعاشوا بذكراهم الطيبة وأمجادهم الحميدة أحياءً بيننا.

كما يجب أن نكتب عن حياتهم ومواقفهم الخالدة، وأن يتولىٰ الإعلام عرض المشاهد التي تحكي شرف استشهاد هؤلاء الأبطال، معبرة عن سمو الغاية التي قاتلوا واستشهدوا من أجلها.

وقد ورد في السنة المطهرة أن أرواحهم في جوف طير خُضر، وأنهم في الجنة يرزقون ويأكلون ويتنعمون. فعن ابن عباس - رضي اللّه عنه - قال: قال رسول اللّه - ﷺ -: «**لَمَّا أُصيبَ إخْوانُكُمْ بأُحُد جعَلَ اللّهُ أرْوَاحَهُمْ في جَوف طَيرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أَنْهارَ الجَنَّة تَأكُلُ منْ ثِمَارِهَا وتَأوِي إِلَى قَنَادِيلَ منْ ذَهَب مُعَلَّقَة في ظلِّ العَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طَيبَ مَأكَلِهِمْ ومَشْرَبِهِمْ ومَقِيلِهِمْ قَالُوا: مَنْ يُبَلِّغُ إخْوَانَنَا عَنَّا أَنَّا أحْياءٌ في الجَنَّة نُرْزَقُ؛ لئَلا يَزْهَدُوا في الجِهَاد وَلاَ يَنْكُلُوا عَنِ الحَرْب**؟ فقال اللّه سبحانه: أَنَا أُبَلِّغُهُ عَنْكُمْ فَأَنْزَلَ اللّهُ ﴿**ولا تَحْسَبَنَّ الّذين قُتلوا في سَبيلِ اللّه أمْواتًا بل أحْياءٌ عندَ ربِّهم يُرزَقُونَ**﴾[1]. فإذا سمعنا هذا الحديث الشريف وما أعده اللّه للشهداء، وما يتمتعون به وينعمون بعد وفاتهم، وأنهم أحياء عند ربهم، اشتاقت النفوس وتهيأت لأن تحظىٰ بالشهادة، وتنال السعادة في الدنيا والآخرة، إما النصر وإما الشهادة إحدىٰ الحسنيين. وروىٰ أبو داود أيضًا عن رسول اللّه - ﷺ - أنه قيل له من في الجنة ؟ قال: «النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود[2] في الجنة، والوئيد في الجنة»[3] وروي أيضًا عن الرسول

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٦٩ . والحديث أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد (٣ : ٢٢).

(٢) المولود : أطفال المشركين تكلم عنهم ابن تيمية في الفتاوىٰ (٢٤ : ٣٧٢) (٤ : ٢٧٧) وقال : الله أعلم بما كانوا عاملين يمتحنون في العرصات

(٣) اخرجه أبو داود في كتاب الجهاد (٣ : ٢٢).

- ﷺ - «**إنَّ الشَّهِيدَ يَشْفَعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِه**»(١)

ولقد دلت هذه الأحاديث على إعلاء شأن الشهيد، وعلو منزلته ورفعة مكانته عند اللَّه، ومزيته على أهل بيته؛ إذ أُعطي الشفاعة في سبعين منهم يوم القيامة عند الحاجة إلى الشفاعة ﴿**يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ**﴾(٢). في ذلك اليوم العصيب يجعل اللَّه للشهيد الفضل الكبير على رؤوس الأشهاد بأن يشفع في سبعين من أهل بيته. وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك عن النبي - ﷺ - قال: «**مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ لَهَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ يَسُرُّهَا أَنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى الدُّنْيَا وَلَا أَنَّ لَهَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا إِلا الشَّهِيدُ؛ فَإِنَّهُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ فَيُقْتَلُ فِي الدُّنْيَا؛ لمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ**». وفي رواية: «**فَإِنَّهُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ؛ لِمَا يَرَى مِن الكَرَامَةِ**»(٣).

وثبت عن النبي - ﷺ -: «**إنَّ الشَّهِيدَ تُظِلُّهُ المَلائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى يُرْفَعَ**»(٤) فمن هذين الحديثين نرى الكرامة التي ينالها الشهيد، حتى إنه ليتمنى العودة إلى الدنيا ليقتل مرة أخرى، وأن الملائكة تظله بأجنحتها تكريمًا له واحتفاء به حتى يرفع إلى مولاه راضيًا مرضيًا، بعد أن أدى واجبه تجاه ربه؛ فقاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا، وأخلص النية وجاهد في اللَّه، فأكرمه اللَّه بالشهادة وأحياه الحياة الطيبة، وأحيا ذكره في عقبه وبين أهله وأمته، فكان أكبر مدعاة لأن يتهيأ مَن خلفَه ليكونوا مثله، ولينالوا ما نال من السعادة، وليحظوا بما حظي من الفوز، فكانت الشهادة مجال تنافس وتسابق إلى الخيرات، وفي الشهادة يتنافس المتنافسون ويتسابق إليها المتسابقون. يقول اللَّه تعالى: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾(٥). وإن الكرامة التي يلقاها الشهيد في الدنيا والآخرة لهي أكبر تعزية وتسلية لأهله وأحبابه

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الجهاد (٣: ٢٣).

(٢) سورة عبس: الآيات ٣٤-٣٧.

(٣) أخرجهما مسلم في صحيحه، باب فضل الشهادة في سبيل الله (١٣ : ٢٤) ورواهما البخاري في صحيحه كتاب الجهاد، باب تمني المجاهد أن يرجع إلى الدنيا (٣: ٢٠٨).

(٤) البخاري - الجامع الصحيح كتاب الجهاد، باب ظل الملائكة على الشهيد (٣: ٢٠٨).

(٥) سورة آل عمران: الآية ١٣٣.

الذين فارقهم في الحياة الدنيا، بل إن تلك الكرامة هي أكبر حافز لهم من إخوانه وأبنائه وجميع أهله لأنْ يسلكوا ما سلك من طريق العزة والخير، ويقتدوا به في الجهاد والاستشهاد؛ فيردفوا ذلك الشهيد الفرد من أهل بيتهم بشهيد وشهيد، ويمدوا الأمة الإسلامية بالمقاتلين الكرام من أبناء الشهداء، وإن الأمة التي ما تني تقدم الشهيد تلو الشهيد لهي أمة عظيمة تستحق أن تكون خير أمة أخرجت للناس.

ومن وسائل تهيئة الأمة للمعركة كفالة أسر شهدائها والاعتناء بهم والقيام على شؤونهم والإشفاق عليهم، وفيما يخص الذرية الضعاف يقول اللَّه تعالى: ﴿ **وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا** ﴾[1]. ولو أن الآية لم تذكر جميع أسرة الشهيد من أب وأم وزوجة، إلا أنها ذكرت أهم ما يتركه الإنسان خلفه ويخاف على تركه من ظلم غيره، وهذه الآية قد اختلف العلماء في تأويلها، فقالت طائفة: هذا وعظ للأوصياء؛ أي افعلوا باليتامى ما تحبون أن يفعل بأولادكم من بعدكم.

قاله ابن عباس مستشهداً بقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا** ﴾[2]. وقالت طائفة: المراد جميع الناس، وأمرهم باتقاء اللَّه في الأيتام وأولاد الناس وإن لم يكونوا في حجورهم، وأن يسددوا لهم القول كما يريد كل واحد منهم أن يفعل بولده من بعده. ومن هذا ما حكاه الشيباني قال: (كنا على قسطنطينية في عسكر مسلمة بن عبدالملك، فجلسنا يوماً في جماعة من أهل العلم فيهم ابن الديلمي، فتذاكروا ما يكون من أهوال آخر الزمان فقلت له: يا أبا بشر، ودي ألا يكون لي ولد. فقال لي: ما عليك ما من نسمة قضى اللَّه بخروجها من رجل إلا خرجت، أحبَّ أو كرهَ، ولكن إذا أردت أن تأمن عليهم فاتق اللَّه في غيرهم ثم تلا الآية، وفي رواية: ألا أدلك على أمر إن أدركته نجّاك اللَّه منه، وإن تركت ولداً من بعدك حفظهم فيك، فقلت: بلى، فتلا هذه الآية ﴿ **وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ** ﴾[3].

---

(١) سورة النساء: الآية ٩.

(٢) سورة النساء: الآية ١٠.

(٣) ذكره القرطبي ـ الجامع لأحكام القرآن ط دار الكاتب العربي/ القاهرة (٥: ٥)، وذكر الإمام=

فمما توحي الآية به وما ذكره ابن عباس - رضي الله عنهما - وما حكاه الشيباني كذلك من أن الله - سبحانه وتعالىٰ - يحفظ أبناءك بمحافظتك وتقواك في أبناء غيرك، فما بالك إذا كان آباؤهم شهداء في سبيل الله؟ فكانت المحافظة والتقوىٰ فيهم أهم؛ لأنهم أبناء من قاتلوا عنا وقدموا أرواحهم رخيصة لله عز وجل دفاعاً عن دينهم وعن المؤمنين ولئلا تكون فتنة ويكون الدين كله لله عز وجل، فواجب على الأمة الإسلامية الاهتمام بأسر الشهداء، وتوفير كل ما تحتاج إليه هذه الأسر من رعاية وتعليم ونفقة، وأن نحافظ علىٰ معنويات أفرادها، وفي ذلك يقول - ﷺ - «**مَنْ أَحْسَنَ الصَّدَقَةَ جَازَ عَلَى الصِّرَاطِ، وَمَنْ قَضَى حَاجَةَ أَرْمَلَةٍ أَخْلَفَ اللَّهُ فِي تَرِكَتِه**»[1] وقوله - ﷺ - : «**السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالْيَتِيمِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ كَالْقَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَارَ**»[2] فما بالك إن كان اليتيم ابن شهيد؟! وثبت عنه - ﷺ - في تعظيم حرمة نساء المجاهدين، والوعيد لمن خان مجاهداً في أهله أنه قال: «**حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلاً مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ فَيَخُونُهُ فِيهِمْ إِلا وَقَفَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَأْخُذُ مِنْ عَمَلِهِ مَا شَاءَ، فَمَا ظَنُّكُمْ؟**»[3]. فإذا كان هذا عظم ذنب من خان نساء المجاهدين فما ظنك بمن خان نساء الشهداء؟ فالذنب أعظم، ومعنىٰ قوله - ﷺ - : «**حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ**» هذا في أمرين: أحدهما تحريم التعرض لهم بريبة من نظر محرم وخلوة وحديث محرم وغير ذلك، والثاني في برهن والإحسان إليهن وقضاء حوائجهن التي لا تترتب عليها مفسدة، ولا يتوصل بها إلىٰ ريبة ونحوها[4]. وقد ثبت عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه لما بلغ أهل المدينة استشهاد جعفر بن أبي طالب في مؤتة قال: «**اصْنَعُوا لآلِ جَعْفَرٍ**

= السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٢: ٤٤٢ - ٤٤٣) أن ابن جرير أخرجه عن الشيباني، ورواه ابن جرير الطبري بسنده في جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق أحمد شاكر، ط الثانية دار المعارف بمصر (٨: ٢٤) رقم الأثر ٧٨٢٠ ورجال السند ترجم لهم الشيخ أحمد شاكر في الصفحة نفسها فليراجع.

(١) عزاه القرطبي لمحمد بن كعب القرظي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - رفعه (٥: ٥١)

(٢) رواه الإمام البخاري في صحيحه (٧: ٧٦)

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٣: ١٥٠٨)، كتاب الإمارة، باب حرمة نساء المجاهدين وإثم من خانهم فيهن.

(٤) النووي - صحيح مسلم بشرح النووي (١٢: ٤٢) شرح الحديث.

طَعَامًا؛ أتَاهُمْ مَـا يَشْغَلُهُمْ »(1) . وروي عن عبدالله بن جعفر أن النبي - ﷺ - أمهل آل جعفر ثلاثًا أن يأتيهم ثم أتاهم فقال: «**لاتَبْكُوا عَلَى أخي بَعْدَ اليوم. ثم قال: ادْعُوا لِي بَنِي أخِي. فَجِيءَ بِنَا كَأنَّا أفْرُخٌ، فقال: ادْعُوا لِيَ الحَلاقَ. فأمره فحلق رؤوسَنَا**» (2) فهذه الأحاديث تدل على عنايته - ﷺ - واهتمامه بأسر الشهداء والحنو عليهم والأخذ بأيديهم لما يصلحهم، والنبي - ﷺ - هو قائدنا وقدوتنا الحسنة نتأدب بأدبه، ونتأسى بأفعاله وأقواله؛ فتجد الأمة الإسلامية القدوة الحسنة في الاهتمام بأسر الشهداء في نبيها وحبيبها محمد - ﷺ - فتتهيأ للمعركة، ويكون هذا سببًا لاستعدادها وبذلها وتضحيتها .

---

(1) أخرجه البغوي في شرح السنة (٥ : ٤٦٠) ط المكتب الإسلامي تحقيق شعيب الأرناؤوط وحكم عليه بالحسن، وأخرجه أبو داود في سننه (٣ : ٤٩٧) رقم حـ (٣١٣٢) ط دار الكتب العلمية . والترمذي (٢ : ٢٣٤) وابن ماجة في كتاب الجنائز (٢ : ٥١٤) رقم حـ (١٦١٠) .

(2) البغوي - شرح السنة (٥ : ٤٦١) وأبو داود في الجنائز (٤ : ٤٠٩ - ٤١٠) رقم ٤١٩٢ والنسائي (٨ : ١٨٢) .

المبحث الخامس

إنقاذ المستضعفين وفداء الأسرى

المستضعف لغة: قال ابن الأثير: تَضَعَّفْتُهُ وَاسْتَضْعَفْتُهُ: بمعنى الذي يتضعفه الناس ويتجبرون عليه في الدنيا للفقر ورثاثة الحال، وتضعفه أي: عدَّه ضعيفًا وأذله.[1] يقول الله تعالى في شأن فرعون: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾[2]

والذي نقصده من قولنا «المستضعف من المسلمين»: من كان واقعًا تحت أيدي الكفرة مضطهدًا مفتونًا في دينه، لا يستطيع إقامة شعائره ولا الخلاص مما هو فيه. ومن أسباب تهيئة الأمة للمعركة التخطيط لإنقاذ المستضعفين من المسلمين من الرجال والنساء والولدان الذين ترتسم صورهم في مشهد مثير لحمية المسلم وكرامة المؤمن ولعاطفة الرحمة والإنسانية على الإطلاق، هؤلاء الذين يعانون أشد المحنة والفتنة؛ لأنهم يعانون المحنة في عقيدتهم و الفتنة في دينهم، والمحنة في العقيدة أشد من المحنة في **المال والأرض** لأنها محنة في أخص خصائص الوجود الإنساني الذي تتبعه كرامة **النفس والعرض وحق المال والأرض**[3]. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿**وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا**﴾[4].

ففي الآية الكريمة حضٌّ على الجهاد، وحثٌّ على تخليص المستضعفين المؤمنين من أيدي الكفرة الذين يسومونهم سوء العذاب ويفتنونهم عن دينهم، وإن إنقاذ المستضعفين من القتال في سبيل الله؛ لكونه في سبيل الحق أو أخص من سبيل الله، وإنقاذ المستضعفين من ظلم الأقوياء الجبارين وهم إخوانكم في

---

(١) الزبيدي ـ تاج العروس (٦ : ١٧٢) مادة ضعف، مجمع اللغة العربية ـ المعجم الوسيط (١ : ٥٤٢).

(٢) سورة القصص: الآية ٤.

(٣) سيد قطب ـ ظلال القرآن (٢ : ٧٠٨).

(٤) سورة النساء: الآية ٧٥.

الدين [١]. وكانت الآية الكريمة تخص من كان بمكة من المؤمنين المستضعفين المستذلين من كفار قريش، وكان النبي -ﷺ- يدعو لهم فيقول: «**اللَّهُمَّ أَنْجِ الوَلِيدَ بْنَ الوَلِيدِ وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، وَعَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، وَالمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ المُؤْمِنِينَ..**»[٢].

وكان ابن عباس -رضي الله عنهما- وأمه من هؤلاء المستضعفين كما ثبت ذلك في صحيح البخاري، عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: كانت أمي ممن عذر الله»[٣]. وفي رواية للبخاري عن ابن عباس أيضًا: كنت أنا وأمي ممن عذر الله [٤].

فالآية الكريمة والأحاديث السابقة جاءت بخصوص المستضعفين من المؤمنين الذين كانوا بمكة تحت أيدي كفار قريش، وما لاقوه من الفتنة في دينهم. وسنة الله لا تتغير في كل زمان ومكان، ولو استعرضنا خارطة العالم الإسلامي لوجدنا كثيراً من المستضعفين من المسلمين الذين مازالوا تحت أيدي الكفرة والشيوعيين والبوذيين والصليبيين واليهود، ولعلي هنا أستعرض بعض ما يلاقيه المسلمون المستضعفون في بلاد الكفر حالياً، فقد قام المسلمون في (كامبونغ تريس KAMPONG TRAIS) بإعلان الجهاد في سبيل الله لاسترجاع حقوقهم في أداء واجباتهم الدينية، وتابعهم المسلمون في المناطق المجاورة والخاضعة لسيطرة الشيوعيين، وشعر الشيوعيون بالفشل في إجبار المسلمين على ترك دينهم، فلجأوا إلى القتل الجماعي والإبادة التامة لبعض القرى المسلمة، وإحراق الكتب الدينية ومنع جميع أنواع العبادات واتخاذ المساجد مخازن للحبوب ومستودعات للآلات الزراعية وحظائر للخنازير، وتكليف أئمة المساجد برعايتها، وقتلهم إذا مات خنزير واحد، وإلقاء القبض على حكام القرى المسلمة والأساتذة وأئمة المساجد وتقديمهم إلى (المنظمة العليا للشيوعيين ONG KALOEU)، وفي مقاطعة (ستونغ ترانغ) أصدر الشيوعيون

(١) رشيد رضا - تفسير المنار (٥ : ٢٥٩) بتصرف.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم﴾ (٥ : ١٨٣).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿إلا المستضعفين من الرجال والنساء﴾ (٥١ : ١٨٣).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله﴾ (٥ : ١٨١).

الحكم بالإعدام على كل من له صلة بالدين، من أئمة وحكام ومدرسين، ومنعوا الباقين من تأدية الواجبات الدينية، وهدموا المساجد وأجبروا المسلمين على أكل لحم الخنزير وارتكاب المحرمات[1].

(وفي فيتنام فإن حال المسلمين لا تختلف عن حالهم في كامبوديا، بالإضافة إلى الجهل الكبير بالإسلام؛ فأصبحت المساجد لا تفتح إلا يوم الجمعة، ويصلي فيها الأئمة نيابة عن الشعب، ويصومون رمضان عنهم)[2].

ويلاحظ أن عدد المسلمين في الهند الصينية أكثر من مليونين ونصف المليون، ويشكلون ٤٪ من مجموع السكان، وإن كانت هذه النسبة تختلف بين دولة وأخرى؛ فهي ٧, ١٤٪ في كامبوديا، و٣٪ في فيتنام، وأقل من ٥، .٪ في لاوس ولكنهم اليوم يهيمون على وجوههم في أرض اللّه، أو يموتون بشكل فردي أو جماعي، أو يعيشون في ظلمات السجون.

وفي الفلبين كانت الخطة الصليبية تقضي بأن يتم الاستيلاء على أرض المسلمين، وجرهم إلى القتال وهم غير مستعدين، على حين تهيّأ النصارى واستعدوا، وقاموا بحرق المزارع، وإلقاء السموم في الآبار، وقتل الحيوانات، كما قامت حوادث الاغتيال والخطف وبْقر البطون ونتيجة ذلك أصبح أكثر من ستين ألف أسرة مسلمة مشردة في الغابات والجبال، تتعرض للقتل والسلب وهتك الأعراض إضافة إلى الجوع والبرد والمرض.

وجمعت السلطات بعض المسلمين في المسجد في شهر ربيع الآخر ١٣٩١هـ بحجة عقد صلح بين المسلمين والنصارى وإنهاء قضية الأرض، وبينما كان المسلمون في المسجد إذ دخلته جماعة مسلحة من النصارى، وبدأت بإطلاق النار من المدافع الرشاشة التي بأيدي أفرادها؛ فكانت النتيجة أن قتل سبعون مسلماً وجرح خمسون آخرون بجراحات مختلفة، وفي الوقت نفسه كان اليهود ورجال السلطة يوزعون السلاح على القبائل الوثنية لإحداث الفتن، وهذه القبائل حسب دعواهم بعيدة عن مجال النزاع فكان الوثنيون

---

(١) محمد يحيى صالح التشمابي ومحمود شاكر ـ المسلمون في الهند الصينية (٤٥ ـ ٤٦).

(٢) المصدر السابق ـ (ص ٥٨).

يقومون بهجوم على المسلمين، وينزلون بهم الضربات ويثيرون الفتن والقلاقل والرعب والذعر [1].

وفي كثير من دول العالم فإن الأقليات المسلمة تواجه المصير نفسه، فإذا عرفنا ذلك، وآمنا بأن الكفر ملة واحدة وجب علينا أن نهيئ أنفسنا للجهاد في سبيل اللّٰه؛ لما علمناه من وضع المستضعفين من المسلمين في العالم، ولما سوف ينالنا من الاضطهاد وجميع أنواع التعذيب وأشكال الفتن من عدونا، إذا نحن تخاذلنا عن الجهاد وخلدنا إلى الراحة وفترت عزيمتنا وعشنا حياة اللّهو واللعب.

فيجب على المسلمين أن يكونوا على استعداد تام وجهاد دائم؛ حتى يزول الظلم من العالم كله، وينتشر الإسلام، ويعم الرخاء ويطبق حكم اللّٰه في الأرض، . والأمة المجاهدة لا تعرف إلا حياة الجد والتأهب والاستعداد.

ومن إنقاذ المستضعفين فداء الأسرى وتخليصهم من أيدي الكفرة، وخلاصهم أمر واجب على الأمة الإسلامية بلا خلاف في ذلك بين العلماء، قال مالك بن أنس - رحمه اللّٰه -: (واجبُ الناس أن يفدوا الأسارى بجميع أموالهم) [2]؛ لقوله - ﷺ - «**فكُّوا العَانِي**» [3]. ففي الحديث الشريف أمر من النبي - ﷺ - بفك العاني وهو الأسير [4]. وقال عمر بن عبدالعزيز: إذا خرج الذمي بالأسير من المسلمين فلا يحل للمسلمين أن يردوه إلى الكفر فيفادوه بما استطاعوا [5]. وقال القرطبي عند تفسير قوله ﴿**وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ**﴾ [6]. قال علماؤنا: فداء الأسارى واجب وإن لم يبق درهم

---

(١) محمود شاكر - المسلمون في الفلبين (ص٧٩ - ٨٠)

(٢) القرطبي - الجامع (٥ : ٢٧٩).

(٣) البخاري - الجامع الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير.

(٤) الأسير: هكذا نقله عن ابن الأثير في عمدة القاري عند شرح الحديث (١٢ : ١١٧) وقال: كل من ذل واستكان وخضع فقد عنا.

(٥) المصدر السابق نفسه.

(٦) سورة البقرة: الآية ٨٥.

(٧) القرطبي - الجامع (٢ : ٢٢).

واحد[٣].

وللفقهاء كلام في فك الأسارىٰ بالأموال أو بالرؤوس يرجع إليه في محله، وقد ذكرنا في السنة القولية في قوله - ﷺ - «**فكّوا العَاني**» فهو أمر بفكاك الأسير دون التعيين من أن يكون فداؤه بالمال أو بتبادل الأسرىٰ، فالأمر فيه عام ويشمل كلا المعنيين، ومن فعله - ﷺ - في فداء الأسرىٰ حديث إياس بن سلمة عن أبيه (أنه غزا فزارة مع جماعة من الصحابة وكان أميرهم أبوبكر الصديق - رضي اللّه عنه وسبوا من فزارة سبيًا كانت من جملته امرأة من أجمل نساء العرب وكان سلمة سباها فنفله إياها أبو بكر - رضي اللّه عنه - فلما قدموا المدينة لقيه رسول اللّه - ﷺ - في السوق فقال: يا سلمة هب لي المرأة فقال: يا رسول اللّه، واللّه لقد أعجبتني وما كشفت لها ثوبًا، ثم لقيه رسول اللّه - ﷺ - من الغد في السوق فقال: «**يا سلمة هب المرأة للّه أبوك**». فقال هي لك يا رسول اللّه، وما كشفت لها ثوبًا. فبعث بها رسول اللّه - ﷺ - إلىٰ أهل مكة ففدىٰ بها ناسًا من المسلمين كانوا أسرىٰ بمكة)[١]. ففي الحديث الشريف الاهتمام البالغ من رسول اللّه - ﷺ - حيث طلب المرأة من مالكها أكثر من مرة مع علمه بتعلق مالكها بها وحبه لها ولكنه - عليه السلام - علم مكانة تلك المرأة من الجمال والحظ حرص علىٰ أخذها لتحقيق فداء أسرىٰ المسلمين بها؛ إذ إن المشركين لا يألون جهدًا في الحصول علىٰ هذه المرأة التي هذه أوصافها، وثبت في صحيح البخاري من حديث علي بن أبي طالب - رضي اللّه عنه - الأمر بفكاك الأسير، فعن أبي جحيفة قال سألت عليًا- رضي اللّه عنه - هل عندكم شيء مما ليس في القرآن؟ وفي رواية ما ليس عند الناس، فقال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما عندنا إلا ما في القرآن إلا فهمًا يعطىٰ رجل في كتابه، وفي رواية هل عندكم كتاب؟ قال: لا إلا كتاب اللّه أو فهم أعطيه رجل لمسلم، وما في الصحيفة، قلت وما في الصحيفة؟ قال: العقل وفكاك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر[٢].

---

(١) مسلم - صحيح مسلم (٣: ١٣٦٥-١٣٦٦).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الديات، باب لا يقتل المسلم بالكافر (٨: ٤٧) وفي كتاب العلم، باب كتابة العلم (١: ٣٦)

ومحل الشاهد من الحديث قوله : (وفكاك الأسير) حيث كان هذا النوع من الاهتمام بفك أسارىٰ المسلمين من الأمور التي حرص علي بن أبي طالب - رضي اللَّه عنه - علىٰ تدوينها في صحيفة، واحتفظ بها لما سمع الأمر بذلك من رسول اللَّه - ﷺ - لما فيه من الحفاظ علىٰ كرامة المسلم والدفاع عنه؛ لأن الأسير جزء من الأمة الإسلامية، وفي إطلاق سراحه والاهتمام به تهيئة للأمة الإسلامية لأن تُضَحِّي بفلذات أكبادها، ورفعًا لروحها المعنوية التي هي من أهم عوامل تهيئة الأمة الإسلامية للمعركة.

الفصل الرابع

الحرب النفسية

ويحتوي المباحث التالية :

المبحث الأول : مفهوم الحرب النفسية.

المبحث الثاني : أسس وأهداف الحرب النفسية.

المبحث الثالث : وسائل الحرب النفسية وأساليبها .

المبحث الرابع : طرق الوقاية من الحرب النفسية.

الفصل الرابع

الحرب النفسية

تمهيد : نشأة الحرب النفسية ومراحلها

لم تكن الحرب النفسية من المبتكرات الحديثة التي احتيج إليها في العصر الحديث، وإنما هي وليدة حالة الخوف الناشئة في تلك النفس البشرية، والتي جعلت مما تخشاه وتخاف منه سلاحًا لإخافه غيرها، وهي تقوم على استغلال الدوافع الأساسية للسلوك الإنساني (مثل دافع الحاجة ودافع الخوف)[1] من أجل السيطرة على الإنسان لتحقيق أهداف منشودة.

(وقد استخدمها قدماء المصريين في حروبهم ضد أعدائهم، كما استخدم قدماء اليونان السباب والتشهير والتهديد للتأثير في إرادة وروح الجانب المعادي)[2]. كما قاد هذه الحروب أعداء الرسل من الأمم المختلفة ضد رسلهم، وقد حدثنا القرآن الكريم عنهم بقول الله تعالى: ﴿**كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ**﴾[3]

---

(١) دافع الحاجة إلى المأكل أو الملبس أو المال أو الوضع الاجتماعي. وفي التاريخ أمثلة كثيرة لاستغلال تلك الدوافع؛ فالنازيون استغلوا الأزمة الاقتصادية التي كانت تعيشها الشعوب في أوائل هذا القرن، والشيوعيون وجهوا دعاياتهم إلى العمال ملوحين لهم بسيادة الطبقة المسحوقة الكادحة «البروليتاريا» أما دافع الخوف فتقابله الحاجة إلى الأمان، وتستغل الدعاية القائمة على أسلوب الحرب النفسية هذه الحاجة إلى الأمان استغلالاً كبيرًا؛ فالإرهاب الذي تمارسه الحكومات الاستبدادية إنما يستهدف أساسًا إخماد أصوات شعوبهم عن طريق إثارة دوافع الأمان الكامنة لديهم كي يؤثروا الصمت طلبًا للأمان. انظر د. مختار التهامي - الرأي العام والحرب النفسية ص ٠٩١ وانظر الحرب النفسية - صلاح نصر ١ - ٢٧ - ٣٢.

(٢) انظر الحرب النفسية (١ : ٥٦ - ٥٩) وانظر د. مختار التهامي - الرأي العام والحرب النفسية، ص٩٨.

(٣) سورة الذاريات : الآية ٥٢.

ولقد لقي رسول الله ـ ﷺ ـ من أذىٰ كفار قريش ما لقيٰ حينما شنت عليه قريش حرباً نفسية ضارية، استخدمت فيها كل ما وجدت من وسائل وأحابيل وحيل وكل ما تفتقت عنه أذهان شياطينها ومدبري المكايد والأراجيف، وكان بعضها يفعل فعله في أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ وهم حديثو عهد بالإسلام، فيكاد يفتنهم عن دينهم لولا عصمة الله لهم.

(وقد لجأ المغول من بعد إلىٰ الشائعات وغيرها من وسائل الحرب النفسية، لتجسيم عدد قواتهم وعنف جنودهم ولم يكن يهمهم ماذا يظن أعداؤهم ما داموا ينتفضون من الخوف والرعب، وهذا ما أرادوه بنشر الحرب النفسية بين صفوف أعدائهم)(١). ولعل تلك الشائعات كانت من أكبر العوامل التي ساعدت المغول علىٰ اكتساح العالم الإسلامي حينما نجحوا في التأثير علىٰ معنويات تلك الشعوب، حتىٰ (إن التاريخ يحدثنا بأن الواحد منهم كان يقابل المسلم وليس مع المغولي سلاح فيقول للمسلم: ابق مكانك حتىٰ أحضر سلاحي. ثم يذهب ويأتي بسلاحه فيجد المسلم باقياً في مكانه فيقتله.)(٢)

ولقد عرفت الحرب النفسية خلال الحرب العالمية الأولىٰ باسم «الدعاية»(٣) واهتم بها العسكريون اهتماماً شديداً، حتىٰ إن «هتلر» زعيم النازية أنشأ خلال الحرب العالمية الثانية وزارة للدعاية، وعين لها الجنرال «جوبلز» الذي كان يعد واحداً من ألمع قادة «هتلر» وأنجحهم؛ وذلك لإدراكه أهمية تلك الحرب وتأثيرها وكونها أكثر فعالية في تحطيم الشعوب والجيوش من الوسائل الحربية وقد أُثر عنه قوله:

(لماذا أخضع الأعداء بالوسائل الحربية ما دام في وسعي أن أخضعهم بوسائل أخرىٰ أرخص وأجدىٰ؟) وقوله: (إن عملية استعداد المدفعية

---

(١) صلاح نصر ـ الحرب النفسية (١: ٦٣ ـ ٦٤) بتصرف.

(٢) من محاضرة ألقاها محمد قطب في جامعة الملك عبد العزيز بجدة بعنوان «وامعتصماه» في العام ١٣٩٩هـ، وانظر البداية والنهاية (١٣: ٢٠٠ ـ ٢٠٣) دار المعارف.

(٣) ولعل هذا الاصطلاح أقرب إلىٰ عموم هذا الموضوع؛ حيث إنه يعم الدعاية الموجهة إلىٰ الأعداء والحياديين والأصدقاء ولا يمكن أن نسمي الدعاية الموجهة إلىٰ الأصدقاء بحرب أبداً. راجع تعريف الحرب النفسية القادم ص ١٢١ ـ ١٢٢ في الرسالة.

وهجوم المشاة في حرب الخنادق سوف تضطلع بها الدعاية مستقبلاً، بأن تحطم نفسية العدو قبل التحرك، إن أسلحتنا هي الاضطراب الذهني، وتناقض المشاعر، والحيرة والتردد، والرعب الذي ندخله على قلوب الأعداء، فعندما يتخاذلون في الداخل ويقفون في حافة الثورة، وتهددهم الفوضى الاجتماعية، تحين الساعة لنفتك بهم بضربة واحدة)[١].

وقبل تطوير تعبير «الدعاية» اقتصر استعماله على نشاط الدعاية العسكرية وكانت تطلق على الدعاية السياسية الاستراتيجية أسماء مختلفة، ولكن قلما كان يوصف هذا النشاط بأنه حرب نفسية.

بيد أن عبارة «الحرب النفسية» صادفت قبولاً واسعاً في الدوائر العسكرية في الحرب العالمية الثانية؛ لذا فالحرب النفسية تسمية جديدة في المجال العسكري لفكرة قديمة قدم الإنسانية، ولقد أثبتت الحرب النفسية فعاليتها في الحرب العالمية الثانية بصورة منقطعة النظير وغير عادية، خصوصاً في مرافقتها للحرب الخاطفة، وقد خضعت جميع الجيوش للألمان دون أن تقوم بتسديد ضربة واحدة في دفاعها الخاص، ثم إن الحلفاء لما استدركوا الموقف وعلموا بحقيقة الأمر تمكنوا من الصمود، فقد ثبت الإنجليز أثناء معركة «بريطانيا» ولم ينهاروا وقامت جيوش «مونتغمري» بالتجمع في شمال أفريقيا ومحاربة «رومل» وإيقافه وتجميده، وهكذا تبددت أسطورة وخرافة الألمان الذين لا يقهرون ولا يغلبون، وبدأ الحلفاء حملات الحرب النفسية ببطء وثبات حتى حققوا منها ما يريدونه[٢].

وقد أوضح «إدموند تايلور EDMUND TAYLOR في كتابه (إستراتيجية الرعب) كيف أن الألمان في تهيئتهم للحرب الخاطفة قد أغرقوا ضحاياهم بأقاصيص الرعب والانهزامية: (فمن طريق الراديو تلاحقت الإشاعات واحدة بعد الأخرى متجهة إلى بولندا وفرنسا والبلاد الوطيئة[٣] في الوقت الذي كانت فيه الأقاصيص تلوح بالغزو المسلط وبمفاوضات السلام الوشيكة، وكان

---

(١) د. مختار التهامي - الرأي العام والحرب النفسية (ص ٩١ - ٩٢).

(٢) د. مختار التهامي - الرأي العام والحرب النفسية (ص٩٢) (١٠٢ - ١٠٣).

(٣) البلاد الوطيئة: هولندا.

هدف الألمان الأول البلبلة وتثبيط الروح المعنوية، فألقوا الشك حول إخلاص حكومات الحلفاء حول مقدرة هذه الحكومات على إسعاف البلاد في المحنة وفي الوقت نفسه أذاعوا أخباراً زائفة حول انتصارات بولندية وفرنسية هائلة؛ مما تمخض عنه رفع الآمال عند الحلفاء لتهوي بعد ذلك إلى هاوية اليأس والرعب، ولقد افتخر هتلر في وقت من الأوقات بأن دمار أمريكا نفسها يمكن تحقيقه من الداخل)(١).

(ولقد كان من الطبيعي أن يتنبه هتلر أو غيره من صانعي السياسة والحرب إلى خطورة الحرب النفسية وتأثيرها، وإلى أن الاستخدام الذكي لأجهزة الاتصالات الحديثة ووسائل التقنية المبتكرة يمكن أن يكون أقصر الطرق وأقلها تكلفة وأكثرها تأثيراً لتحقيق أهدافهم، سواء على المستوى المحلي أو الإقليمي أو العالمي، وسواء استهدفت الجماهير الغفيرة، أو القيادات المؤثرة أو أية فئة من الفئات بصورة مباشرة أو غير مباشرة؛ وذلك لأسباب عديدة منها:

١ ـ اختراع وسائل الاتصال الجماهيري من إذاعة وتلفاز وأفلام وطباعة وغيرها.

٢ ـ تزايد أعداد الملمين بالقراءة جعل أصحابها هدفاً للدعاية عندما كانت الكلمة المطبوعة وحدها الوسيلة المتوفرة للاتصال الجماهيري.

٣ ـ تزايد أهمية الشعوب كأدوات للنشاط السياسي والعسكري والدعائي بحيث أصبح الرأي العام عاملاً حيوياً يحسب حسابه في العمليات الدبلوماسية والسياسية والعسكرية، وربما تغيير سير الحروب والمعارك)(٢).

والحقيقة أن التطور المستمر في هذه الأجهزة، والإنجازات الجديدة في مجال العلم والتقنية وخصوصًا في مجال استخدام الفضاء الخارجي ـ قد أعطى الحرب النفسية إمكانات هائلة؛ فاتسع نطاقها حتى صرنا جميعًا نسمع ونبصر الهلع لدى الشعوب والأمم نتيجة ما يدور في عالمنا المعاصر من الحرب النفسية

---

(١) د. مختار التهامي ـ الرأي العام والحرب النفسية (ص ٩٢)

(٢) د. مختار التهامي ـ تحليل مضمون الدعاية في النظرية والتطبيق، ط دار المعارف ـ مصر، ص ٧ ـ ٨.

التي تتمثل في صراع القوىٰ العظمىٰ وتنافسها في إنتاج القنابل المدمرة أو الصواريخ عابرة القارات أو الأقمار الصناعية التي تدور في مدارات حول الأرض أو السفن و الطائرات حاملات الرؤوس النووية، بل حتىٰ ما يسمىٰ اليوم بحرب الكواكب ليس إلا جزءاً مكملاً لأجزاء أخرىٰ من تلك الحرب التي لا هدف من ورائها سوىٰ إذلال إرادة الجانب الآخر المنافس.

المبحث الأول : مفهوم الحرب النفسية

لكي ندرك مفهوم الحرب النفسية لابد أن نميز بينها وبين الحرب التقليدية ، فالحرب التقليدية هي حرب ساخنة ، حرب الطائرات والدبابات والصواريخ والبوارج الحربية والمدمرات والغواصات ، وتعاون الأسلحة البرية والجوية والبحرية . بينما الحرب النفسية حرب بلا سلاح مادي ؛ فهي حرب فرض إرادة من جانب لجانب آخر ، بهدف السيطرة أو تغيير السلوك والأفكار ؛ لذا تستخدم فيها كافة وسائل الإعلام ، ويجند لها رجال الفكر والصحافة والعلاقات العامة ، ورجال السياسة للتأثير في أفكار وآراء واتجاهات ومواقف وسلوك الجماعات الأخرى ـ المعادية وغير المعادية ـ بهدف تحقيق أطماع معينة وأهداف محددة [١] .

(والحرب النفسية يطلق عليها مصطلح «الحرب الباردة» فهي حرب أفكار وعقول ، وهي حرب أعصاب وحرب كلمات وشائعات ، فقد يكون تأثير الكلمة أقوى من تأثير القنبلة المدمرة ، و في ذلك تدمير إرادة العدو ومعنوياته ؛ لأنها حرب الطبيعة البشرية وتوجيه القوى المعنوية دون القوى المادية إلى عقول وقلوب المقاتلين وغيرهم) [٢] . وهي حرب مشتعلة الأوار دائمًا ، لا تهدأ ولا تخبو حتى بعد أن تسكت المدافع ، وهي حرب ليست كغيرها من الحروب ، حيث تستهدف العدو مستخدمة سلاحًا معينًا وإنما تستهدف المحايد أو حتى الصديق مستخدمة أسلحة أخرى . وقد وردت عدة تعريفات للحرب النفسية تباين بعضها واتفق بعضها الآخر حول وضع إطار عام يشمل أسس و مفاهيم تلك الحرب ، فقد عرفها بعضهم بأنها : (الاستخدام المخطط للدعاية والأعمال أو الإجراءات الأخرى التي يكون غرضها الأساسي التأثير على آراء وعواطف ووضع وسلوك العدو والجماعات الصديقة أو المحايدة التي تساند إنجاز أو تحقيق الأهداف المطلوبة منها)[٣] .

---

(١) مقال د . عبد المجيد سيد أحمد منصور ـ مجلة الدفاع ، عدد ٥٨ ، السنة الثالثة والعشرون ١٤٠٤هـ ذو القعدة (ص٢٤) بتصرف .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) د . مختار التهامي ـ الرأي العام والحرب النفسية (ص ١٠٢)

وهناك أيضًا تعريف وزارة الحربية الأمريكية الذي ورد في قاموس المصطلحات الحربية الصادر في مايو ١٩٥٥ م والذي عرّف الحرب النفسية بأنها : (استخدام مخطط من جانب دولة أو مجموعة دول للدعاية وغيرها من الإجراءات الإعلامية التي تستهدف جماعات معادية أو محايدة أو صديقة للتأثير على آرائها وعواطفها واتجاهاتها وسلوكها بطريقة تساعد على تحقيق سياسة الدولة أو الدول المستخدمة لها وأهدافها)[١] .

ومن هذا ندرك أن الحرب النفسية تستهدف الجميع سواء أكانوا أعداء أو أصدقاء أو محايدين ، إلا أنها تستخدم عيارًا ومعيارًا لكل فئة من هذه الفئات ، والهدف في النهاية هو التأثير في الآراء والاتجاهات لتحقيق سياسة الدولة التي تقوم ببث واستخدام تلك الحرب .

والحرب النفسية تعتمد على نوعين من أنواع الدعاية هما : الدعاية السافرة والدعاية المقنعة أو المستترة .

فالدعاية السافرة : (هي حركة الترويج للمذاهب سواء كانت هذه المذاهب خاصة أو عامة ، سواء كانت مذاهب حرب أو سلام ، وسواء كانت مذاهب فكر أومذاهب حكم أو مذاهب عمل)[٢] وفي مقابل الدعاية السافرة تقوم الدعوة متميزة عن الدعاية في كون الدعوة (إعلام عن الحق في مواجهة الباطل ؛ فهي بذلك أسمى أركان الإعلام)[٣] على عكس الدعاية التي ربما روجت للباطل ودعت إليه .

أما الدعاية المستترة : وهي النوع الثاني من أنواع الحرب النفسية فلها عناصر ثلاثة تتميز بها عن الدعاية السافرة ، وهذه العناصر هي الشائعات وافتعال الأزمات وإثارة الرعب والفوضى[٤] .

---

(١) د. مختار التهامي- الرأي العام والحرب النفسية ص ١٠٢ .

(٢) حافظ محمود- الإعلام العربي والإعلام الصهيوني (ص١٣)

(٣) المرجع السابق (ص١٣)

(٤) د. مختار التهامي- الرأي العام والحرب النفسية (ص١٠٣)

١ ـ الشائعات

الشائعة : (هي الترويج لخبر مختلق ، لا أساس له من الواقع ، أو تعمد المبالغة أو التهويل ، أو التشويه في سرد خبر فيه جانب ضئيل من الحقيقة أو إضافة معلومة كاذبة أو مشوهة لخبر معظمه صحيح ، والتعليق عليه بأسلوب مغاير للواقع والحقيقة ؛ وذلك بهدف التأثير النفسي في الرأي العام المحلي أو الإقليمي أو العالمي أو النوعي ، تحقيقاً لأهداف سياسية أو اقتصادية أو عسكرية ، على نطاق دولة واحدة ، أو عدة دول ، أو النطاق العالمي بأجمعه)(١) .

فالشائعة تقوم أساساً على الأكذوبة أو مجانبة الحقيقة ، وهي تغيّر الواقع وتزيّفه ؛ حيث تغلفه بأقنعة تظهره على غير وجهه الحقيقي ، وهنا مكمن الخطر ؛ إذ أن الشائعة هي من أخطر أسلحة الحرب النفسية وأشدها فتكًا على الإطلاق ، خصوصاً إذا كان المجتمع غير محصن ضدها ، فهي حينئذ تفعل ما لا تفعله الحرب الساخنة .

وقد نبّه الله ـ عز وجل ـ المؤمنين إلى التحصن ضد الأخبار والشائعات حتى تتأكد مصداقيتها ويتبين مصدرها وألا ينساقوا وراء كل خبر أو يستجيبوا لكل مرجف ، حماية للمجتمع المسلم وصيانة له ؛ حتى يظل مجتمعاً متماسكاً لا تخترقه الحرب النفسية المضادة ، ولا تجد إليه سبيلاً ما دام يقظاً متنبهاً إلى قول الله ـ عز وجل ـ ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا** ﴾(٢) . وسوف نعرض لآثار الشائعات وطرق تصدّي المجتمع المسلم لها فيما يستقبلنا من مباحث .

٢ـ افتعال الأزمات

افتعال الأزمات هو كالشائعات في بلبلة المجتمع ، إلا أنه أسلوب أكثر جرأة من الشائعة ، فالشائعة تسير وسط المجتمع دون هوية ، وتتسلل في جسمه

---

(١) المرجع السابق (ص١٠٣) وانظر لسان العرب لابن منظور ، إعداد وتصنيف يوسف خياط ، باب الشين (٢ : ٣٩٤) الناشر دار لسان العرب بيروت .

(٢) سورة الحجرات : الآية ٦ .

دون أن يُعرف مصدرها. إذ كونها مجهولة الهوية يُعدُّ واحدًا من أهم عوامل نجاحها وتأثيرها؛ لأنها لو تحددت هويتها أو عُرف مصدرها فإن ذلك يقلل من تأثيرها وفعاليتها، بينما الأزمة تكون محددة الهوية إلى حد كبير، ويُقصد من افتعال الأزمات إلى تكوين رأي عام حول مسألة ما، أو شغل جهة معادية، أو إحداث الفوضى أو الضغط الشعبي، أو إيجاد معارضة شعبية ضد سلطة ما؛ ليكون ذلك ذريعة إلى إشاعة التذمر، وقد تؤدي الشائعة وافتعال الأزمة مجتمعين إلى إثارة الرعب والفوضى.

٣ ـ إثارة الرعب والفوضى

تعدُّ إحدى وسائل الحرب النفسية وقد تنتج من الشائعة التي تؤدي إلى الأزمة ثم تقود إلى المرحلة الأخيرة المقصودة التي تساعد على تحقيق أهداف الحرب النفسية، فإذا حدثت الفوضى في بلد ما أوقفته على أبواب الكارثة، كما أن الرعب يفتح جميع الأبواب الموصدة أمام الفوضى وانعدام التوازن، والأمثلة كثيرة على ما يمكن أن تحدثه الشائعات من خلق الأزمات في المجتمعات على اختلاف درجاتها وأنماطها وما يستتبع ذلك من فوضى ودمار.

المبحث الثاني

أسس وأهداف الحرب النفسية

تقوم الحرب النفسية على أساسين هما :

١ ـ إعداد القوة التي ترهب العدو .

٢ ـ الجهاد باللسان (١) .

أما القوة التي ترهب العدو فقد أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالىٰ : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ** ﴾(٢) . فمن أهم فوائد إعداد القوة كونها ترعب عدو الله ويمتد تأثيرها حتىٰ إلىٰ غير العدو ممن تربطنا بهم أية رابطة أخرىٰ من صداقة أو أي نوع من أنواع التعامل حتىٰ لا يفكر في معاداتنا ، وقوله تعالىٰ : ﴿ **فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** ﴾(٣) . وهذا الإعداد المأمور به أساس قوي من أسس الحرب النفسية لأن العدو إذا علم بما عند المسلمين من عدة ومن مقدرة قتالية ومن شجاعة إلىٰ غير ذلك ، بث ذلك في قلوب أفراده الرعب والخوف وعدم التفكير في الهجوم وعدم الأمن والاستقرار ، فالآية نصت علىٰ ذلك بقول الله ـ عز وجل : ﴿ **تُرْهِبُونَ** ﴾ أي بذلك الإعداد عدو الله وعدوكم فهذا الإعداد سبب للرعب والخوف ، وفي هذا يقول الرسول ـ ﷺ ـ : « **نصرت بالرعب مسيرة شهر** » (٤)

وأما الجهاد باللسان فقد ورد عن الرسول ـ ﷺ ـ أنه قال : « **جاهدوا المشركين بأموالكم وألسنتكم** » (٥) . وقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لعبد الله بن رواحة : بين يدي رسول الله وفي حرم الله تقول الشعر؟ فقال رسول

---

(١) اللواء محمد جمال الدين محفوظ ـ النظرية الإسلامية في الحرب النفسية (ص٢١) .

(٢) سورة الأنفال : الآية ٦٠

(٣) سورة الأنفال : الآية ٥٧ .

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير ، باب قول النبي نصرت بالرعب (٤ : ١٢) .

(٥) أخرجه أبو داود في سننه ، باب الجهاد ، رقم ٢٥٠٤ والنسائي ، باب وجوب الجهاد ، وصححه ابن حبان رقم ١٦١٨ ، والحاكم (٢ : ٨١) ووافقه الذهبي .

اللّه ـ ﷺ ـ : «**خلّ عنه يا عمر فلهي (يعني القصيدة) أسرع فيهم من نضح النبل**»[1] .

وثبت عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال لحسان : «**اهجهم أو هاجهم وجبريل معك**»[2] . وروي عنه ـ ﷺ ـ أنه قال : « **إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأنما ترمونهم به من نضح النبل** »[3] .

أهداف الحرب النفسية

تختلف أهداف الحرب النفسية بالنسبة إلى الدولة التي توجه إليها إما أن تكون دولة معادية أو محايدة أو صديقة ، ولكل واحدة من هذه الثلاث أساليبها الخاصة بها[4] .

أ ـ الدولة المعادية

إن الهدف من الحرب النفسية للدولة المعادية هو تدمير عزيمة وإرادة جيش العدو والسكان المدنيين في المقاومة ، وحيث إن إرادة المقاومة هي ناحية عقلية فإن مهمة الحرب النفسية هي السيطرة على هذه الناحية العقلية في العدو حتى نقوده إلى ترك عزيمته حتى يستيقن أن هزيمته أمر لابد منه ، وذلك بتدمير روحه المعنوية وتدمير روح الشعب المعنوية بإقناعهم أن دعواهم باطلة وأنه لا هدف ولا مبرر لهم في القتال أو أن الأصلح لهم هو الاستسلام والخضوع حقنًا لدمائهم . ونضرب لهم مثلاً بمن فشل من قبل ونحذرهم ألا يكونوا أمثالهم ، وبذلك يمكن السيطرة على عقول الجيش والشعب ، وبذلك تكون الحرب النفسية قد حققت الغرض منها .

---

(١) أخرجه الترمذي في الأدب ح٢٨٥١ وإسناده صحيح وصححه ابن حبان (٢٠٢٠) وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب مرجع النبي ـ ﷺ ـ من الأحزاب (٥ : ٥١) ، وفي الأدب ، باب هجاء المشركين ، وفي بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣ : ٤٥٦ ـ ٤٦٠) (٦ : ٣٨٧) وصححه ابن حبان برقم (٢١٠٨) .

(٤) انظر : محمد جمال الدين محفوظ ـ المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٧٦م (ص١٢١) .

ب ـ الدولة المحايدة

ونهدف من وراء توجيه الحرب النفسية إليها أن نعمل معها ما يثير عواطفها وما يحرك طباعها وأفكارها، حتىٰ تنحاز إلينا وتكون في كفتنا وتسلك مسلكنا وتنصاع معنا وتتوجه بتوجيهاتنا نحو أعدائنا وتتعاطف مع قضيتنا فنكون جيشًا واحدًا، وعلىٰ الأقل إن لم يحصل ما ذكر فنعمل علىٰ أن تستمر محايدة فيبقىٰ ما كان علىٰ ما كان فلا تكون لنا ولا علينا.

ج ـ الدولة الصديقة

(أما بالنسبة للدولة الصديقة كما أسلفنا فإنه لا يمكن تسمية الدعاية الموجهة إليها بأنها «حرب نفسية» وإنما هي نوع من الدعوة للتأثير علىٰ عواطف وأفكار تلك الدول لنوجهها نحونا ونحافظ عليها في إطار توجهنا وندعم الأواصر التي بيننا وبينها ونعمل علىٰ المزيد من التعاون معها والمحافظة عليها فنحصن تلك الدولة من دعاية الأعداء المضادة ونكشف لها كل مخططاتهم وأساليبهم ؛ إذ إن التأثير علىٰ شعوب تلك الدول مكسب عظيم للمعركة)[1]. (ولهذا كان البعض يفضل اسم الدعاية علىٰ الحرب النفسية لأن جذب الشعوب والسيطرة علىٰ أفكارها هو المسمىٰ الآن بالدعاية، وهو الأليق في حق الدول الصديقة من تسميته بالحرب النفسية)[2].

---

(١) اللواء محمد جمال الدين محفوظ ـ المدخل إلىٰ العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ (ص١٢١).

(٢) د. أحمد بدر ـ الاتصال بالجماهير والدعاية الدولية (ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧).

المبحث الثالث

وسائل الحرب النفسية

إن للحرب النفسية عدة وسائل يتم استخدامها لكسب المعركة ومن أهمها:

١ـ إظهار التفوق الحربي وإشعار العدو بقهره وغلبته وضعفه من طريق بث اليأس من نصره والمبالغة في قوة الجانب المعادي له وإذاعة الهزائم التي تلحق بأفراده ومجتمعاته وتوضيح ذلك، وبيان التفوق عليه في العدد والعتاد.

٢ـ استخدام الدعاية المضادة وإثبات العجز الحسي والمعنوي في الجانب المعادي وقطع الطمع عن نصره وضرورة استسلامه (وتستخدم لذلك أساليب خاصة لابد منها) (وفي ذلك لا تقتصر إمكانات الدول على تحسين الوسائل التقنية فقط بل إن جانبا كبيرا يكرس في الوقت نفسه لقضايا التأثير في عقول الناس باستخدام وسائل خفية، وأساليب معدة بعناية لتقوية الإيحاء بهدف شل قدرة العدو على التفكير المستقل أمام شمولية التخطيط للدعاية المضادة، ولما كانت الدعاية في هذا العصر سلاحا بالغ الخطورة بما له من قدرات عظمى أصبح لزاما على الدول أن تلاحق ألوان الدعاية المضادة الموجهة إلى رعاياها بالكشف والتحليل درءاً لخطرها وإعدادا للأسلوب الأمثل لمواجهتها)(١).

٣ـ إضعاف الروح المعنوية للعدو وتقليل أهميته وإظهار المبالغة في عدم إمكانية نصره أو تحقيق أهدافه أو إظهار التفوق(٢).

٤ـ التأثير في الجبهة الداخلية للعدو وإحداث الفرقة بين صفوفه بما يثير الشحناء والنزاع والعصبيات، وذلك عن طريق استغلال نقاط الضعف في صفوفه وإيجاد المداخل والسبل المختلفة التي غفل عنها العدو، والتي لا

---

(١) د. مختار التهامي ـ تحليل مضمون الدعاية في النظرية والتطبيق، دار المعارف (٧ـ٩)

(٢) د. محمد معوض ـ دور وسائل الإعلام في الحرب الحديثة، مقال منشور بمجلة كلية الملك خالد العسكرية العدد (١٥) ص(١٥٠ ـ ١٥٤). وانظر الإعلام الدولي دراسات في الاتصال والدعاية الدولية د. أحمد بدر، الناشر مكتبة غريب (ص ٢٩٢).

يحتسب أنه سوف يُؤتىٰ من قبلها ، وبذلك يباغتون فتحدث الفوضىٰ ويفشلون وتذهب ريحهم لأن النزاع والخلاف من أهم أسباب الفشل ، وتفكك الترابط .

٥ـ التأثير في القوىٰ العالمية وإشاعة المخاوف بين القوىٰ المتضامنة ببث الفزع والرعب فيهم بإظهار كثرة عددنا وشجاعتنا وتجاربنا واستحالة التغلب علينا .

٦ـ توجيه الحرب النفسية للاقتصاد وشؤون الحياة كلها من سياسة واجتماع وتربية وغير ذلك ، ولا تُحصر في القوات المسلحة فقط بل إنها تمتد إلىٰ سائر الجبهات الداخلية من المدنيين وغيرهم ولا نحصرها في الاستعمال وقت المجابهة وقد يساهم رجال علم النفس ضد الأعداء في وقت الحرب والسلم .

٧ـ كسب الرأي العام العالمي ، (وهو من أهم ما تسعىٰ إليه الحرب النفسية لكسب تعاطف بقية الشعوب معنا ولفت الأنظار إلىٰ عدالة قضايانا بكل ما يمكن أن يؤدي لكسب ود تلك الشعوب من الوسائل والتوجيه المعنوي والحسي وغير ذلك مما يجعل الرأي العام مؤيدا لنا وليس حربا علينا) (١) .

أساليب الحرب النفسية وتطبيقاتها في عهد النبي -ﷺ- :

إن للحرب النفسية أساليب تؤدي مهمتها العظمىٰ ، منها الشعارات والهتافات والخطب التي من شأنها التأثير في العقول وتحريك العواطف ، ومنها الخطط والتدابير الخاصة التي تفعل فعلها ، ومنها المواقف التي يقفها المسلمون في مواجهة الدعايات المضادة من الأعداء ، وقد استخدمت وسائل مختلفة في عهد الرسول ـ ﷺ ـ .

وسوف نستعرض هنا نماذج وأمثلة لتلك الأساليب المختلفة:

١ـ الشائعات وترويج الأخبار :

التي يصعب الوقوف علىٰ حقيقتها بحيث يكون لها تعلق بموضوع

---

(١) من مقال للدكتور عبد المجيد سيد أحمد منصور عن الحرب النفسية ، منشور في مجلة الدفاع السعودية ، العدد ٥٨ السنة الثالثة والعشرون ذو القعدة ١٤٠٤هـ يوليو ١٩٨٤م ، (ص ٢٣ ، ٢٦) . بتصرف وحذف وزيادة .

الحرب، ولها أهمية لدى من وجهت إليهم، فذلك يؤدي إلى تصديقهم بها ونشرهم لها مما يسبب إضعاف الروح المعنوية فيهم.

٢ـ الشعارات والهتافات :

وقد كان المسلمون يتخذون الهتافات والشعارات في المواقف المختلفة، مثل اتخاذهم شعار : (أحد أحد)(١) في غزوة بدر وشعار : (أمت أمت)(٢) في غزوة أحد إلى غير ذلك من الشعارات الأخرى، ولا تزال الجيوش إلى يومنا هذا تستعمل هتافات خاصة تستفز بها المقاتلين على الإقدام وترهب بها مقاتلي العدو.

٣ـ التفريق بين صفوف العدو :

ومن الأساليب أيضًا التفريق بين صفوف العدو وتخذيله كما وقع في زمن النبي ـ ﷺ ـ لما تحزبت قريش وحلفاؤها وقدموا المدينة وناصرهم اليهود على المسلمين، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يعرف هذا التصدع الخفي في صفوف الأحزاب، فاجتهد أن يبرزه ويوسع شقته ويستغله لجانبه. (فلما جاء نعيم بن مسعود مسلمًا أوصاه أن يكتم إسلامه ورده على المشركين يوقع بينهم، وقال له : «إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة»، فخرج نعيم حتى أتى بني قريظة وقد كان صديقًا لهم في الجاهلية وذكرهم بما كان بينهم وبينه من الود وقال لهم : إنكم قد ظاهرتم قريشًا وغطفان على حرب محمد ـ ﷺ ـ وليسوا مثلكم فالبلد بلدكم وبه أموالكم ونساؤكم ولا تقدرون أن تتحولوا منه، أما قريش وغطفان فإن أصابوا غنيمة ذهبوا بها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين محمد ـ ﷺ ـ ولا طاقة لكم به فلا تقاتلوا حتى تأخذوا منهم رهائن من أشرافهم، فقالت بنو قريظة أشرت بالنصح ثم خرج إلى قريش فقال لهم : بلغني أن قريظة ندموا وأرسلوا إلى محمد ـ ﷺ ـ هل يرضيك عنا أن نأخذ من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم؟ فأجابهم أن نعم فإن طلبت منكم قريظة رهائن من رجالكم فلا تدفعوا لهم رجلاً واحدًا ثم جاء غطفان

---

(١) ابن هشام ـ السيرة النبوية (٢ : ٦٣٤) ط دار الكنوز الأدبية.

(٢) ابن القيم ـ زاد المعاد (٢ : ٩٢) غزوة أحد، ط المؤسسة العربية للطباعة والنشر بيروت لبنان.

وقال: أنتم أهلي وعشيرتي، ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم فأرسل أبو سفيان وسادة غطفان إلىٰ قريظة يطلبون منهم الاستعداد للهجوم نهار السبت، فاعتذرت قريظة بأنهم لا يقاتلون يوم السبت وطلبت رهائن من قريش وغطفان قبل أن تبدأ بالهجوم فقالت قريش وغطفان لقد صدق نعيم)[1] فهكذا كانت دعوة نعيم البارعة سببًا في تفريق جمع الأعداء.

٤ ـ كسب القوة المحايدة وحرمان العدو من صداقتها:

مثل عقد الاتفاقات والمعاهدات والصلح ليكسر ذلك شوكة العدو، كما فعل ـ ﷺ ـ مع قبائل العرب[2] قبل فتح مكة لما صالح قريشًا فقد حسّن العلاقة بكثير من قبائل العرب، وكانت نتيجة ذلك حرمان قريش من صداقة تلك القبائل وتألبها معها علىٰ المسلمين.

٥ ـ التخذيل:

ومن ذلك ما وقع في غزوة حمراء الأسد من تخذيل أبي سفيان بواسطة معبد الخزاعي لما قدم علىٰ رسول الله ـ ﷺ ـ فأمره ـ عليه السلام ـ أن يلحق بأبي سفيان فيخذله، فلحقه بالروحاء، ولم يعلم بإسلامه فقال له ما وراءك يا معبد فقال: محمد وأصحابه قد تحرقوا عليكم وخرجوا في جمع لم يخرجوا في مثله، وقد ندم من كان تخلف عنه من أصحابه، فقال: ما تقول؟ فقال ماأرىٰ أن ترتحل حتىٰ يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة فقال أبو سفيان: والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم، قال: فلا تفعل فإني لك ناصح فرجعوا علىٰ أعقابهم إلىٰ مكة ولقي أبو سفيان بعض المشركين يريد المدينة فقال: هل لك أن تبلغ محمد ـ ﷺ ـ رسالة وأوقر لك راحلتك زبيبًا إذا أتيت مكة؟ قال: نعم. قال: أبلغ محمداً أنا قد جمعنا الكرة لنستأصلهم، فلما بلغهم قوله قالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، ونزل في ذلك قوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ

(١) ابن القيم ـ زاد المعاد (٣: ٢٧٣ ـ ٢٧٤) بتصرف، وقد ذكر هذه القصة ابن اسحق دون إسناد، وعنه ابن هشام في السيرة النبوية (٢: ١٩٣ ـ ١٩٤)، لكن قوله ـ ﷺ ـ (الحرب خدعة) صحيح رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب الحرب خدعة (٤: ٢٤) من حديث جابر وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام، غزوات النبي ـ ﷺ ـ، وموادعته بني ضمرة وغيرها (٢: ٢٤١، ٢٤٩).

قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾(١) ، فالآية الكريمة تحكي قصة أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ مع رسول الله ـ ﷺ ـ بعد معركة أحد وأثناء رجوعه إلىٰ مكة حين تلاوموا فيما بينهم وقال بعضهم لبعض لم تصنعوا شيئًا أصبتم شوكتهم وحدهم ثم تركتموهم وقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم فارجعوا حتىٰ نستأصل شأفتهم فبلغ ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ فنادىٰ في الناس وندبهم إلىٰ المسير إلىٰ لقاء عدوهم وقال : «لا يخرج معنا إلا من شهد القتال» ، فاستجاب المسلمون علىٰ ما بهم من القرح الشديد والخوف ، وقالوا : سمعًا وطاعة ، فسار رسول الله ـ ﷺ ـ إلىٰ حمراء الأسد فكانت حربًا نفسية من الرسول ـ ﷺ ـ لأبي سفيان وأصحابه وقد نجحت حيث نكص أبو سفيان عائدًا إلىٰ مكة دون قتال ، وأراد أبو سفيان أن يقوم بالحرب نفسها بإبلاغ أحد المشركين الرسول ـ ﷺ ـ وأصحابه بخبر أبي سفيان فتظهر قوة العقيدة والإيمان وحسن التوكل علىٰ الله في وقاية المسلمين من هذه الحرب النفسية ؛ حيث ثبت المسلمون ولم يتزعزعوا بل قالوا : ﴿**حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾ فازدادوا بذلك إيمانًا علىٰ إيمانهم ﴿**فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ**﴾(٢) .

٦ ـ إظهار القوة أمام العدو :

ومن ذلك ما فعله الرسول ـ ﷺ ـ في غزوة الفتح (لما وصل مر الظهران والتقىٰ بأبي سفيان حيث قدم به عليه عمه العباس حبسه علىٰ طريق الجيش وعرض عليه الكتائب ، وكلما مرت به كتيبة سأل عنها فأخبر بها ، قال : مالي ولبني فلان ، ثم تمر القبيلة الأخرىٰ يقول : يا عباس ، من هؤلاء فيقول العباس : هذه سليم مثلاً أو مزينة فيقول أبو سفيان مالي ولمزينة مالي ولسليم حتىٰ نفدت القبائل ما تمر به قبيلة إلا وسأل عنها أبو سفيان حتىٰ مر ـ ﷺ ـ في كتيبته الخضراء ، وإنما سميت الخضراء لكثرة الحديد فيها ، وكان فيها المهاجرون والأنصار ـ رضي الله عنهم ـ لا يرىٰ منهم إلا حدق العيون ، فقال أبو سفيان : سبحان الله يا عباس من هؤلاء؟ قال هذا رسول الله ـ ﷺ ـ في المهاجرين

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٧٣ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٧٤ .

والأنصار قال ما لأحد بهؤلاء قبل ولاطاقة ، والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً ، قال : قلت يا أبا سفيان : إنها النبوة . قال : فنعم إذن . قال : قلت : النجاء إلىٰ قومك ، حتىٰ إذا جاءهم صرخ بأعلىٰ صوته ، يا معشر قريش ، هذا محمد جاءكم بما لا قبل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . .) إلىٰ آخر القصة (١)

فمن هنا تتجلىٰ الحرب النفسية في إظهار القوة وعرضها أمام العدو فإن عرض هذه الجيوش أمام أبي سفيان أثر فيه تأثيراً ملموساً واعترف لقومه بأن الذي شاهده لا قبل لهم به وأن طريق النجاة هي الاختفاء وعدم الظهور أمام هذه القوة التي شاهدها بعين اليقين .

وهذا الأسلوب يستعمل الآن في الوقت الحاضر ، تستعمله الجيوش ويسمونه الاستعراض والمناورات العسكرية لإظهار ما لدىٰ الدولة من قوة وعتاد وإمكانات وما لدىٰ جيشها من تجارب وخبرة ومرونة فهذا كان قديماً ولا يزال إلىٰ الآن فهو مقتبس من فعله ـ ﷺ ـ فهو القائد الأول والأسوة الحسنة يتأسىٰ به كل قائد .

ومن الأمثلة الأخرىٰ التي يمكن أن تساق كدليل علىٰ إظهار القوة أمام العدو ما فعله المسلمون عندما وصل رسول الله ـ ﷺ ـ مر الظهران وبات فيه فقد أمر المسلمين أن يحتطبوا وجمعوا حطباً كثيرا وأوقدوا نيراناً كثيرة ليراها أهل مكة فيفزعوا وقد وقع ذلك بالفعل ، فكان أبو سفيان وبديل بن ورقاء قد خرجا من مكة يتحسسان الخبر فلما رأيا النيران (قال أبو سفيان : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً ، قال بديل : هذه خزاعة ، فقال أبو سفيان : خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها)(٢) . فهذه حرب نفسية لأبي سفيان قائد مكة وزعيمها لما رأىٰ هذه النيران بهت وتحير ، وذكر بعض أهل السير أن عدد النيران كان علىٰ عدد رؤوس الجيش ، وذلك مما أدهش أبا سفيان ، حين رأىٰ عشرة آلاف نار بهره هذا المنظر الغريب .

---

(١) ابن سيد الناس ـ عيون الآثر في فنون المغازي والشمائل والسير (٢ : ٢٢٠ ـ ٢٢١) .

(٢) ابن كثير ـ السيرة النبوية (٣ : ٥٤٧) والقصة سقناها هنا معنىً لا لفظا .

أساليب الأعداء التي استعملوها مع رسول اللّه - ﷺ - .

١ ـ إشاعة الإفك :

من ذلك ما أشاعه أهل النفاق في غزوة بني المصطلق ، عندما رجع النبي ـ ﷺ ـ قافلاً إلىٰ المدينة ، وخرجت أم المؤمنين عائشة من هودجها لتقضي بعض حاجتها ففقدت عقدها ورجعت تطلبه فرحل عنها الجيش يظنون أنها في هودجها فحملوه يعتقدون أنها فيه فرجعت فوجدت الجيش قد ارتحل فجلست في مكانها حتىٰ مر بها صفوان بن المعطل وكان قد تأخر عن الجيش فرآها فعرفها فاسترجع فأناخ راحلته ولم يكلمها ، فركبت وأخذ بزمام راحلته حتىٰ لحق بالجيش فعندئذ قام المنافقون بحملتهم الشنيعة وخاضوا في الإفك وكذبوا علىٰ أم المؤمنين وصفوان بن المعطل قصداً منهم أن تشيع الفاحشة بين المؤمنين ، فوقعوا فيما وقعوا فيه يحسبون أنه شر ولكنه خير للمؤمنين ولرسول اللّه ـ ﷺ ـ وقد باء كل منهم بما اكتسبه من الإثم والذي تولىٰ كبره منهم له عذاب عظيم ، وهذا بلا شك من أعظم أنواع الحرب النفسية ولكن اللّه أحبط هذه المؤامرة وأنزل براءة أم المؤمنين في قرآن يتلىٰ ، وبراءة صفوان بن المعطل ففشلت خطة هؤلاء وباءوا بالخيبة[١]

٢ ـ التوهين :

(من ذلك ما صاحب الدعوة الإسلامية منذ انطلاقها من مكة من سخائم مشتعلة لدىٰ كفار قريش ومشركيها صاحبتها حرب من السخرية والتحقير قصد بها تخذيل المسلمين وتوهين قواهم المعنوية ، فرمي النبي ـ ﷺ ـ وصحابته بتهم هازئة وشتائم سفيهة ، وتألفت جماعة للاستهزاء بالإسلام ورجاله علىٰ نحو ما تفعل الصحافة المعارضة عندما تنشر عن الخصوم نكتًا لاذعة وصوراً مضحكة للحط من مكانتهم لدىٰ الجماهير .

وكان رسول اللّه ـ ﷺ ـ يبث عناصر الثقة في قلوب رجاله ويفيض عليهم ما أفاضه اللّه علىٰ فؤاده من أمل رحيب في انتصار الإسلام وانتشار مبادئه ،

---

(١) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري (٧ : ٤٤٧ ، ٣٥) ومسلم بشرح النووي (٨ : ١١٣ ، ١١٧) .

وزوال سلطان الطغاة أمام طلائعه المظفرة في المشارق والمغارب، وقد اتخذ المستهزئون من هذه الثقة مادة لسخريتهم وضحكهم، كان الأسود بن المطلب وجلساؤه إذا رأوا أصحاب النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتغامزون بهم ويقولون: قد جاءكم ملوك الأرض الذين سيغلبون ـ غداً ـ على ملك كسرى وقيصر ثم يصفرون ويصفقون)[١].

٣ ـ إشغال القيادة عن مهامها الأساسية:

من ذلك ما أورده أصحاب السير عن محاولات المشركين لشغل رسول الله ـ ﷺ ـ بمعارك جانبية تقعد به عن رسالته السامية (كان ـ عليه الصلاة السلام ـ قد زوج ابنته رقية، أو أم كلثوم من عتبة بن أبي لهب، فلما جاء الوحي قال أبو لهب اشغلوا محمداً بنفسه، وأمر ابنه عتبة فطلق ابنة رسول الله ـ ﷺ ـ قبل الدخول، فتزوجها عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ ومشوا إلى أبي العاص فقالوا: فارق صاحبتك ونحن نزوجك بأي امرأة من قريش شئت..)[٢].

٤ ـ الإشاعة بقتل النبي ـ ﷺ:

عندما حمي الوطيس في غزوة أحد بين المسلمين والمشركين وتراشقوا بالنبال وتجالدوا بالسيوف، حاول الأعداء أن يبثوا الرعب في قلوب المؤمنين فما رأوا شيئا أعظم على المسلمين من إشاعة قتل الرسول ـ ﷺ ـ فأذاعوا قتله وقد فشلوا أيضاً في تلك الخطة فكان جواب أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ أن قالوا: قاتلوا على ما قتل عليه نبيكم حتى تلحقوا به ونزل قوله تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾[٣].

٥ ـ محاولة كسب الرأي العام ضد رسول الله ـ ﷺ:

لقد عمد المشركون إلى كسب الرأي العام في ذلك الوقت، وأشاعوا أن

---

(١) ابن كثير ـ السيرة النبوية (ص ٤٨٣).
(٢) محمد الغزالي ـ فقه السيرة (ص ١١٢).
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

محمداً ﷺ ـ وأصحابه ينتهكون حرمة الشهر الحرام ولا يعبأون بحرمته، وذلك لما وقع في مبعث عبدالله بن جحش عندما أرسله النبي ـ ﷺ ـ إلى نخلة ليرصد قريشاً ويعلم أخبارها، ولما نزلوا بنخلة مرت بهم عير من قريش وكان ذلك في آخر يوم من رجب فإن تركوها دخلت الحرم في اليوم الثاني، فقتلوا ابن الحضرمي وأسروا من معه وأخذوا العير وجاءوا بها إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وأخبروه بذلك فأنكر رسول الله ـ ﷺ ـ ذلك عليهم فاشتد تعنت قريش وإنكارهم وأخذوا يذيعون أن محمداً قد أحل الشهر الحرام فاشتد على المسلمين ذلك فأنزل الله قوله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ**﴾(1). فهذا الأمر الذي أنكره المشركون على المسلمين واستعظموه لا من أجل أنه حرام، بل من أجل أن يلفتوا أنظار العالم إلى بعض المخالفة التي ارتكبها بعض المسلمين لينفروا الناس من الإسلام ويدّعوا أن الإسلام لا يحترم الحرمات، وأن المشركين يستعظمون ذلك وينكرونه فأخبر اللّه ـ جل وعلا ـ أن هذا الأمر وإن كان غير صواب فما ارتكبه المشركون من الكفر باللّه والصد عن سبيله وعن البيت الحرام وإخراج المسلمين ـ الذين هم أهله ـ منه والشرك باللّه والفتنة التي حصلت منهم، كل هذا أكبر عند اللّه من القتال في الشهر الحرام(2).

٦ ـ التثبيط عن القتال مع رسول الله ـ ﷺ:

من ذلك ما وقع في غزوة أحد عندما خرج رسول اللّه ـ ﷺ ـ في ألف من أصحابه متوجهاً إلى مكان المعركة، فلما توسط بين أحد والمدينة انخذل عنه عبداللّه بن أبي بن سلول بثلث الناس وقال مبرراً موقفه: أطاعهم وعصاني ما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا؟ فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق واتبعهم عبداللّه بن حرام السلمي والد جابر بن عبداللّه فقال: يا قوم أذكركم اللّه ألا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوه، قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولكنا لا نرى أن يكون قتال، فلما استعصوا عليه وأبوا إلا

---

(1) سورة البقرة: الآية ٢١٧.

(2) ابن القيم ـ زاد المعاد (٣ : ١٦٧ ـ ١٦٨).

الانصراف قال : أبعدكم الله أعداء الله ، فسيغني الله عنكم نبيه ـ ﷺ ـ وهؤلاء هم المرادون بقوله تعالىٰ : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾(١) . وهم الذين أنزل الله فيهم ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ﴾(٢) .

وهناك أساليب كثيرة قام بها المشركون واليهود والمنافقون ضد رسول الله ـ ﷺ ـ ودعوته وأصحابه ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾(٣) .

٧ ـ إزالة الرسول ـ ﷺ ـ لآثار الحرب النفسية

مما لا شك فيه أن الحرب النفسية موجهة إلىٰ عقول وأفكار جيوش المسلمين وقادتهم وشعوبهم، ولها أثرها الخاص ، ولكن المسلمين يعالجون تلك الآثار ويقاومونها بما يرفع من معنوياتهم وما يعيد لهم مجدهم وعزهم ، وكلما تطورت أساليب العدو في الحرب النفسية تطورت بالمقابل أساليب التصدي لتلك الحرب ومقاومتها وإزالة آثارها ، وقد كان المسلمون علىٰ عهد رسول الله ـ ﷺ ـ عرضة للحرب النفسية الضارية، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يتصدىٰ لكل محاولات الكفر للنيل من الإسلام والمسلمين ، وكان القرآن ينزل ليواسي المسلمين أو يستنهض هممهم أو يدحض الشائعات أو يجلي المواقف ؛ ومن ذلك ما وقع يوم أحد إذ نهاهم الله عن الحزن وأخبرهم بأنهم الأعلون علىٰ الأعداء، وأن الذي أصابهم أصاب أعداءهم مثله يوم بدر وأن الأيام دول بين الناس وأن الله كتب لهم الشهادة والتمحيص من الذنوب وليظهر للناس من يصبر علىٰ الجهاد ومن لا يصبر ، فقال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٦٧ .

(٢) سورة النساء : الآية ٨٨ .

(٣) سورة الصف : الآية ٨ .

الأعلون إن كنتم مؤمنين (١٣٩) إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين (١٤٠) وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين (١٤١) أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾[1].

وكذلك ما وقع أثناء المعركة يوم أحد لما أشيع أن الرسول ـ ﷺ ـ قد قتل، وبث ذلك في نفوس أصحابه الفزع حتى ألقى بعضهم سلاحه وجلس وقال: قتل رسول الله ـ ﷺ ـ ولقد كان أول شيء فعله رسول الله ـ ﷺ ـ هو أن باشر الرد على هذه الشائعة بنفسه؛ إذ ظهر للناس عندما صعد الجبل ليطمئن بذلك أصحابه ويرد إليهم الثقة بنفوسهم فكان يناديهم إليّ يا فلان، إلي يا فلان، أنا رسول الله، فأثر ذلك في معنوياتهم تأثيراً عظيماً إذ زال عنهم الكرب والضيق والخوف وانقلب كل ذلك إلى طاقات عجيبة في لحظة من الزمان، وقد كانت تلك اللحظة التي اتبعها الرسول ـ ﷺ ـ وهي مواجهة الشائعة بالحقيقة ـ من أعظم الخطط الحاسمة التي تستخدم لإزالة آثار الحرب النفسية إذ زال الشك وظهر اليقين وانجلت الشائعة كأنها لم تكن.

وفي عمرة القضاء، أشاع أهل مكة أن المسلمين يعانون عسرة وجهداً، قال ابن عباس: (صفوا له عند «دار الندوة» لينظروا إليه وإلى أصحابه، فلما دخل رسول الله اضطبع بردائه وأخرج عضده اليمنى، ثم قال: «رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة» ثم استلم الركن وأخذ يهرول، ويهرول أصحابه معه حتى واراه البيت عنهم)[2] والتطواف بهذه السرعة إظهار لبأس المسلمين

---

(١) سورة آل عمران: الآيات ١٣٩ ـ ١٤٢.

(٢) هذا الحديث رواه ابن هشام في السيرة النبوية (٢ : ٢٥٤) عن ابن إسحاق قال: حدثني من لا أتهم عن ابن عباس مرفوعا، ورواه ابن جرير (٢ : ٣٠٩) عن ابن إسحاق فقال: عن الحسن بن عمارة عن الحكم ابن عيينة عن مقسم عن ابن عباس، وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل (الحديث رقم ٣٥٣٦) عن ابن عباس أن قريشا قالت: إن محمدا وأصحابه قد وهنتهم حمى يثرب، فلما قدم رسول الله =

وتكذيب لإشاعات الضعف، وقد مضت السنة به بعد ذلك .

= ـ ﷺ ـ لعامه الذي اعتمر فيه قال لأصحابه: أرملوا بالبيت ليرىٰ المشركون قوتكم، فلما رملوا قالت قريش ما وهنتم. وسنده صحيح، علقه البخاري، أنظر صحيح البخاري (٨: ٤١١). ووصله الإمام أحمد فى المسند.

المبحث الرابع

طرق الوقاية من الحرب النفسية

إن الروح المعنوية العالية هي أساس النصر في المعركة ـ بعد الله ـ وإن الحرب النفسية تستهدف في المقام الأول تحطيم هذه الروح المعنوية، وإذاً فلابد من الوقاية من الحرب النفسية للمحافظة على الروح المعنوية العالية للمقاتلين.

وهناك طرق كثيرة للوقاية من الحرب النفسية تتعدد وتتنوع حسب نوع الحرب التي يشنها الأعداء ولكنها بصفة عامة تتلخص في نقاط أهمها:

١ ـ الإيمان بالله ـ سبحانه وتعالى:

لكون المؤمن لا يخضع للتهديد والوعيد ولا تزعزعه الشائعات و الأراجيف الكاذبة؛ لأنه يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، ولا يزيده التهديد والوعيد إلا إيماناً وثباتاً، وقد ثبت بالتجربة أن الحرب النفسية تؤثر في ضعاف الإيمان أكثر من تأثيرها في المؤمنين؛ فالجنود البسطاء الذين لم تتمكن العقيدة السليمة من قلوبهم هم دائماً عرضة الحرب النفسية وأكثر الجنود تأثراً بها بعكس الجندي المؤمن الواعي الذي يتثبت من كل خبر، ولا تعصف به الأخبار التي لا أصل لها، إذ إنه بتثبته من الأخبار يقطع الصلة بينه وبين مصدر الشائعة ومروجها ويقفل باباً من أبواب الشر والفساد استجابة لقول الله ـ عز وجل ـ ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا**﴾ (١).

٢ ـ الوعي والمعرفة بأهداف العدو وأساليبه في الحرب النفسية:

فإن ذلك من أهم وسائل تحصين المقاتل ضد آثار تلك الحرب، وقد فضح القرآن محاولة الفرقة وبين مقاومتها، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ**﴾(٢) يعني أن هؤلاء

---

(١) جزء من الآية ٦ من سورة الحجرات.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٠٠.

المشركين أعداؤكم دائماً ويعملون على تفريقكم ومحاولة إضلالكم ولا يكتفون منكم بتفريق يوهن قوتكم فقط، وإنما يعملون على تفريقكم ولن يسكتوا عنكم حتى تكفروا.

٣ ـ كشف محاولات التخذيل وتثبيط العزائم:

ومما لا شك فيه أن الدور الذي يلعبه أعداء الدين في التخذيل وتثبيط العزائم له خطورته إذا انساق أبناء الأمة في تياره، فقد كشف القرآن أمثلة لأولئك المنافقين الذين دعوا المسلمين للتخلف عن رسول الله ـ ﷺ ـ لما أراد الخروج في غزوة تبوك، فجاء القرآن الكريم بالتحذير من اتباعهم وإخبارهم أن جهنم أشد حراً من الحر الذي خرج فيه الرسول ـ ﷺ ـ وأصحابه، قال تعالى: ﴿ **فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ** ﴾[1].

٤ ـ كتمان الأسرار ومنع ترويج الشائعات:

(وبصورة عامة فإن توجيهات الإسلام تسد منافذ الحرب النفسية ولا تعطي الأعداء الفرصة لإيجاد مدخل ينفذون منه على الأمة المسلمة للإيقاع بها، ولما كانت الغلبة في هذا العصر تتوقف على من يملك أكبر قدر من المعلومات هو الذي يملك مفتاح النصر فإن تمكين الأعداء من الحصول على المعلومات هو أكبر خيانة للأمة، ولما كانت تلك المعلومات تتسرب من الأفواه دون أن نلقي لها بالاً، فإن عواقبها تكون وخيمة، ليس على قائلها فقط وإنما على الأمة بأجمعها، ولقد ينطق الإنسان بكلمة وهو لا يعلم عواقبها، وقد يكون عارفاً بعواقبها ولكنه يستهين بها فيفتح على أمته أبواب خطر عظيم)[2]. وقد تحدث القرآن الكريم عن تلك الفئة من المنافقين الذين كانوا يفشون أمر رسول الله ـ ﷺ ـ ويتحدثون به قبل أن يطلعوا على حقيقته، ولهذا يقول الله فيهم: ﴿ **وَإِذَا**

---

(١) سورة التوبة: الآيات ٨١ ـ ٨٣.

(٢) محمود شيب خطاب ـ دروس في الكتمان (ص٢٥).

جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾(٣).

فكتمان السر أمر عظيم، لأنه ليس كل ما يعلم يقال، وقد كانت العرب في جاهليتها تعرف ذلك فانطلقت الأمثال والحكم تتحدث عن كتمان السر، فكانوا يقولون: (صدرك أوسع لسرك) ويقولون: (إن السر إذا جاوز الاثنين ذاع).

٥ ـ الاستخدام الإيجابي لوسائل الاتصال المتاحة:

إن الاستخدام السليم لوسائل التوعية والإعلام لإرشاد الأمة وتنبيهها إلىٰ الحرب الموجهة ضدها له أكبر الأثر في وقاية الأمة من أن تكون صيداً سهلاً لأعدائها ومخططاتهم التي يهدفون من ورائها إلىٰ تحقيق أطماعهم، ومن خلال وسائل الإعلام المختلفة يمكن أن نخلص إلىٰ عمل موحد ومتناسق يؤدي الهدف المنشود وهو حماية الأمة. فكل وسيلة من وسائل الإعلام المختلفة يمكن أن تسهم بدور مختلف في توعية الأمة، ومن ذلك مثلاً يمكن للكلمة المطبوعة في الصحف والمجلات والنشرات والكتب أن تنهج النهج التالي:ـ

أ ـ الصدق والواقعية وعدم إخفاء الحقائق عن الأمة، وإطلاع المجتمع علىٰ الأمور الهامة التي تمس القضايا موضوع الحدث وفتح المجال لمناقشتها في صراحة ووضوح لاستجلاء كافة جوانبها بعيداً عن سيطرة عوامل الإثارة أو التهويل أو المبالغة أو الخداع؛ لأن تضليل الأمة أو إخفاء الحقائق قد يؤدي إلىٰ نتائج عكسية تلحق أبلغ الأضرار بسلامة المجتمع وثقته بقيادته لأن وجود الثقة في القيادة هو صمام الأمان الذي يحفظ علىٰ الأمة تماسكها وثقتها بنفسها: (وقد أصبح الناس في هذا العصر يطلعون علىٰ معظم ما يدور حولهم من أحداث بسرعة، فلا يمكن إخفاء الحقائق عنهم لأنهم يستطيعون الحصول عليها من مصادر متعددة، خصوصاً أننا أصبحنا اليوم فيما يعرف بعصر الاتصالات الذي أصبح العالم فيه أشبه بقرية صغيرة لا يكاد يخفىٰ فيها خبر(١).

(١) سورة النساء: الآية ٨٣.

(٢) د. محمد علي العويني ـ الإعلام الدولي بين النظرية والتطبيق (ص ٤٣).

ب ـ عدم الاكتفاء بنشر الأخبار فقط، ولكن لابد من التعليق عليها وتفسيرها لإزالة أي غموض قد يكتنفها فيصبح بذلك مادة غنية لمروجي الشائعات ومدبري الأراجيف، إذ أن تفسير الأحداث لا يترك فرصة للانتهازيين ويقضي على الشائعات قبل انبعاثها.

ج ـ مراعاة تبسيط المعرفة وشرح الأخبار والأحداث في أسهل عبارات، حتى يمكن توصيل جوهر المسائل إلى قليلي الحظ من الثقافة، إذ أنه من الملاحظ أن الشائعات تروج بسرعة هائلة في أوساط تلك الفئات دون فئات المثقفين، كما أن فئات غير المثقفين هي الفئات الغالبة دائماً في أي مجتمع، فالاهتمام بتوعيتها يقلل من فرصة الأعداء في أن نؤتى من قبل تلك الفئات.

د ـ ملاحقة الأحداث أولاً بأول وسرعة التعقيب عليها، فلا يكون هناك فاصل زمني بين إذاعة الخبر والتعقيب عليه؛ إذ أن الشائعات تنشأ وتولد دائماً خلال تلك الفترات وهي فترات الحيرة والشك وهي الفترة ما بين نشر الخبر وتفسيره، أو ما بين فترة وقوعه وتناقله على نطاق محدود وبين إذاعته على الملأ عبر القنوات الرسمية ووسائل الإعلام.

هـ ـ أما أجهزة الإذاعة من راديو وتلفاز فلسرعة وصولها إلى كافة قطاعات المجتمع ولكونها أبلغ تأثيراً وأوسع انتشاراً، ففي وسعها التركيز والعمل على تحقيق القدر الأدنى من وحدة التفكير والرأي والشعور والهدف والقيم اللازمة لتماسك الأمة وسلامة الدولة، وحفز الأمة إلى الاهتمام بأمور المسلمين ومتابعتها والإسهام فيها بالصور الإيجابية، وذلك كنوع من وحدة الأمة وتماسكها ضد أعدائها والمتربصين بها.

و ـ (العمل على تماسك البنيان الاجتماعي للأمة بالقضاء على العصبيات والنزاعات وكل ما يمكن أن يشغل الأمة بنفسها داخلياً أو يبث الفرقة ويجعلها صيداً سهلاً للأعداء)[١].

ز ـ تثقيف الأمة والارتفاع بمستوياتها الدينية والثقافية والحضارية؛ إذ أن

---

(١) زين العابدين الركابي ـ من مقال منشور بمجلة المسلم المعاصر، عدد يوليو ـ أغسطس، ١٩٧٨م.

الوعي والثقافة حصنان حصينان ضد كل المخططات والمكائد التي تستهدف الأمم.

ط ـ (دحض الشائعات الضارة في الحال قبل أن تتفشى وتستشري وتصعب السيطرة عليها بعد ذلك، وتزداد أهمية السرعة في دحض الشائعات بصفة خاصة في أوقات الأزمات والطوارئ والحروب؛ لأن السرعة تحول دون تفشي البلبلة الفكرية، كما ينبغي بث اليقظة والحذر وتوعية الأمة ضد أخطار الشائعات)(١)

إن الحرب النفسية سلاح خطير جداً، ولكنه مع ذلك سلاح ذو حدين، وإذا تنبهت الأمة إلى وسائل الأعداء ومكايدهم فإنها تستطيع بذلك أن تحيل السلاح الموجه ضدها إلى سلاح فتاك ضد تماسك الأعداء، وإذا كانت الحرب النفسية تستهدف نقاط الضعف في تماسك الصف لدى الجانب المعادي، وتستغل ضعف الغرائز في العنصر البشري فإن الإنسان مهما انساق وراء تلك الغرائز فإنه في اللحظة الحاسمة لابد أن يعود إلى حكم العقل، وخاصة إذا كانت القضايا تتعلق بأمة بكاملها، ومثلما عرف أن أساليب الأعداء لتحطيم الشعوب والتأثير فيها وشن الحروب النفسية لا تعرف حداً تقف عنده، فهي لا تتورع في سبيل تحقيق أهدافها من القتل والخطف والرشوة والإساءة إلى سمعة الأفراد والجماعات والأمم، والالتجاء إلى التخريب والتدمير والتزوير والخداع وإثارة التذمر والتعصب والفرقة وإشاعة الخوف والذعر والإرهاب؛ بل إشعال الفتن والحروب القبلية والأهلية والإقليمية والعالمية، فإن وعي الشعوب والأمم، وثقتها بقياداتها واعتصامها بربها لهي من أفتك الأسلحة وأشدها على الأعداء غيظاً ووقعاً وأكثرها تأثيراً في نفوس الأعداء، وحرباً عليهم، لأن الشعوب التي تؤمن بربها تعرف الطمأنينة في وجه الإرهاب والفزع، وتعرف النظام في وجه الفوضى وتعرف الوعي في وجه مخططات الأعداء، ولذا تأتي مخططات الأعداء كأنما تضرب في حديد بارد.

---

(١) الشيخ مصطفى التارزي ـ دور الإعلام الإسلامي في بناء المجتمع المعاصر، مقال منشور بمجلة رابطة العالم الإسلامي، العدد الوثائقي عن أول مؤتمر عالمي للإعلام الإسلامي، العددان (١١ ـ ١٢) ١٤٠٠هـ (ص ٧٢ ـ ٧٦).

الفصل الخامس

التحريض على القتال

ويحتوي المباحث التالية :

المبحث الأول : تعريف التحريض ومشروعيته وأهميته

المبحث الثاني : نماذج من أساليب التحريض

المبحث الأول

تعريف التحريض ومشروعيته وأهميته

التعريف : التَحْرِيض : تَفْعيل ، من حَرَّضَهُ على الشيء يُحَرِّضُهُ تَحْرِيضاً ، أي حَثّه عليه ، يقال حَرَّضَهُ على القتال وأحماه عليه من معنى حَثَّه وحَضَّه عليه[(١)] .

ويقال : حَثَّهُمْ وحَضَّهُمْ إذا حَرَّضَهُمْ ، كما يقال : حَارَضَ على الأمر وواظَبَ وواصب وأكَبَّ بمعنى واحد ، والتحريض على القتال الحث والإحماء عليه ، قال الله تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ**﴾ ، أي حَثَّهم عليه بكثرة التزيين وتسهيل الخطب فيه ، كأنه في الأصل إزالة الحرض نحو مرضته وقذيته، أي ، أزلت عنه المرض والقذى ، وأحرضته : أفسدته نحو : أقذيته جعلت فيه القذى[(٢)] .

والحَرَضُ : ـ بفتح الحاء والراء وضم الضاد ـ هو الإنهاك بالمرض حتى أصبح حرضاً أي منهكاً ، المشفي على الهلاك ، ويقال : أحرضه المرض .

يقول الله تعالى : ﴿**قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ**﴾[(٣)] ، قال المفسرون : حرضاً : أي ضعيف القوة[(٤)] .

الأصل في مشروعيته : الكتاب والسنة :

أما الكتاب فقوله تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا**

---

(١) الفيومي ـ المصباح المنير (١ : ١٤١) ، الزبيدي ـ تاج العروس (٥ : ١٩) . الجوهري ـ الصحاح (٣ : ١٠٧٠) .

(٢) الراغب الأصفهاني ـ المفردات (ص ١١٣) .

(٣) سورة يوسف : الآية ٨٥ .

(٤) ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم (٢ : ٤٤٨) .

بأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾[1] وقال تعالىٰ : ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً﴾[2] .

ووجه الدلالة من الآيتين أن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أمر نبيه ـ ﷺ ـ بتحريض المؤمنين علىٰ الجهاد والقتال في سبيل الله وحثهم عليه وذلك يدل علىٰ مشروعيته .

أما السنة : فإن النبي ـ ﷺ ـ استجاب لأمر ربه له بتحريض المؤمنين وقد ثبت عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه حرض المؤمنين قولاً وفعلاً .

أما القول فمنه حديث علي ـ رضي الله عنه ـ في قصة بدر ، وفيها : «**فصلى بنا رسول الله ـ ﷺ ـ وحرض على القتال ..**»[3] .

وأما الفعل فمنه أخذه البيعة من أصحابه تحت الشجرة ، وقصتها في الصحيح مشهورة ، وفيها أن رسول الله ـ ﷺ ـ دعا الناس إلىٰ البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، فكان الناس يقولون : بايعهم رسول الله ـ ﷺ ـ علىٰ الموت ، وكان جابر بن عبد الله يقول : إن رسول الله ـ ﷺ ـ لم يبايعنا علىٰ الموت ، ولكن بايعنا علىٰ ألا نفر ، فبايع رسول الله ـ ﷺ ـ الناس ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها ، إلا الجد بن قيس أخو بني سلمة ، فكان جابر بن عبد الله يقول : والله لكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته قد ضبأ إليها يستتر بها من الناس .

وذكر البخاري بسنده عن أبي عبيد قال : قلت لسلمة بن الأكوع : علىٰ أي شيء بايعتم رسول الله ـ ﷺ ـ يوم الحديبية ؟ قال : علىٰ الموت[4] .

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٦٥ .

(٢) سورة النساء : الآية ٨٤ .

(٣) أحمد بن حنبل ـ المسند (١ : ١١٧) .

(٤) البخاري ـ الجامع الصحيح (٣ : ٤٤) ، ورواه ابن إسحاق عن محمد بن مسلم بن شهاب الزهري عن عروة بن الزبير عن مسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ، انظر : ابن هشام ـ السيرة النبوية (٣ : ٣٣٠) .

أهمية التحريض على القتال

أولاً : أهميته بالنسبة للمقاتل :

تبرز أهمية التحريض بالنسبة للمقاتل في كونه من أهم العوامل المحصنة من الانتكاس ، ويظهر ذلك جلياً في حفظه لمعنوية المقاتل ، إذ هو حافز إلىٰ الاستعداد لتلقي ما يطرأ علىٰ المقاتل من شدائد الحرب وأهوالها ، ولو خلا المقاتل من ذلك التحريض لما سلم من أن يعتريه الخور والضعف ، فيبتلىٰ بالانتكاس لأدنىٰ عارض يلقاه ، وبذلك يخسر دينه ودنياه وآخرته ، فبهذا ظهرت أهمية التحريض وأنه من أعظم الأسباب التي يسلم بها المقاتل من الخسارة والفشل .

وله أهمية أخرىٰ تظهر في إعطائه الثقة للمقاتل بالقيادة إذ بتحريض القائد للمقاتلين يشعر الواحد منهم بعميق الثقة بتلك القيادة ؛ لإحساسه بقوته أثناء اللقاء ، الأمر الذي يهون عليه كل المصاعب التي يلقاها ويساعده علىٰ الاستمرار بهمة عالية ومعنوية جيدة .

ثانياً : أهميته بالنسبة إلى المعركة :

تبرز أهمية التحريض بالنسبة إلىٰ المعركة ، في كونه من أعظم الأسباب التي يضمن معها القائد كسبه تلك المعركة ، وضمان سلامة جنوده من التفكك والضعف ، خصوصاً في المواقف الصعبة عندما يكون عددهم أقل من العدو بكثير ، فيتمكن القائد عن طريق التحريض من تقوية معنوياتهم إلىٰ درجة يحصل معها تكافؤ القوتين أو تفوقه علىٰ العدو حسب خبرته بالتحريض ، فظهر بهذا أن التحريض من أعظم الوسائل التي يستطيع القائد معها كسب المعركة رغم ما هو عليه من ضعف مادي .

المبحث الثاني
أساليب التحريض

١ ـ أسلوب الترغيب :

ثبت التحريض بالترغيب في كتاب الله وسنة رسوله ـ ﷺ ـ فمما ورد في الكتاب قوله تعالىٰ : ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾[(١)] .

فأخبر تعالىٰ أنه عاوض عباده المؤمنين من أنفسهم وأموالهم إذا بذلوها في سبيله بالجنة ، وفي هذا أعظم تحريض للمؤمنين علىٰ القتال ؛ حيث أخبروا بأن الجنة عوض لهم عن أموالهم وأنفسهم ، وأخبرهم الله بوفاء عهده لهم بذلك ولهذا كان ـ ﷺ ـ يحرض علىٰ القتال عند مواجهة العدو ، كما قال لأصحابه يوم بدر حين أقبل المشركون في عَددهم وعُددهم : «**قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض**»[(٢)] .

وقال تعالىٰ : ﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ**﴾[(٣)] . ويكفي في هذه الآية من التحريض أنه يكفر عنهم سيئاتهم ويدخلهم الجنة .

ومن السنة الدالة علىٰ التحريض علىٰ القتال ما ثبت في الصحيحين عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال : «**تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلماته بأن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة**»[(٤)] ، وفي رواية مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول

---

(١) سورة التوبة : الآية ١١١ .

(٢) ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم (٢ : ٣٢٥) .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٩٥ .

(٤) هذا لفظ البخاري .

الله ـ ﷺ ـ : «**تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاداً في سبيلي وإيماناً بي وتصديقاً برسلي فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة ، والذي نفس محمد بيده ما من كلم**(١) **يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كُلِم ، لونه لون دم ، وريحه ريح مسك ، والذي نفس محمد بيده لولا أن يشُقَّ علىٰ المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عني ، والذي نفس محمد بيده لوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتَلُ ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتلُ**»(٢) .

وثبت في الصحيحين أيضاً عنه ـ ﷺ ـ أنه قال : «**لغَدْوةٌ أو رَوْحَةٌ في سبيل الله خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب**» ولفظ مسلم : «**خير من الدنيا وما فيها**»(٣) .

فهاتان الآيتان وهذا الحديثان فيهما التحريض علىٰ القتال ؛ ففي الآية الأولىٰ أخبر الله تعالىٰ أنه اشترىٰ من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بثمن هو الجنة كما تقدم ذلك ، وفي الآية الثانية أخبر أنهم إن قاتلوا في سبيله وقتلوا كفر عنهم سيئاتهم وأدخلهم الجنة كما تقدم أيضاً .

أما الحديث الأول فقد حَرَّضَ فيه ـ ﷺ ـ المسلمين علىٰ القتال ورغَّبهم فيه ؛ حيث أخبرهم أنه ضمن للمجاهد أحد أمرين : إما أن يدخله الجنة إذا مات وإما أن يرجعه إلىٰ مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من الأجر والغنيمة ، فهذا أعظم تحريض وترغيب في الجهاد في سبيل الله ، أما الحديث الثاني فقد حَرَّض فيه ـ ﷺ ـ علىٰ القتال ورغب فيه ، وأخبر أن الغدوة الواحدة ـ وهي الخروج أول النهار في سبيل الله ـ والروحة الواحدة ـ وهي الخروج آخر النهار ـ خير للمسلم من الدنيا وما فيها .

---

(١) الكلم : الجرح .

(٢) أخرجه البخاري في كاب فرض الخمس ، باب قول النبي ـ ﷺ ـ أحلت لكم الغنائم (٣ : ١٤٩٩) ومسلم في كتاب الإمارة (٣ : ١٤٨٥) .

(٣) البخاري في كتاب الجهاد ، وفي باب الغزوة والروحة في سبيل الله ، (٣ : ٢٠٢) ومسلم في كتاب الإمارة ، باب الغدوة والروحة في سبيل الله (١٣ : ٢٦) .

وقال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾(١) وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾(٢) ففي الآية الأولى ترغيب للمقاتلين في سبيل الله المصطفين المقبلين غير المدبرين متماسكين كالبنيان. فأخبر تعالى أنه يحب من هذه صفته، وكفى بهذا ترغيباً؛ لأن محبة الله هي الغاية القصوى لكل مؤمن، وفي الآية الأخرى أخبر تعالى أن المقاتلين في سبيل الله لن تضل أعمالهم، وأن الله يهديهم إلى الخير ويصلح حالهم، ويدخلهم الجنة، يعرفون منازلهم منها سواء أقتلوا أو قاتلوا ولم يقتلوا كما تدل على ذلك القراءتان، قاتلوا بصيغة المفاعلة، وقُتلوا للبناء للمجهول.

٢ ـ أسلوب الترهيب من عدم الإقبال على القتال في سبيل الله :

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(٣).

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «**إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذُلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم**»(٤).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : «**من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من النفاق**»(٥).

وعن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : «**من لم يغز ولم يجهز غازياً أو يخلف غازياً في أهله بخير أصابه الله تعالى بقارعة قبل يوم**

---

(١) سورة الصف : الآية ٤ .

(٢) سورة محمد : الآية ٤ ـ ٦ .

(٣) سورة الأنفال : الآيتان ١٥ ـ ١٦ .

(٤) أبو داود ـ سنن أبي داود (٣ : ٧٤٠) .

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب ذم من مات ولم يغز، الحديث رقم ١٩١٠ وأبو داود رقم ٢٥٠٢، والنسائي (٨ : ٦) .

القيامة»[١] وعن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : «**ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بالعذاب**»[٢] .

فالآية الكريمة تدل دلالة واضحة على الترهيب من التولي من العدو والفرار منه ، إلا إذا كان ذلك مخادعة في الحرب ، بحيث يكون قاصداً أن يرى عدوه الخوف منه ليتبعه ثم يكر عليه فلا بأس في ذلك ، أو يفر من مكان إلى مكان ذاهباً إلى فئة أخرى من المسلمين يعاونهم ويعاونوه ، فيجوز له ذلك ولا يعد فراراً[٣] . وقد ثبت في الصحيحن عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : «**اجتنبوا السبع الموبقات ، قيل يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**»[٤] .
ويكفي في الترهيب من التولي والفرار إخبار الله ـ جل وعلا ـ أن فاعل ذلك باء بغضب منه وأن مأواه جهنم وبئس المصير .

وكذلك في الأحاديث من التنفير ما فيه زاجر عظيم عن الفرار وعدم الإقبال على الجهاد ، حيث كان في حديث ابن عمر ما يدل على أن تارك الجهاد يسلط الله عليه الذل لا ينزع حتى يرجع إلى الدين ، وحديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ فيه أن من مات ولم يغز في سبيل الله ولم يحدث نفسه بالغزو أخذ حظه من النفاق ؛ حيث يموت على شعبة منه .

وفي حديث أبي أمامة أيضاً ترهيب من عدم الغزو وعدم إعانة الغازي بسلاح أو غيره ؛ حيث أخبر ـ ﷺ ـ في الحديث الشريف أن من لم يغز بنفسه أو يجهز غازياً أو يخلفه في أهله أصيب بقارعة قبل يوم القيامة ، وقد عجل الله له العقوبة قبل يوم القيامة ، وما عند الله له يوم القيامة أعظم .

وفي حديث أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ الترهيب أيضاً من ترك الجهاد

---

(١) ابن ماجه ، باب التغليظ في ترك الجهاد ، ح ٢٧٦٢ ، وأبو داود ، في كتاب الجهاد ، ح ٢٥٣٠ .

(٢) رواه الطبراني ، انظر : المنذري ـ الترغيب والترهيب (٣ : ١٥٤) .

(٣) ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم (٢ : ٢٩٤) .

(٤) البخاري ـ الجامع الصحيح (٢ : ١٣١) كتاب الجهاد .

والإخبار بأن الجهاد ما تركه قوم إلا عمهم الله بالعذاب ، والأحاديث في هذا كثيرة ، وأما الحديث الذي ورد في الصحيحين فقد أخبر فيه ـ ﷺ ـ أن التولي والإدبار عن الأعداء من الموبقات ، أي المغرقات في النار ، وأن ذلك من أكبر الكبائر كما أخبر به ـ ﷺ ـ .

٣ ـ أسلوب المبالغة في التحريض بطريق الاستفهام :

قال تعالى : ﴿**وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ...**﴾(١) وقال تعالى : ﴿**أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾(٢) .

قوله تعالى في الآية الأولى : ﴿**وَمَا لَكُمْ**﴾ خطاب للمأمورين بالقتال على طريقة الالتفات مبالغة في التحريض عليه وتأكيداً لوجوبه ، وهو مبتدأ وخبر ، والمعنى أي شيء لكم غير مقاتلين أي لا عذر لكم في ترك المقاتلة(٣) .

وفي الآية الثانية قوله تعالى : ﴿**أَلا تُقَاتِلُونَ**﴾ الهمزة الداخلة على انتفاء مقاتلتهم للإنكار والتوبيخ على تحضيضهم على المقاتلة بطريق حملهم على الإقرار بانتفائها(٤) .

---

(١) سورة النساء : الآية ٧٥ .

(٢) سورة التوبة : الآية ١٣ .

(٣) تفسير أبي السعود (٢ : ٢٠١) .

(٤) المصدر نفسه (٤ : ٤٨) .

المبحث الثالث

نماذج من التحريض على القتال

التاريخ الإسلامي حافل بالنماذج للتحريض على القتال ، فقد سجل لنا روائع كثيرة من خطب قادة الفتوح ، ومن قبلهم الخلفاء والصحابة الكرام ، ثم أناشيد القتال وأراجيزه التي كان يشدو بها المقاتلون في مواطن البأس التي كانت تفعل فعلها في نفوسهم ونفوس إخوانهم من المجاهدين مثلما كان لها أثرها المدمر في نفوس الأعداء . وسوف نستعرض فيما يلي بعض النماذج لخطب القادة المسلمين في التحريض على الجهاد والقتال والحض عليه ، ولنبدأ بالخطبة التي رواها أهل المغازي والسير عن النبي - ﷺ - لما تقابل المسلمون والمشركون في بدر ، ودفع - ﷺ - لواء المهاجرين إلى مصعب بن عمير ، ولواء الخزرج إلى الحباب بن المنذر ولواء الأوس إلى سعد بن معاذ ، قالوا : خطب رسول الله - ﷺ - يومئذ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال وهو يأمرهم ويحثهم ويرغبهم في الأجر :

(أما بعد : فإني أحثكم على ما حثكم الله عليه ، وأنهاكم عما نهاكم الله عنه ، فإن الله عظيم شأنه ، يأمر بالحق ، ويحب الصدق ، ويعطي على الخير أهله على منازله عنده ، به يذكرون ، وبه يتفاضلون ، وإنكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحق ، لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغي به وجهه وإن الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله به هماً وينجي به من الغم وتدركون به النجاة في الآخرة ، فيكم نبي الله يحذركم ويأمركم ، فاستحيوا اليوم أن يطلع الله - عز وجل - على شيء من أمركم يمقتكم عليه ، فإن الله يقول : ﴿**لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ**﴾ انظروا إلى الذي أمركم به من كتابه وأراكم من آياته وأعزكم بعد ذلة فاستمسكوا به يرض ربكم عنكم ، وأروا ربكم في هذه المواطن أمراً تستوجبوا الذي وعدكم به من رحمته ومغفرته فإن وعده حق ، وقوله صدق وعقابه شديد ، وإنما أنا وأنتم بالله الحي القيوم ، إليه ألجأنا ظهورنا وبه اعتصمنا وعليه توكلنا وإليه المصير ، أستغفر الله لي وللمسلمين)(١) .

---

(١) الواقدي - المغازي (١ : ٥٨ - ٥٩) .

خطبة أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ:

لما جمع أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ الجيوش التي جهزها إلى الشام قام خطيباً فيهم فأثنى على الله بما هو أهله ، فلما حث الناس على الجهاد قال :

(ألا لكل أمر جوامع ، فمن بلغها فهي حسبه ، ومن عمل لله كفاه الله ، عليكم بالجهاد ، والقصد أبلغ ، إلا أنه لا دين لأحد إلا بإيمان ، ولا إيمان لمن لا خشية له ، ولا عمل لمن لا نية له ، ألا وإن في كتاب الله من الثواب على الجهاد في سبيل الله لما ينبغي لمسلم أن يحب أن يخص به في النجاة التي دل الله عليها إذ نجى بها من الخزي وألحق بها الكرامة)(١) .

ولما كانت وقعة اليرموك ووقع فيها ما وقع عند تجمع جيوش الروم وكثرتهم ، وقلة جيوش المسلمين بالنسبة إلى عدوهم ، كتب إليه أمراء الجيوش يخبرونه بالأمر فكتب إليهم (أن اجتمعوا وكونوا جنداً واحداً ، والقوا جنود المشركين فأنتم أنصار الله ، والله ناصر من نصره ، وخاذل من كفره ، ولن يؤتى مثلكم عن قلة ، ولكن من تلقاء الذنوب فاحترسوا منها وليصل كل رجل منكم بأصحابه)(٢) .

خطبة طارق بن زياد :

لما عبر طارق بن زياد البحر في فتحه لبلاد الأندلس على البواخر ، أحرق السفن التي عبر بها لئلا يتراجع عليها الجيش إذا انهزم أمام العدو ، وقام فيهم خطيباً فقال : (أيها الناس أين المفر ، البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام على مائدة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته ، وقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم ، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب عن رعبها عنكم الجرأة عليكم ، فارفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العامة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية(٣) ، فقد ألقت به

---

(١) ابن كثير ـ البداية والنهاية (٨ : ٣) .

(٢) المرجع نفسه (٨ : ٥) .

(٣) ملك الأسبان لوذريق .

إليكم مدينته الحصينة ، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت)[1] .

كتاب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه -

كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنهما - ومن معه من الأجناد : (أما بعد فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة في الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، ولأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة ، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا ، واعلموا أن عليكم في مسيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله ، ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا وإن أسأنا ، فرب قوم قد سلط عليهم شر منهم كما سلط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفار المجوس ﴿**فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا**﴾ ، واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم ، أسأل الله ذلك لنا ولكم)[2] .

وعلى ذلك النمط سار قادة المسلمين يذكرون جنودهم بطاعة الله ، ويحضونهم على الثبات ، ويخوفونهم عواقب الفرار ، ويحرضونهم على القتال ، فكان خالد بن الوليد يسير في الصفوف يذكر الناس ، ويقول : (يا أهل الإسلام ، إن الصبر فلاح ، وإن الفشل عجز ، وإن مع الصبر النصر) وقال أبو بكر - رضي الله عنه - لخالد بن الوليد : (احرص على الموت توهب لك الحياة)[3] .

---

(١) ابن عبد ربه - العقد الفريد (١ : ١٣٥) .

(٢) ابن عبد ربه - العقد الفريد (١ : ١٣٠) ، والآية هي الخامسة من سورة الإسراء .

(٣) المرجع نفسه (١ : ١٠٠) .

وكان خالد بن الوليد يقول لجنوده أيضاً قبل القتال : (هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي ، أخلصوا جهادكم ، وأريدوا الله بعملكم - هلموا فإن هؤلاء قد تهيؤوا ، وهذا يوم له ما بعده ، إن رددناهم إلىٰ خندقهم اليوم لم نزل نردهم ، وإن هزمونا لن نفلح بعدها) ، وبينما كان خالد يتنقل بين صفوف الجند سمع رجلاً يقول : (ما أكثر الروم وأقل المسلمين) فقال له : (بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين إنما تكثر الجيوش بالنصر وتقل بالخذلان) .

ووقف أبو عبيدة خطيباً في جنده ، ومما قاله لهم : (لا تتركوا مصافكم ولا تخطوا إليهم خطوة ولا تبدؤوهم بالقتال ، وأشرعوا الرماح واستتروا بالدرق والزموا الصمت إلا عن ذكر الله في أنفسكم حتىٰ يتم أمركم إن شاء الله) .

وكان أبو سفيان بن حرب يطوف بالصفوف ويقول بأعلىٰ صوته : (يا معشر المسلمين أنتم العرب أصبحتم في دار العجم منقطعين عن الأهل . . وقد والله أصبحتم بإزاء عدو كثير عدده ، شديد عليكم حنقه ، وبينكم وبين أمير المؤمنين وجماعة المسلمين صحارىٰ وبراري ، ليس لأحد فيها معقل ولا معول إلا الصبر ورجاء ما وعد ، فهو خير معول ، فامتنعوا بسيوفكم وتعاونوا بها ولتكن هي الحصن) .

وقال عمرو بن العاص - رضي الله عنه - لجنده : (غضوا الأبصار ، واجثوا علىٰ الركب ، وأشرعوا الرماح ، فإذا حملوا عليكم فأمهلوهم حتىٰ إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا في وجههم وثبة الأسد . . ولا تهولنكم جموعهم ولا عددهم فإنهم لو صدقتموهم الحملة تطايروا تطاير أولاد الحجول)[1] .

ففي هذه الخطب نماذج عظيمة ، وتشجيع للجندي المسلم وتهيئة له وإعداد ليكون مستعداً الاستعداد التام ، وفيها إثارة لضميره وتحريك لطبيعته البشرية ، كما أن فيها تبيناً للحقائق ، وأنه لا مفر من الله إلا إليه ، وفيها حسن التوكل علىٰ الله ، والثقة بنصره للمؤمنين ، وأن المسلمين لن يؤتوا ولن يهزموا من قلتهم وقلة عددهم ، وإنما يؤتون من جراء ما يرتكبونه من الذنوب ، فإذا

---

(١) عمر رضا كحالة - سيف الله خالد بن الوليد (ص ١٤٦ - ١٤٨) ، وانظر : المقدم ياسين سويد - معارك خالد بن الوليد (ص ٣٥٨ - ٣٦١) .

احترسوا منها وأطاعوا الله واتقوه حق تقاته فازوا بالظفر لا محالة .

كما أن في الخطب أيضاً وصية بالمؤاخاة والمناصرة والمواصلة بأن يكونوا كالبنيان المرصوص صفاً واحداً ، وفيه الوصية بالصدق في القول والعمل والصبر ؛ لأن من أعظم أنواع الصبر الصبر على الجهاد ، إذ فيه الصبر على الطاعة ؛ لأن الله أمر بجهاد المشركين ، وامتثال أمره طاعة ، وفيه الصبر عن المعصية ؛ لأن الله نهى عن الفرار أمام المشركين ، ومن خالف ذلك النهي فقد عصى الله ، وفيه الصبر على المصيبة ؛ لأن فيه الصبر على القتال والجراح ، فاجتمعت أنواع الصبر الثلاثة في الجهاد .

نماذج من أراجيز القتال :

إن أراجيز القتال قد عرفت منذ أزمان سحيقة بها المقاتلون الحماس والثبات، ويقطعون بها نياط قلوب أعدائهم ، ويستنهضون بها همم إخوانهم في الصفوف ، وقد أثر من ذلك في صدر الإسلام الشيء الكثير ، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يشارك أصحابه فيها ، وكان الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ يرتجزون بها في المعارك من بعده ، وقد سجل التاريخ عنهم أناشيد خالدة ومآثر باقية تسجل بطولاتهم وإقدامهم ، وتصف صبرهم وثباتهم في تلك المواقف العظيمة والمواطن الخالدة ، قال البراء بن عازب : كان رسول الله ـ ﷺ ـ ينقل التراب يوم الخندق حتى اغبر بطنه وهو يقول من رجز ابن رواحة ـ رضي الله عنه ـ :

وَالله لَولا اللهُ مَا اهتَدَيْنَا ... وَلا تَصَدَّقْنا وَلا صَلَّيْنَا
فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ... وَثَبِّت الأقْدَامَ إنْ لاقَيْنَا
إنَّ الألَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ... إذَا أرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

وهو حديث صحيح أخرجه الشيخان في صحيحيهما[(١)] :

وقد روى أبو داود حديث شاهد عيان يقول : لكأني أنظر إلى جعفر حين اقتحم على فرس له شقراء ثم عقرها ، ثم قاتل القوم حتى قتل[(٢)] وهو ينشد :

---

(١) رواه البخاري ، انظر : فتح الباري (٧ : ٣٩٩ : ٤٠٠) ط السلفية .

(٢) سنن أبي داود ، طبعة حمص ، تحقيق عزت الدعاس ، وعادل السيد (٣ : ٦٢) .

يَا حَبَّذَا الجَنَّةَ واقْتِرَابُهَا ... طَيِّبَةً وَبَارِداً شَرَابُهَا
وَالرُّومُ رُومٌ قَدْ دَنَا عَذَابُهَا ... كَافِرَةٌ بَعِيدَةٌ أَنْسَابُهَا
عَلَيَّ إنْ لاقَيْتُهَا ضِرَابُهَا(١)

وكان عمير بن الحمام ـ من بني سلمة ـ رضي الله عنه حينما رمىٰ التمرات من يده يوم بدر ثم انطلق يقاتل المشركين حتىٰ استشهد ـ رضي الله عنه ـ يقول:

رَكْضاً إلىٰ اللهِ بِغَيْرِ زَادِ ... إلا التُّقَىٰ وَعَمَلَ المَعَادِ
وَالصَّبْرَ فِي اللهِ عَلَىٰ الجِهَادِ ... وَكُلُّ زَادٍ عُرْضَةُ النَّفَادِ
غَيْرَ التُّقَىٰ وَالبِرِّ وَالرَّشَادِ(٢)

وكان عبد الله بن رواحة الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ يرتجز في غزوة مؤتة:

يَا نَفْسُ إلا تُقْتَلِي تَمُوتِي ... إنْ تَسْلَمِي اليَوْمَ فَلَنْ تَفُوتِي
أَوْ تُبْتَلِي فَطَالَ مَا عُوفِيتِ ... هَذِي حِيَاضُ المَوتِ قَدْ صَلِيتِ
وَمَا تَمَنَّيْتِ فَقَدْ أُعْطِيتِ
إنْ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدِيتِ ... وَإنْ تَأَخَّرْتِ فَقَدْ شَقِيتِ

وقال أيضاً:

أَقْسَمْتُ يا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّه ... كَارِهَةً أوْ لَتُطَاوِعَنَّهْ
مَالِي أرَاكِ تَكْرَهِينَ الجَنَّة ... فَطَالَمَا قَدْ كُنْتِ مُطْمَئِنَّةْ(٣)

وقال كعب بن مالك الأنصاري:

ونحن أناس لا نرىٰ القتل سبة ... علىٰ أحد يحمي الذمار ويمنع
ولكننا نلقىٰ الفرار ولا نرىٰ الـ ... ـفرار لمن يرجو العواقب ينفع(٤)

مما تقدم من فصول ندرك أهمية الإعداد المعنوي للمعركة في ضوء القرآن

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام، طبعة الكليات الأزهرية، تحقيق عبد الرؤوف مسعد (٤ : ١٢).
(٢) الماوردي ـ الأحكام السلطانية (ص ٤١).
(٣) البحتري ـ كتاب الحماسة، ص ٢، وانظر: فتح الباري، ط السلفية (٧ : ٥١١)، وابن هشام ـ السيرة النبوية، مجلد ٢ (٤ : ١٣، ١٤).
(٤) البحتري ـ كتاب الحماسة، ص ٤٤.

والسنة وأنه لا بد منه للمجاهدين جنباً إلى جنب مع صنوه الإعداد المادي للمعركة وذلك ما سوف نتطرق إليه في الباب الثاني من هذا البحث بمشيئة الله .

الباب الثاني

الإعداد المادي للمعركة

ويشتمل على تمهيد وخمسة فصول:

الفصل الأول: الاستراتيجية والتخطيط والتنظيم

الفصل الثاني: التجنيد والتدريب

الفصل الثالث: القيادة

الفصل الرابع: إعداد المعلومات للمعركة

الفصل الخامس: التسليح والتحصين

التمهيد

القوة في الإسلام

التمهيد
القوة في الإسلام

القـوة ضد الضـعف ، والجمع قُوَىً ، وقِوَىً ، والقـوة مـبعث النشاط والحركة والنمو[١] . والمتتبع لآيات القرآن الكريم يجد أن مادة (قوىٰ) وما اشتق منها ذكرت فيما يقرب من أربعة وأربعين موضعاً[٢] بمعان متعددة ، لا تخرج عن معنىٰ القوة .

ولقد طلب الإسلام من أتباعه أن يكونوا أقوياء ، أعزة أتقياء وحثهم علىٰ ذلك أفراداً وجماعات ، وأمرهم بكل ما يُحقق هذه القـوة ويؤدي إليها من سعي حثيث وكسب شريف ، وعمل وجهاد ، وتعاون واتحاد ، ونحو ذلك ، ونهاهم عن الضعف والتخاذل والتدابر والتنافر والعجز والتكاسل ، وعن كل ما يجلب الوهن والذلة ، ومن هنا حث رسول الله ـ ﷺ ـ المؤمن علىٰ أن يكون قوياً في نفسه ، قوياً في بدنه ، قوياً في عقيدته ، قوياً في طاعته ، قوياً في صبره واحتماله ، قوياً في جهاده ونضاله ، لا تزعزعه الشدائد ولا تثنيه الخطوب ، ولأجل أن يكون المؤمن قوياً حتىٰ في مظهره ، يمثل الرجولة والصلابة ، نهىٰ عن لبس الحرير والمزعفر والمعصفر ، وعن التخنث والتشبه بالنساء ، وطلب منه الاخشيشان ، لأن في هذه المنهيات ميوعة وليونة تنافي الرجولة والفتوة والشهامة ، وفي ذلك ما يروىٰ عنه ـ ﷺ ـ : «**علموا أبناءكم السباحة والرمي**»[٣] ، وفي رواية : «**علموا أولادكم السباحة والرماية**»[٤] .

---

(١) مجمع اللغة ـ المعجم الوسيط (٢ : ٧٧٥) .

(٢) محمد فؤاد عبد الباقي ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، باب القاف (ص ٥٨٧ ـ ٥٨٨) .

(٣) المناوي ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير ، وعزاه إلىٰ البيهقي ورمز إليه بالضعف (٤ : ٣٢٧) وضعفه الألباني ، انظر : ضعيف الجامع الصغير وزيادته (٤ : ٣٥) .

(٤) المصدر نفسه ولكنه رمز إليه بالحسن ، ونقل عن السخاوي أنه قال في الحديث المذكور سنده ضعيف لكن له شواهد فيكون حسناً لغيره ، وذكره الألباني في ضعيف الجامع الصغير وزيادته وحكم عليه بالضعف (٤ : ٣٥) برقم ٣٧٢٨ .

ونقل المناوي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه كتب إلىٰ الشام أن علموا أولادكم السباحة والرمي والفروسية ، ليربىٰ الفرد تربية فاضلة تكسبه قوة في نفسه وقوة في جسمه .

وفي هذه المقدمة نشير إلىٰ أهمية القوة المادية المتمثلة في قوىٰ الرجال الأقوياء والآلة القوية ، فالسيف والرمح ، والبندقية والمسدس والرشاش ، كل هذه الآلات الحربية وغيرها تحتاج إلىٰ رجال أقوياء في أجسامهم لحملها واستعمالها ، أقوياء في قلوبهم ، لا ترعبهم أصواتها ، صناديد لا يخشون الموت ، ولذلك كانت للمؤمن القوي منزلة ومحبة عند الله أفضل من غيره ، وفي ذلك يقول ـ ﷺ ـ : «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير ..**»(١) . فأخبرنا ـ ﷺ ـ أن المؤمن القوي مظهر من مظاهر القوة التي يُعز الله بها الإسلام ، ولذلك نرىٰ كيف كان لإسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب وخالد بن الوليد ـ رضي الله عنهم ـ وقع كبير وفرحة عظيمة ؛ لأن الله أعز إسلامه بالرجال الأقوياء .

ولقد ظهرت نتيجة قوة هؤلاء المسلمين الأقوياء كما تجلّىٰ ذلك في عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ منذ أن أسلم إلىٰ أن توفاه الله فكانت مواقفه حول الإسلام والمسلمين وتحرياته وإخلاصه وهيبته ورهبته ، كان كل ذلك معروفاً لدىٰ القريب والبعيد ، والعدو والصديق ، وما ذاك إلا لأنه مؤمن قوي . فظهرت نتائج قوته وانتشرت خيراتها فأيد الله به الإسلام ونصره وأعلىٰ به كلمة الحق ، ودحض به كلمة الشرك ، ويكفي من ذلك أن المسلمين أعلنوا صلاتهم حول الكعبة يوم إسلامه ولم يُخفُوها بعد ذلك ، فهذه أول نتيجة لقوة هذه الشخصية المؤمنة ، وكذلك هجرته كانت علناً أغاظ بها أعداء الله وكسر شوكتهم ، والمتتبع لحياته كلها يجد فيها ما يبهر العقول .

---

(١) مسلم ، كتاب القضاء ، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله ، (٤ : ٢٠٥٢) ، وابن ماجه ـ المقدمة (١ : ٣١) .

وقوةُ الإيمان تمثل كل قوة يمكن للمسلم من طريقها تحقيق هدفه سواء كان هدفه تحقيق القوة المعنوية أو المادية .

ولما كانت القوة المعنوية وحدها لاتكفي لصد عدوان المعتدين وقمع الظالمين والطامعين ورد كيد المناوئين وإحباط مكر المتربصين ، كان لابد من قوة مادية تساندها ، وتكون مرهبة للأعداء ومرغمة للأقوياء ، وزاجرة للأشرار وقامعة للكفار ، تنصر الحق وتدفع الظلم ، وترفع راية الإسلام تحت رعاية حكومة رشيدة قوية يقظة متوثبة ، تسهر على تحقيق العدالة والأمن للمواطنين، وحماية الثغور ومصالح المسلمين ممتثلة قول الله تعالى : ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾[١] ، والمعنى أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أرسل الرسل بالحجج والمعجزات ، مؤيدين بالبراهين والآيات وأنزل معهم الكتاب : أي جنسه الشامل لكل كتاب كالتوراة والزبور والإنجيل والقرآن ، وأنزل معهم الميزان : أي العدل في الأحكام أي أمر الرسل بذلك وهم أولو الأمر ومن يأتي بعدهم خلفاً لهم ، كذلك إذ هم الحراس على تنفيذ الأحكام ، وأنزل الكتب من السماء وأمر بالعدل في كل شيء ليقوم الناس بالقسط في معاشهم ومعادهم وفي كل أمورهم الدينية والدنيوية ، وأنزل الحديد : خلقه وأنشأه ، فيه بأس شديد وقوة صارمة ، فالله ـ سبحانه ـ قرن إنزال الكتب والأمر بالعدل بإنزال الحديد ، وفي هذا إشارة إلى أن الكتاب يمثل القوة التشريعية ، والعدل يمثل القوة القضائية ، وإنزال الحديد يمثل القوة التنفيذية فإن تشريع السماء لابد له من قاض يحكم به بالعدل ، ولابد من قوة تنفذ حكمه ، فإن الحق وحده لا يسير إلا بالقوة ، فكل ذلك ليقوم الناس بالقسط ، فإن الظلم من شيم النفوس وطبائعها[٢] .

ولما كان الناس فريقين ، فريق يقوده العلم والحكمة ، وفريق يقوده السيف والعصا ، وكان ما يزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن ، وكان العدل لا بد له من

(١) سورة الحديد : الآية ٢٥ .

(٢) د. محمد محمود حجازي ـ التفسير الواضح (٢ : ٤٨١) .

حـام يحمـيـه وهو الدولة والملك وأعـوانه والجند ، وهؤلاء لابد لهم من عـدة يحمون بها العدل في داخل البلاد وفي خارجها ، أعقب هذا بقوله : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ أي : خلقنا الحديد لتكون منه السيوف والرماح والدروع والسفن البحرية وما أشبه ذلك وفيها ، القوة التي ترغم أنف الظالم وتحمي المظلوم(١) .

وقوله : ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ فيه وجهان أحدهما : لأن بسلاحه وآلته تكون الحرب التي هي بأس شديد . والثاني : لأن فيه من خشية القتل خوفاً شديداً .

﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما ما تدفعه عنهم دروع الحديد من الأذىٰ وتوصلهم إلىٰ الحرب والنصر ، والثاني : ما يكف عنهم من المكروه بالخوف منه ، وقال قطرب : البأس السلاح ، والمنفعة الآلة(٢) . ولهذا أمر الحق ـ جلت قدرته وتعالت عظمته ـ المسلمين جميعاً بإعداد هذه القوة المرهبة ، وبذل كل ما يستطيعون لها وتوفيرها والحفاظ عليها ، فقال وهو أصدق القائلين : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾(٣) .

فقد بدأ ـ جل جلاله ـ هذه الآية الكريمة بالأمر الصريح والنداء الموجه إلىٰ جميع المسلمين بإعداد ما استطاعوا من قوة ؛ لأن هذا الإعداد يحتاج إلىٰ تشييد المصانع لإنتاج الأسلحة بجميع أنواعها ، والمؤن والذخائر بسائر أصنافها ، والحصول علىٰ القنابل الذرية والهيدروجينية بأي ثمن وبأي طريقة مشروعة ومن أي مكان ، كما يجب التدريب علىٰ جميع أنواع هذه الأسلحة وحشدها في المواقع الاستراتيجية مع مداومة الحذر واليقظة وكمال الاستعداد ، وذلك يحتاج إلىٰ بذل جهد عظيم ومال كثير وتضحيات كبيرة ، وهو أمر لا يستطيعه الفرد الواحد ، أو الدولة الواحدة مهما أوتيت من حول وطول ومال ، وإنما تقدر عليه الأمة الإسلامية مجتمعة متساندة متعاونة متعاضدة ، تشكل قوة

---

(١) تفسير المراغي (٢٧ : ١٨٢ ـ ١٨٣) .

(٢) الماوردي ـ النكت والعيون (تفسير الماوردي) (٤ : ١٩٤ ـ ١٩٥) .

(٣) سورة الأنفال : الآية ٦٠ .

عظيمة يحسب حسابها ويخشىٰ بأسها وينصت لكلمتها ويعرف العالم قدرها .

قال أبو حيان عند تفسير هذه الآية : والظاهر العموم في كل ما يتقوىٰ به علىٰ حرب العدو مما أورده المفسرون علىٰ سبيل الخصوص ، والمراد به التمثيل وركوب الخيل وقوة القلوب واتفاق الكلمة والحصون المشيدة وآلات الحرب وعددها والأزواد والملابس الباهية ، حتىٰ إن مجاهداً رئي يتجهز للجهاد وعنده جوالق[١] ، وقال : هذا من القوة[٢] .

وقال أبو جعفر الطبري ـ رحمه الله ـ مبيناً معنىٰ القوة في الآية : إن الله أمر المؤمنين بإعداد الجهاد وآلة الحرب وما يتقوون به علىٰ جهاد عدوه وعدوهم من المشركين من السلاح والرمي وغير ذلك ورباط الخيل ، ولا وجه لأن يقال : عنىٰ بالقوة معنىٰ دون معنىٰ من معانيها ، وقد عم الله الأمر بها[٣] ، لأن القوة قد تختلف من زمن إلىٰ زمن ، وهذا المعنىٰ يتمشىٰ مع حاجة الناس إلىٰ القوة في كل عصر ومصر .

وقال الإمام أحمد بن علي الجصاص ـ رحمه الله تعالىٰ ـ مبيناً مفهوم القوة ومعنىٰ قوله ـ ﷺ ـ : «**ألا إن القوة الرمي**»[٤] ، إنه من معظم ما يجب إعداده من القوة ؛ بل عموم اللفظ شامل لجميع ما يستعان به علىٰ العدو من سائر أنواع السلاح وآلات الحرب[٥] ؛ فيتضح من ذلك أن مفهوم القوة مفهوم عام في الآية يتناول كل أنواع القوة العسكرية ، وفي الحديث إشارة إلىٰ أنكاها للعدو وأخطرها عليه .

ثم يقول الحق ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ﴿**وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ**﴾ عطف علىٰ القوة

---

(١) الجولق وعاء من الصوف أو الشعر أو غيرهما كالغرارة أو المزودة .

(٢) أبو حيان ـ البحر المحيط (٤ : ٥١١) وأشار إلىٰ ذلك الألوسي في تفسيره ، روح المعاني وعزاه لأبي حيان (٣ : ٢٥٣) .

(٣) أبو جعفر الطبري ـ جامع البيان في تأويل القرآن (١٠ : ٣٢) .

(٤) رواه مسلم في كتاب الجهاد ، باب قول الله تعالىٰ : ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾ ح ١٩١٧ (٣ : ١٥٢٢) بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

(٥) الجصاص ـ أحكام القرآن (٣ : ٦٨) .

يقتضي المغايرة ، ويشير إلىٰ أن للقوة توابع وكمالات كالخيل ونحوها لابد من إعدادها أيضاً لأن الخيل في ذلك العصر من ناقلات الجنود ، وكانت تساعد علىٰ الهجوم والمباغتة وقطع خط الرجعة علىٰ الأعداء لسرعتها ، ولا يوجد أسرع منها في ذلك الحال ، إذاً فلابد لاستكمال القوة المطلوبة من إعداد حاملات الجنود وناقلات العتاد والمؤن وسائر الأشياء المطلوبة في القتال ، وليكن ذلك في كل زمان بحسبه وفي كل مكان بما يلائمه ويناسبه ، كما يشير قوله تعالىٰ : ﴿**تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾ إلىٰ أن إلقاء الرهبة والرعب في قلوب الأعداء بإظهار القوة والتلويح بها في وجوههم من أكبر عوامل النصر والفوز ، وفيه توهين لقوة الأعداء المعنوية وإفساد لخططهم الحربية ، ومن هنا قال رسول الله ـ ﷺ ـ : «**نصرت بالرعب مسيرة شهر**»(١) .

ويشير النص أيضاً إلىٰ وجوب إظهار هذه القوة والتلويح بها في أوجه الأعداء تحت ستار من التهديد والتخويف ، لأن الإرهاب المطلوب في الآية لا يتأتىٰ إلا بذلك ، وهذا هو ما تفعله اليوم الدول العظمىٰ والكتل المتنافسة والمتسابقة إلىٰ التسليح بما تقوم به من المناورات الحربية والحشودات العسكرية ، وبما تصرح به في خطبها وتعلن في صُحفها ومجلاتها وأجهزة إعلامها من التشدق بما لديها من قوات وما وصلت إليه من مخترعات مرعبة مرهبة .

إذاً فالإسلام أول من دعا إلىٰ أمثال هذه المناورات إظهاراً للقوة وإرهاباً للأعداء ، ثم إن قوله تعالىٰ : ﴿**وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ**﴾ معناه كما ترهبون بإعداد هذه القوة عدواً له وعدوكم ، ترهبون به أيضاً آخرين من دونهم وهم المنافقون المتسترون والجواسيس المتربصون ، فإن في إرهابهم قطعاً لأطماعهم وكسراً لشوكتهم وتقليماً لأظافرهم وقضاءعلىٰ فتنتهم ودسائسهم ، كما فيه أيضاً إرهاباً للكافرين الحربيين بوساطة هؤلاء المنافقين ، وذلك أنهم إذا هالتهم هذه القوة وأخافتهم بادروا إلىٰ تحذير الكافرين منها مهولين من شأنها ، ومبالغين في وصفها ، وبذلك يخوفونهم وهم لا يدرون ويكونون عوناً للمؤمنين بإرجاف الكافرين من حيث لا يرتقبون .

---

(١) رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، أول حديث من الكتاب (١ : ٣٧١) .

ثم ختم المولى ـ جل شأنه ـ هذه الآية الكريمة بقوله : ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ وهنا تسطع بلاغة القرآن وتشرق فصاحته ، ويشع بيانه وإعجازه لما بين أول الآية وآخرها من مناسبة تامة وارتباط وثيق ، فإنه أمر في أولها بإعداد القوة المرهبة ، وهذا الإعداد يحتاج إلى مال كثير ، وبذل وفير ، وتضحيات عظيمة ، وجهود جبارة ، ولا تستطيع دولة منفردة القيام به إلا مع معاضدة الدول الإسلامية جميعها ومساندتها وبذلها أو تضحيتها وإيثارها للمصلحة العامة على كل مصلحة خاصة ، فحض آخرها على الإنفاق في هذا السبيل فقال تعالى : ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ أي : وماتنفقوا أيها المسلمون من شيء قليل أوكثير في هذا السبيل بالتبرع لشراء الأسلحة وإعدادها وسائر المؤن الحربية ومعدات القتال ، وبالاكتتاب في الإنفاق على المجاهدين والمناضلين خاصة والمؤمنين عامة ، فمنفعته عائدة إليكم ، فأول الآية أمر بإعداد القوة ما استطعنا ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ ، وأوسطها حكمة بالغة وتعليل سديد : ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وآخرها حث على الخير والمساهمة في هذا الإعداد وترغيب فيه ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ .

ولعل من نافلة القول أن أقرر أن الهدف من تحصيل القوة في الإسلام هو إقامة العدل ورفع الظلم والحد من طغيان المتجبرين وتحرير العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾[1] .

وفي الفصول التالية سوف أتعرض لأهم وسائل إعداد القوة المادية بعد أن تعرضت في الباب السابق لأهم وسائل إعداد القوة المعنوية .

---

(١) سورة الحج : الآية ٤١ .

الفصل الأول

الاستراتيجية والتخطيط والتنظيم

ويحتوي المباحث التالية :

المبحث الأول : الاستراتيجية العسكرية

المبحث الثاني : التخطيط للمعركة

المبحث الثالث : التنظيم

المبحث الأول

الاستراتيجية العسكرية

الاستراتيجية مصطلح شاع استعماله، ويقصد به التخطيط العام الشامل للأهداف المستقبلة للدولة (وفي الأصل فالاستراتيجية عبارة عن كلمة يونانية STRATEGOS تعني فنّ قيادة القوات)[١]. وهذه الكلمة لاتؤدي مفهومها الأصلي بقدر ما يفهم منها أنها المخططات البعيدة المدىٰ التي يمكن تنفيذها علىٰ مراحل، وتعتمد علىٰ عدد من الاستراتيجيات: كالاستراتيجية الاجتماعية، والاستراتيجية الاقتصادية، والاستراتيجية السياسية، والاستراتيجية العسكرية، وهذه الاستراتيجيات مجتمعة يعبر عنها باسم الاستراتيجية العامة للدولة.

أما الاستراتيجية العسكرية، فهي من أهم المقومات لتحقيق وتنفيذ باقي الاستراتيجيات، فلو تمكنت الدولة من تحقيق أمنها واستقرارها الخارجي والداخلي عن طريق قواتها المسلحة بتطبيق الاستراتيجية العسكرية المرسومة لأصبح من السهل تنفيذ باقي الاستراتيجيات وفقاً لما تخططه وترسمه الهيئات المسؤولة في الدولة[٢].

تعريف الاستراتيجية العسكرية

هي فن توزيع واستخدام الوسائل العسكرية، مثل القوات المسلحة والإمداد لتحقيق سياسة ما، وتعتمد الاستراتجية العسكرية من أجل تحقيق النجاح علىٰ التقدير السليم والربط المحكم بين الغاية ـ التي تمثلها الاستراتيجية الكبرىٰ ـ والوسيلة متمثلة في الاستراتيجية العسكرية، فإذا كانت الاستراتيجية

---

(١) المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ الموسوعة العسكرية (١ : ٦٦).
(٢) عدلي حسن سعيد ـ الأمن القومي العربي واستراتيجية تحقيقه (ص٢٦٠).

العسكرية تهدف إلى كسب النصر العسكري فقط فإن الاستراتيجية الكبرى تهدف إلى ما هو أبعد من ذلك، ألا وهو كسب السلم(١).

وقد عرّفَ الاستراتيجية العسكرية بعض القادة العسكريين والمختصين في هذا المجال قال: (هي نظرية استخدام المعارك كوسيلة للوصول إلى هدف الحرب)(٢). فقال آخر: (هي فن توزيع واستخدام مختلف الوسائل العسكرية لتحقيق هدف السياسة)(٣). وصاحب هذا التعريف يعتقد أن الهدف من الاستراتيجية ليس البحث عن المعركة بل البحث غن وضع استراتيجي ملائم إن لم يؤد بنفسه إلى النصر فإنه يخلق ظروفاً ملائمة لمعركة تأتي بعده وتنتزع النصر حتماً.

وهناك قول إن الاستراتيجية العسكرية (توجيه وتطوير واستخدام الوسائل العسكرية بطرق مباشرة أو غير مباشرة لتحقيق الاستراتيجية الوطنية)(٤). وتعكس هذه التعريفات المختلفة التباين الواضح بين مفاهيم أصحابها لمعنى الاستراتيجية العسكرية؛ مما يدل على أن هذه الكلمة أو هذا المصطلح لم يتبلور بعد، كما يلاحظ إغفال الحقول غير العسكرية المساندة للأعمال العسكرية، وإذا أردنا أن تكون هذه الاستراتيجية العسكرية نابعة من فهم إسلامي فسيكون التعريف لها كالتالي:

الاستراتيجية العسكرية الإسلامية (٥)

هي تخطيط واستخدام مختلف القوات العسكرية بوسائلها لتطبيق مبادئ الجهاد في الإسلام.

---

(١) اللواء محمد جمال الدين محفوظ ـ المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية (ص٢٩).

(٢) كارل فون كلاونفيتز ـ الوجيز في الحرب (ص ٤ ـ ٥) ترجمة أكرم ديري والهيثم الأيوبي.

(٣) سير بازيل ليدل هارت ـ الفكر العسكري عند ليدل هارت (ص٣٧).

(٤) اللواء الركن يوسف عبد الرحمن الراشد ـ دراسات في الاستراتيجية العسكرية(ص ٢٠) الحصيلة رقم (١) مسلسل تصدره الشؤون العامة بوزارة الدفاع.

(٥) مبادئ العسكرية الإسلامية موضحة في الفصل الاول من الباب الاول من هذا البحث. انظر ص ٢٦ وما بعدها.

مفهوم الاستراتيجية الإسلامية

إن طبيعة الدعوة الإسلامية كدعوة تحريرية جعلت احتمال صراعها مع سواها من الدعوات والنظم الوضعية نتيجة طبيعية، وكان من الحتمي أن يصل الصراع مرحلة الصدام المسلح حينما عجزت وسائل القوىٰ المضادة السلمية عن مجابهة دفع العقيدة الإسلامية، ولجأت تلك القوىٰ إلىٰ وسائل القوة المسلحة تدافع بها عن نفسها وتحاول في الوقت نفسه القضاء علىٰ الدعوة الإسلامية بصفتها مكمن الخطر الذي يهدد مكتسباتها ووجودها؛ لذلك لجأت الشريعة الإسلامية إلىٰ معالجة ذلك الوضع باتخاذ المبادئ العسكرية الإسلامية التي تعبر عن وجهات نظر الإسلام وتصوره للنظم الأساسية للصراع المسلح بينه وبين خصومه كدليل ومرشد في ممارستهم لأداة القوة المسلحة، كواحدة من الوسائل الهادفة إلىٰ تعميم منهج الله، وتوفير حرية الاعتقاد، وحماية الدعوة الإسلامية، فالاستراتيجية الإسلامية إذن هي الوجه العملي لتنفيذ المبادئ الأساسية للعسكرية الإسلامية بكل التفصيلات والتطبيقات اللازمة[١].

ولذلك نجد أن استراتيجيته ـ ﷺ ـ منحصرة في إبلاغ الدعوة وإنقاذ البشرية وهداية العالم، فقد روىٰ الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ عن جابر قال: «مكث رسول الله ـ ﷺ ـ بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجنة وفي المواسم بمنىٰ يقول: من يؤويني؟ من ينصرني حتىٰ أُبلِّغ رسالة ربي وله الجنة؟ حتىٰ إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر ـ كذا قال ـ فيأتيه قومه فيقولون، احذر غلام قريش لا يفتنك، ويمشي بين رحالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع..»[٢]. فكان تبليغ الرسالة أعظم هدف يعيش من أجله.

---

(١) الرائد وليد محمد جرادات ـ استراتيجية الفتوحات الإسلامية (ص ١٧ ـ ١٨) بتصرف.

(٢) الإمام أحمد ـ المسند (٣ : ٣٢٢ ـ ٣٣٣ ـ ٣٣٩).

المبحث الثاني

التخطيط للمعركة

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : التعريف بالتخطيط وبالمعركة

التخطيط أسلوب علمي وعملي للربط بين الأهداف والوسائل التي تستخدم لتحقيقها[1]، وذلك بتحديد ما الذي يجب عمله ؟ وأين؟ ومتى يتم عمله؟ ومن المسئول عن عمله ؟ ومن المراجع لهذا العمل ؟ وكيف يتم عمله ؟

فالتخطيط عمل فكري أساسي تنبع منه مراحل الإعداد والتحضير، وهو استطراد عمل تنظيمي يستهدف تحضير تدابير التنفيذ وترجمة معطيات التصميم الأولي بغية تحويلها إلى مخطط قتالي وتقني وإداري؛ لتحقيق هدف معين. ولابد لنا قبل أن نتكلم عن التخطيط والاستعداد للقتال أن نعرّف بصورة موجزة بالمعركة :

فالمعركة : صراع مسلح بين قوتين تستخدمان أسلحة معينة، ويدور الصراع على أرض محدودة وفي ظل ظروف جوية محددة لتحقيق هدف معين. لذلك فإن التخطيط للمعركة يحتاج إلى إعداد قوات لها ضمن مرحلتين :

أ ـ مرحلة ما قبل المعركة وتشمل التخطيط والاستعداد لها.

ب ـ مرحلة الاشتباك.

وموضوع بحثنا في المرحلة الأولى فقط وهي مرحلة التخطيط والاستعداد للمعركة ولا يمكن لأية قوة أن تخاطر بدخولها المرحلة الثانية ما لم تستكمل استعداداتها القتالية، فهي حجر الزاوية فيها .

---

(١) اللواء محمد جمال الدين محفوظ ـ المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية (ص١٠٦).

ولقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ رائداً في التخطيط فمما تذكره كتب السيرة عن هجرته ـ عليه الصلاة والسلام ـ من مكة إلىٰ المدينة المنورة أن النبي ـ ﷺ ـ خطط للهجرة من مكة إلىٰ المدينة بعد أن أذن له ربه بالهجرة، وبعد أن خطط كفار قريش في الجانب المقابل لقتله، فأخبره جبريل ـ عليه السلام ـ بما تخططه قريش، وأمره بألا ينام في فراشه تلك الليلة وبترك علي ـ رضي الله عنه ـ في فراشه، وبدأ ـ ﷺ ـ بالتخطيط للهجرة، فكتم سره فلم يعلم بخروجه غير أبي بكر وعلي وآل أبي بكر .

لجأ عليه ـ الصلاة والسلام ـ ومعه أبوبكر إلىٰ غار ثور ـ جبل أسفل مكة ـ وليس موقعه في اتجاه من أراد أن يذهب إلىٰ المدينة؛ ليُعمي علىٰ المشركين اقتفاء أثره في بادئ الأمر، وكان عبدالله بن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنهما ـ رجل المخابرات؛ ينقل ما تقوله قريش نهاراً ثم يذهب ليلاً إلىٰ الغار ليبلغ الرسول ـ ﷺ ـ وكان عامر بن فهيرة مهمته الإخفاء والتمويه لمن يتصل برسول الله ـ ﷺ ـ وصاحبه، ولقد كان يرعىٰ غنم أبي بكر نهاراً، ولما يحين الليل ينتظر ليخفي أثر عبدالله بن أبي بكر، وأثر أسماء التي كانت تقوم بإحضار الطعام إلىٰ الغار.

ولقد كان لتخطيطه ـ ﷺ ـ في اختيار عبدالله بن أريقط وهو لم يكن مسلماً وحيازته للرواحل تعمية كبرىٰ علىٰ كفار قريش؛ فكانت غاية في التمويه علىٰ الأعداء؛ لأنه لا يتوقع أن توكل هذه المهمة العظيمة إلىٰ غير مسلم ومن قريش، والذي يتجه إليه النظر أن يكون أحد كبار الصحابة هو الذي يقوم بهذه المهمة .

ولقد كان لمكثه واختفائه ـ ﷺ ـ هو وصاحبه بالغار ثلاثة أيام لم تستطع فيها قريش أن تعرف مكانهما صدمة لها وخيبة أمل، فقد أفلت ـ ﷺ ـ من يدها .

وكان من ضمن التخطيط أنهما يسريان بالليل وينيخان بالنهار للراحة؛ فكان ذلك دليلاً علىٰ التخطيط المحكم الذي أعد لكل أمر عدته حتىٰ تحققت المهمة بنجاح[1] .

ويعلمنا الرسول ـ ﷺ ـ مبدأ التنسيق حسب أحدث الأصول العلمية، فلا

---

(١) ابن كثير ـ البداية والنهاية (٣ : ١٧٧ ـ ١٨٠).

يقتصر التخطيط على تقسيم العمل وتوزيعه، بل يجب أن ينسق بين مختلف القائمين بالعمل، ويكون التنسيق في المكان والزمان المحددين؛ وبذلك يخرج العمل منسجمًا متكاملاً، وهكذا يضع لنا الرسول الكريم القاعدة العلمية التي تقول بأنه دون عملية التخطيط يصبح العمل بغير هدف واضح وغير منظم، ودون عملية التنسيق يكون العمل مبعثرًا مشتتًا غير منسجم.

فكان لتنسيق العمل بين عبدالله بن أبي بكر وأسماء وعامر بن فهيرة وعبدالله بن أريقط في الوقت والمكان، مع المحافظة على مبدأ الكتمان على العملية أثر كبير في نجاح عملية التخطيط(١).

وخطط الأنصار لنصرة رسول الله - ﷺ - وذلك ما يرويه جابر - رضي الله عنه - بعد أن ذكر أول الحديث قال: . . . حتى بعثنا الله إليه من يثرب فآويناه وصدقناه، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا فيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، ثم ائتمروا جميعًا فقلنا: حتى متى نترك رسول الله - ﷺ - يُطرد في جبال مكة ويخاف؟ فرحل إليه منا سبعون رجلاً، حتى قدموا عليه في الموسم فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين حتى توافينا فقلنا: يا رسول الله نبايعك؟ قال: (فذكر الحديث)(٢).

فتبين من هذا الحديث أن اجتماع الأنصار وائتمارهم بالتفكير في إنقاذ رسول الله - ﷺ - من مطاردة المشركين له بمكة نوع من التخطيط.

فكانت المهمة مبايعة النبي - ﷺ - وإنقاذه من الوضع الذي هو فيه بمكة والذي يقوم بهذه المهمة سبعون رجلاً من الأنصار.

ووقت تنفيذ المهمة: موسم الحج.

المكان: منى. مع الوضوح التام لشروط المهمة وقبول الأنصار كل ما يترتب عليهم فيها، مقابل دخولهم الجنة.

(١) اللواء محمد جمال الدين محفوظ - المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية (ص ١٠٨ - ١١٠) بتصرف.
(٢) الإمام أحمد - المسند (٣ : ٣٢٢ - ٣٢٤).

ثم يبدأ التنسيق بتزامن تجمعهم على رسول الله ـ ﷺ ـ واحداً واثنين دون إحداث ما يشعر بتجمعهم في الوقت والمكان المناسبين مع الكتمان .

وبذلك تحقق نجاح المهمة بتخطيطهم الجيد وإيمانهم القوي وصدق عزيمتهم .

المطلب الثاني : العناصر الأساسية للمعركة

هناك عناصر أساسية للمعركة لابد من دراستها وتتلخص فيما يأتي :

أ ـ إعداد قواتنا إعداداً قتالياً .

ب ـ جمع المعلومات عن قوات العدو .

ج ـ معرفة طبيعة الأرض .

د ـ معرفة الطقس والمناخ .

وسوف أوضح بإيجاز المقصود من هذه العناصر وأهميتها ، ثم أتبعها بنموذج تطبيقي من غزوات الرسول ـ ﷺ ـ

أ ـ العنصر الأول : وهو إعداد القوات التي ستخوض المعركة إعداداً قتالياً ؛ فيجب أن يتوفر فيها ما يلي :

(١) العدد الكافي من الأفراد الذين يمكن استدعاؤهم بسهولة للقيام بواجباتهم .

(٢) العناصر الممتازة ، ونعني بذلك الأفراد المدربين والمؤهلين لأداء المهمة .

(٣)التدريب الكافي الذي يهيئ الفرد للكفاءة القتالية .

(٤) المعدات الأساسية التي تحتاج إليها الوحدة لإنجاز مهامها .

(٥)المعدات القتالية ـ الأسلحة ـ الجاهزة لتحقيق المهمة .

(٦) الإمدادات المتواصلة ، والصيانة ، وقطع الغيار ، والخدمات الطبية .

ب ـ العنصر الثاني : جمع المعلومات عن قوات العدو : ويمكننا ذلك بمعرفة الآتي :

(١) معرفة نيات العدو وسياساته واستراتيجيته وتنظيماته .

(٢) الحصول على معلومات عن قوات العدو من حيث إعدادها ، ومستوى تدريبها ، ومستوى الروح المعنوية التي يقاتلون بها .

(٣) معرفة القادة الذين سيقودون هذه المعركة من حيث خبرتهم الحربية ، وأساليبهم القتالية .

(٤) معرفة نوعية السلاح المستخدم لدى العدو ، وأنواعه ، وكثافة نيرانه ، ومسافاته ، ومميزاته ، وكمياته ، وعيوبه .

وبموجب هذه المعلومات يمكن وضع الخطط والتنظيمات الكفيلة بإبطال مخططات العدو ومحاولة التغلب عليه .

فإذا كان العدو يتبع سياسة دفاعية فإنه يصبح من الأفضل تنظيم قواتنا بطريقة تضمن اختراق دفاعاته ، أو تمكن قواتنا من الوصول إلى أهدافها متجنبة قواته المدافعة .

ج ـ العنصر الثالث : معرفة طبيعة الأرض

إن دراسة ومعرفة الأرض التي ستقاتل عليها القوات لكلا الطرفين من أهم العناصر الرئيسية في التخطيط ، إذ ستملي على الطرفين أي نوع من الوحدات سوف تستخدم على تلك الأرض ، وأي نوع من الأسلحة سوف تستخدمها تلك الوحدات ، فالمعروف أن الأرض تختلف من منطقة إلى أخرى ، حيث الصحاري ، المناطق الجبلية ، المناطق الزراعية ، ومناطق الأدغال ، ولكل من هذه الأراضي عواملها المؤثرة في استخدام نوع من الآليات ونوع معين من السلاح ، وتحتاج إلى نوع معين من التدريب[١] .

---

(١) لواء ركن يوسف عبد الرحمن الراشد ـ دقة المعلومات وأثرها على التخطيط الاستراتيجي ، الحصيلة رقم (١) (ص ٦٨) . مسلسل تصدره الشؤون العامة بوزارة الدفاع والطيران .

د ـ العنصر الرابع : معرفة الطقس

تؤثر الظواهر الجوية العارضة منها ـ فترات مؤقتة وغير متوقعة ـ أو المستديمة كحرارة الجو ودرجة الرطوبة في الاستخدام القتالي للمعدات من جهة، وفي الفرد المقاتل من جهة أخرىٰ، وسأستعرض فيما يلي بعض النقاط المهمة حول هذه المؤثرات :

(١) البلاد التي تنخفض بها درجات الحرارة تتطلب تجهيزاً خاصًا للأفراد والمعدات؛ حتىٰ يمكن التغلب علىٰ برودة الجو، فالعربات العسكرية مثلاً التي تعمل في مناطق باردة باستمرار يختلف تصميمها عن عربات تعمل في مناطق حارة .

(٢) تؤثر الظواهر الجوية في تحديد الأوقات المناسبة للقتال؛ فهي قد تمنع القتال في وقت تكون الرغبة متوافرة للقيام به، ولكن عدم توافر الرؤية المناسبة نتيجة الزوابع الرملية أوهطول الأمطار الغزيرة قد تحد من القيام بالعمليات العسكرية .

(٣) كما أن برودة الجو أو حرارته ربما تؤثر في البلاد بشكل عام وخاصة المحصولات الزراعية، ونعرف جيداً أن محصولات المنطقة لها أثر مهم في غذاء القوات التي تقاتل علىٰ الأرض نفسها مع احتمال محاصرة المنطقة.

(٤) كما أن الظواهر الجوية تحدد طريقة وسرعة إمداد القوات المقاتلة، بما تتطلبه من معدات قتال وتجهيزات وتموينات وخدمات طبية .

لهذه الأمور يجب علينا الاستفادة من المناخ في تطوير واستخدام قوة القتال، ويجب العمل علىٰ تقليل التأثيرات السيئة للمناخ، التي تؤثر في الملاحظة وحركة المرور والسيطرة، مع استغلال تأثير المناخ السيئ في القوات المعادية.

نموذج تطبيقي لمعركة أحد :

خرج المشركون من مكة في ثلاثة آلاف على أكمل استعداد وأتم أهبة، يحمل لواءهم (طلحة بن أبي طلحة) من بني عبد الدار وهم أصحاب اللواء دائمًا، وكان قائد الميمنة الفارس المحنك خالد بن الوليد، وكان قائد الميسرة عكرمة بن أبي جهل، ومعهم مائتا فارس تحت إمرة خالد قد دربوا خير تدريب، وعلى المشاة صفوان بن أمية، وعلى الرماة عبدالله ابن أبي ربيعة، قدم هذا الجيش في خيلائه فنزل شمال المدينة على بعد ميلين عند جبل أحد.

علم الرسول - ﷺ - بمسير هذا الجيش من رسالة بعث بها إليه عمه العباس الذي كان لا يزال بمكة، وهنا عقد الرسول - ﷺ - مجلسه الحربي المعتاد من أشراف الأنصار والمهاجرين، وجمع بين الشباب والشيب لأخذ الرأي، ودار نقاش طويل تغلبت فيه حماسة الشبان على رزانة الشيوخ وحكمتهم فقرروا الخروج للقاء المشركين خارج المدينة[1].

استعد الرسول - ﷺ - ومن معه من الصحابة، وكان عددهم ستمائة وخمسين راجلاً وخمسين فارساً بقيادة الرسول - ﷺ - وذلك بعد أن رجع عبدالله بن أبي بن سلول بثلاثمائة تقريبًا من المنافقين.

وبدأ النبي - ﷺ - بجمع المعلومات عن العدو، فبعث أنسًا ومؤنسًا ابني فضالة الظفريين عينين، فاعترضا لقريش بالعقيق، وعادا إلى رسول الله - ﷺ - فأخبراه بخبرهم، ثم بعث الحباب بن المنذر بن الجموح فنظر إليهم، وعاد وقد حزر عددهم وما معهم؛ فكانت قوات المشركين ثلاثة آلاف رجل بينهم سبعمائة دارع ومائتا فرس وثلاثة آلاف بعير، وكانت هذه القوات بقيادة أبي سفيان، بالإضافة إلى خمس عشرة امرأة وكان الغرض منهن بث الحماس والهمم في المقاتلين[2].

---

(١) عبد الرؤوف عون - الفن الحربي في صدر الإسلام (ص ٢٢٢). وانظر ابن القيم - زاد المعاد (٢ : ٩) غزوة أحد ط المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

(٢) محمد بن يوسف - سبل الهدى والرشاد (٤ : ٢٧٣ - ٢٧٧).

فحص أرض المعركة لاختيار الموقع المناسب :

نزل الرسول - ﷺ - على عُدوة الوادي، مسنداً ظهر قواته إلى انحدار الجبل ليكون حماية لهم من الخلف، وجعل وجوههم إلى المدينة، يستقبلون السهل الذي به قريش ويشرفون عليه وهم في سفح الجبل، و تكون المدينة تحت أعينهم؛ فإن قصدها أحد بسوء تمكنوا من إدراكه ومنعه من دخولها .

فحص النبي - ﷺ - أرض المعركة فحْص القائد المجرب، فوجد بجانبه مما يلي الخلف بعض التلال المنقطعة عن الجبل، وخشي أن يُؤتى المسلمون من قبل ذلك التل بحركة التفاف خلفية، وبخاصة أن المشركين يفوقونهم كثيراً في الخيالة، كما كانوا يفوقونهم في المشاة، فبادر إلى عمل تنظيم محكم .

استدعى الرسول - ﷺ - خمسين من الرماة، وأمّر عليهم (عبدالله بن جبير) وأمرهم بالوقوف على ذلك التل، على أن ينضحوا خيل المشركين بنبالهم كلما أقبلت، وأكّد لهم أمره بألا يغادروا مواقعهم، سواء أفاز المسلمون أم هُزموا .

ثم بدأ بترتيب القوات، فاستدعى (الزبير بن العوام) وقال له : (استقبل خالد بن الوليد فكن بإزائه .) وأمر جماعة أخرى بأن تكون بإزاء خيل المشركين؛ لترقب حركاتهم وتصد هجماتهم .

ولقد ظهرت براعة الرسول - ﷺ - في استغلال طبيعة الأرض والانتفاع بالجبل ومنحنياته، ثم أعد لكل شيء عدته، ورتب قواته، وأحكم ترتيبها، بعد أن صف جنده واستعرضهم، ورد بعضهم، واختار منهم أقوياء الأبدان، أقوياء الإيمان الذين يثقون به ويثق بهم[١] .

وبذلك نجد أن النبي - ﷺ - طبق العناصر الأساسية للمعركة قبل دخولها : من إعداد قواته، وجمع معلومات عن العدو، ومعرفة طبيعة أرض المعركة .

---

(١) ابن الأثير - الكامل في التاريخ (٢ : ٧٣ - ٧٤). الجغرافية التاريخية الإسلامية، طبعة لجنة البيان العربي (ص ٣٠ - ٣٣).

المبحث الثالث

التنظيم

التنظيم : هو عبارة عن حصر وترتيب وتحديد العناصر اللازمة من بشرية ومادية، وتعيين الوظائف والواجبات، وأوجه النشاط الضرورية لوحدة أو تشكيل ما، ووضع ذلك بموجب بناء هيكلي معين؛ ليؤدي هذا الترتيب وهذا البناء إلى تحقيق الأهداف وإنجاز العمل بطريقة منظمة تمنع ازدواجية المجهود وبعثرته وبأقل تكاليف(1).

يتلخص لنا من تعريف التنظيم أنه ترتيب العلاقات بين الوظائف والموارد والرجال، والاستفادة منهم في تحقيق الهدف بطريقة تضمن أفضل استغلال للمصادر في أقصر وقت وبأكفأ طريقة وأقل كلفة.

وللتنظيم مراحل ومبادئ سوف نوجزها باختصار.

مراحل التنظيم

هناك ثلاث مراحل للتنظيم لا يمكن أن يتم دونها وهي :

١ ـ تحديد المهمة : يجب أن تعرف الوحدة مهمتها واضحة قبل تنظيمها، وهل المهمة ثابتة أو متغيرة، وهل تتم تحت ظروف معينة أو متغيرة، ومهما حاول المنظم أن يكون تنظيمه كاملاً، إلا أنه توجد أوجه نقص تظهر بتغير المواقف والواجبات. لذا فإن القائد في الميدان يستطيع إجراء التغييرات المؤقتة على تنظيم وحدته أو وحداته؛ حتى يقوم بواجب معين تحت ظرف معين، ثم يعود إلى تنظيمه الأساسي.

٢ ـ بناء الهيكل العام للتنظيم : ويشمل الآتي:

أ ـ تجزئة المهمة إلى أعمال.

ب ـ تحديد واجبات ومسؤوليات الأفراد الذين سوف يؤدون تلك

---

(١) كلية القيادة والأركان السعودية ـ مذكرة التنظيم والتسليح (ص٢).

الأعمال (التوصيف الوظيفي).

ج - توضيح التنسيق الذي سيتم بين الأفراد والأعمال، وينتج في النهاية الحصول على لوائح التنظيم التي تبين خلايا التنظيم ومهمة كل منها، وواجبات الأفراد الذين يشغلونها، وتحدد المعدات التي سوف تضمن تأدية العمل.

٣ - تعيين المصادر: فبعد أن حددت المهمة، وبني الهيكل العام للتنظيم، وتحددت الأقسام والفروع، وعرفت واجبات الأفراد؛ عندئذ لابد من تعيين المصادر اللازمة لإخراج التنظيم إلى الحيز العملي - ويعبر عنه بتنطيق التنظيم - فيعين الأفراد في الوظائف لمباشرة أعمالهم، وتعطى لهم المعدات والأدوات الخاصة بهم، ويعطون الإمكانات اللازمة[1].

مبادئ التنظيم

هناك مبادئ رئيسية للتنظيم سوف نذكرها، مع أن خبراء التنظيم اختلفوا حول هذه المبادئ تبعًا للظروف المحيطة بالوحدة: كحجم هذه الوحدة ومهمتها المكلفة بها. وهذه المبادئ هي:

١ - توحيد القيادة: وهو أن يكون هناك شخص واحد يكون مسؤولاً مسؤولية كاملة عن الوحدة، وإذا طبق هذا المبدأ نجد أن كل فرد في التنظيم يكون مسؤولاً مسؤولية مباشرة أمام رئيس واحد فقط؛ وهذا يجعل كل شخص في التنظيم يعرف رئيسه ومرؤوسه دون لبس أو غموض؛ وبذلك لن تحدث الازدواجية لتعدد القيادات، وهو ما يسمى بالتنظيم الرأسي (خط السلطة العسكري).

٢ - السيطرة: هي أن يدير القائد بكفاءة عمل مرؤوسيه، وهناك ثلاثة عوامل رئيسة ثابتة تؤثر في السيطرة وهي:

أ - طبيعة العمل: إذا كان العمل سهلاً ومتشابهًا فلا مانع من زيادة المرؤوسين لإمكانية السيطرة عليهم.

(١) كلية القيادة والأركان السعودية - التنظيم والإدارة (ص٧) بتصرف.

أما إذا كان العمل مختلفًا ومعقداً فالأولىٰ ألا يزيد عدد المرؤوسين علىٰ سبعة؛ لأن حاجة تدريب المرؤوسين وإتقانهم لعملهم يؤثر في مدىٰ السيطرة؛ بسبب الوقت الذي يستغرقه القائد في الإشراف علىٰ التنفيذ.

ب ـ الوقت : إذا كان الوقت اللازم لنقل الأوامر ـ خلال سلسلة القيادة من الرئيس إلىٰ المرؤوسين ـ طويلا يؤثر في إتمام المهمة، فإن مدىٰ السيطرة يضيق ويتسع نطاق الإشراف .

ج ـ المسافة : يزداد عدد المرؤوسين إذا قربت المسافة بينهم وبين الرئيس، فقائد الحضيرة يستطيع السيطرة علىٰ عشرة جنود، بينما لا يستطيع قائد الفوج السيطرة بكفاءة علىٰ عدد مماثل من السرايا، وكما يظهر أن طبيعة العمل والوقت والمسافة تؤثر كلها في مدىٰ السيطرة بطريقة متداخلة تجعل من الصعب فصل أي منها عن الآخر، والتقدير الموزون هو المعيار الوحيد لتحديد مدىٰ السيطرة .

٣ ـ **المرونة** : وهي قدرة التنظيم علىٰ التكيف لتنفيذ المهمة الأساسية ـ أو أية مهمة أخرىٰ ـ تحت عدد من الظروف والمواقف المختلفة، وتتحقق المرونة في التشكيلات والتنظيمات للوحدات العسكرية، إذا كان باستطاعة هذه الوحدة القيام بالعمليات الحربية المختلفة والملائمة لتخصصها مهما كانت طبيعة الأرض والمناخ والموقف.

٤ ـ **البساطة** : البساطة في التنظيم تؤدي إلىٰ قدرة الأشخاص الذين يقومون بالأعمال علىٰ فهم واجباتهم الفرعية وعلاقتها مجتمعة ومنفردة، إضافة إلىٰ إنجاز واجبهم الرئيسي . والبساطة شيء نسبي فما يظهر سهلاً بسيطًا لمجموعة من الأفراد قد يبدو صعباً معقداً بالنسبة لمجموعة أخرىٰ؛ لذا يجب أن تحدد البساطة تبعًا لمجموعة الأفراد الذين سوف يشغلون التنظيم ويتماشىٰ مع مستويات فهمهم وقدرتهم.

٥ ـ **اتفاق السلطة مع المسؤولية** : ليس من الحكمة أن يكلف الشخص بمهام قيادة مجموعة من الجنود دون أن يملك السلطة التي تمكنه من

القيام بواجباته، وإذا لم تكن هذه السلطة متناسبة مع جسامة ما ألقي على عاتق هذا القائد من مسؤوليات فسوف يعجز عن القيام بواجبه .

٦ - **تقسيم العمل ووضوح الاختصاصات** : يجب أن يسمح التنظيم بتقسيم العمل والأخذ بمبدأ التخصص، دون أن يؤدي ذلك إلى تجزئة الأعمال وتفتيتها، كما أن وضوح الاختصاص يخفف من المشكلات أثناء العمل، ويمنع ظاهرة التهرب من المسؤولية.

٧ - **التنسيق** : وهو أمر ضروري لابد منه على مختلف المستويات القيادية، وكذلك على المستوى التنفيذي؛ وهذا يؤدي بطبيعة الحال إلى الاستفادة القصوى من الجهود، وإلى إنجاز المهمات في أقصر فترة زمنية، وبأفضل السبل وأقل الجهود[١] .

التنظيم في الجيوش الإسلامية

كانت كلمة التعبئة هي الكلمة المعروفة قديمًا والتي تؤدي معنى التنظيم، ويقصدون بها تنظيم الجيوش وصف الكتائب في المعركة أو قبلها، فكلمة (عبأ) عندهم مرادفة لكلمة (نظم)؛ لأنهم ما كانوا يعرفون هذا التقسيم الحديث، وإن عملوا بمقتضاه في حروبهم، فكان من تنظيمهم لقطاعات الجيش هذه التسميات مع تحديد عدد أفرادها .

قالوا : (السرايا : ما بين الثلاثمائة نفر إلى الخمسمائة، وهي التي تخرج بالليل، وأما التي تخرج بالنهار فتسمى السوارب،[٢] وما زاد على الخمسمائة إلى دون الثمانمائة فهي المياشر[٣] وما بلغ الثمانمائة فهو جيش وأقل الجيوش وما زاد على الثمانمائة إلى الألف فهو الحسحاس[٤] وما بلغ الألف فهو الجيش الأزلم،[٥] وما بلغ أربعة آلاف فهو الجيش الجحفل، وما بلغ العشرة آلاف فهو الجيش الجرار، وإذا افترقت السرايا والسوارب بعد خروجها فما كان منها دون

---

(١) كلية القيادة والأركان السعودية - مذكرة التنظيم والتسليح (ص ٢٥ - ٢٧) بتصرف

(٢) السوارب يوضحها قوله تعالى : ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ سورة الرعد: الآية ١٠ .

(٣) المياشر: تصحيف لكلمة المناسر وهي قطارات من الجند تمر قدام الجيش الكبير .

(٤) الجيش المبيد المهلك، وهي تطلق على السيف أصلاً.

(٥) الذي يقطع أعداءه.

الأربعين فهو الجرائد،[1] ، وما كان منها من الأربعين إلى دون الثلاثمائة فهي المقانب،[2] وما كان منها من الثلاثمائة إلى دون الخمسمائة فهي الجمرات،[3] وكانوا يسمون الأربعين رجلاً إذا وجهوا العصبة،[4] ويقولون : خير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولن تفر اثنا عشر ألفًا من قلة[5].

وتنظيم الجيش للقتال أو الزحف له مسمياته الخاصة به .

فقالوا : التعبئة الخمسية هي هذه وهي لتعبئة الزحف الأعظم:

الحين الأول[6] هو القلب والميمنة والميسرة، مع من يدخل فيهم من ولاة الأعمال وغيرهم ممن يحتاج صاحب الجيش إلى قوته .

الحين الثاني : من وراء الأول، وهو ثلاثة أجزاء من وراء القلب والميمنة والميسرة، ويسمى ردء القلب .

الحين الثالث :من وراء الثاني، وهو الأثقال مع من يدخل فيها من أصناف الناس.

الحين الرابع :من وراء الثالث، وهو ردء الأثقال .

الحين الخامس : وهو الساقة المستدبرون لأصحابهم بظهورهم مما يليهم وأما أشكال هذ الصفوف .

قالوا: الصف المستوي مستحب، وهو في جملته أوفق الصفوف .

الصف الهلالي : وهو الخارج الجناحين الداخل الصدر أوثق للقلب وهو للجناجين أضعف، وكانوا إذا كان ذلك صيّروا مع كل طرف من الجناحين الخارجين كردوسًا من الخيل المقوية يكون وقاية لهما .

---

(١) جمع جريدة، وهي خيل لا رجالة فيها.

(٢) المقانب جمع مقنب، وهو ما قارب الثلاثمائة من الخيل.

(٣) الجمرة : القبيلة التي فيها ثلاثمائة فارس.

(٤) العصبة تكون من الفرسان والرجالة.

(٥) الهرثمي- مختصر سياسة الحروب (ص٢٨ ـ ٢٩).

(٦) المراد بالحين الخط الحربي الأول المؤلف من قلب وميمنة وميسرة.

الصف المعطوف : وهو الداخل الجناحين الخارج الصدر مكروه، ولا يكون إلا عن ضرورة، وهو ضعف على القلب وقوة للجناحين، وكانوا إذا كان ذلك صيّروا أهل البأس والنجدة ميمنة وميسرة؛ ليكون أشد للقلب أو قووا القلب بكردوسين من الخيل المقوية يكونان مما يلي طرفيه أمامه قليلاً.

وكانوا يحبون في التعبئة التراصف وانضمام بعضهم إلى بعض مع استواء الصفوف[1].

(١) الهرثمي ـ مختصر سياسة الحروب (ص ٣٦).

الفصل الثاني

التجنيد والتدريب

ويحتوي المباحث التالية :

المبحث الأول : التجنيد

المبحث الثاني : التدريب

المبحث الأول

التجنيد

التجنيد من التجند وهو اتخاذ الجند، والجُند ـ بالضم ـ العسكر والأعوان والأنصار، والجمع أجناد وجنود، والواحد جندي[1]، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾[2]. ويقول ـ ﷺ ـ: « **الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف** »[3].

والجند العسكر، وجمعه عساكر، والمعسكر موضع اجتماع العسكر، وعسكر القوم: أي تجمعوا، ويقال للعسكر جيش، وجيّش الجيوش بمعنىٰ جمعها، وتجيّش القوم: أي تجمعوا، والجيش،[4] الجند وهو جماعة الناس في الحرب، والجمع: جيوش.

والتجند: التفرغ للأمر لأهميته، فكأنه يجمع نفسه وفكره وحسه وعقله وجميع قواه الظاهرة والباطنة لقضاء هذا الأمر؛ لما فيه من الخطورة.

وكان الصحابة كلهم جنودًا في جيش النبي ـ ﷺ ـ يأتمرون بأمره، ويفتدونه بأرواحهم وأولادهم وأموالهم، وفي ذلك يقول الله تعالىٰ: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** ﴾[5]. ويقول ـ سبحانه وتعالىٰ ـ في آية أخرىٰ: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا** ﴾[6]. فهؤلاء هم المهاجرون والأنصار جند الله ورسوله الأوائل،

---

(١) الزبيدي ـ تاج العروس (٢ : ٣٢٦) والزمخشري ـ أساس البلاغة (ص ١٠٢).

(٢) سورة المدثر: الآية ٣١.

(٣) البخاري تعليقًا (٤ : ١٠٤)، ومسلم في كتاب البر والصلة (١٦ : ١٨٥).
ومسند أحمد (٢ : ٢٩٥).

(٤) الفيروزأبادي ـ القاموس المحيط. فصل الجيم باب الشين، ط دار الجيل بيروت (ص ٢٧٦).

(٥) سورة الأنفال: الآية ٧٢.

(٦) سورة الأنفال: الآية ٧٤.

جنّدوا أنفسهم لنصرة هذا الدين، ورفع راية التوحيد، وإعلاء كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله - ﷺ - فضربوا أروع الأمثال للجندية الإسلامية.

والجندية أحد فرعي الجهاد الذي أُمر به المسلمون في كثير من آيات القرآن، ﴿ **انفروا خفافًا وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾(1). فلا تكاد تجد فرقًا بين من أراد أن يكون جنديًا في سبيل الله ومن أراد أن يكون مجاهداً في سبيل الله.

إلا أن الكتاب والسنة جاءا بكلمة الجهاد؛ فاهتم الفقهاء بتعريفه شرعًا وبيان أحكامه، أما التجنيد فهو عمل يسبق الجهاد، كإعداد المسلم لأن يكون مجاهدًا وجنديًا في جيش الإسلام.

شروط التجنيد : (شروط وجوب الجهاد):

1- الإسلام. 2- البلوغ. 3- الحرية.

4- الذكورة. 5- السلامة من الضرر. 6- العقل.

7- وجود النفقة.

وهي تمثل في الوقت نفسه الشروط المطلوب توافرها في التجنيد. ولقد ذكر العلماء أن الإسلام والبلوغ والعقل من الشروط المعتبرة لوجوب سائر فروع الدين، وفيما يلي بعض الشروط التي طبقها الرسول - ﷺ - في جيشه الأول.

---

(1) الشيخ صالح اللحيدان - الجهاد في الإسلام بين الطلب والدفاع. (ص 57).
والآية هي ذات الرقم 41 من سورة التوبة.

١ - **الإسلام** : ثبت عن رسول الله - ﷺ - أنه كان لا يقبل في الجيش الإسلامي لغرض الجهاد إلا مسلماً، وذلك فيما روت عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - قالت: خرج رسول الله - ﷺ - إلىٰ بدر، حتىٰ إذا كان بحرة الوبرة أدركه رجل من المشركين كان يذكر منه جرأة ونجدة، فسرّ المسلمون به، فقال: يا رسول الله، جئت لأتبعك وأصيب معك. فقال له رسول الله - ﷺ -: «أتؤمن بالله ورسوله» قال: لا. قال: «فارجع فلن أستعين بمشرك» قالت: ثم مضىٰ رسول الله - ﷺ - حتىٰ إذا كان بالبيداء أدركه ذلك الرجل فقال له رسول الله - ﷺ -: «**أتؤمن بالله ورسوله؟**» قال: نعم قال: «**فانطلق**»[(١)].

ورویٰ الإمام أحمد عن عبدالرحمن بن حبيب قال: أتيت رسول الله - ﷺ - وهو يريد غزوة أنا ورجل من قومي ولم نسلم، فقلنا: إنا لنستحي أن يشهد قومنا مشهداً لا نشهده معهم فقال: «أفأسلمتما؟» قلنا: لا. قال: «فإنا لا نستعين بالمشركين علىٰ المشركين» قال: فأسلمنا وشهدنا معه[(٢)].

أما الاستعانة بالمشرك في غير الجهاد بالنفس فقد ورد أنه - ﷺ - لما أراد السير إلىٰ هوازن ليلقاهم ذُكر له أن عند صفوان بن أمية أدراعًا وسلاحًا، فأرسل إليه وهو يومئذ مشرك فقال: «يا أبا أمية أعرنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا غداً». فقال صفوان: أغصبًا يا محمد؟ قال: بل عارية مضمونة حتىٰ نؤديها إليك. قال: ليس بهذا بأس. فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح[(٣)].

وفي هجرته - ﷺ - إلىٰ المدينة المنورة استعان برجل من بني الدئل بن بكر يقال له عبدالله بن أريقط، وكان مشركًا يدلهما علىٰ الطريق، ودفعا إليه راحلتيهما فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما[(٤)].

مما تقدم يظهر لنا أن إشراك المخالفين لنا في الدين في القتال لا يجوز؛ لأنهم غير مؤتمنين فيه وليس لهم قصد أو عقيدة تدفعهم إلىٰ القتال معنا غير

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة الاستعانة فى الغزو بكافر إلا لحاجة. وفيه اختصار (١٢ : ١٩٨).

(٢) أبو داود، كتاب الجهاد، باب في المشرك يسهم له، ح ٢٧٣٢.
وابن ماجة. كتاب الجهاد باب الاستعانة بالمشركين ح ٢٨٣٢ بألفاظ متشابهة ومسند احمد (٦ : ٦٨)، (٦ : ١٤٩).

(٣) ابن هشام - السيرة النبوية (٢ : ٤٤٠).

(٤) ابن كثير - البداية والنهاية (٣ : ١٧٨).

مطامعهم الشخصية، وأما ما كان من الاستعانة بهم في مجال التعليم أو التدريب على أساليب القتال فلا مانع من ذلك شرعًا؛ لأنهم يأخذون مقابل عملهم وتعليمهم أجرًا ماديًا وهذا ما يرجونه.

٢ ـ البلوغ: كان النبي ـ ﷺ ـ يستعرض الجيش قبل الدخول في المعركة، فيردُّ من لم يبلغ الحُلُمَ، ففي غزوة أحد ـ رد عليه الصلاة والسلام ـ بعض صغار أبناء الصحابة قيل إنهم لم يبلغوا الخامسة عشرة وهم عبد الله بن عمر بن الخطاب(١) وزيد بن ثابت(٢) وأبو سعيد الخدري(٣) وزيد بن حارثة الأنصاري(٤)

---

(١) عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي القرشي أبو عبد الرحمن، صحابي جليل، نشأ في الإسلام وهاجر مع أبيه إلى المدينة، ولد قبل الهجرة بعشر سنين، كان من كبار المحدثين وروى عن رسول الله ـ ﷺ (٢٦٣٠) حديثا، توفي ـ رضي الله عنه ـ سنة ٧٣ هـ.
انظر حلية الأولياء، وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصفهاني، ترجمة (٤٨٣٤)، ط دار الكتب العلمية بيروت (١ : ٢٩٢)، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ط دار الكتاب العربي بيروت (٢ : ٣٣٨)، وانظر الأعلام للزركلي (٤ : ١٠٨).

(٢) زيد بن ثابت بن الضحاك النجاري الأنصاري الخزرجي من أكابر الصحابة، كان كاتب الوحي، قتل أبوه يوم بعاث قبل الهجرة بخمس سنين، ولد بالمدينة ونشأ بمكة، هاجر مع النبي ـ ﷺ ـ وهو ابن أحد عشر عامًا، كان رأسًا في القضاء والفتوى، له ٩٢ حديثًا في الصحيحين، مات سنة ٤٥ هـ. انظر الأعلام للزركلي (٣ : ٥٧) والإصابة لابن حجر (١ : ٥٤٣) ترجمة ٢٨٨٠.

(٣) أبو سعيد الخدري، اسمه سعد بن مالك بن عبيد بن ثعلبة بن الأبجر الحارثي الخزرجي الأنصاري (مشهور بكنيته)، كان من أفقه الصحابة والمكثرين من رواية الحديث، روى (١١٧٠) حديثًا، مات رضي الله عنه ـ سنة ٦٤ ـ.
انظر الأعلام للزركلي (٣ : ٨٧) وحلية الأولياء (١ : ٣٦٩)، والإصابة لابن حجر (٢ : ٣٢) ترجمة رقم ٣١٩٦ وقال الواقدي وفاته سنة ٧٤ هـ.

(٤) زيد بن حارثة الأنصاري الأوسي العمري (وقد قيل زيد بن جارية) كان ممن استصغره النبي ـ ﷺ ـ يوم أحد وهو من بني عمرو بن عوف، قال أبو عمرو: وكان زيد بن جارية وأبو سعيد الخدري والبراء بن عازب وزيد بن أرقم وسعد بن حبتة ممن استُصغر يوم أحد، وكان أبوه جارية من المنافقين أهل مسجد الضرار، شهد زيد صفين مع علي ـ رضي الله عنه ـ).
انظر الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (١ : ٥٥٥)، وانظر الإصابة لابن حجر (١ : ٥٤٤) برقم ٢٨٨٣. وأما زيد بن حارثة فهو زيد بن حارثة بن شراحيل أو شرحبيل الكلبي الأنصاري، صحابي جليل اغتصب في الجاهلية صغيرا واشترته خديجة ـ رضي الله عنها ـ فوهبته إلى النبي ـ ﷺ ـ حين تزوجها فتبناه النبي ﷺ ـ قبل الإسلام وأعتقه وزوجه بنت عمته، وهو من أقدم الصحابة إسلامًا وكان النبي ـ ﷺ ـ لا يبعثه في سرية إلا أمره عليها، وكان يحبه ويقدمه وجعل له الإمارة في غزوة مؤتة فاستشهد فيها سنة ٨ هـ.

ورافع بن خديج[١]، وسمرة بن جندب[٢]، وسعد بن حبتة[٣] ثم أجاز رافعًا وسمرة على صغر سنهما؛ لأن رافعًا كان ماهرًا في الرمي بالنبل، وأما سمرة فقد قال لأمه: إن رسول الله - ﷺ - قد أجاز رافعًا وأنا أصرعه - أي أنني أقوى منه - فعلم رسول الله - ﷺ - بذلك فطلب من الاثنين أن يتصارعا أمامه فتصارعا، فلما غلب سمرة رافعًا أجازه،[٤] وأسامة بن زيد،[٥] وزيد بن أرقم،[٦] والبراء بن عازب،[٧] وأسيد بن ظهير،[٨] وعرابة بن أوس[٩].

٣ - الحرية: لقد كان النبي - ﷺ - يبايع أصحابه على الإسلام والجهاد، فعن مجاشع بن مسعود: انطلقت بأبي معبد إلى النبي - ﷺ - ليبايعه على

---

(١) رافع بن خديج بن رافع الأنصاري الأوسي الحارثي صحابي جليل، كان عريفًا على قومه بالمدينة، شهد أحدًا والخندق وما بعدهما، روي له في كتب الحديث ٧٨ حديثًا، مات متأثرًا بجراح أصابته سنة ٧٤ هـ.
انظر الأعلام للزركلي (٣ : ١٢) والإصابة لابن حجر (٢ : ٤٨٣) برقم ٢٥٢٦.

(٢) سمرة بن جندب بن هلال الفزاري الأنصاري (حليفًا) شهد أحدًا، كان من الولاة في العهد الأموي وكان من أصحاب الفتيا المشهورين، توفي عام ٥٩ هـ، وقيل ٦٠ هـ.
انظر الأعلام للزركلي (٣ : ١٣٩) والإصابة لابن حجر (٢ : ٧٧) برقم ٣٤٧٥.

(٣) سعد بن حبتة واسمه سعد بن بجير بن معاوية البجلي الأنصاري (حليفًا)، ذكر في الإصابة أنه شهد أحدًا، الإصابة (٢ : ٢٢) برقم ٣١٤٠ وحبتة أمه.

(٤) السيرة الحلبية (٢ : ٤٩٣).

(٥) أسامة بن زيد بن حارثة مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولد أسامة في الإسلام وقد أعطاه الرسول - صلى الله عليه وسلم - قبل موته بقليل قيادة الجيش لغزو أطراف الشام. اعتزل أسامة الفتنة بعد قتل عثمان - رضي الله عنه - ووقف على الحياد حتى توفاه الله سنة ٥٤ هـ بالمدينة أواخر خلافة معاوية - رضي الله عنه - انظر الأعلام للزركلي (١ : ٢٩١) والإصابة (١ : ٤٦) رقم ٨٩.

(٦) زيد بن أرقم بن زيد بن قيس الأنصاري والخزرجي، غزا مع النبي - صلى الله عليه وسلم - ١٧ غزوة وأول مشاهده الخندق، وشهد زيد حرب صفين مع علي - رضي الله عنه - ومات بالكوفة (أيام المختار) سنة ٦٨، وروى له البخاري ومسلم ٧٠ حديثًا. انظر الأعلام (٣ : ٥٦) والإصابة (١ : ٥٤١)، برقم ٢٨٧٣.

(٧) البراء بن عازب بن الحارث الأنصاري الأوسي، صحابي جليل، أول غزوة شهدها الخندق، ولاه عثمان - رضي الله عنه - إمارة الري بفارس ففتح قزوين وما حولها في شمال إيران وعاش إلى أيام مصعب بن الزبير، توفي سنة ٧١ هـ. انظر الأعلام (٢ : ٤٦) وانظر الإصابة (١ : ١٤٦) برقم ٦١٨.

(٨) أسيد بن ظهير (بضم أوله وفتح ثانيه) بن رافع الحارثي الأنصاري - ابن عم رافع بن خديج - روى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حديثين فقط، توفي في خلافة عبد الملك بن مروان. انظر الإصابة (١ : ٦٤) برقم ١٨٨.

(٩) عرابة بن أوس (بفتح أوله وتخفيف الراء) بن قيظي الأوسي الحارثي الأنصاري، كان مشهورًا بالجود والكرم، صحابي جليل، قال فيه الشاعر الشماخ المري:

إذا ما راية رفعت لمجد ... تلقاها عرابة باليمين

الهجرة قال: «مضت الهجرة لأهلها، أبايعه على الإسلام والجهاد». فلقيت أبا معبد فسألته فقال: صدق مجاشع(١). ولم يكن الجهاد على الرقيق لما روي عن النبي - ﷺ - أنه قال: «للمملوك الذي يحسن عبادة ربه ويؤدي إلى سيده الذي له عليه من الحق والنصيحة أجران»(٢). وكذلك يستدل بحديث عمير مولى أبي اللحم قال: «شهدت خيبر مع سادتي فكلّموا فيّ رسول الله - ﷺ - فأمر بي، فقلدت سيفًا، فإذا أنا أجره فأُخبر أني مملوك، فأمر لي بشيء من خُرثِيِّ المتاع»(٣)

٤ - **الذكورة**: لقد كان النبي - ﷺ - يبايع الرجال على الجهاد كما وضحناه، وعندما سألته عائشة - رضي اللّه عنها - عن جهاد النساء نفى الجهاد عنهن وجعل جهادهن في الحج والعمرة، وكذلك ما روت أم سلمة قالت: قال رسول اللّه - ﷺ - «**الحج جهاد كل ضعيف**»(٤).

وعن عائشة أم المؤمنين - رضي اللّه عنها - قالت: قلت يا رسول اللّه، على النساء جهاد؟ قال: «**نعم جهاد لا قتال فيه: الحج والعمرة**»(٥).

وصح عنه - ﷺ - عن عائشة - رضي اللّه عنها - قالت: «**استأذنت النبي - ﷺ - في الجهاد فقال جهادكن الحج**»(٦).

وعنها أيضًا عن النبي - ﷺ - «سأله نساؤه عن الجهاد فقال: «**نعم الجهاد الحج**»(٧) يقول ابن حجر: (دل حديث عائشة على أن الجهاد غير واجب على النساء ولكن ليس قوله: «**جهادكن الحج**» أنه ليس لهن أن يتطوعن بالجهاد، وإنما لم يكن عليهن واجبًا؛ لما فيه من مغايرة المطلوب منهن من الستر ومجانبة

(١) البخاري - الجامع الصحيح، كتاب المغازي، باب ٥٣ (٥ : ٩٧) طبعة المكتبة الإسلامية، استانبول، تركيا.

(٢) البخاري - الجامع الصحيح (حـ ٢٥٥١. انظر فتح الباري ٥ : ١٧٧).

(٣) أبو داود - سنن أبي داود (٣ : ١٧١). وخرثي المتاع: أي أردؤه.
انظر سيد سابق - فقه السنة (٣ : ١٨٩) ط. مكتبة الخدمات الحديثة جدة.

(٤) و (٥) ابن ماجة، المناسك حـ ٨ (٢ : ٩٦٨).

(٦) و (٧) البخاري - الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب جهاد النساء (٣ : ٢٢٠).

الرجال؛ فلذلك كان الحج أفضل لهن من الجهاد)[1].

٥ ـ السلامة من الضرر : أن يكون سالمًا من العاهات المانعة له من القتال؛ لأن اللّه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ قد أعفىٰ أهل الأعذار من وجوب القتال فقال ـ عز من قائل ـ : ﴿ **لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾[2]. ويقول سبحانه ﴿ **لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ** ﴾[3]. فالضعفاء هم من لا قوة لهم في أبدانهم تمكنهم من الجهاد. وقال ابن عباس : يعني الزّمْنىٰ والشيوخ والعجزة. وقيل : هم الصبيان. وقيل : هم النساء. والزمنىٰ أصحاب العاهات التي لاتزول بل تبقىٰ علىٰ الزمان، ومنها الكساح والعمىٰ والعرج. والمرضىٰ جمع مريض وهم الذين عرضت لهم أمراض لا يتمكنون معها من الجهاد كالحميات، وعذرهم ينتهي بالشفاء منها. وكذلك الفقراء الذين لايجدون مالاً ينفقون منه علىٰ أنفسهم إذا خرجوا للجهاد ويتركون لعيالهم ما يكفيهم[4]. فمن قاتل أو شارك من هؤلاء الذين عفىٰ اللّه عنهم ولم يوجب عليهم الجهاد فيكون اشتراكه تطوعًا كما فعل عمرو بن الجموح؛ حيث خرج مع أبنائه الأربعة وهو أعرج ويريد أن يطأ بعرجته في الجنة.

٦ ـ وجود النفقة : لقد أعفىٰ اللّه من لا يجد نفقة لجهاده بقوله : ﴿ **وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾ وكان المؤمنون السابقون يجهزون أنفسهم للقتال من نفقتهم الخاصة، في شراء سلاحه ودابته وتأمين أهله وترك ما يكفيهم. فالفقير ينفق علىٰ نفسه، والغني ينفق علىٰ نفسه وعلىٰ غيره بقدر سعته.

حكم التجنيد : (حكم الجهاد) ولا نقصد هنا حكم التجنيد لغير الجهاد، وإنما الذي نريده حكم التجنيد للجهاد، وعملاً بالقاعدة الفقهية (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب) والجهاد في سبيل اللّه لابد له من التجنيد والتدريب

---

(١) ابن حجر ـ فتح الباري (٦ : ٧٦).

(٢) سورة التوبة : الآية ٩١.

(٣) سورة الفتح : الآية ١٧.

(٤) رشيد رضا ـ تفسير المنار (١٠ : ٥٨٦ ـ ٥٨٧).

والتعليم؛ فلذلك أخذ التجنيد حكم الجهاد، وقد جعل العلماء حكم الجهاد على نوعين حسب الحالة، وكذلك التجنيد بحكم القاعدة.

النوع الأول: التجنيد لطلب العدو في عقر داره ودعوته للإسلام وجهاده إذا لم يقبل بالإسلام أو الجزية، ولقد فُرض على المسلمين قتال الكفار بقوله تعالى: ﴿**كُتب عليكم القتال وهو كُرهٌ لكم**﴾[1]. ويقول تعالى: ﴿**وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين**﴾[2]. وقال ـ ﷺ ـ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**»[3]. فالنصوص السابقة تدل على فرضية الجهاد وقتال الكفار. واستدل العلماء على أن هذه الفرضية على الكفاية وذلك بقوله تعالى: ﴿**وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون**﴾[4]. قال القرطبي عند تفسير هذه الآية: إن الجهاد ليس على الأعيان وإنه فرض كفاية؛ إذ لو نفر الكل لضاع من وراءهم من العيال، فليخرج فريق منهم للجهاد، وليقم فريق يتفقهون في الدين ويحفظون الحريم، حتى إذا عاد النافرون أعلمهم المقيمون ما تعلموه من أحكام الشرع وما تجدد نزوله على النبي صلى الله عليه وسلم [5].

وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ بعث إلى بني لحيان ليخرج من كل رجلين رجل ثم قال للقاعد: «أيكم خلف الخارج في أهله وماله بخير كان له مثل نصف أجر الخارج» [6].

وقال ﷺ: «**من جهز غازيًا في سبيل الله فقد غزا ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا**»[7].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٦.

(٢) سورة التوبة: الآية ٣٦.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (١ : ٢١٢).

(٤) سورة التوبة: الآية ١٢٢.

(٥) القرطبي ـ الجامع (٨ : ٢٩٣).

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي (١٣ : ٤١).

(٧) صحيح مسلم (١٣ : ٤٠).

من هذه النصوص وغيرها فهمنا أن التجنيد لجهاد الكفار وطلبهم في عقر دارهم فرض كفاية والله أعلم .

النوع الثاني : التجنيد للدفاع ، وحكم هذا فرض عين على عموم المسلمين لقوله تعالى : ﴿ **انفروا خفافا وثقالا** ﴾[1] . ذكر القرطبي في تفسير هذه الآية أنها أول ما نزل من براءة ، وأن الصحيح عدم نسخها ، وروى ابن عباس - رضي الله عنهما - عن أبي طلحة في تفسير قوله تعالى : ﴿ **انفروا خفافا وثقالا** ﴾ قال : شبابًا وكهولاً ، ما سمع الله عذر أحد ، وقد تكون حالة يجب فيها نفير الكل ، وهي إذا تعين الجهاد بغلبة العدو على قطر من الأقطار أو بحلوله بالعقر ، فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ؛ ويخرجوا إليه خفافًا وثقالاً شبابًا وشيوخًا كلٌ على قدر طاقته [2] .

وهذه الحالة ما نسميها بالتجنيد لحالة الدفاع .

التجنيد في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -

ولقد بدأ تدوين الجند في عهد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وذلك عندما أشار عليه الوليد بن هشام بن المغيرة بقوله : (يا أمير المؤمنين قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دوّنوا ديوانًا وجندوا جنودًا فدوّنْ ديوانًا وجنّدْ جنودًا . فأخذ بقوله . فدعا عقيل ابن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم ، وكانوا من نساب قريش فقال : أكتبوا الناس على منازلهم . فكتبوا فبدأوا ببني هاشم ، ثم أتبعوهم أبا بكر وقومه ، ثم عمر وقومه على الخلافة ، فلما نظر إليه عمر قال : وددت والله أنه هكذا ولكن ابدأوا بقرابة النبي - ﷺ - الأقرب فالأقرب ، حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله . وكان تدوين الدواوين في المحرم سنة عشرين . وقرر لهم أعطيات سنوية كل حسب منزلته وسبقه في الإسلام)[3] .

فكان عهده - رضي الله عنه - بداية التدوين والتنظيم لديوان الجند

---

(١) سورة التوبة : الآية ٤١ .

(٢) القرطبي - الجامع (٨ : ١٥١) .

(٣) محمد رضا - الفاروق عمر بن الخطاب (ص ٤٣) .

فأصبحت الجندية عملاً خاصًا يقوم به فئة من الناس ويتقاضَوْن عليه أجرًا معلومًا، ولا يسمح لهم بمزاولة أعمال أخرىٰ؛ ولذلك كان الجند إما نظاميين أو متطوعين، فالنظاميون لهم ديوان خاص ويصرف لهم عطاء من بيت المال فوق أسهمهم من الغنائم، وهؤلاء موقوفون علىٰ الجهاد ولا يشتغلون بغيره .

والمتطوعون هم الذين يلحقون بالجيش من البوادي والأمصار، وهؤلاء كانوا يجندون وقت الحرب ويسرحون وقت السلم، وحظهم من الجهاد هي سهمانهم فقط[1] . ثم أدرك الخليفة العادل عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ أنه بحاجة إلىٰ تطبيق نظام التجنيد الإلزامي، وذلك عندما اجتمع الفرس علىٰ يزدجرد لملاقاة المسلمين، فأرسل كتبه إلىٰ أمراء الأقاليم يقول فيها : (ولا تدعوا في ربيعة ولا مضر ولا حلفائها أحدًا من أهل النجدة ولا فارسًا إلا جلبتموه، فإن جاء طائعًا وإلا حشرتموه)[2] .

وفي هذا يظهر لنا بداية التجنيد الإلزامي للحاجة الداعية إليه، وضبطه بتدوين الدواوين .

ولقد أخذ التجنيد شكله المتكامل في أيام بني أمية، وكان الجند يتقاضون رواتب تسمىٰ (أعطيات) بلغت ألف درهم في العام للمجند .

وتذكر بعض الموسوعات أن (ميكافلّي)[3] . هو صاحب فكرة الجيوش المجندة الدائمة؛ إذ إنه وضع في العام ١٥٠٦ م المذكرة الشهيرة التي صدر بها القانون المعروف بقانون ١٥٠٦م، والذي يفرض الخدمة الإلزامية في فلورنسا علىٰ الأفراد الذين تتراوح أعمارهم بين سن الثامنة عشرة والثلاثين عامًا[4] .

والنصوص السابقة تشير إلىٰ أن الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ هو أول من طبق فكرة التجنيد الإلزامي وليس (ميكافلّي)، وإنما مكيافلي جعل

(١) عبد الرؤوف عون ـ الفن الحربي في صدر الإسلام (ص ٩٩) دار المعارف، مصر .
(٢) الطبري ـ تاريخ الطبري (٤ : ٨٢) .
(٣) ميكافلّي (١٤٦٩ ـ ١٥٢٧) ـ سياسي ومؤرخ إيطالي، أحد أعلام عصر النهضة، عرف بمؤلفه الشهير (الأمير) وهو صاحب مذهب الغاية تبرر الوسيلة ـ ولفظ الميكافيلّية وصف لكل مذهب ينادي بأن الغاية تبرر الوسيلة . انظر محمد شفيق غربال ـ الموسوعة العربية الميسرة (ص ١٦٢٨) .
(٤) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ـ الموسوعة العسكرية (١ : ٢٥٣) .

لها شروطًا ومدة معينة ، فبدأها بخمس سنوات تجنيدًا إلزاميًا ثم تقلصت إلىٰ ثلاث سنوات فسنتين فثمانية عشر شهراً، ثم سنة واحدة في بعض البلدان .

بيد أن تطور الأسلحة المستخدمة في الحرب الحديثة، والزمن الطويل اللازم لتدريب المجندين علىٰ استخدامها، وارتفاع المستوىٰ التكنولوجي للقوات المسلحة يجعل مدة التجنيد تتزايد باستمرار لتصل إلىٰ سنتين في القوات البرية، وأكثر من ثلاث سنوات في القطاعات الأخرىٰ التقنية الاختصاصية .

المبحث الثاني

التدريب

التدريب لغة : مأخوذ من درب فلانًا بالشيء وعليه : عوده ومرنه. والدارب : الحاذق في صنعته. والمدرب : المجرب. والدربة : الضراوة والجرأة على الأمر والحرب[1].

ومن هذا يتبين لنا أن التدريب هو : تمرين الفرد وتعويده أعمالاً لم يكن يألفها من قبل ؛ فيصبح حاذقًا فيها، وجريئًا عليها، ومتقنًا لها. والتدريب الذي نقصده هنا التدريب على القتال.

وقد حرص النبي - ﷺ - على تدريب أصحابه على أنواع الأسلحة والفروسية وفنون القتال ؛ ومن ذلك ما ترويه الكتب الصحيحة وأصحاب السنن والسير ، فعن يزيد بن أبي عبيد قال : سمعت سلمة بن الأكوع - رضي الله عنه - قال : «**مر النبي - ﷺ - على نفر من أسلم ينتضلون ، فقال النبي - ﷺ : ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان راميًا، ارموا وأنا مع بني فلان. قال: فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقال رسول الله - ﷺ - : ما لكم لا ترمون؟** قالوا : كيف نرمي وأنت معهم؟ فقال النبي - ﷺ - : **ارموا فأنا معكم كلكم**»[2].

وفي هذا الحديث تحريض منه - ﷺ - لأصحابه على الرمي وتشجيع لهم. كما أنه يوجه أصحابه ويعلمهم ويطبق ذلك في ميدان القتال ؛ فقد جاء عنه - ﷺ - أنه قال يوم بدر - حين صففنا لقريش وصفوا لنا - : «**إذا أكثبوكم فعليكم بالنبل**»[3]. وهنا يعلم رسول الله - ﷺ - أصحابه أنه إذا دنوا منكم فارشقوهم بالنبل.

ولقد تكررت رواياته - ﷺ - بالاهتمام بالرمي ؛ لما فيه من نِكاية العدو ؛

---

(١) الزبيدي - تاج العروس (١ : ٢٤٧) وانظر الفيومي - المصباح المنير (١ : ٢٠٤).

(٢) ابن حجر - فتح الباري (٦ : ٩١) حـ ٢٨٩٩.

(٣) المصدر نفسه حـ ٢٩٩٠.

لأن الخصم يخاف من الرمي أضعاف خوفه من السيف والرمح.

ثم إن صوت الرامي المجيد في الجيش خير من فئة، كما قال - ﷺ - «**صوت أبي طلحة في الجيش خير من فئة**»[(١)] وكان أبو طلحة من أحسن الصحابة رميًا.

وجاء عنه - ﷺ - قوله: «**علموا بنيكم الرمي؛ فإنها نكاية العدو**»[(٢)]. وفي هذا الحديث يأمرنا - ﷺ - بأن نعلم أبناءنا وندربهم حتى يتقنوا الرمي فالرمي أنكى شيء على العدو. والأحاديث ظاهرها العموم، وهذا ما أثبتته الحروب الحديثة، فالخطر يكمن في الرمي بجميع أنواعه، وذلك دليل على صدق نبوته - ﷺ - فقد أعطي جوامع الكلم، فقد ورد عنه قوله - ﷺ - وهو على المنبر عند ذكر قوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ**..﴾[(٣)]. قال: «**ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي**»[(٤)].

ويوجهنا - عليه أفضل الصلاة والسلام - في حديث آخر إلى الرمي وركوب الخيل فقال: «**ارموا واركبوا، وأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا، وكل ما يلهو به المرء المسلم باطل إلا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته امرأته؛ فإنهن من الحق**»[(٥)].

فأشار - ﷺ - في هذا الحديث إلى الرمي، وإلى الركوب دون أن يخص الرمي أو الركوب بشيء معين، وطلب منا أن نتعلم الرمي والركوب وهو عام في كل ما كان موجودًا في عصره وما يستحدث بعده، قال تعالى: ﴿**وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾[(٦)].

---

(١) مسند أحمد (٣ : ٢٦١).

(٢) رواه الديلمي في مسند الفردوس عن جابر - رضي الله عنه. انظر السيوطي - الفتح الكبير (٢ : ٢٣١).

(٣) سورة الأنفال: الآية ٦٠.

(٤) رواه مسلم في كتاب الجهاد، باب قوله تعالى ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**...﴾ حـ ١٩١٧.

(٥) ابن ماجة - سنن ابن ماجة (٢ : ٩٤٠) حـ ٢٨١١.

(٦) سورة النحل: الآيات ٥ - ٨.

وإذا كان الرسول - ﷺ - وأصحابه - رضوان الله عليهم - امتطوا كل مركوب في عهدهم وأتقنوا ركوبه، وإذا كان الله - سبحانه وتعالىٰ - قد أشار إلىٰ وجود مركوبات أخرىٰ غير ما كان موجوداً، وقد وجدت فعلاً في هذا العصر مركوبات مدهشة برية وبحرية وجوية، وإذا كان الله - سبحانه وتعالىٰ - قد أمر المؤمنين بإعداد ما يستطيعون إعداده لإرهاب عدوهم فإنه يؤخذ من ذلك كله أنه يجب علىٰ المؤمنين السعي الجاد في إيجاد كل مركوب يوجد علىٰ ظهر الأرض فيما فيه فائدة لهم وإرهاب لعدوهم، وأن عليهم أن يتدربوا علىٰ ركوب كل مركوب كذلك، ابتداء من الدراجة العادية التي تساق بالقوة البدنية، وانتهاء بالمراكب الفضائية والبحرية العملاقة، فقد يحتاجون إلىٰ الصغير من المركوبات كما يحتاجون إلىٰ الكبير منها(١).

ونقل المناوي عن عمر - رضي الله عنه - أنه كتب إلىٰ الشام أن علموا أولادكم السباحة والرمي والفروسية (٢)؛ ولذلك نجد أن الخلفاء الراشدين - رضي الله عنهم - بعد رسول الله - ﷺ - كانوا كذلك يهتمون بتدريب المسلمين وتعليمهم الفروسية، ولقد درب رسول الله - ﷺ - أصحابه علىٰ المصارعة والمسابقة بالخيل والإبل والعَدْو(٣).

واستعمل الرسول - ﷺ - جميع الأسلحة الموجودة في عهده، وكذلك أصحابه - رضي الله تعالىٰ عنهم - وحرضهم علىٰ التدرب علىٰ الخطير منها والاستمرار في ذلك، مع التهديد لمن فرط فيما تعلمه حتىٰ نسيه(٤).

وفي ذلك يقول - ﷺ - «**من تعلّم الرمي ثم تركه فقد عصاني**»(٥) وإضافة إلىٰ كل ما سبق كان أصحاب النبي - ﷺ - يتصرفون في المواقف الحرجة بمهارة وفدائية، حتىٰ لو لم يسبق لهم التدريب علىٰ عمل اقتضته ضرورة المعركة، إلىٰ

---

(١) د. عبد الله بن أحمد القادري - الجهاد في سبيل الله، حقيقته وغايته (١ : ٤٠٦).
(٢) المناوي - فيض القدير شرح الجامع الصغير (٤ : ٣٢٧). ابن جماعة الحموي - مستند الأجناد في آلات الجهاد (ص٥٤) وعزاه إلىٰ الجامع الصغير.
(٣) ابن حجر - فتح الباري (٧ : ٤٦٠)، ومسلم (٣ : ١٤٣٢).
(٤) د. عبد الله القادري - الجهاد في سبيل الله (١ : ٤٦٠).
(٥) ابن ماجة - سنن ابن ماجة (٢ : ٩٤٠) ح ٢٨١٤.

تدريب بعضهم على الإسقاط الحُر وراء تحصينات العدو، وإن اختلفت الكيفية والوسائل، وذلك حينما حارب خالد بن الوليد - رضي الله عنه - مسيلمة الكذاب وقومه بني حنيفة، فهزمهم شر هزيمة بعد قتال شديد وصراع عنيف، فأسرعوا إلى حديقتهم ولجأوا إليها واعتصموا بها وأغلقوا عليهم بابها، وكانت محصنة ذات أسوار منيعة لا يتسنى للجند في ذلك الوقت تدميرها أو اقتحامها، فقال البراء بن مالك الأنصاري - رضي الله عنه - : «يا معشر المسلمين، احملوني فألقوني عليهم في داخل الحديقة من فوق السور؛ لأباغت القوم بالسيف وافتح لكم الباب»[1]. فاحتملوه فوق الجحف ورفعوها بالرماح حتى ألقوه عليهم من فوق السور، فانقض على الأعداء وباغتهم، وأدهش عقولهم بجرأته، وأحدث الارتباك في جموعهم بخطته، ولم يزل وحده يقاتلهم، وهم في أشد الحيرة والدهشة والارتباك والخوف من أن ينقض عليهم المسلمون من فوق السور كما انقض هذا عليهم، حتى تمكن - رضي الله عنه - من الوصول إلى الباب ففتحه ودخل المسلمون الحديقة وأعملوا السيف في من بها من المرتدين، ومنهم مسيلمة الكذاب - لعنه الله وأخزاه - وبذلك تم النصر الحاسم للمسلمين وانسحق المرتدون. فالبراء بن مالك الأنصاري - رضي الله عنه - أول جندي باسل جريء هبط بأسلوب بدائي خلف حصون الأعداء بدون مظلة وإنما كان سقوطًا حراً وبذلك فتح الباب أمام الجيوش الحديثة في إسقاط جنودها خلف خطوط العدو والإسقاط الحر من أشد أنواع التدريب.

وقد بدأ أصحاب النبي - ﷺ - بتشكيل الفرق الفدائية التي تبايع على الموت وقائدهم عكرمة وعمه الحارث بن هشام في وقعة اليرموك حينما حملت الروم حملة على المسلمين أزالوا المسلمين من مواقفهم، فبرز قائد الفدائيين ومعه عمه وضرار ابن الأزور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا أمام فسطاط خالد حتى أثخنوا جميعًا جراحًا، فمنهم من برأ ومنهم من قتل[2]، وقاتل خالد معهم قتالاً شديداً وصلى الناس الأولى والعصر إيماء، وتضعضع الروم، وانهزم الفرسان، وتركوا الرجالة.

---

(١) الطبري - تاريخ الأمم والملوك (٢ : ٢٥١)، وابن الأثير - الكامل (٢ : ٣٦٤).
(٢) ابن الأثير - الكامل، وقعة اليرموك (٢ : ٤١٣).

فهذه النماذج القوية من التاريخ العسكري الإسلامي والتي وضعت النواة الأولى لكل تدريب قوي متين متقن حقق اللّه على يدها النصر على أعدائها؛ فكانت أمة عزيزة نصرت اللّه فنصرها اللّه تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾(١).

التدريب العسكري في الجيوش الحديثة

هو إعداد الأفراد للقيام بالأعمال القتالية الفردية والأعمال القتالية ضمن الوحدة، وإعداد القوات للقيام بمهماتها القتالية كقوة متماسكة تتعاون فيها مختلف الصنوف ومختلف القوات لتحقيق الحد الأقصى من النتائج في المعركة.

والتدريب خطوة أساسية للنجاح في القتال، وهناك مبدأ عسكري يقول: (إن كل قطرة عرق أثناء التدريب توفر قطرة دم خلال المعركة)(٢).

وبعد مرحلة الاختيار والتجنيد للفرد العسكري تأتي مرحلة هامة وهي مرحلة التدريب التي تتكون من العناصر التالية:

- تدريب اللياقة (التربية البدنية).
- الدراسات النظرية العسكرية.
- التطبيقات العملية الميدانية.

أولاً:

١ - تدريب اللياقة (التربية البدنية)

إن التدريبات التي يمارسها العسكريون لكسب اللياقة البدنية هي عبارة عن ألوان مختلفة من الألعاب الرياضية لرفع كفاءتهم البدنية وزيادة جسارتهم وإعدادهم لتنفيذ المهمات القتالية بشكل أفضل، وتعويد المقاتل الخشونة وتحمل المشاق، وإكسابه الجرأة على مجابهة الخطر، والتصرف إزاءه بحكمة وروية.

---

(١) سورة محمد: الآية٧.

(٢) الموسوعة العسكرية (١ : ٢٦٤).

فتدريبات اللياقة البدنية هي اهتمام بالجسم البشري وتحسين مستواه، كما أنها في الوقت نفسه تجعل الجندي لائقاً نفسياً، وذلك ينبع من ثقته بنفسه وجرأته على مواجهة المعضلات أثناء القتال والتصرف السليم تجاهها.

ولذلك أصبحت تدريبات اللياقة البدنية من أسس إعداد العسكري للمعركة؛ ولهذا فإننا نؤكد على أن برامج تدريبات اللياقة البدنية للقوات المسلحة لابد أن تحتوي جميع أنواع التمرينات ضمن خطة مدروسة وموزعة على مدار السنة التدريبية.

ومن هذه التمرينات:

أ ـ تمرينات تنشيطية وتدفئة

مثل الوثب والهرولة الخفيفة والركض السريع.

ب ـ تمرينات غرضية وظيفية ـ لغرض تطوير قوة الجندي.

(١) شد الزميل بيد واحدة حتى يلمس الأرض.

(٢) تشابك الذراعين.

(٣) شد الحبل في اتجاهين متضادين بواسطة فردين أو أكثر.

(٤) حمل الزميل على الكتف الأيسر والسير به.

(٥) الزميلان يحملان ثالثًا على الذراعين ويسيران به.

ج ـ التمرينات السويدية

هناك عدد معين من التمرينات السويدية معروفة لدى الأفراد ومفيدة.

د ـ تمرينات البندقية

تمرينات رياضية تؤدى بالبندقية تقوية لعضلات العسكري.

هـ ـ تمرينات العروق الخشبية

وتكون في المراحل الأخيرة، ويتدرب عليها الجندي ذو الكفاءة العالية واللياقة الجيدة.

ويتمرن على حمل العرق الخشبي من ثلاثة إلى اثني عشر جنديًا، والمسافة بين كل منهم ٧٠سم، ويجب أن يكون الأفراد من ذوي الطول الواحد؛ مما ينمي التوازن ويحقق المرونة ويقوي روح المنافسة.

٢ ـ تدريبات الدفاع عن النفس

تبذل الجيوش اليوم اهتمامًا خاصًا بالرياضات القتالية، وخاصة داخل القطاعات الخاصة والقوات المحمولة جوًا؛ وهي تسعى إلى رفع الكفاءة البدنية للمقاتلين، رغم استخدام المعدات والآليات الحديثة في القتال بشكل قلل المجهود البدني الذي يبذله المقاتل في المعركة، ويزداد هذا الاهتمام في الجيوش الشعبية وقوات العصابات ومن هذه الرياضات.

١ ـ الكاراتيه

جملة يابانية تتكون من كلمتين:

كارا وتعني: الخالية

تي وتعني: اليد.

ومعناها القتال باليد الخالية من السلاح، والكاراتيه يتميز بأسلوب فريد في القتال باليد والقدم دفاعًا عن النفس وصدًا لاعتداءات الغير.

ولقد احتاج اليابانيون إلى هذا النوع من الرياضة القتالية عندمااحتل الجيش الياباني جزيرة (أوكيناوا) أصدر الأمبراطور أمره بمنع حمل الأسلحة الشخصية وعقوبة حاملها الإعدام، فبحث السكان في تنمية (الملاكمة الصينية) لتقوية أسلحتهم الطبيعية ـ الأرجل والأيدي، والمرافق وتحويلها إلى أسلحة قاتلة أحيانًا، وأخذوا يتعلمون إتقان الطرق الفعالة لمهاجمة نقاط الضعف في جسم الإنسان، بحيث يمكن بضربة واحدة تسدد إلى الخصم أن تسبب له كسراً أو نزفاً داخلياً أو إغماء لفترة مؤقتة أو الموت أحيانًا.

وبذلك ابتكرت رياضة الكاراتيه للدفاع عن النفس، ولها تدريبات تمثل معركة وهمية تسمى (الكاتا) وهي سلسلة من الحركات الدفاعية والهجومية.

والكاراتيه نوع من أنواع الرياضة التي تعطي للفرد الثقة بالنفس، وقوة

التحمل والجرأة وحسن التصرف[1].

٢ ـ التايكوندو

ظهرت رياضة التايكوندو في كوريا منذ مدة طويلة، ثم طورها الأهالي لاستخدامها كوسيلة للدفاع عن النفس؛ بسبب كثرة الحروب الأهلية، وصعوبة الحياة وسط الحيوانات الضارية؛ مما اضطرهم إلىٰ التفكير في مثل هذه الرياضة، بالإضافة إلىٰ عدم وجود الأسلحة النارية في تلك الفترة، وبذلك ظهرت رياضة الدفاع عن النفس التايكوندو التي تكسب اللاعب قوة وسرعة في الدفاع عن النفس وثقة وهدوء أعصاب.

ويمكن تقسيم لعبة التايكوندو إلىٰ ثلاثة أنواع:

أ ـ نوع (بوفرا) وهي مجموعة من الضربات والركلات باليدين والقدمين، تبين قدرة اللاعب علىٰ الهجوم والدفاع ضد شخص أوعدة أشخاص.

ب ـ نوع (كيروجي) وهو فن القتال المحدود: القتال الحر

ج ـ نوع (كيوك با) وهو فن الكسر أو التحطيم باستخدام اليدين والقدمين عاريتين، ويقوم اللاعب بكسر الأشياء الصلبة، وعليه أن يقوي يديه وقدميه، ويتعلم أصول الكسر الصحيحة؛ حتىٰ لا يتعرض لكسر عظم يده أو رجله[2].

٣ ـ الكونغ فو:

إن رياضة الكونغ فو تعرف بالملاكمة الصينية القديمة، وهي ترمز في الواقع إلىٰ الأساليب المتطورة للعبة الكاراتيه، ولقد ظهرت هذه اللعبة الصينية من اللكم إلىٰ الركل وإعاقة الخصم، وهي عبارة عن حركات دفاعية، وتحتوي حركات هجومية قوية، وتقوم كليات الشرطة ومراكز التدريب العسكري في أكثر بلاد العالم الآن بتعليم المبادئ الأساسية لرياضة الكونغ فو القتالية[3].

---

(١) فن الكارتيه ـ ترجمة الأستاذ جميل حنا، (ص ٢ ـ ٤) بتصرف.
Best karate, M. Nakayama, Vol. 1 page 16 - 17 JAPAN.

(٢) فنون وأساسيات التايكوندو ـ طارق جعفر الزواوي (ص ١٩ ـ ٢١) بتصرف.

(٣) الأستاذ روحي جميل ـ الموسوعةالرياضية، دار العلوم، الرياض ١٩٨١م (ص ٢٥٨).

٤ ـ الجودو

وهي رياضة يابانية قتالية تناقلتها الأجيال إلى وقتنا الحاضر، وهي استعمال فعال للعقل والجسم، وتنقسم إلى ثلاثة أنواع :

أ ـ الرمي .

ب ـ التماسك بالأيدي .

ج ـ مهاجمة النقاط الضعيفة في الجسم .

والجودو تحتوي حركات الهجوم والدفاع التي يمارس فيها المشترك استخدام فنون الرمي والتماسك بالأيدي والخنق والكسر(١) .

ثانيًا :

الدراسات النظرية العسكرية .

هناك مرافق تعليمية في القوات المسلحة تقوم بتزويد الدارسين من العسكريين بالمعلومات النظرية والخبرات الفنية، ومن هذه المرافق :

١ ـ مراكز تدريب المستجدين:

ويلتحق بهذه المراكز كل مجند قُبل في الخدمة العسكرية؛ ليقضي بها مدة ثلاثة أشهر تقريبًا وهي فترة التأهيل العسكري، يدرس خلال هذه الفترة المواد العسكرية الآتية :

أ ـ مادة النظام الداخلي : وتشمل واجبات الجندي الأساسية، وواجبات العرفاء المناوبين، وواجبات الخفير أثناء الحراسة .

ب ـ الإسعافات الأولية : تعريف بالإسعافات الأولية ـ التعامل مع الجريح، ومنقذات الحياة الثلاثة ـ تعليمات لف الرباط .

ج ـ التربية العسكرية : التعريف بالنظام والطاعة والضبط والربط .

د ـ قراءة الخرائط : تعريف الخريطة ـ هامش الخريطة ـ البوصلة وطريقة

(١) بعثة الرياضة التقليدية اليابانية، مؤسسة اليابان ١٩٨٣م (ص١).

استعمالها ـ الرموز العسكرية والألوان .

هـ ـ الأسلحة : فك وتركيب المسدس والبندقية والرشاش ـ التدريب على التسديد في جميع الأوضاع والرماية بالأسلحة .

٢ ـ مدارس أسلحة القوات المسلحة والمعاهد

هناك مدارس عديدة ومعاهد خاصة بأسلحة القوات المسلحة، ولكل مدرسة منهجها الخاص بها ودوراتها، ويمكن أن يلتحق بهذه المدارس بعض الجنود المتفوقين في مراكز التدريب، ويمكن الاستفادة منهم في تخصص معين، ويلتحق كذلك بهذه المدارس ضباط الصف العائدون للأسلحة الفنية للحصول على الدورات بأنواعها، وكذلك الضباط للحصول على دورات فنية تخصصية أو دورة تأسيسية أو متقدمة في سلاحه، وتختلف مدة الدراسة حسب نوع الدورة وكفاءة الدارس.

٣ ـ الكليات العسكرية

ويلتحق بها الطالب الذي يحصل على الثانوية العامة، ونجح في اختبارات اللياقة الصحية والبدنية والنفسية، وأكمل الشروط المطلوبة منه (شروط القبول).

ولكل كلية موادها الخاصة بها حسب نوعية القوة التابعة لها، إلا أن مدة الدراسة في جميع الكليات لا تزيد على ثلاث سنوات يحصل الطالب بعد نجاحه على رتبة ملازم ثان في القوات المسلحة .

٤ ـ كلية القيادة والأركان.

وتعدّ هذه الكلية من أعلى المستويات من الناحية العلمية العسكرية في القوات المسلحة، ويلتحق بها الضابط الذي أكمل جميع الدورات الحتمية بتفوق ـ تأسيسية ـ متقدمة ـ تخصص ـ ويختار لها الضباط الأكفاء ممن سيتولون قيادة مهمة في المستقبل، ويطالب فيها الطالب بكتابة أطروحة عن موضوع معين، يعين له مشرف من ضباط الكلية، وتناقش الأطروحة ويمنح عند تخرجه درجة الماجستير في العلوم العسكرية، ومدة الدراسة بهذه الكلية ما يقارب العام.

ثالثًا : التطبيقات العملية الميدانية:

التطبيقات العملية الميدانية تكون في الوحدات وما أخذه الأفراد في المرافق التعليمية كسبًا للمعرفة ، والوحدات الميدانية وظيفتها أن يكسب فيها الفرد المهارة، ويتم التدريب في الوحدات ضمن المراحل الآتية :

١ ـ **تدريب الفرد الأساسي** : يُدرب على المواضيع التي درسها في مركز تدريب المستجدين، والتي سبق ذكرها. وفي هذه المرحلة يكتسب المهارة فيها بكثرة التدريب عليها في الوحدة .

٢ ـ **تدريب الفرد المتقدم** : يتعلم الجندي في هذه المرحلة مهارة معينة أو تخصصًا معينًا .

٣ ـ **تدريب الوحدة الأساسي** : يتدرب الأفراد خلال هذه المرحلة على طريقة العمل الجماعي بمهارة، وتنسيق جهودهم نحو مهام الوحدة، وتمنح الفرصة للجندي كي يتعلم قيمة العمل الجماعي ، ويطبق عمليات المهارة التي تعلمها واكتسبها في تدريب الفرد المتقدم ، ويجري التدريب الجماعي بطريقة متدرجة، أي يبدأ بتطوير الحظيرة، ومن ثم القسم، وبعده الفصيل ، ويتبعه التدريب الجماعي على مستوى السرية، وخلال هذه المرحلة يبدأ تدريب الأسلحة المشتركة لتطوير المفاهيم حسب الوظيفة والإمكانات في مستوى من مستويات التدريب الجماعي .

٤ـ **تدريب الوحدة المتقدم** : يتم في هذه المرحلة دمج المجموعات من مستوى السرية، والتي أصبحت قادرة على إنجاز مهامها الموكلة إليها ضمن الفوج المعين لها، ويجب تأكيد الجهود لتطوير الكفاءة الفنية والتكتيكية، وتطوير الإجراءات المستديمة، وتدريب الأسلحة المشتركة، والاستفادة بشكل سليم من القوة البشرية والأسلحة والمعدات، وعند إتمام هذه المرحلة يصل الفوج إلى مستوى مقبول من الكفاءة العملية على الأقل ويستطيع دخول عمليات القتال .

٥ ـ **مرحلة التدريب المشترك** : يجري خلال هذه المرحلة تدريب للوحدات الكبيرة في ميدان المناورات تحت ظروف قتالية مشابهة، وتتاح الفرصة أمام

الفوج في هذه المرحلة لأن يصبح قادراً على العمل كوحدة قتالية منفصلة، أو كجزء من قوة أكبر. ويشترك في المناورات العديد من القوات؛ لتحقيق أقصى فعالية ممكنة في تدريب الأسلحة المشتركة.

كما يجب المحافظة على كفاءة الوحدات؛ لتبقى مستعدة للاشتراك في القتال بشكل سريع، وخاصة الوحدات التي تدرب على العمليات الخاصة، كالقوات المنقولة جواً والعمليات البرمائية، فيجب الاهتمام بمستوى تدريبها، وأن تكون على قدر جيد من اللياقة والمهارة.

وهذه المراحل الخمس من التدريب تطبق في كل وحدة خلال السنة، وتشمل كافة الحالات التي يمكن أن تظهر خلال القتال.

ويبدأ التدريب في المراحل الأولى بإتقان الجزئيات، ثم ينتقل إلى إتقان عمل المجموعات، وعندما تصبح المجموعات مؤهلة لتنفيذ مهماتها تجمع المجموعات لإتقان العمل ضمن الوحدات.

وهكذا يتم التوصل إلى إتقان جزئيات أعمال القطاعات الكبرى، وكلما ارتفع مستوى الإتقان خلال التدريب تحسن الأداء خلال القتال؛ ولكي يصل الإتقان إلى أعلى مستوياته، ينبغي إجراء التدريب بتكرار مستمر وعلى مختلف المستويات؛ لاكتشاف الأخطاء وتصحيحها، ثم تأتي مرحلة اكتساب السرعة، ومن المعروف أن الإتقان يتناقض مع السرعة الضرورية خلال المعركة الحديثة، ولكن التكرار بعد الإتقان يُكسب الأفراد القدرة على التنفيذ الجيد والسريع معاً، ولا ينطبق هذا على المستويات الدنيا فقط؛ بل ينطبق أيضاً على المستويات القيادية التي تكتسب خلال التدريب نوعاً من المنهج الفكري، يسمح لها باتخاذ القرارات الصحيحة الواضحة في أحلك ساعات المعركة. ومن المؤكد أن التدريب العسكري هو المكمل الضروري للتعليم العسكري النظري؛ لأنه يُعطي الهيكل النظري مادة يعمل بها وعليها، ويقلب المعرفة إلى إتقان عمل ومهارة[1].

---

(١) الموسوعة العسكرية (١ : ٢٦٤) بتصرف.

الفصل الثالث

القيادة

ويحتوي المباحث التالية :

المبحث الأول: أهمية القيادة.

المبحث الثاني: اختيار القيادة.

المبحث الثالث: من صفات القائد.

المبحث الرابع: العلاقة بين القائد وجنوده.

المبحث الخامس: الشورى.

المبحث الأول

أهمية القيادة

القيـادة لغة : من القـود ـ بفتح القاف وإسكان الواو ـ وهو نقيض السـوق، فهو من الأمام وذاك من الخلف .

والانقياد : الخضوع، تقول : قدتُه فانقاد لي، إذا أعطاك مقادته، والقائد واحد القواد والقادة[1] .

والقيادة : هي فن التأثير في الرجال وتوجيههم نحو هدف معين بطريقة تضمن بها طاعتهم وثقتهم واحترامهم وولاءهم وتعاونهم [2] .

أو هي : فن التأثير في السلوك الإنساني؛ بغية تحقيق مهمة ما بالأسلوب الذي يرغب فيه القائد[3] .

والقائد : هو الشخص الذي يحوز صفات تؤهله لأن يوجه الآخرين، وله ملكة التأثير فيهم، وهو لقب يمنح للضابط الذي يتولىٰ قيادة وحدة أقلها سرية[4] . وبالنظر إلىٰ تعريف القيادة والقائد يتضح لنا أن القيادة ليست وقفًا علىٰ الأمور العسكرية، ففي جميع مراحل الحياة وفي كل عمل من الأعمال يشترك فيه عدد من الناس ـ لابد أن تكون هناك قيادة لهم، فالتعريف شامل للقيادة العسكرية والمدنية .

فالقيادة ضرورة اجتماعية لابد منها لحياة بشرية جُبلت علىٰ المشاركة، فتحتاج إلىٰ من يُنظم لها هذه المشاركة، ويوثق العلاقة ويوضح الطريق، ويوافيها بما يجب لها وما يجب عليها .

(١) الفيروزأبادي ـ القاموس المحيط (١ : ٣٣)، والجوهري ـ الصحاح (٢ : ٥٢٨).

(٢) اللواء محمد جمال الدين محفوظ ـ المدخل إلىٰ العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية (ص ٢٧٥).

(٣) العقيد صامويل هيز، والمقدم وليم توماس ـ تولي القيادة فن القيادة العسكرية وعملها، ترجمة سامي هاشم، المؤسسة العربية للدراسات والترجمة، (ص١٨).

(٤) المصدر نفسه، (ص١١).

لذا أصبحت الحياة بأمس الحاجة إلى القيادة الرشيدة، وقد اهتم الإسلام اهتمامًا بالغًا بالقيادة حتى أنه لم يسمح لأي مجموعة مهما صغرت أن تخلو من قائد. فعن أبي سعيد وأبي هريرة - رضي اللّه عنهما - قالا: قال رسول اللّه - ﷺ -: «**إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمّروا أحدهم**»(١).

كما لم يسمح للفرد المسلم أن يعيش هملاً دون التزام ببيعة إمام، فقال - ﷺ - فيما رواه مسلم عن ابن عمر - رضي اللّه عنهما -: « .. **ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية** »(٢).

والقيادة مسؤوليات وتكاليف لا يتحمل الإنسان فيها مسؤولية نفسه فقط، ولكنه يتحمل مسؤولية غيره، من أفراد أو أمة أو أمم، وقد ركزت في الإنسان شهوة التسلط والنفوذ وحب الظهور والتملك، . وقد تدفعه هذه الشهوة إلى أن يسعى إلى منصب القيادة دون أن يكون أهلاً لها؛ فتكون قيادته وبالاً على نفسه وعلى غيره؛ ولذلك منع رسول اللّه - ﷺ - أن يتولى القيادة من حرص عليها فقال: «**إنّا لا نولي على هذا العمل أحدًا سأله، ولا أحدًا حرص عليه**»(٣).

كما قال - عليه الصلاة والسلام - لأبي ذر - وقد سأله أن يستعمله على عمل: «**يا أبا ذر، إنك ضعيف. وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها** »(٤).

وإذا كانت القيادة ضرورية في الحياة بصفة عامة فإنها أكثر ضرورة في الحياة العسكرية .

---

(١) أخرجة أبو داود، باب في القوم يسافرون يُؤمِّرون أحدهم، رقم الحديث ٢٦٠٨، ٢٦٠٩، وسنده حسن.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإمارة، انظر صحيح مسلم بشرح النووي (١٢ : ٢٤٠) وبداية الحديث: (من خلع يدا من طاعة الله لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات. . .).

(٣) المصدر نفسه (١٢ : ٢٠٧ـ ٢١٠).

(٤) رواه مسلم في باب كراهية الإمارة لغير ضرورة، انظر مسلم بشرح النووي (١٢ : ٢٠٩ـ ٢١٠).

المبحث الثاني

اختيار القادة

إن الأنبياء والرسل هم قادة البشرية باختيار اللّه لهم، واصطفائهم، وفي ذلك يقول اللّه تعالىٰ: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴿٣٣﴾ **ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[١].

والاصطفاء تناول صفو الشيء، كما أن الاختيار تناول خيره، والاجتباء تناول جبايته، واصطفاء اللّه بعض عباده قد يكون بإيجاده تعالىٰ إياه صافيًا عن الشوب الموجود في غيره، وقد يكون باختياره وبحكمه وإن لم يعرف ذلك من الأول[٢]. وقد اختار اللّه الرسل من خلقه لقيادة البشرية الروحية والحسية، وهي مهمة لا يصلح لها كل أحد، قال تعالىٰ: ﴿**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾[٣]. فاللّه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ يختار في كل زمان وفي كل عالم رسولاً يصطفيه برسالته؛ ليكون قائدًا لذلك العالم في ذلك الزمان، كما دلت على ذلك الآية السابقة الذكر، من لدن آدم ـ عليه السلام ـ إلىٰ نبينا محمد ـ ﷺ ـ الذي ختمت به الرسالات، والمراد بقوله علىٰ العالمين في الآية أي: عالمي زمانِهم، فكل رسول يختار من العالم والزمان الذي نشأ فيه لقيادة تلك الأمة.

وقد انقضت الرسالة ولم يبق إلا أتباع الرسل والاقتداء بهم، فوجب علىٰ القائد الأعلىٰ أن يتحرىٰ لقيادة جيوشه من هو أحق بها في زمانه وعالمه الذي يعيش فيه، وهذا الذي ذكره اللّه من الاصطفاء لهؤلاء الرسل إنما هو اختيار عام؛ لأن الرسالة أعم من القيادة للجيوش في الحروب، وإن كان من الرسل من خاضوا معارك قادوها بأنفسهم واختاروا لها قوادًا، وقد كان رسول اللّه ـ ﷺ ـ يقود الجيوش بنفسه إذا خرج للغزو، ويختار أمراء السرايا من غير تقيد بسبق في الإسلام أو كبر في السن أو فقه في الدين، وليس معنىٰ ذلك أنه لا يهتم بهذه الأمور، بل يهمه ذلك إذا وجد معه الفقه في الحرب.

(١) سورة آل عمران: الآيتان ٣٣ ـ ٣٤.

(٢) الراغب الأصفهاني ـ المفردات (ص ٢٨٣).

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٢٤.

ولذلك لم يمض على إسلام خالد بن الوليد ـ رضي اللّه عنه ـ ثلاثة أشهر حتى قاد أضرى معركة في حياة النبي ـ ﷺ ـ وهي غزوة مؤتة وحصل فيها على لقب (سيف اللّه) من رسول اللّه ـ ﷺ ـ بعد أن استشهد الأمراء الثلاثة، واتفق المسلمون على إمرة خالد بن الوليد؛ وما ذلك إلا لخبرته وتجربته في الحروب السابقة، وشجاعته المعروفة في الجاهلية والإسلام؛ وإنما فعل الصحابة ذلك أسوة برسول اللّه ـ ﷺ ـ إذ كان يتحرى القادة الذين سبقت لهم تجارب وظهرت شجاعتهم في ميدان المعارك وظفروا بالنصر، مما جعل أهل مؤتة يتفقون على قيادة خالد بن الوليد، وإن كان الرسول ـ ﷺ ـ لم يذكره من جملة الأمراء الذين عينهم لجيش مؤتة، ولكنه علم من طريق الوحي أن خالداً أخذ الراية وأقر ذلك واستبشر، وأخبر أنه من أسباب نصر المسلمين والفتح عليهم، وهنا تظهر أهمية القيادة في أن اللّه أراد للمسلمين النصر باتفاقهم على تولية خالد، وإلا أصبحوا دون قيادة، ولكانت النتيجة خلاف ذلك.

وثبت عنه ﷺ ـ أنه نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة إلى الناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال: «أخذ **الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب ـ وعيناه تذرفان ـ حتى أخذ الراية سيف من سيوف اللّه حتى فتح اللّه عليه**»[١].

ولهذا كان النبي ـ ﷺ ـ يسند قيادة الجيش إلى الرجال الذين امتحنوا واختبروا في الحروب، كما فعل يوم فتح خيبر في اليوم الثالث أو الرابع بعد أن أسند القيادة أولاً لأبي بكر ولم يفتح اللّه على يديه، ثم أسندت لعمر في اليوم الثاني، ولم يقع فتح كذلك، حتى أسندت لعلي بن أبي طالب ـ رضي اللّه عنهم ـ ففُتح على يديه[٢].

وفي الصحيح أنه ـ ﷺ ـ قال يوم خيبر: «**لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح اللّه على يديه، يحب اللّه ورسوله، ويحبه اللّه ورسوله. قال: فبات الناس يدوكون[٣] ليلتهم أيهم يُعطاها فلما أصبح الناس غدوا على رسول اللّه**

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي، باب غزوة مؤتة (٥ : ٨٦).
(٢) ابن حجر ـ فتح الباري (٧ : ٤٧٦) وعزاه لأحمد والنسائي وابن حبان والحاكم.
(٣) يدوكون : أي يخوضون، انظر ابن حجر ـ مقدمة فتح الباري (ص ١١٨).

ـ ﷺ ـ كلهم يرجو أن يُعطاها، فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقيل: هو يا رسول اللّه، يشتكي عينيه. قال: فأرسلوا إليه. فأُتي به فبصق رسول اللّه ـ ﷺ ـ في عينيه ودعا له فبرأ حتىٰ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية فقال علي: يا رسول اللّه، أقاتلهم حتىٰ يكونوا مثلنا؟ فقال: أنفذ علىٰ رسلك حتىٰ تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلىٰ الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق اللّه فيه، فواللّه لأن يهدي بك اللّه رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم»[1]. فالنبي ـ ﷺ ـ ما أسند القيادة في هذا الوقت الحرج لعلي إلا لعلمه أنه أهلٌ للقيادة؛ لأنه اختبر قبل ذلك مراراً، كما وقع في مبارزته في بدر مع الوليد بن عتبة بن ربيعة، وفي الخندق مع عمرو بن ود، ثم اقتفىٰ أثره من بعده في ذلك خلفاؤه الراشدون؛ فكانوا يتحرون لقيادة الجيوش الأبطال الأقوياء الشجعان، الذين توافرت فيهم شروط القيادة كما فعله أبو بكر الصديق في قتال أهل الردة، وكما فعله هو وعمر ـ رضي اللّه عنهما ـ في فتوح الشام، وكما فعله عمر في فتوح العراق، وغير ذلك ممن اقتفىٰ أثرهم إلىٰ يومنا هذا، فما من قائد أعلىٰ إلا كان يتحرىٰ لقيادة جيوشه من علم فيه الدين والأمانة والنصح والشجاعة؛ لأنها سبب النصر.

فالناس إنما يُؤتَوْن من قبل راياتهم، فإذا سقط صاحب الراية انهزم الجيش وانخذل، وإذا كان صابراً جلداً ثابت القدم رابط الجأش لا يجبن ولا يخون كانت جيوشه كذلك ثابتة وراءه تخوض حيثما خاض فهو زمامها والقدوة والمحرك لها.

فتحصل مما ذكر أهمية القيادة ومكانتها، وأنه لابد فيها من التحري والدقة والنظر فيمن يصلح لها ومن لا يصلح، وهذا لا يختص بزمان ولا مكان ولا بقوم عن آخرين، فهي سنة اللّه في خلقه.

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٥ : ٧٢).

المبحث الثالث

من صفات القائد

إن صفات القيادة هي المواهب الشخصية التي وهبها الله لعباده، وقد تكون موروثة وقد يكون بعضها مكتسبًا. فالحلم بالتحلم، والعلم بالتعلم.

وعندما تبرز هذه الصفات أو بعضها في القائد فإنها تساعده على كسب احترام جنوده وثقتهم، وطاعتهم الطوعية، وتعاونهم المخلص، ومن الصفات التي يجب أن يتحلى بها القائد ما ذكر اللّه ـ عز وجل ـ في شأن بني إسرائيل لما اختار لهم طالوت ملكًا قائدًا للحرب، فاستنكروا ذلك وقالوا: أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سَعةً من المال؟ فأكد اللّه لهم ذلك الاصطفاء، وبين علة ذلك بأن له زيادة في العلم والجسم، فجعلها أولى صفات القيادة الحربية، وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾(١).

وقد حقق اللّه النصر على يد هذا القائد الموصوف بزيادة العلم وقوة الجسم كما توضح الآيات التي بعدها.

فاللّه ـ سبحانه وتعالى ـ أخبرهم أن هذا القائد أعلم منهم، وأشد قوة وصبرًا في الحروب ومعرفة بها. فالعلم ملاك الإنسان، والجسم القوي هو معينه في الحروب وعدّته عند اللقاء، فتضمنت الآية بيان صفة القائد وأحوالها، وأنها تستحق بالعلم والدين والقوة فلا حظّ للغنى ولا للنسب فيها مع العلم وفضائل النفس، وأنها متقدمة عليهما؛ لأن اللّه أخبر نبيه أنه اختار طالوت قائدًا لقومه لقوته، وإن كانوا أشرف منه نسبًا وأكثر مالاً.

وقال بعض العلماء: المراد بالعلم هنا علم الحرب(٢).

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٤٧.

(٢) القرطبي ـ الجامع (٣: ٢٤٦ ـ ٢٤٧) بتصرف يسير.

ومن أوصاف القائد التي وصف بها : أن يكون أكمل القوم عقلاً، وأطولهم تجربة، وأبعدهم صوتاً، وأبصرهم بتدبير الحرب ومواضعها ومواضع الفرص والحيل والمكايدة، وأحسنهم تعبئة لأصحابه في أحوال التعبئة وتسييرهم أوان المسير وإنزالهم أوان النزول، وإدخال الأمن عليهم والخوف على عدوهم مع طلب السلامة لنفسه وأصحابه من أعدائه، كما يجب أن يكون حسن السيرة ذا خلق حسن، متصفًا بالعفاف والحذر، واليقظة والشجاعة، وطول الباع والسخاء.

فهذه هي أوصاف القائد الناجح التي إذا توافرت في قائد فإن النصر يكون حليفه بإذن اللَّه تعالىٰ، ويكون الجنود أكثر ميلاً ورغبة في القتال في ظل رايته.

ومما قيل من صفات القائد: أن يكون حسن التدبير، وأن يكون صاحب تشجيع، وأن يتعود الكرة بعد الفرة، والعطف بعد الحملة، والإنابة بعد الجولة، والرجعة بعد التولي، والطلب بعد الهزيمة(١).

وهذه الصفات القيادية الحميدة التي ذكرناها تظهر جلية واضحة في قائد هذه الأمة ونبي الرحمة والملحمة، الذي شهد له ربه في محكم كتابه فقال تعالىٰ: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾(٢). من صفات هذا القائد الرباني أنه يعز عليه الشيء الذي يعنف أمته ويشق عليها، فهو حريص علىٰ هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم، فما بقي من شيء يقرب من الجنة ويباعد عن النار إلا قد بينه لكم؛ فهو رحيم بجميع أمته في غاية الشفقة والحرص علىٰ منافعها الدينية والدنيوية(٣).

ويُعدد اللَّه لنا من صفات هذا النبي الكريم، فيقول تعالىٰ: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾(٤). وقوله تعالىٰ: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾(٥). فحُسن الخلق والرحمة واللين والصفح من

(١) الهرثمي ـ مختصر سياسة الحروب (ص١٧ ـ ١٨).
(٢) سورة التوبة: الآية ١٢٨.
(٣) ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم (٢: ٤٠٣ ـ ٤٠٤).
(٤) سورة القلم: الآية ٤.
(٥) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

أسمىٰ صفات القيادة؛ لأن سوء الخلق والقسوة والشدة لاتتلاءم مع القيادة الحكيمة، وحسن الخلق ولين الجانب لا يتناقضان مع الحزم.

فأخبر سبحانه في هذه الآية أن القائد الأول لهذه الأمة -ﷺ- لين العريكة مع أصحابه وذلك في قوله: ﴿لِنتَ لَهُمْ﴾ وأخبر أنه غير فظ ولا غليظ ولا جاف وفي صفة النبي -ﷺ- أنه ليس بفظ ولا غليظ ولا سخّاب في الأسواق[1].

وقال ابن كثير -رحمه الله-: (﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ أي بأي شيء جعلك الله لهم لينًا، لولا رحمة الله بك وبهم، وقال قتادة: فبرحمة من الله لنت لهم، فما: صلة زائدة أي برحمة من الله، قال الحسن البصري: هذا خلق محمد -ﷺ- بعثه الله به. وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ..﴾ أخبر -جل وعلا- أنه لو كان -ﷺ- سيّئ الكلام -وحاشاه من ذلك- قاسي القلب عليهم لانفضوا من حوله وتركوه؛ ولكن الله جمعهم عليه وألان جانبه لهم تأليفًا لقلوبهم. كما قال عبدالله بن عمرو: إني أرىٰ صفة رسول الله -ﷺ- في الكتب المتقدمة، أنه ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ولا يجزي السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح)[2].

وفي الآية تنبيه علىٰ أن القائد لا يكون فظًا ولا غليظًا جافيًا قاسي القلب؛ لأن غلظ القلب هو قساوته وقلة إشفاقه وعدم انفعاله للخير، كما بينت الآية أن من اتصف بهذه الصفات المذكورة تفرق عنه أصحابه وانفضوا من حوله، فكل قائد فظ غليظ القلب لا يرفق بمن معه تفرقوا من حوله وتركوه منفردًا.

ولهذا أمر الله -عز وجل- قائد هذه الأمة -عليه الصلاة والسلام- بالعفو عن قومه والاستغفار لهم، ومشاورتهم في الأمور في الحروب وغيرها.

هذا ما بينته الآية من أوصاف محمد -ﷺ- وهو الأسوة الحسنة والقدوة الكاملة لكل قائد كما أخبر الله -جل وعلا- أنه الأسوة الحسنة في قوله: ﴿لَقَدْ

---

(١) القرطبي -الجامع (٣ : ٢٤٨). وسخاب: صياح. رواه البخاري في صحيحه في كتاب البيوع، باب كراهية السخب في الأسواق، انظر فتح الباري ط السلفية (٤ : ٣٤٢) رقم ٢١٢٥ ورواه أيضًا في كتاب التفسير بلفظ مقارب باب ٣ ﴿إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا﴾ انظر فتح الباري (٨ : ٥٨٥) رقم ٩٨٣٨.

(٢) ابن كثير -تفسير القرآن العظيم (١ : ٤٢٠). والحديث أخرجه الترمذي في الشمائل (ص ٨).

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فعلىٰ كل قائد أن يتأسّىٰ به ويتصف بهذه الصفات ويمرن نفسه عليها إن لم تكن من أخلاقه أصلاً. فالعلم بالتعلم والحلم بالتحلم.

ومن أوصاف قائد هذه الأمة ـ عليه الصلاة والسلام ـ كمال العقل وحُسن السياسة، فقد كان ـ ﷺ ـ في غاية من كمال العقل لم يبلغها بشر من قبله ولا بعده، فقد أثبت التاريخ وبرهنت التجارب علىٰ أنه أعقل الخلق علىٰ الإطلاق، كما يتبين ذلك من حسن تدبيره وسياسته مع العرب الذين بُعث فيهم وكانوا أهل جَفاء وإباء وعزة وأنفة، فقد ساسهم بحكمته وبعد نظره حتىٰ خضعوا له والتفوا حوله موقنين بأن ما جاء به من الرسالة والقرآن حق، والإسلام حق، وقاتلوا في سبيل اللَّه آباءهم وأبناءهم، وقدموه علىٰ أنفسهم، وهاجروا معه تاركين الأوطان والأموال والأهل.

ومن صفات القائد الشجاعة كما اتصف بذلك نبينا محمد ـ ﷺ ـ فقد كان في ذلك مضرب المثل فيها والقدوة التي لا نظير لها، كما جرب ذلك في الحروب التي خاضها في الغزوات والمواقف الحرجة التي وقفها أثناء الحروب، وشهد له أصحابه، فقد كانوا يلوذون به إذا حمي الوطيس، ويتقون به أعداءهم، وقد ظهر ذلك يوم حنين لما رشقت هوازن خيل المسلمين بالنبال فولىٰ المسلمون بادئ الأمر منهزمين، وبقي رسول اللَّه ـ ﷺ ـ علىٰ بغلته، ولم يبق معه إلا بضعة رجال من أصحابه، ينادي المسلمين، ويقبل علىٰ أعدائه حتىٰ تراجع إليه أصحابه وتم النصر(١).

وكذلك يوم بدر فقد ثبتت شجاعته ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقد روىٰ الإمام أحمد عن علي ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول اللَّه ـ ﷺ ـ وهو أقربنا من العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً(٢). وروىٰ أيضًا من حديث أبي إسحق عن علي قال: لما حمي البأس يوم بدر اتقينا برسول اللَّه ـ ﷺ ـ وكان من أشد الناس ما كان ولم يكن أحد أقرب إلىٰ

---

(١) ابن هشام ـ السيرة النبوية (٤ : ٦٤).

(٢) أخرجة الإمام أحمد (١ : ٨٦) ط دار صادر، والمسند بتحقيق أحمد شاكر (٢ : ٦٤) رقم ٦٥٤.

المشركين منه[1].

وعن أنس ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: كان رسول اللَّه ـ ﷺ ـ أحسن الناس، وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول اللَّه ـ ﷺ ـ راجعًا وقد سبقهم إلىٰ الصوت وهو علىٰ فرس لأبي طلحة عري، وفي عنقه السيف وهو يقول لم تراعوا، لم تراعوا، قال: ووجدناه بحرًا أو إنه لبحر[2].

ومن صفات القائد التي ينبغي أن تراعىٰ اللياقة البدنية والقوة الجسمية؛ لأن ذلك من أسباب هيبة العدو له، وعدم الاستهانة به والجرأة عليه، وتتجلىٰ مزية ذلك في قوته ـ ﷺ ـ يوم الخندق، حيث كان يحطم الصخور الصلبة بالمعول حتىٰ تصير هباء منثوراً.

فعن جابر ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كُدْيَةٌ شديدة فجاءوا النبي ـ ﷺ ـ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق. فقال: أنا نازل، ثم قام وبطنه معصوب بحجر. ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذَوَاقًا، فأخذ النبي ـ ﷺ ـ المعول فضرب فعاد كثيبًا أَهْيَل أو أهيم[3].

وروي عن سلمان الفارسي أنه قال: ضربت في ناحية من الخندق فغلظت عليّ صخرة ورسول اللَّه ـ ﷺ ـ قريب مني فلما رآني أضرب، ورأىٰ شدة المكان عليّ، نزل فأخذ المعول من يدي فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة، ثم ضرب به ضربة أخرىٰ فلمعت تحته برقة أخرىٰ. قال: ثم ضرب به الثالثة فلمعت به برقة أخرىٰ. قال: قلت بأبي أنت وأمي ما هذا الذي رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب؟ قال: «أو قد رأيت ذلك يا سلمان»؟ قال: قلت:

---

(١) مسند الإمام أحمد (١ : ١٢٦) طبعة دار صادر.
ولفظ مسلم عن أبي إسحاق وفيه قال البراء: (كنا والله إذا احمر البأس نتقي به، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به يعني النبي ـ ﷺ ـ) انظر صحيح مسلم (٣ : ١٤٠١) طبعة الإفتاء، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (طبعة الحلبي).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل (٤ : ١٠٨٢ ـ ١٠٨٣) باب في شجاعة النبي ـ ﷺ ـ وتقدمه للحرب، وقوله بحرًا، أو إنه لبحر أي واسع الجري.

(٣) صحيح البخاري، وكتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب، انظر ابن حجر ـ فتح الباري (٧ : ٣٩٧) والأهيل أو الأهيم: السائل، أي صار رملاً يسيل ولا يتماسك.

نعم. قال : أما الأولىٰ فإن اللّه فتح عليّ باب اليمن، وأما الثانية فإن اللّه فتح عليّ باب الشام والمغرب، وأما الثالثة فإن اللّه فتح بها عليّ المشرق(١).

ومع أن هذه الحادثة تذكر من بين معجزات النبي - ﷺ - إلا أن لها دلالة واضحة علىٰ ما كان يتمتع به الرسول - ﷺ - من صحة وقوة بدنية .

ومما ذكر في مصارعته - ﷺ - للأشداء الأقوياء مصارعته لركانة ما يرويه سعيد بن جبير قال: كان رسول اللّه - ﷺ - بالبطحاء إذ أتىٰ عليه يزيد بن ركانة، أو ركانة بن يزيد ومعه أغزله فقال له : يا محمد هل لك أن تصارعني ؟ قال: ما السعي؟ قال: شاة من غنم. فصارعه فصرعه، فأخذ شاة فقال ركانة: هل لك في العود؟ ففعل ذلك مراراً فقال: يا محمد، واللّه ما وضع جنبي أحد إلىٰ الأرض، وما أنت بالذي يصرعني . ، فأسلم فرد عليه النبي - ﷺ - غنمه، وجاء في أبي داود والترمذي : أن ركانة صارع النبي - ﷺ - فصرعه النبي - عليه الصلاة والسلام (٢).

فتحصل مما ذكر أن القائد للجيوش في الجهاد لا بد أن يكون علىٰ علم كيف يسير جنوده، فلا يجهدهم دون مسوغ، ولا يحملهم ما لا قبل لهم به ويفتش أحوالهم وسلاحهم قبل القدوم للمعركة، ليتأكد من قدرتهم علىٰ خوض المعركة، وأن ينظم قواته تنظيماً حكيماً، و تكون حروبه طبقًا للتعاليم الإسلامية، لا حيف فيها ولا عدوان إلا علىٰ الظالم، و يكون ذا خبرة وتجربة بتعبئة جنوده لا تخفىٰ عليه خافية من أخبار خصمه، ويرفع دائماً من معنويات قواته، ويستشير أهل الرأي ولا يستبد برأيه دونهم ويلتزم بتعاليم الدين الحنيف والحلم وحسن الخلق مع الدهاء .

كذلك لابد أن يكون علىٰ علم برجاله لا يخفىٰ عليه منهم أحد، ولا يجهل حال أحد منهم، حتىٰ يتمكن من معرفة الشجاع والقوي، والجبان والضعيف؛ ليضع الرجل المناسب في المكان المناسب .

---

(١) ابن كثير - السيرة النبوية (٣ : ١٩١).

(٢) السهارنفوري - بذل المجهود في حل أبي داود (١٦ : ٤٠٢) عند شرح حديث أبي داود، كتاب اللباس، باب في العمائم، رقم الحديث ٤٠٧٨ . ابن حجر - الإصابة (١ : ٥٤٠)، والترمذي - كتاب اللباس، باب العمائم علىٰ القلانس، رقم الحديث ١٧٨٤ .

المبحث الرابع

العلاقة بين القائد وجنوده

العلاقة بين القاعدة والقيادة ينبغي أن تكون متينة وجيدة وعلىٰ أساس صحيح، ولا يمكن التهيئة للمعركة إذا لم تكن القاعدة ملتحمة بقيادتها واثقة بتصرفاتها، وما لم تكن القيادة أمينة علىٰ ما ائتمنها اللّه عليه، تقية نقية طاهرة، ترعىٰ حق اللّه وحق عباده؛ ولذلك أرىٰ أن هذه العلاقة تنبني علىٰ أساسين قويين :

أولهما : الطاعة من قبل المرؤوسين لرئيسهم، والتفاني معه في العمل بإخلاص وصدق، وعدم مخالفة الأوامر أو التباطؤ في تنفيذها.

ثانيهما : ألا يأمر الرؤساء إلا بمعروف يعرفه الشرع ولا ينكره، ولا يكلفون مرؤوسيهم ما لا يطيقون، فحيث أَمَرُوا بمعصية اللّه فلا طاعة لهم؛ وإنما تجب طاعتهم ما داموا متمسكين بمبادئ الإسلام، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ففي هذه الحالة تجب طاعتهم ـ وقال تعالىٰ : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾(١) . ففي الآية الكريمة أمر بطاعة اللّه وهي العمل بكتابه العزيز وبطاعة الرسول لأنه هو الذي يبين للناس ما نُزِّل إليهم، وقد أعاد لفظ الطاعة تأكيداً لطاعة الرسول ـ ﷺ ـ وأما أولو الأمر جماعة أهل الحل والعقد من المسلمين، وهم الأمراء والحكام والعلماء، ورؤساء الجند وسائر الرؤساء والزعماء الذين يرجع إليهم الناس في الحاجات والمصالح العامة، فهؤلاء إذا اتفقوا علىٰ أمر أو حكم وجب أن يُطاعوا فيه، بشرط أن يكونوا منّا وألا يخالفوا أمر اللّه ولا سنة رسوله ـ ﷺ ـ التي عُرفت بالتواتر، وأن يكونوا مختارين في بحثهم في الأمر واتفاقهم عليه، وأن يكون ما يتفقون عليه من المصالح العامة وهو ما لأولي الأمر سلطة فيه ووقوف عليه، وأما العبادات وما كان من قبيل الاعتقاد الديني فلا يتعلق به أمر أهل الحل والعقد. بل هو مما

---

(١) سورة النساء : الآية ٥٩ .

يؤخذ عن اللَّه ورسوله فقط، ليس لأحد رأي فيه إلا ما يكون في فهمه (١).

وفيما ورد في ذلك ما جاء عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «**السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحبّ وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولاطاعة**»(٢).

وعن علي ـ رضي اللَّه عنه ـ أن رسول اللَّه ـ ﷺ ـ بعث جيشًا وأمّر عليهم رجلاً فأوقد ناراً وقال: ادخلوها. فأراد ناس أن يدخلوها. وقال الآخرون: إنا قد فررنا منها. فذُكر ذلك لرسول اللَّه ـ ﷺ ـ فقال للذين أرادوا أن يدخلوها: لو دخلتموها لم تزالوا فيها إلى يوم القيامة. وقال للآخرين قولاً حسنًا، وقال: «**لا طاعة في معصية اللَّه إنما الطاعة في المعروف**»(٣).

فالآية الكريمة والأحاديث الشريفة تحث على طاعة الأمراء وتنفّر من مخالفتهم ومعصيتهم، إلا إذا أمروا بمعصية فلا طاعة لهم حينئذ، فيجب طاعتهم فيما لا معصية فيه، وتجب مخالفتهم فيما فيه معصية عليها دليل من كتاب وسنة، ولكن مع ذلك يمتنع الخروج عن بيعتهم وشق العصا عليهم، وإن أمروا بمعصية إلا أن يوجد كفر بواح، وقد رجّح كثير من العلماء أن المراد بأولي الأمر في الآية الأمراء خلافًا لمن قال إنهم العلماء أو خصوص الصحابة. فقد روى الطبري بإسناد صحيح عن أبي هريرة أنهم الأمراء، ورجحه الشافعي قائلاً: إن قريشاً ما كانوا يعرفون الإمارة ولا ينقادون لأمير فأمروا بالطاعة لمن ولي الأمر(٤).

وثبت عنه ـ ﷺ ـ أنه قال: «**من أطاعني فقد أطاع اللَّه ومن عصاني فقد عصا اللَّه، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني**» وعن أبي ذر ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: «إن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع وإن كان عبداً مجدّعاً أسود يقودكم بكتاب اللَّه فاسمعوا له وأطيعوا»(٥).

---

(١) رشيد رضا ـ تفسير المنار (٥ : ١٨٠ ـ ١٨١).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الجهاد، باب ما جاء لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ح ١٧٠٧.

(٣) أخرجهما مسلم في كتاب الإمارة (٣ : ٤٦٤) فما بعدها، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية.

(٤) ابن حجر ـ فتح الباري (٨ : ٢٥٤).

(٥) أخرجهما مسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في معصية (٣: ١٤٦٥).

وفي صحيح مسلم أيضًا عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - قال: «إنما الإمام جُنّة يقاتل من ورائه ويُتقىٰ به، فإن أمر بتقوىٰ الله - عز وجل - وعدل كان له بذلك أجر وإن يأمر بغيره كان عليه منه»(١).

ومما يقوي العلاقة بين القائد وجنوده أن يكون القائد حسن العشرة واسع الصدر، صادق اللّهجة، لين العريكة يخالط أصحابه ويحترم الكبير والصغير، يجيب دعوة الجميع، ويعود المريض ويواسي المسكين، ويقبل عذر المعتذرين، طلق الوجه، طيب النفس، وقد كانت هذه أوصاف رسول الله - ﷺ - فقد ورد عنه أنه قال: «**إنكم لا تسعون الناس بأموالكم فليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق**»(٢).

وقال عليه الصلاة والسلام: «**إن أحبكم إلي وأقربكم مني يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا الموطئون أكنافًا، الذين يؤلفون ويألفون**»(٣).

وكذلك من عوامل تقوية العلاقة بين القائد وجنده وجود الثقة المتبادلة والمحبة أيضًا، فحيث كانت الثقة والمحبة وثيقتين بين القائد وجنده تكونت من بينهم أمة مقاتلة متكاتفة، صفًا إلىٰ صف تقاتل كالبنيان المرصوص.

وقد كانت ثقة أصحاب النبي - ﷺ - به وطيدة كما كانت ثقته بهم كذلك ومحبتهم له كان لا يدرك لها شأو، كما كان - ﷺ - يحب أصحابه محبة كاملة ويثق بهم، كما ظهر ذلك يوم بدر لما استشارهم فأخبروه بأن يسير علىٰ بركة الله ولو سار إلىٰ (برك الغماد) لساروا معه؛ فحصلت ثقته بهم وتقدم إلىٰ أعدائه. كما أنه كان - ﷺ - لما وعدهم بالنصر، وأراهم مصارع قريش وثقوا بذلك وتأكدوا صحته لعلمهم أنه لا يقول إلا حقًا وما ينطق عن الهوىٰ، لا

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب الإمام جُنّة يقاتل من ورائه ويتقىٰ به (١٢ : ٢٣٠).

(٢) المناوي - شرح الجامع الصغير، وعزاه لحلية الأولياء (٢ : ٥٥٧) ح ٢٥٤٥.

(٣) أخرجه البغوي في السنة (١٢ : ٣٦٦ - ٣٦٧) والترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق (٤ : ٣٧٠. وذكره أحمد مختصراً عن أبي هريرة بمعناه (٢ : ٣٦٩). ولفظ الترمذي: إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون. قالوا: يارسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال المتكبرون. (مساوئكم أخلاقًا): للبغوي. وكل ما تحته خط زيادة الترمذي علىٰ البغوي ما عدا الجملة (مساوئكم أخلاقًا) فهي لفظ البغوي.

يتكلم إلا بوحي ، فتقدموا مع قلة عددهم وعددهم إلىٰ ذلك الجيش الذي بلغ عدده ضعفي عددهم ، واثقين بالنصر من اللَّه لما أخبرهم به قائدهم محمد ـ ﷺ ـ وهو واثق بما أبدوه من الشجاعة والجرأة والسمع والطاعة والرغبة فيما أعده اللَّه للشهداء .

ومن ثقة أصحابه ـ ﷺ ـ ما يتجلىٰ لنا من موقفهم من صلح الحديبية ؛ إذ لولا ثقتهم به لرفضوا ذلك الصلح كما يبديه لنا ما وقع لعمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ من عدم رضاه أولاً بالصلح وتردده بين رسول اللَّه ـ ﷺ ـ وأبي بكر قائلاً : ألسنا علىٰ الحق؟ أليسوا علىٰ الباطل ؟ فلم نعطي الدنية في ديننا؟ ولكنه لما بين له النبي ـ ﷺ ـ أنه رسول اللَّه ، وأن اللَّه لن يضيعه ، وأن الخير للمسلمين في قبول هذا الصلح قبل ذلك ورضي لشدة ثقته بنبي اللَّه صلوات اللَّه وسلامه عليه .

وكما ظهرت محبتهم العميقة له ـ ﷺ ـ في موقفهم منه في معركة أحد لما أحدق به المشركون من كل جانب وجعلوه هدفًا لنبالهم فالتف المسلمون حوله يصدون عنه النبال المصوبة حوله ، ويقونه بأجسادهم ، ولم يقتصر ذلك علىٰ الرجال ، بل شاركت النساء كما فعلت نسيبة بنت كعب المازنية إذ استلت سيفًا وأخذت تذود به عن رسول اللَّه ـ ﷺ ـ[(١)] .

وهذا سعد بن الربيع وهو في سكرات الموت يسأل عنه النبي ـ ﷺ ـ ويقول : ماذا فعل سعد بن الربيع؟ وهذا دليل علىٰ حبه ـ ﷺ ـ لأصحابه ، فذهبوا يبحثون عن سعد فوجدوه في نزع الموت فقال لهم : أنا في الأموات فأبلغوا رسول اللَّه ـ ﷺ ـ عني السلام وقولوا له : إن سعد بن الربيع يقول لك : جزاك اللَّه عنا خير ماجزىٰ نبيًا عن أمته ، أبلغوا قومكم عني السلام وقولوا لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : لا عذر لكم عند اللَّه إذا خلص العدو إلىٰ نبيكم ومنكم عين تطرف[(٢)] .

وقد يقول قائل : إن هذا التفاني والحب لرسول اللَّه ـ ﷺ ـ لأنه نبي جمع حُسن الخلق ، ووصل إلىٰ مرتبة الكمال ، ولا يتصور أن يصل إلىٰ مرتبته أحد ؛

---

(١) ابن كثير ـ السيرة النبوية (٣ : ٦٧) .

(٢) المصدر السابق (٣ : ٧٨) .

وهذا صحيح، ولكن على قدر الاتباع والاقتداء والتأسي به يرتقي القادة في مدارج الكمال، فيكون لهم من الحب والتفاني بقدر ما وصلوا إليه من الكمال.

المحافظة على هيبة القائد وشخصيته

حفظ الإسلام للقائد هيبته واحترم شخصيته وجعل له منزلة خاصة في ألا تُهان كرامته وألا يُنتقص من حقه، وإن أخطأ فقد يكون خطؤه ناتجًا من اجتهاد منه للوصول إلى الصواب، وفي ذلك يؤدبنا رسول اللّه - ﷺ - ويعلمنا كيف نتعامل مع أمرائنا وقادتنا في الحديث الذي يرويه مسلم، ويبين لنا فضل هؤلاء القادة. فيضرب لنا المثل حتى تتضح لنا الصورة فنعرف قدرهم، ونُنزلهم منازلهم فلا نتهجم عليهم ولا نقصر في حقهم.

وفي هذا يروي مسلم عن عوف بن مالك قال: قتل رجل من حِمْيَر رجلاً من العدو فأراد سلبه فمنعه خالد بن الوليد، وكان واليًا عليه فأتى رسول اللّه - ﷺ - عوفٌ بن مالك فأخبره فقال لخالد: ما منعك أن تعطيه سلبه؟ قال: استكثرته يا رسول اللّه، قال ادفعه إليه، فمر خالد بعوف فجر بردائه ثم قال: هل أنجزت لك ما ذكرت لك من رسول اللّه - ﷺ - ؟فسمعه رسول اللّه - ﷺ - فاستغضب فقال: «**لا تعطه يا خالد، لا تعطه يا خالد، هل أنتم تاركون لي أمرائي، إنما مثلكم ومثلهم كمثل رجل استرعى إبلاً وغنمًا فرعاها ثم تحين سقيها فأوردها حوضًا، فشرعت فيه فشربت صفوه وتركت كدره. فصفوه لكم وكدره عليهم**»(١).

فيظهر لنا من حديث النبي - ﷺ - قوله لخالد: «**لا تعطه، لا تعطه**» أنه لما أراد الصحابي أن يشمت بأمير من أمراء المسلمين وقائد لمعركة كبيرة، وعلى مرأى من النبي - ﷺ - حفظ النبي - ﷺ - هيبته وراعى فيها شعوره إذ قال: «هل أنتم تاركون لي أمرائي» ثم وضّح لهم فضل هؤلاء الأمراء وأنهم إن أحسنوا فإحسانهم لكم، وإن أساءوا فعليهم الإساءة فقط. وما نأخذه من الحديث الشريف آنف الذكر أن القائد إذا أخطأ يجب ألا يعنف أمام أفراده؛ لأنه حينما يبذل جهدًا كبيرًا في إنجاح معركة يشعر الكل بالفخر والنجاح، وعندما تهزم

---

(١) مسلم، كتاب الجهاد، باب استحقاق القاتل سلب القتيل (٣ : ١٣٧٣). وأبو داود في باب الجهاد (٣ : ١٦٣) وسنده صحيح كما في جامع الأصول لابن الأثير (٢ : ٦٨٩).

الوحدة يكون وحده المسؤول عن فشلها فلا يوجه اللوم إلىٰ غيره؛ فلذلك إذا أخطأ نتيجة لاجتهاد ـ وهو بشر معرض للخطأ ـ فعلينا أن نلتمس له العذر، وأن نحافظ علىٰ كرامته وننظر إليه علىٰ أنه قائد ومسؤول، فتوجيهه وتأنيبه يكون سرًا لا علنًا؛ حتىٰ نحفظ للقيادة هيبتها وشخصيتها.

ومما يساعد علىٰ هيبة القائد أن يكون قدوة حسنة في سلوكه وتصرفاته؛ فيحافظ علىٰ مظهره العام في ملبسه وحسن اختيار أصدقائه، وألا يرىٰ في مكان لا يليق به، وأن يحافظ علىٰ صلاته جماعة في المسجد، وأن يلتزم أوامر الشرع ظاهراً وباطناً، وألا يغيب عن ذهنه أنه قدوة لأفراده؛ فإن أراد أن يكون أفراده علىٰ مستوىٰ متميز من الأخلاق والسلوك فعليه أن يلتزم أولاً بذلك، كما يجب عليه أن يكون ملتزمًا بآداب الإسلام في معاملته لأفراده من الصدق في حديثه والأدب في ألفاظه والوفاء بوعده.

ومما ذُكر في باب حُسن سياسة الرئيس أصحابه قالوا:

إن الغرض الذي يجري إليه السائس الكامل في سياسته أصحابه ثلاث خصال هي: المحبة والهيبة منهم له، والمحبة من بعضهم لبعض. وقد يحتاج ذلك إلىٰ أمور: أن يتفقد من أمور أصحابه جميع ما يعود نفعه عليهم، وأن يستزيد محسنهم بالتكرمة، وأن يقدم إلىٰ مسيئهم قبل الإساءة بالمعذرة، وأن يستعتب مقصرهم بحسن الأدب استعتاب مستصلح لهم، غير مغتنم للزلة ولا معترض للعثرة ولا مستريح إلىٰ كشف غامض العورة، فإنه لا يصلح الرعية إلا بعض تغابي الراعي عن فلتات زللها؛ فإنه لا سلطان للسائس علىٰ قلوب أصحابه فينبغي له أن يستجلب مودتهم بلين الجناح وطيب الكلام وإعطاء الحق وحسن النظر. فإن فعل هذا صفت له القلوب ووالته الجنود[1].

طرق معاملة القادة لمرؤسيهم

هناك طريقتان يُعامل بهما القادة مرؤسيهم:

أولاً: قيادة إرغامية: وهي القيادة التي يرغم بها القائد مرؤسيه علىٰ طاعته، معتمداً في ذلك علىٰ سلطته وقوته، وهذه القيادة لها سلبيات كثيرة؛

(١) الهرثمي ـ مختصر سياسة الحروب (ص ١٦ ـ ١٧). بتصرف واختصار.

لأنها غالبًا ما تجعل المرؤوسين يطيعون أوامر القادة وهم غير مقتنعين بتلك الطاعة، فهم يرغمون أنفسهم عليها خوفًا من العقاب أو طمعًا في مكافأة، وقد تؤدي هذه الطاعة إلىٰ تولد شعور بعدم الرضا عند المرؤوسين؛ فيؤدي ذلك إلىٰ انخفاض روحهم المعنوية، وقد تؤدي إلىٰ ضعف كفاءة المرؤسين في تحقيق الأهداف وإنجاز الأعمال، وقد تؤدي إلىٰ تفشي روح السلبية والاكتفاء في العمل بالقدر الذي ينجيهم من عقاب القائد، ومحاولة التهرب من العمل في غيابه.

ثانيًا: القيادة الإقناعية. ولها إيجابيات كثيرة، فهي تجعل المرؤوسين يطيعون أوامر قائدهم عن رغبة واقتناع ذاتي، لا عن رهبة وخوف؛ وذلك لأن القائد في هذه الحالة يضع في حسابه العامل البشري، ويدرك أن هناك فروقًا كثيرة بين الأشخاص في القدرات والإمكانيات البدنية والعقلية والفنية، ويعتمد هذا النوع من القيادة إلىٰ حد كبير علىٰ قدرة القائد ومهارته في السلم والحرب، ومواجهة المواقف وحل المشكلات.

ومن أهم مميزات هذه القيادة أنها تؤدي إلىٰ توليد شعور الارتياح والرضىٰ عند المرؤوسين؛ وبالتالي تؤدي إلىٰ ارتفاع روحهم المعنوية، وتوليد روح المحبة والإخلاص للقائد، وتؤدي إلىٰ توفير الكفاءة العالية لدىٰ المرؤوسين في تحقيق الأهداف التي يوجههم إليها. فسلبيات القيادة الإرغامية إيجابيات للقيادة الإقناعية؛ حيث إن القيادة الإيجابية تنمي روح التجاوب في المرؤوسين وزيادة اتجاههم ومساهمتهم في حل المشاكل التي تواجههم، وإلىٰ الإقبال علىٰ العمل بإخلاص وحماس حتىٰ في غيبة القائد؛ لأنهم لما شاركوا في المشورة وفي الرأي وفي التخطيط صار كل واحد منهم علىٰ انفراده يتحمل مسؤولية يعمل من أجل تحقيقها، فهذا من أهم الأسباب التي جعلت القيادة الإقناعية ناجحة إلىٰ هذا الحد، ومما ذكر يتضح أن القيادة الإقناعية أفضل من القيادة الإرغامية، وإن كانت القيادة العسكرية الناجحة هي التي تستطيع أن تجمع بين النوعين. فالقائد الناجح هو الذي يستطيع بحكمته أن يرغمهم بسهولة علىٰ قبول قراراته وتحقيق أهدافه وامتثال أوامره إذا استدعىٰ الأمر ذلك لمصلحة العمل؛ حيث يتخذ أسلوب القيادة الإقناعية أساسًا لسياسته وطريقته في القيادة، وهو يملك

أيضًا في الوقت نفسه القوة والهيبة اللتين تمكنانه من إرغام مرؤوسيه على تنفيذ أوامره إذا اقتضى الأمر ذلك.

والمرؤوسون في هذه الحالة يطيعونه إذا اتصف بما ذُكر مقتنعين لا خائفين؛ لأنهم تحققوا من ثقتهم به أنه لابد هناك ما يُبرر موقفه حول تلك القرارات والأوامر، وذلك لسابق معرفتهم به والثقة المتبادلة بينهم وبينه[1].

(١) اللواء محمد جمال الدين محفوظ ـ المدخل إلى العقيدة الاستراتيجيةالعسكرية الإسلامية (ص٢٨٩ ـ ٢٩٠) بتصرف.

المبحث الخامس

الشورى

التعريف :

الشورىٰ : من التشاور وهو الأمر الذي يتشاور فيه، وشاوره وتشاوروا واشتوروا، وعليك بالمشورة والمشورة في أمورك ، واستشاره فأشار عليه بالصواب آراه ما عنده فيه من المصلحة فكانت إشارة حسنة(١) .

ومصطلح الشورىٰ في الإسلام هو أنه إطار يعنىٰ بالبحث عن الحق والحقيقة، والانصياع لهما من خلال حرية الرأي واختيار الأصوب والأرشد والأرجح لذلك، فجوهر الاهتمام الإسلامي بالشورىٰ ليس في عد الأصوات لذات الأصوات، فالمسلم منطلقه هو الحق والبحث عنه والخضوع له، وأداؤه والدعوة إليه؛ ولذلك فقد يبدأ المسلم من نقطة القلة وينتهي إلىٰ قناعة الكثرة أو إجماعهم ولا يضر المسلم أن يوافقه الآخرون أو لا يوافقونه وليس عليه هدىٰ الناس، بل أداء الأمانة والتعبير عنها(٢) .

أهمية الشورى :

الشورىٰ من أهم دعائم القيادة الناجحة التي تنأىٰ بقرار القائد عن الزلل، وتجنبه مزالق الاستبداد بالرأي والانفراد بالسلطة، وتقيه من الوقوع في الخطأ والتسرع. والقائد الموفق هو من يسعىٰ إلىٰ اختيار مستشاريه ممن يصارحونه بحقائق الأمور في شجاعة كاملة، ثم يجيد الاستماع إليهم في أناة وصبر؛ ليصبح في النهاية وكأنه أضاف عقولهم جميعًا إلىٰ عقله وأفكارهم إلىٰ أفكاره.

---

(١) مجمع اللغة ـ المعجم الوسيط (١ : ٤٩٩)الزمخشري ـ أساس البلاغة (ص ٣٤٠). الفيومي ـ المصباح المنير (١ : ٣٥٠).

(٢) قضايا الفكر المعاصر ـ مجموع محاضرات ـ منظمة الندوة العالمية للشباب الإسلامي، من محاضرة للدكتور عبد الحميد أبو سليمان بعنوان السياسة والحكم في الإسلام (ص٣٧١) بتصرف. الطبعة الثانية ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨م.

حكم الشورى :

جاء في محكم التنزيل قوله تعالى : ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾(٢) .

هاتان الآيتان الكريمتان هما الوحيدتان في القرآن العظيم في موضوع الشورى ، فكانت الآية الأولى في معرض الامتنان من اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ على نبيه ـ ﷺ ـ أن جعله الرحمة المهداة ولم يكن سيئ الخلق ولا خشن الكلام ولا قاسي القلب ولا عنيفًا ولا جافيًا في معاملته لأصحابه ، فأمره بالعفو والاستغفار لهم ومشاورتهم في الأمر .

وفي أمره بالمشاورة أربعة أقوال :

الأول : أنه أمره بمشاورتهم في الحرب ليستقر له الرأي الصحيح فيه : قال الحسن : ما شاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمورهم .

والثاني : أنه أمره بمشاورتهم تأليفًا لهم وتطييبًا لأنفسهم . وهذا قول قتادة والربيع .

والثالث : أنه أمره بمشاورتهم لما علم فيها من الفضل ولتتأسى أمته بذلك بعده ـ ﷺ ـ وهذا قول الضحاك .

الرابع : أنه أمره بمشاورتهم ليستن به المسلمون ويتبعه فيها المؤمنون ، وإن كان عن مشورتهم غنيًا ، وهذا قول سفيان(٣) .

وقال ابن تيمية في تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ (وقد قيل إن اللَّه أمر بها نبيه لتأليف قلوب أصحابه ، وليقتدي به من بعده ، وليستخرج بها

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

(٢) سورة الشورى : الآية ٣٨ .

(٣) النكت والعيون ، تفسير الماوردي (١ : ٣٤٩ ـ ٣٥٠) ، والأحكام السلطانية للماوردي (ص ٤٣ ـ ٤٤) .

منهم الرأي، فيما لم ينزل فيه وحي من أمر الحروب والأمور الجزئية وغير ذلك، فغيره - ﷺ - أولى بالمشورة) (١).

ومن هنا يتبين أن حكم الشورى هو الوجوب، فيجب على الإمام والوالي والقائد أن يستشير كل منهم أهل الخبرة والعلم والرأي.

قال ابن عطية : (والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب هذا ما لا خلاف فيه)(٢). وقال ابن خويزمنداد: (واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون وفيما أشكل عليهم من أمور الدين، ووجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح، ووجوه الكتاب والوزراء والعمال فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها)(٣).

واختلف الفقهاء في حكم الشورى هل هي ملزمة للقائد أو اختيارية؟

فقال جماعة : إن الشورى فيما لم ينزل فيه وحي في مكايدة الحرب وعند لقاء العدو اختيارية تطييبًا للنفوس ورفعًا للأقدار وتألفًا على الدين لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (٤).

والعزم من القائد قد يكون على رأيه أو رأي المستشارين.

وقال آخرون : إن القائد ملزم برأي أغلبية المستشارين من أهل الحل والعقد عملاً بالأوامر القرآنية، ويصبح الأمر عديم الأثر إذا لم يلزم القائد بنتيجته(٥). ولقد راجعت جملة من أقوال المفسرين عند قوله تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾(٦)، فلم أجد منهم من صرح بالقول بأن الشورى ملزمة لمن استشار من الحكام أو القادة بألا يحيد عنها.

---

(١) ابن تيمية - الفتاوى الكبرى - (٢٨ : ٣٨٧).

(٢)و(٣) القرطبي - أحكام القرآن (٤ : ٢٤٩ - ٢٥٠).

(٤) سورة آل عمران : الآية ١٥٩.

(٥) د. وهبة الزحيلي - الفقة الاسلامي وأدلته (٦ : ٧١٦).

(٦) سورة آل عمران : الآية ١٥٩، ولقد راجعت تفسير القرطبي (٤ : ٢٤٩ - ٢٥٠) وابن كثير (١ : ٤٢٠)، وتفسير المنار (٤ : ١٩٩ - ٢٠٠) والكشاف للزمخشري (١ : ٤٧٤ - ٢٧٥)، وروح المعاني للألوسي (٢ : ١٠٦ - ١٠٧)، وتفسير الماوردي (١ : ٣٤٩ - ٣٥٠) وتفسير القاسمي (٤ : ٢٧٦ - ٢٧٧).

ولا أعتقد أن عاقلاً ينكر فضل الشورىٰ وفوائدها ولكن نقطة الخلاف هل هناك دليل شرعي يلزم من استشار أن يأخذ بالمشورة وإلا أثم؟

وليس رجوع الخليفة أو القائد عن رأيه إلىٰ رأي الجماعة دليلاً لإلزامية الشورىٰ؛ لأن المفترض في الخليفة وغيره من أهل النصيحة أن يتبع الحق حيثما ظهر، فإذا لم يتبعه ناله الإثم في أن الحق ظهر له ولم يتبعه، فقد يرجع عن رأيه إلىٰ رأيهم، وقد يرجعون عن رأيهم إلىٰ رأيه، وهذه ثمرات الشورىٰ الطيبة، وإلا فلا فائدة للشورىٰ أصلاً.

ولولي الأمر أن يأخذ بالرأي الذي يرىٰ فيه تحقيق مصلحة الأمة وأنه أكثر نفعًا لها؛ ولأن هذه القيادة والمسؤولية أمانة في عنقه وسيسأله اللّه عنها، ويجب عليه أن يستشير بنص الآية الكريمة وبفعل النبي ـ ﷺ ـ فكان ـ ﷺ ـ يستشير أصحابه كثيراً، ولكن ليس هناك دليل علىٰ إلزامية الشورىٰ.

ولقد روىٰ الإمام البخاري في صحيحه صلح الحديبية: (. . فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينك كتابًا. فدعا النبي ـ ﷺ ـ بعلي ـ رضي اللّه عنه ـ وقال اكتب بسم اللّه الرحمن الرحيم. فقال سهيل بن عمرو، أما الرحمن فواللّه ما أدري ما هو ولكن اكتب (باسمك اللّهم) كما كنت تكتب. قال المسلمون: واللّه لا نكتبها إلا بسم اللّه الرحمن الرحيم. فقال النبي ـ صلىٰ اللّه عليه وسلم ـ اكتب (باسمك اللّهم) ثم قال: هذا ما قاضىٰ عليه محمد رسول اللّه. فقال سهيل: واللّه لو كنا نعلم أنك رسول اللّه ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب (محمد بن عبداللّه). قال النبي ـ ﷺ ـ (واللّه إني لرسول اللّه، وإن كذبتموني. اكتب محمد بن عبداللّه) . . فقال سهيل: (وعلىٰ ألا يأتيك منا رجلٍ وإن كان علىٰ دينك إلا رددته إلينا) فقال المسلمون: (سبحان اللّه، كيف يُرَدّ إلىٰ المشركين وقد جاء مسلمًا). فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول اللّه ـ ﷺ ـ لأصحابه: «**قوموا فانحروا ثم احلقوا**» قال: فواللّه ما قام منهم رجل حتىٰ قال ـ ﷺ ـ ذلك ثلاث مرات . . » إلىٰ آخر الحديث[1].

ففي هذه الحادثة الشهيرة خالف رسول اللّه ـ ﷺ ـ الأكثرية بل الجميع في

(١) البخاري ـ الجامع الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب الشروط في الجهاد (٣ : ١٨٢).

عدة مواقف كما هو واضح .

فإن قال قائل هذا رسول اللّه - ﷺ - وهو مسدد إلىٰ الصواب ، وأين بقية الناس منه اليوم؟ وأنه خاص به فنحن نعلم بذلك ونؤمن به ، وأما أنه خاص به فأين دليل الخصوص؟ وهو إنما بعث مشرعًا ليقتدىٰ به ، وإن أصر المجادل علىٰ أن ذلك كان وحيًا غير متلو أخذًا من قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾(١) . قلنا إذن قد جاء الوحي بمخالفة الأكثرية وعدم إلزامية الشورىٰ ، فالحجة أثبت والبينة أكبر(٢) . والأمثلة علىٰ ذلك كثيرة ، كموقف أبي بكر - رضي اللّه عنه - من حروب الردة وإنفاذ جيش أسامة وغيرهما . وقد قرر إمام الحرمين أن الشورىٰ لازمة للإمام المستجمع خلال الكمال ، المجتهد في دين اللّه ؛ لكن مع هذا ينبغي أن يكون الإمام مستقلاً ، ومتبوعًا لا تابعًا ، فهو ينظر في الآراء المختلفة ثم يبلورها في رأي يوحدها ، يقول إمام الحرمين : (وسر الإمامة استتباع الآراء وجمعها علىٰ رأي صائب ، ومن ضرورة ذلك استقلال الإمام ، ثم هو محثوث علىٰ استفادة مزايا القرائح وتلقي الفوائد والزوائد منها فإن في كل عقل مزية ، ولكن اختلاف الآراء مفسدة لإمضاء الأمور ؛ فإذا بحث عن الآراء إمام مجتهد وعرضها علىٰ علمه الغزير ، ونقدها بالسبر والفكر الأصوب من وجوه الرأي ، كان جالبًا إلىٰ المسلمين ثمرات العقول ، ودافعًا عنهم غائلة التباين والاختلاف فكأن المسلمين يتحدون بنظر الإمام وحسن تدبيره وفحصه وتنقيره .

ولابد علىٰ كل حال من كون الإمام متبوعًا غير تابع . ولو لم يكن مجتهدًا في دين اللّه للزمه تقليد العلماء واتباعهم وارتقاب أمرهم ونهيهم وإثباتهم ونفيهم ، وهذا يناقض منصب الإمامة ومرتبة الزعامة)(٣) .

ورأينا في ذلك أن الشورىٰ واجبة علىٰ القائد ولابد له أن يستشير ويستنير أخذًا بقوله تعالىٰ : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٤) . فالإسلام لا يهتم بالأكثرية إلا إذا كانت عاقلة فاضلة ، عالمة خبيرة ، قال تعالىٰ : ﴿هَلْ

---

(١) سورة النجم : الآية ٣ .

(٢) د . حسن هويدي - الشورىٰ في الإسلام (ص ٧ - ١٢) بتصرف .

(٣) الجويني - الغياثي ، غياث الأمم في التياث الظلم (ص ٨٦ - ٨٨) .

(٤) سورة الأنبياء : الآية ٧ .

يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[1] . فالشورىٰ ركن أساسي من أركان الحكم الإسلامي ، ولكن لا يشترط أن تكون في مجلس شورىٰ أو في برلمان ، أو مجلس أمة أو مجلس شعب ، وإنما الحاكم ملزم أن يختار صفوة من العلماء والخبراء بشؤون الدولة ـ بشؤون الدنيا والدين ـ فيستشيرهم في أمور الحكم ، والأصل فيمن يستشار أن يكون حائزاً الثقة والخبرة في مجال الاختصاص ، ويكون علىٰ اطمئنان من إخلاصه ونصحه وأمانته وأهليته ، وينبغي في المستشار أن يكون موفور العقل والتقىٰ والبراءة من الهوىٰ[2] .

وهناك فرق بين الديمقراطية والشورىٰ ، فالديمقراطية حكم الشعب ، وحكم الشعب لا وجود له في الإسلام ، والشورىٰ هي حكم اللّه ، فأي نظام يحقق مبدأ الشورىٰ يكون نظاماً إسلامياً .

وفي ختام قوله تعالىٰ : ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ إيماء إلىٰ وجوب إمضاء العزيمة متىٰ استكملت شروطها التي من أهمها الشورىٰ . وسر هذا أن نقض العزائم خور في النفس وضعف في الأخلاق ، يجعل صاحبه غير موثوق به في قول ولا فعل ، ولا سيما إذا كان رئيس حكومة أو قائد جيش ؛ ومن ثم لم يصغ النبي ـ ﷺ ـ إلىٰ مشورة من رجع عن رأيه الأول في الخروج إلىٰ أُحد حين لبس النبي ـ ﷺ ـ لأمته وخرج إذ رأىٰ أن هذا شروع في العمل بعد أن أخذت الشورىٰ حقها[3] التي يقول الله فيها : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[4] . إنما جاءت في سياق المدح لهم لاستجابتهم لربهم وإقامتهم الصلاة ثم ذكر أن أمرهم شورىٰ بينهم أن هذه صفة من صفاتهم أي يتشاورون في الأمور ـ وقال ابن العربي (الشورىٰ ألفة للجماعة وصقال للعقول وسبب إلىٰ الصواب ، وما تشاور قوم إلا هدوا) ـ ولقد كانت الأنصار قبل قدوم النبي ـ ﷺ ـ إذا أرادوا أمراً تشاوروا فيه ثم عملوا عليه فمدحهم اللّه تعالىٰ به . قاله النقاش .

وقال الحسن : أي أنهم لإنقيادهم للرأي في أمورهم متفقون لا يختلفون فمدحوا باتفاق كلمتهم ، وقد كان النبي ـ ﷺ ـ يشاور أصحابه في الآراء

---

(١) جزء من الآية ٩ من سورة الزُّمر .

(٢) القلعي ـ تهذيب الرياسة وترتيب السياسة (ص ١٨٨) تحقيق ابراهيم عمير .

(٣) تفسير المراغي (٤ : ١١٥) دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

(٤) جزء من الآية ٣٨ من سورة الشورىٰ .

المتعلقة بمصالح الحروب، ولم يكن يُشاورهم في الأحكام لأنها منزلة من عند اللَّه علىٰ جميع الأقسام من الفرض والندب، والمكروه والمباح والحرام. وأما الصحابة فكانوا يتشاورون في الأحكام ويستنبطونها من الكتاب والسنة، وأول ما تشاور فيه الصحابة الخلافة؛ فإن النبي - ﷺ - لم ينصّ عليها(١).

نماذج من الاستشارات في العهد النبوي والخلافة الراشدة

لقد أمر اللَّه نبيه الكريم بالشورىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**﴾(٢). كما امتدح هذه الأمة بأن أمرهم شورىٰ بينهم في قوله: ﴿**وأمرهم شُورىٰ بَيْنَهُمْ**﴾(٣). ولقد كان ﷺ خلقه القرآن كما أخبرت عائشة أم المؤمنين رضي اللَّه عنها عندما سئلت عن خلق النبي - ﷺ - فقالت: «**كان خلقه القرآن**»(٤).

وعن أبي هريرة - رضي اللَّه عنه - قال: «ما رأيت أحدًا أكثر مشورة لأصحابه من رسول اللَّه - ﷺ -»(٥).

فمن هذه النصوص القرآنية ومما ذكره أصحاب السير نجد أن النبي - ﷺ - كان يستشير أصحابه، ومن ذلك ما وقع له في غزوة بدر لما تحقق مسير قريش لحماية العير استشار الناس فقام أبو بكر - رضي اللَّه عنه - فقال وأحسن، ثم قام عمر - رضي اللَّه عنه - فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن الأسود فقال كلامه المشهور: واللَّه لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ ﴿**فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾(٦). ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون.. ثم قال عليه الصلاة والسلام: «**أشيروا عليّ أيها الناس**»(٧)..

وقد روىٰ الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: استشار النبي - ﷺ -

---

(١) تفسير القرطبي (١٦ : ٣٦ - ٣٧)، وتفسير المراغي (٢٥ : ٥٢).
(٢) جزء من الآية ١٥٩ من سورة آل عمران.
(٣) جزء من الآية ٣٨ من سورة الشورىٰ.
(٤) رواه مسلم في صحيحه، كتاب المسافرين، باب صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض؟ (٦ : ٢٦) ورواها الإمام أحمد في مسنده (٦ : ٩١).
(٥) أخرجه الترمذي في سننه في كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في المشورة (٤ : ٢١٤).
(٦) جزء من الآية ٢٤ من سورة المائدة.
(٧) ابن كثير - السيرة النبوية (٢ : ٢٩١ - ٢٩٢).

مخرجه إلىٰ بدر فأشار عليه أبو بكر، ثم استشار فأشار عليه عمر، ثم استشارهم فقال بعض الأنصار: إياكم يريد رسول الله يا معشر الأنصار[1].

وروىٰ ابن إسحاق في سيرته أنه - عليه الصلاة والسلام - لما وصل بدراً نزل بأدنىٰ ماء من مياه بدر فقال له الحباب بن المنذر بن الجموح: يا رسول اللّه أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه اللّه ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، قال يا رسول اللّه فإن هذا ليس بمنزل، فامض بالناس حتىٰ تأتي أدنىٰ ماء من القوم فتنزله، ثم نغوّر ما وراءه من القُلب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال رسوله اللّه - ﷺ - « **لقد أشرت بالرأي** »[2].

كذلك استشار - عليه الصلاة والسلام - في شأن الأسارىٰ، فعن عبداللّه ابن مسعود - رضي اللّه عنه - قال: لما كان يوم بدر جيء بالأسارىٰ، قال رسول اللّه - ﷺ - ما تقولون في هؤلاء الأسارىٰ . . القصة بطولها[3].

ولقد استشار النبي - ﷺ - أصحابه قبل غزوة أحد في الخروج إليها، وكان رأي أكثر الشباب الخروج حتىٰ لا تقول قريش جبنا عنهم وضعفنا، فأخذ النبي - ﷺ - برأيهم وخرج إلىٰ قريش [4].

واستشار عليًا وأسامة في فراق عائشة - رضي اللّه عنها - وشاور أصحابه يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ فأبىٰ ذلك السعدان، سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة فترك ذلك .

وشاورهم يوم الحديبية في أن يميل علىٰ ذراري المشركين فقال الصديق - رضي اللّه عنه -: إنا لم نجئ لقتال، وإنما جئنا معتمرين فأجابه إلىٰ ما قال.

فكان - ﷺ - يشاورهم في الحروب وغيرها[5]

---

(١) المصدر نفسه (٢ : ٢٩٣) وعزاه للإمام أحمد وقال إن سنده ثلاثي صحيح علىٰ شرط الصحيح.
(٢) ابن هشام - السيرة النبوية (٢ : ٤٠٢).
(٣) أخرجه الترمذي في أبواب الجهاد (٣ : ١٢٩) ط. السلفية.
(٤) ابن سيد الناس - عيون الأثر (٢ : ٨) غزوة أحد.
(٥) ابن كثير - تفسير القرآن العظيم (١ : ٤٢٠).

وأما في عهد الخلافة الراشدة فقد كانت أول استشارة حدثت هي في انتخاب أبي بكر الصديق ـ رضي اللّه عنه ـ حيث اجتمع المسلمون في سقيفة بني ساعدة بالمدينة، وتشاوروا في الأمر، وقد اقترح أبو بكر أن يكون الخليفة واحدًا من اثنين عمر بن الخطاب أو أبا عبيدة بن الجراح، فأنهىٰ عمر بن الخطاب الأمر بسرعة؛ إذ مد يده إلىٰ أبي بكر وبايعه، فبايعه الناس(١).

مشاورة أبي بكر الصحابة في غزو الروم

لما أراد أبو بكر ـ رضي اللّه عنه ـ غزو الروم دعا عليًا وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبىٰ وقاص، وسعيد بن زيد وأبا عبيدة بن الجراح، ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم ـ رضي اللّه عنهم ـ فدخلوا عليه فقال أبو بكر ـ رضي اللّه عنه ـ: إن اللّه ـ عز وجل ـ لا تحصىٰ نعماؤه، ولا تبلغ جزاءها الأعمال فله الحمد قد جمع اللّه كلمتكم، وأصلح ذات بينكم، وهداكم إلىٰ الإسلام، ونفي عنكم الشيطان فليس يطمع أن تشركوا به ولا تتخذوا إلهًا غيره، فالعرب اليوم بنو أم وأب، وقد رأيت أن أستنفر المسلمين إلىٰ جهاد الروم بالشام؛ ليؤيد اللّه المسلمين ويجعل كلمته العليا مع أن للمسلمين في ذلك الحظ الأوفر؛ لأنه من هلك منهم هلك شهيدًا وما عند اللّه خير للأبرار، ومن عاش عاش مدافعًا عن الدين مستوجبًا علىٰ اللّه ثواب المجاهدين، وهذا رأيي الذي رأيته فليشر امرؤ عليّ برأيه. فقام عمر ووافقه علىٰ رأيه ثم قام عبدالرحمن بن عوف وأبدىٰ رأيه، في نوعية الجهاد الذي يجاهد به الروم، ولابد من حشد كبير لهم من باقي القبائل العربية، ثم قام عثمان ورأىٰ ما رآه أبو بكر وهكذا أبدىٰ كل منهم رأيه بأمانة وإخلاص(٢).

مشاورة عمر الصحابة –رضي اللّه عنهم– في الخروج إلى فارس

استشار عمر بن الخطاب ـ رضي اللّه عنه ـ الناس في غزو فارس ليرىٰ ما عندهم فقال العامة: (سر وسر بنا معك) فقال: استعدوا وأعدوا فإني سائر إلا أن يجيء رأي هو أمثل من ذلك، ثم أرسل في طلب كبار الصحابة مثل علي بن

---

(١) محمد الخضري ـ محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (١ : ٢٣٢) الطبعة الثانية مطبعة مصطفىٰ محمد.

(٢) محمد يوسف الكاندهلوي ـ حياة الصحابة (١ : ٦٥٠ ـ ٦٥٢) بتصرف يسير.

أبي طالب وطلحة والزبير، وعبدالرحمن بن عوف فحضروا عنده واستشارهم في خروجه على رأس الجيش فقال: احضروني الرأي فإني سائر. فوافق رأي طلحة رأي علي بن أبي طالب في الخروج، وخالفهم العباس بن عبدالمطلب وعبد الرحمن بن عوف، فرأيا بقاءه بالمدينة، ونهياه عن الخروج، فقال عبد الرحمن: فما فديت أحداً بأبي وأمي بعد النبي - ﷺ - قبل يومئذ ولا بعده فقلت: بأبي وأمي، اجعل عجزها بي، وأقم وابعث جنداً، فقد رأيت قضاء اللّه لك في جنودك قبل وبعد فإنه إن يهزم جيشك ليس كهزيمتك، وإنك إن تقتل في أنف الأمر خشيت ألا يكبر المسلمون وألا يشهدون ألا إله إلا اللّه أبداً.

وبينما هم كذلك إذ وصل كتاب سعد بن أبي وقاص، وكان على بعض صدقات نجد فقال عمر: أشيروا علي برجل فقال عبد الرحمن: وجدته، قال: من هو؟ قال: الأسد في براثنه، سعد بن أبي وقاص. ومالأه أولو الرأي[1].

أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي اللّه عنه - يعرض أمر الجهاد على العامة ويسمع منهم ويوافقهم؛ إذا لم يأت رأي أمثل من رأيهم، ثم يستشير الخاصة ممن عرفوا بالرجاحة في العقل والأمانة في الرأي يشرك أكبر عدد من العقول في التفكير والتدبير والخروج برأي أقرب إلى الصواب، فإن وفق فالحمد والمنة لله، وإن أخطأ فلم يكن وحده الذي أخطأ وإنما شاركوه في خطئه، وتحملوا معه تبعاته، وكانوا مسؤولين عن نتيجة مشورتهم.

نموذج للشورى بين القادة قبل المعركة

وإذا رجعنا إلى تاريخ السلف الصالح وجدنا أن مبدأ الشورى يطبقه قادة المسلمين في غزوة الروم في أيام خليفة رسول اللّه - ﷺ - أبي بكر الصديق - رضي اللّه عنه - ففي أواخر السنة الثانية عشرة من الهجرة اختار أبو بكر الصديق - رضي اللّه عنه - أربعة من قادة المسلمين لفتح الشام، فاختار عمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان وأبا عبيدة عامر بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة وتخير لكل منهم جنده وأمر كلا منهم أن يسير من طريق معين سماه له وعين لكل منهم الولاية التي يتولاها بعد الفتح. وكان عدد جميع الجيوش ستة وثلاثين ألفاً.

(١) الطبري - تاريخ الأمم والملوك (٣ : ٤٨٠).

علم هرقل بذلك فأراد أن يقاتل المسلمين متفرقين فتكاتب القادة المسلمون الأربعة وتشاوروا في الأمر وكان رأي عمرو بن العاص الاجتماع، فاستحسنوا الرأي وكان موعدهم اليرموك.

وكتب أبو بكر إلىٰ خالد بن الوليد أن يلحق بهم فخرج بعشرة آلاف وكان عدد جنود الروم ـ علىٰ ماحكاه الطبري ـ مائتين وأربعين ألفاً.

جاء خالد بن الوليد فوجد المسلمين يقاتلون متساندين، أي كل أمير يُحرك جنوده مستقلاً عن غيره ـ تعدد القيادات ـ فجمع خالد قادة الجيوش وخطب فيهم فقال: (إن هذا اليوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم وأريدوا اللّٰه بعملكم فإن هذا اليوم له ما بعده، ولا تقاتلوا قوماً علىٰ نظام وتعبئة وأنتم علىٰ تساند وانتشار؛ فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي، وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه الرأي من واليكم ومحبته، قالوا: فهات فما الرأي؟ قال: إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرىٰ أننا سنساير. ولو علم بالذي كان ويكون لكان قد جمعكم، إن الذي أنتم فيه أشد علىٰ المسلمين مما قد غشيهم، وأنفع للمشركين من إمدادهم ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم، فقد انفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه من إن دان لأحد من أفراد الجنود، ولا يزيده عليه إن دانوا له، إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند اللّٰه ولا عند خليفة رسول اللّٰه، هلموا فإن هؤلاء قد تهيأوا وهذا يوم له ما بعده إن رددناهم إلىٰ خندقهم اليوم لم نزل نردهم، وإن هزمونا لم نفلح بعدها، فهلموا فلنتعاور الإمارة فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غداً ـ طلب توحيد القيادة ـ والآخر بعد غد حتىٰ يتأمر كلكم ودعوني إليكم اليوم فأمروه.

فعبأ خالد الجيش تعبئة لم تعبئها العرب قبل ذلك وقابل الروم، فقال رجل لخالد: ما أكثر الروم وأقل المسلمين! قال خالد: ما أقل الروم وأكثر المسلمين! إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال، واللّٰه لوددت أن الأشقر [1] براء من توجيه وأنهم أضعفوا في العدد [2].

---

(١) الأشقر فرس لخالد بن الوليد.

(٢) محمد الخضري ـ محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (١ : ٢٧٤ ـ ٢٧٧).

فهذا موقف عظيم كان للشورىٰ دور هام بين قادة الجيوش في اجتماع كلمتهم واتحاد رايتهم تحت قائد واحد، فالاتحاد قوة والتفرق ضعف. وحمد المسلمون مشورة خالد وقيادته وأيدهم اللّٰه بنصره، وهزم عدوه وثبت أقدام المسلمين.

تطبيق مبدأ الشورى في النظام العسكري الحديث

إن القيادات العسكرية الحديثة أشبه بمجلس شورىٰ في تشكيلها؛ فكل قائد له هيئة استشارية تقدم له المشورة والرأي والحلول المقترحة، وأفضل ما توصلوا إليه، وهو صاحب القرار أخيراً في أن يأخذ بما أشاروا عليه أو يرجع إلىٰ رأيه.

ويسمىٰ هؤلاء الأفراد بالأركان، وهذا الاسم يدل دلالة واضحة علىٰ أهمية الفرد منهم فهو بالنسبة إلىٰ العمل القيادي أشبه بالركن الذي يقام عليه البناء؛ فمن الصعب الاستغناء عن آرائه ومشورته وخبرته، ويقال لهذه الهيئة مجتمعة هيئة الأركان العامة علىٰ مستوىٰ الجيش وهيئة أركان القائد علىٰ مستوىٰ قيادة الوحدة.

فركن الإدارة مسؤول عن الأعمال الإدارية، ويقدم مشورته في حدود اختصاصه، وركن العمليات هو المسؤول عن العمليات التدريبية والتعليمية في الوحدة القتالية في الميدان، وركن الاستخبارات مسؤول عن جمع المعلومات وتقديمها لقائده في حدود مسؤولياته، وركن التموين هو المسؤول عن حاجات الوحدة.

وركن خاص - شخصي - يختاره القائد؛ إما أن يكون مساعده أو أحد ضباط الوحدة ممن تتوافر فيه ميزات قيادية، ويكون له رأي راجح.

وهناك لجان عليا مشكلة بصفة دائمة تجتمع بشكل دوري في الأعمال العادية تقوم بدراسة كل ما يُعرض عليها في جو استشاري وتسمىٰ هذه اللجنة لجنة الضباط العليا، وهي عادة تشكل من رئيس هيئة الأركان العامة، وقادة القوات المسلحة البرية والجوية وقوات الدفاع الجوي والبحرية، ومن يرىٰ رئيس الأركان ضرورة عضويته فيها. فهذا المجلس يشتمل علىٰ كبار ضباط القوات

المسلحة، ممن توافرت لديهم الخبرة والمعرفة؛ وفي ذلك تحقيق لمبدأ الشورىٰ الذي مدح اللّٰه به المؤمنين بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[1].

(1) سورة الشورىٰ: الآية ٣٨.

الفصل الرابع

إعداد المعلومات للمعركة

ويحتوي المباحث التالية :

المبحث الأول: العيون (الجواسيس) والعملاء

المبحث الثاني: الطلائع والسرايا

المبحث الثالث: الاستخبارات (المخابرات)

الفصل الرابع
إعداد المعلومات للمعركة

التمهيد :

إن أهم ما يحتاج إليه قائد المعركة، بالإضافة إلى السلاح والرجال المحاربين هي المعلومات عن عدوه؛ فالمعلومات تشكل العنصر الثالث للنصر على العدو.

وكان القادة على اختلاف مراتبهم يبذلون اهتمامًا كبيراً في جمع المعلومات عن العدو والأرض التي ستدور عليها المعركة ، وكثيراً ما كان القائد نفسه يباشر أعمال جمع المعلومات أو استجواب الأسرى والعيون .

(ونظراً لأهمية الأخبار والحرص على معرفتها وعدم تسربها إلى الأعداء، نجد أن معظم الدول القديمة والحديثة تحرص على جمع هذه المعلومات عن الدول المعادية وتحيط معسكراتها ومواقعها الحربية وقواتها وخططها الحربية وكل ما يتعلق بالأمن بالسرية التامة، وتتخذ لذلك الحراسات المشددة مبالغة في كتمان الأخبار)[1] .

وإذا عدنا إلى الآية الكريمة[2] التي تحثنا على إعداد القوة وجدنا أن جمع المعلومات عن العدو نوع من أنواع القوة ، المطالبين بإعدادها حسب استطاعتنا .

كما أن إخفاء الخطط العسكرية من أن يعلمها العدو والمحافظة على أسرارنا نوع من أنواع القوة التي أمرنا بإعدادها، مع أخذ الحيطة والحذر.

فالحصول على المعلومات التي تبين نواي العدو وتكشف عن مخططاته

---

(١) أحمد هاني ـ الجاسوسية بين الوقاية والعلاج (ص ٣٢ ـ ٣٣)بتصرف.

(٢) قوله تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ...﴾ الآية ٦٠ من سورة الأنفال، جاءت في مقدمة الباب الثاني من هذا البحث وشرحت شرحًا وافيًا.

وتحركاته تعطي لقيادة الجيش الفرصة للاستعداد واتخاذ الإجراءات المضادة لأعماله، وتفوت على العدو فرصة تحقيق أهدافه ومطامعه .

كما أنه لا يمكن وضع خطة عسكرية ناجحة إلا بعد الحصول على المعلومات المسبقة عن العدو، وإلا كانت القوة التي تقاتل دون معلومات مسبقة عن عدوها، كملاكم أعمى يحاول أن يضرب خصمًا غير مرئي، وهو يُحاول أن يتفادى الضربات التي لا يعلم من أين تأتيه .

لقد كانت الوسائل القديمة لجمع المعلومات تتم عن طريق الجواسيس والعيون والعملاء والطلائع والسرايا، ثم تطورت الوسائل الخاصة بجمع المعلومات، فلم تعد مقصورة على الجواسيس والعملاء؛ إذ استحدثت الوسائل المتقدمة للتجسس من أقمار صناعية وآلات الكترونية لالتقاط المحادثات وتسجيلها .

(وهناك أجهزة الاستنصات المتقدمة فقد توصل العلم إلى اختراع ما يسمى بالصندوق الفضي، وهي آلة تلصق بأي جهاز هاتف وتكفي إدارة رقم من يراد الاستماع إلى مكالماته مرة واحدة حتى ولو لم يقرع الجرس في الطرف الآخر وعندها يمكن الاستماع إلى جميع المكالمات ويصبح الجهاز الملصق به هذه الآلة مفتوحًا بصورة دائمة رفعت السماعة أم بقيت على الجهاز)[1] .

وأصبح التجسس لجمع المعلومات في العصر الحديث له وسائل كثيرة ومجالات متعددة، منها ما كان يُستعمل قديمًا، ومنها ما اخُترع حديثًا ولم يسبق له في القديم مثيل. وبناء على ذلك فإن كل دولة أنشأت لها جهازًا خاصًا يُسمى الاستخبارات، مهمته جمع المعلومات، وسنتكلم في المباحث التالية عن جميع هذه الوسائل بشيء من التفصيل .

---

(١) جريدة الأهرام المصرية الصادرة بتاريخ ٢٥ يوليو ١٩٧٥ م .

المبحث الأول

العيون (الجواسيس) والعملاء

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : العيون (الجواسيس)

العين اسم مشترك لأشياء مختلفة فمنها الباصرة وعين الماء والجاسوس ورئيس الجيش وطليعة الجيش، وكبير القوم، وشريفهم[(١)] وجمعها عيون .

والذي نريده هنا الجاسوس، فالعين : هي جاسوس القوم الذي يطلع علىٰ عورات المسلمين وينهي الخبر إلىٰ دارهم[(٢)] . والجاسوس : هو الشخص الذي يطلع علىٰ عورات المسلمين وينقل أخبارهم للعدو[(٣)] . وفي شرح مسلم أن العين هي الجاسوس، وأن الجاسوس يسمىٰ عينًا ؛ لأن عمله بعينه أو لشدة اهتمامه بالرؤية واستغراقه فيها، فكأن جميع بدنه صار عينًا[(٤)] .

كما عرف الجاسوس في القانون الدولي : أنه الشخص الذي يعمل في خفية أو تحت ستار مظهر كاذب في جمع أو محاولة جمع معلومات عن منطقة الأعمال الحربية لإحدىٰ الدول المتحاربة، بقصد إيصال هذه المعلومات لدولة العدو[(٥)] .

فمن التعاريف السابقة يظهر لنا عمل العين والجاسوس، سواء كان متمثلاً في العميل أو الطلائع أو السرايا، أو كانت هذه المعلومات لمصالح دولته كالجاسوس أو ضد مصالح دولته كالعميل، وسنعرض لبعض النماذج من العيون التي كانت علىٰ عهد رسول اللّه ـ ﷺ ـ أو الخلافة الراشدة وسيتضح لنا

---

(١) الفيومي ـ المصباح المنير (٢ : ٩٢) تصحيح مصطفي السقا مطبعة مصطفي البابي الحلبي .
مجمع اللغة العربية ـ المعجم الوسيط (٢ : ٦٤١) .

(٢) حاشية شهاب الدين أحمد الشلبي علىٰ شرح الكنز (٣ : ٢٦٨) مطبوع مع تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق ـ عز الدين عثمان بن علىٰ الزيلعي الحنفي، دار المعرفة بيروت، ط٢ .

(٣) الخرشي علي خليل (٢ : ١٤٠) دار الصياد .

(٤) شرح مسلم للشيخ محمد الذهني (٢ : ١٤٠) مطبعة مصطفي البابي الحلبي، ١٣٧٧ هـ .
الشوكاني ـ نيل الأوطار (٨ : ١٠) . وابن حجر ـ فتح الباري (٦ : ١٦٨) .

(٥) د. أبو هيف ـ القانون الدولي العام (ص ٨٤٦) الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية .

أن رسول اللَّه - ﷺ - كانت له نظرة خاصة إلىٰ من يستطيع أن يقوم بهذا العمل وله مواصفات واستعدادات فطرية أدت إلىٰ اختياره - ﷺ - لبعض الصحابة للقيام بهذا الواجب دون غيرهم .

اختيار النبي - ﷺ - حُذيفة بن اليمان عينًا له ليلة الأحزاب

روىٰ مسلم في صحيحه عن حُذيفة - رضي اللَّه عنه - أن النبي - ﷺ - كان ليلة من ليالي الخندق يُصلي في ليلة شاتية شديدة البرد فقال : «ألا رجل يأتيني بخبر القوم جعله اللَّه معي يوم القيامة ، فسكتنا فلم يجبه منا أحد ثم قال : ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله اللَّه معي يوم القيامة . فسكتنا فلم يجبه منا أحد ، ثم قال : ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله اللَّه معي يوم القيامة . فسكتنا فلم يجبه منا أحد ، فقال قم يا حذيفة ، فأتنا بخبر القوم فلم أجد بدًا إذ دعاني باسمي أن أقوم ، قال : إذهب فأتني بخبر القوم ولا تذعرهم[(١)] عليّ فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمام حتىٰ أتيتهم فرأيت أبا سفيان يصلىٰ ظهره بالنار فوضعت سهمًا في كبد القوس فأردت أن أرميه فذكرت قول رسول اللَّه - ﷺ - ولا تذعرهم عليّ ، ولو رميته لأصبته فرجعت وأنا أمشي في حمام ، فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم وفرغت قررت[(٢)] فألبسني رسول اللَّه - ﷺ - من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها فلم أزل نائما حتىٰ أصبحت قال لي : قم يا نومان»[(٣)] .

وذكر أن أبا بكر قال : يا رسول اللَّه ابعث حذيفة فقلت ، دونك واللَّه - القصة بتمامها[(٤)] .

وفي الصحيحين من حديث محمد بن المنكدر قال سمعت جابرًا يقول : قال رسول اللَّه - ﷺ - يوم الأحزاب : (من يأتينا بخبر القوم ؟ فقال الزبير : أنا . ثم قال : من يأتينا بخبر القوم؟ فقال الزبير : أنا ، ثم قال : من يأتينا بخبر القوم ؟ فقال الزبير : أنا ، ثم قال : إن لكل نبي حواري وإن حواري[(٥)]

---

(١) لا تذعرهم عليّ (أي لا تفعل أمرًا يكون سببًا في أخذهم لك فإنك رسولي) .

(٢) قررت (أي رجع إليّ البرد الذي كنت أشعربه قبل ذهابي) .

(٣) صحيح مسلم(٣ : ١٤١٤ - ١٤١٥) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

(٤) ذكرها صاحب سبل الهدىٰ والرشاد في سيرة خير العباد (٤ : ٥٤٦ - ٥٤٩) .

(٥) الحواري : الناصر . انظر الرازي - مختار الصحاح (ص ١٦١) وقوله تعالىٰ : ﴿قال الحواريون نحن أنصار الله﴾ آخر آية في سورة الصف . وحواريّ (بتشديد الياء وفتحها) ويجوز بكسرها قال القاضي : اختلف في ضبطه فضبه جماعة من المحققين بفتح الياء كمصرخيّ وضبطه أكثرهم بكسرها والحواري الناصر . انظر فتح الباري (٦ : ١٣٧) .

الزبير)[١] .

وذكر أن حُذيفة قبض على يد رجل عن يمينه فقال من أنت ؟ فقال معاوية ابن أبي سفيان . وقبض على يد الآخر عن يساره فقال من أنت فقال : أنا فلان . وفعل ذلك خشية أن يفطن له فبدرهم بالمسألة[٢] .

من النموذج السابق يتضح لنا أنه لم يكن اختيار رسول اللّه ـ ﷺ ـ وأبو بكر الصديق ـ لحُذيفة بن اليمان ليقوم بهذه المهمة مصادفة أو اختياراً عفوياً ؛ وإنما لما يتمتع به حذيفة بن اليمان ـ رضي اللّه عنه ـ من صفات ربما لا تكون في غيره ، ومن تلك الصفات :

١ـ سرعة بديهته ـ رضي اللّه عنه ـ وحُسن التصرف في المواقف الحرجة ، ويتضح ذلك عندما أحس أبو سفيان ، وهم مجتمعون حول النار أنه ربما يكون دخل بينهم دخيل فقال : ليتأكد كل منكم من صاحبه فبدأ حُذيفة بالسؤال قبل أن يسأل فيكشف أمره .

٢ـ شجاعته ، وذلك بأن يدخل معسكر أعدائه بكل هدوء وثقة بنفسه ، فكأنه داخل بيته .

٣ـ اشتهاره بالكتمان وحفظ الأسرار ، حتى إن النبي ـ ﷺ ـ أخبره بأسماء المنافقين الذين أرادوا الغدر برسول اللّه ـ ﷺ ـ بعد عودته من غزوة تبوك ، وأمره أن يكتم [٣] . وكان عمر بن الخطاب ـ رضي اللّه عنه ـ لا يصلي على أحد في خلافته حتى يرى حُذيفة يصلي عليه .

وما جاء في مختصر سياسة الحروب : (لتكن عيونك وجواسيسك ممن تثق بصدقه ونصيحته ، فإن الظنين لا ينفعك خبره وإن كان صادقاً ، والمتهم عين عليك لا لك)[٤] .

---

(١) متفق عليه رواه البخاري في صحيحه في كتاب الجهاد والسير ، باب ٤ فضل الطليعة ح رقم ٢٨٤٦ انظر فتح الباري ط السلفية(٦ :٥٢) . وفي موضع آخر ح رقم (٢٨٤٧) انظر ج٦ ص ٥٣ .
ورواه مسلم في صحيحه (٤ : ١٨٧٩) ح رقم ٤٨ (٢٤١٥) ط الإفتاء / الحلبي تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .

(٢) ابن سيد الناس ـ عيون الأثر (٢ : ٩٠ ـ ٩١) تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ـ دار الآفاق ، بيروت .

(٣) سبل الهدى والرشاد من سيرة خير العباد (٥ : ٦٧٠) .

٤ـ إن الحديث الشريف الذي يرويه حذيفة حيث يقول: «كان الناس يسألون النبي ـ ﷺ ـ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني»(١). له دلالته ومعناه من حيث النباهة والذكاء والفطنة والفراسة التامة وقوة الملاحظة. ولذلك لابد لنا من تدريب الأفراد المكلفين بمهمة التجسس، وإعطائهم دورات في العمل التجسسي الحديث، وكيفية استعمال الأجهزة الحديثة الخاصة بالتصنت ودراسة علم النفس حول طريقة الدخول مع الناس في الحديث؛ لأن الشخص الذي لا تعرفه كالصخرة الملساء فابحث عن الثقب الذي تدخل منه إليه، كما لابد للجاسوس من ثقافة عامة يحتاج إليها ولذلك قالوا: (أحكم أمر جواسيسك، فإنه رأس أمر الحرب وتدبير مكايدة العدو، واعلم أنه إن ظفر عدوك بأحد منهم فعاقبه دعاه ذلك وغيره إلى أن يأتوك بالأخبار من غير أصولها وعلى غير حقائقها فتوق ذلك عليهم جهدك، ولتكن عيونك وجواسيسك ممن تثق بصدقه ونصيحته؛ فإن الظنين لا ينفعك خبره وإن كان صادقًا، والمتهم عين عليك لا لك.

لا تعرفن أحدًا من الجواسيس صاحبه فإنه لا تؤمن ممالأتهم العدو وتواطؤهم على الغش أو أن يورط بعضهم بعضًا.

توق أن يعرف أحد من أهل عسكرك عيونك وجواسيسك فيتحدث عنهم في المجالس ويشار إليهم بالأصابع.

إن اختلف جواسيسك في الخبر فلا تجعل ذلك ذنبًا على أحد منهم فتفسد عليك أخبارهم، اختلفوا وكلهم قد صدقك.

إن عثرت على أحد من جواسيسك فاستر ذلك، ولا تعاقبه عليه واستصلحه أو نحّه في لطف)(٢).

مما ذكر يظهر لنا أهمية العيون والجواسيس والمحافظة عليهم، والطريقة الحكيمة في معاملتهم وحسن اختيارهم وانتقائهم، فهذه الحكم جديرة بالدراسة والتقويم، ولذلك نرى رسول الله ـ ﷺ ـ له نظرة خاصة في اختيار أصحابه لهذه المهمات.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٤: ١٧٨).

(٢) الهرثمي ـ مختصر سياسة الحروب (ص ٢٣ـ٢٤).

بعض نماذج من العيون

كان العباس بن عبدالمطلب يرقب حركات قريش واستعداداتها العسكرية لغزوة أحد ، فلما تحرك هذا الجيش بعث العباس رسالة مستعجلة إلىٰ النبي -ﷺ- ضمنها جميع تفاصيل الجيش . وأسرع رسول العباس بإبلاغ الرسالة وجَدّ في السير حتىٰ أنه قطع الطريق بين مكة والمدينة ، التي تبلغ مسافتها خمسمائة كيلومتر في ثلاثة أيام وسلم الرسالة إلىٰ النبي -ﷺ- وهو في مسجد قباء .

وقرأ الرسالة علىٰ النبي -ﷺ- أبي بن كعب فأُمر بالكتمان وعاد مسرعًا إلىٰ المدينة وتبادل الرأي مع قادة المهاجرين والأنصار(1) .

وشاع خبر قريش ومسيرهم في الناس وأرجفت اليهود والمنافقون .

وقدم عمرو بن سالم الخزاعي في نفر قد فارقوا قريشًا من ذي طوىٰ فأخبروا النبي -ﷺ- الخبر وانصرفوا ، وبعث رسول اللَّه -ﷺ- أنسًا ومؤنسًا ابني فاضلة الظفريين ليلة الخميس لخمس ليال مضت من شوال عينين ، فاعترضا لقريش بالعقيق ، وعادا إلىٰ رسول اللَّه -ﷺ- فأخبراه بخبرهم ، ثم بعث رسول اللَّه -ﷺ- الحباب بن المنذر بن الجموح إليهم أيضًا ، فنظر إليهم وعاد وقد حزر عددهم وما معهم ، فقال رسول اللَّه -ﷺ-: لا تذكر من شأنهم حرفًا . حسبنا اللَّه ونعم الوكيل ، اللَّهم بك أجول وبك أصول (2) .

ومما روي في هجرة النبي -ﷺ- وأبي بكر الصديق -رضي اللَّه عنه- أنهما خرجا من (خوخة) في ظهر بيت أبي بكر ليلاً إلىٰ الغار فمكثا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبداللَّه بن أبي بكر وهو غلام ثقف(3) لقف ، فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش كبائت ، فلا يسمع أمرًا يكادانِ به إلا وعاه حتىٰ يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام (4) .

---

(1) صفي الرحمن المباركفوري - الرحيق المختوم (ص277 - 278) .

(2) محمد بن يوسف - سبل الهدىٰ والرشاد (4 : 273) .

(3) ثقف (الثقف الحاذق الفاهم ، واللقف التناول بسرعة)انظر الفيومي-المصباح المنير (1 : 91) والرازي - مختار الصحاح (1 : 602) .

(4) الشيخ محمد بن عبد الوهاب - مختصر سيرة الرسول - صلىٰ الله عليه وسلم : (ص 167) المكتبة السلفية .

كما أنه ـ ﷺ ـ في غزوة بدر نفسها كان يتابع أخبار أعدائه بإرسال بعض الصحابة ليلتمسوا الأخبار، فبعث علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص ـ رضي اللّه عنهم ـ في نفر من أصحابه إلىٰ ماء ببدر يلتمسون الخبر له، فأصابوا راوية لقريش فيها فأتوا بهما فسألوهما ورسول اللّه ـ ﷺ ـ قائم يصلي فقالا: نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء فكره القوم خبرهما ورجوا أن يكونا لأبي سفيان فضربوهما، فلما أذلقوهما[1] قالا: نحن لأبي سفيان فتركوهما، وركع رسول اللّه ـ ﷺ ـ وسجد سجدتيه ثم سلم وقال: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموها، صدقا واللّه إنهما لقريش أخبراني عن قريش؟ قالا هم واللّه وراء هذا الكثيب الذي ترىٰ بالعُدوة القصوىٰ. فقال لهما رسول اللّه ـ ﷺ ـ: كم القوم؟ قالا: كثير. قال: ما عدتُهم؟ قالا: لا ندري، قال: كم ينحرون كل يوم؟ قالا: يومًا تسعًا ويومًا عشرًا. فقال رسول اللّه ـ ﷺ ـ: القوم ما بين التسعمائة والألف. ثم قال لهما رسول اللّه ـ ﷺ ـ فمن فيهم من أشراف قريش؟ قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة وأبو البختري بن هشام وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر، وذكر من أشرافهم فاقبل رسول اللّه ـ ﷺ ـ علىٰ الناس فقال: هذه مكة ألقت إليكم أفلاذ أكبادها[2].

ويظهر لنا من هذه الحادثة الطريفة الحكيمة في جمع المعلومات، وذلك بطرح الأسئلة المهمة لمعرفة ما يهمنا من العدو من عتاده وعدده وكيف توصل ـ ﷺ ـ إلىٰ معرفة العدد التقريبي لقوة العدو بمعرفة ما يكفيهم من الطعام، ثم سؤاله عن أشراف القوم ممن حضر المعركة ومن لم يحضر، وأهمية وجودهم في المعركة. فقد رسم لنا ـ ﷺ ـ الطريق الصحيح للاستجواب وأهم ما يسأل عنه، مُبيناً بذلك عناصر الاستخبارات، من حصول علىٰ المعلومات، وفحص لها؛ كما أنه ـ ﷺ ـ بتلطفه عرف منهما أشياء كثيرة لم يستطع أصحابه ـ رضوان اللّه عليهم ـ أن يحصلوا عليها حينما ضربوهما وأخافوهما.

---

(١) أذلقوهما: أجهدوهما.

(٢) محمد بن يوسف ـ سبل الهدىٰ والرشاد في سيرة خير العباد (٤: ٤٤ـ٤٥). ابن كثير ـ السيرة النبوية (٢: ٣٩٧).

المطلب الثاني : العملاء

العميل : من يعامل غيره في شأن من الشؤون، والجمع عملاء، وقد تكون مأخوذة من العَمْلة، وهي الفَعْلة المنكرة كالسرقة والخيانة[1].

والعميل : هو الجاسوس الذي يعمل بأجر مقابل تجسسه على وطنه لمصلحة الاستخبارات الأجنبية ضد بلده وجماعته، فتحقق فيه المعنى اللغوي من ناحية السرقة للمعلومات والخيانة للأمانة في تقديم الخدمة للغير ضد بلده.

العميل المزدوج : هو الجاسوس أوالعميل الذي تكتشفه دولة يتجسس عليها، ثم تقنعه بالعمل لمصلحتها دون علم الجهة التي يعمل لها أصلاً. ويسمى بالتجسس المزدوج وهو من أخطر أنواع التجسس.

وذكر الهرثمي عن بعض الحكماء في الحرب أنه كان يصير جاسوس عدوه جاسوسًا له على أن يصدقه ويصدق عنه، ويعطيه عن ذلك أكثر مما يعطيه عدوه[2].

نموذج للعميل في عهد النبوة

استأجر النبي - ﷺ - وأبو بكر الصديق - رضي اللّه عنه - عبداللّه بن أريقط الليثي - وكان هاديًا خرّيتًا - (ماهرًا بالطريق) وكان على دين قريش، وأمّناه على ذلك، وسلما إليه راحلتيهما وواعداه، فجاءهما بالراحلتين وأخذ بهما ابن أريقط طريق الساحل متجهًا بهما إلى المدينة المنورة[3].

فاعتبار عبد اللّه بن أريقط عميلاً في الشكل لا في الأصل - وإنما كان أمينًا وفيًا مع رسول اللّه - ﷺ، وصاحبه الصديق - رضي اللّه عنه - ولم ينظر إلى الجعل الذي جعلته قريش لمن يأتي بالنبي - ﷺ - وصاحبه مع أنه على غير دينه، ولكن منعه اللّه بشهامتهِ وعفتهِ ووفائهِ -.

وقد جزم المقدسي في السيرة له بأنه لم يعرف له إسلامًا، وتبعه النووي في تهذيب الأسماء[4].

---

(١) مجمع اللغة العربية - المعجم الوسيط (٢ : ٦٣٤).

(٢) الهرثمي - مختصر سياسة الحروب (ص ٢٤).

(٣) المباركفوري - الرحيق المختوم (ص ١٨٥ - ١٨٦).

(٤) ابن حجر - الإصابة (٢ : ٢٦٥) طبعة الحلبي.

المبحث الثاني

الطلائع والسرايا

المطلب الأول: الطلائع

الطليعة لغة: هم القوم يبعثون أمام الجيش: يتعرفون (طِلع العدو)- بالكسر- أي خبره، والجمع طلائع، والطليعة: لفظة تصلح للواحد والجماعة[1].

والطلائع هي القوة التي تجابه العدو وتتلقى الصدمة المباشرة ولهذا كانت باستمرار موضع عناية القائد فكان يتدخل لاختيار عناصرها ويقوم بتفتيشهم شخصيًا وكثيراً ما كان يسير معهم، وكان القائد يحرص على تجريد المقدمة من كل ما يثقلها من عتاد ومتاع[2].

والطلائع سابقًا ما نسميه في الحروب الحديثة عناصر الاستطلاع المتقدمة، واجبها جمع الأخبار عن العدو في ميدان القتال مع تحاشي الاصطدام به إلا للضرورة.

ونظرًا إلى الدور الذي تضطلع به مفارز الاستطلاع فقد كان يتم انتقاء المقاتلين أمهرهم، والقادة أذكاهم وأقدرهم على تقدير المواقف ومعالجتها، كما كانوا يجهزون بأفضل الأسلحة والخيول[3].

ولقد أوصى الخليفة عمر بن الخطاب- رضي اللّه عنه- قائده سعد بن أبي وقاص- رضي اللّه عنه- بقوله: (اختر للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك، وتخير لهم سوابق الخيل فإن لقوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك).

وقال أبو بكر الصيرفي- حول اختيار عناصر الطليعة-: (واجعل من الطلائع أهل شهامة: للصدق فيهم شيمة لاتخدع)[4].

---

(١) الفيومي- المصباح المنير (٢ : ٢٣) والزبيدي- تاج العروس (٥ : ٤٤١).

(٢) و(٣) بسام العسلي - فن الحرب (١ : ٥٤) دار الفكر بيروت.

(٤) المصدر نفسه يعزوها الى العقد الفريد لابن عبد ربه (١ : ٤٠). ومقدمة ابن خلدون (١٣٤).

نماذج من الطلائع :

ولقد خرج النبي ـ ﷺ ـ طليعة هو وصاحبه الصديق ـ رضي الله عنه ـ في استطلاع الأمر وجمع الأخبار وذلك ما يرويه أهل السير أنه ـ ﷺ ـ نزل قريبا من بدر فركب هو وأبو بكر الصديق حتىٰ وقف علىٰ شيخ من العرب، فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم فقال الشيخ : لا أخبركما حتىٰ تخبراني من أنتما ؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: إذا أخبرتنا أخبرناك ، قال : أذاك بذاك ؟ قال : نعم ، قال الشيخ : فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بكذا وكذا للمكان الذي فيه رسول الله ـ ﷺ ـ وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذي فيه قريش، فلما فرغ من خبره قال: ممن أنتما ؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: نحن من ماء. ثم انصرفا عنه، والشيخ يقول: ما من ماء أمن ماء العراق ؟[1].

وتدل هذه الحادثة علىٰ حرص القائد في تتبع الأخبار وتقصيها بنفسه مع حسن اللباقة وكتم السر والتورية، مع حسن التخلص فقد اشترىٰ ـ ﷺ ـ من الشيخ ولم يبع له .

وتتوالىٰ الطلائع في جمع الأخبار لأول معركة بين الإسلام والكفر ويخرج بسبس ابن عمرو وعدي بن أبي الزغباء، وينزلان بدراً وينيخان إلىٰ تل قريب من الماء، ثم أخذا شناً لهما يستقيان فيه ومجدي بن عمرو الجهني علىٰ الماء فسمع عدي وبسبس جاريتين من جواري الحضر وهما تتلازمان[2] علىٰ الماء ، والملزومة[3] تقول لصاحبتها، إنما تأتي العير غداً أو بعد غد فأعمل لهم ثم أقضيك الذي لك ، قال مجدي صدقت ثم خلّص بينهما وسمع ذلك عدي وبسبس فجلسا علىٰ بعيرهما ثم انطلقا حتىٰ أتيا رسول الله ـ ﷺ ـ فأخبراه بما سمعا[4].

---

(١) ابن كثير ـ السيرة النبوية (٢ : ٣٩٦). سبل الهدىٰ والرشاد في سيرة خير العباد (٤ : ٤٣ ـ ٤٤).

(٢) التلازم تعلق الغريم بغريمه.

(٣) الملزومة المدينة التي استدانت ديناً.

(٤) سبل الهدىٰ والرشاد (٤ : ٤٥) والسيرة لابن كثير (٢ : ١٨٧).

ونأخذ من هذه الرواية عدم الاستهانة بأي خبر ولو كان من أقل فرد حتىٰ لو كان من طفل أو امرأة، فلا تقل إن هذا طفل ما يدريه أو هذه امرأة تهذي بما لا تدري، وإنما الاحتياط في الأخبار واجب ولابد من إبلاغ القيادة بكل ما تسمع من أخبار العدو، والقيادة هي التي تُقَيّم الخبر وتُفسره وتَعطيه حقه.

ولقد كان لهذه الطلائع المباركة المخلصة أثر كبير في انتصار المسلمين والسبب في خروج النبي - ﷺ - إلىٰ بدر أنه سمع أن أبا سفيان بن حرب مقبل من الشام في ألف بعير لقريش فيها أموال عظام .. وهي التي خرج لها حتىٰ بلغ (العشيرة) فوجدها قد مضت، وندب المسلمين للخروج معه، وقد بعث رسول اللّه - ﷺ - قبل خروجه من المدينة بعشر ليال طلحة بن عبيد اللّه وسعيد بن زيد إلىٰ طريق الشام يتحسسان خبر العير، فقدما ليخبرا رسول اللّه - ﷺ - فوجداه قد خرج. وأدرك أبا سفيان رجل من جذام بالزرقاء من ناحية عمّان فأخبره أن رسول اللّه - ﷺ - قد كان عرض لعيره في بدايته وأنه تركه مقيمًا ينتظر رجوع العير، وقد حالف عليهم أهل الطريق ووادعهم، فخرج أبو سفيان ومن معه خائفين للرصد، ولما دنا أبو سفيان من الحجاز جعل يتحسس الأخبار ويسأل من لقي من الركبان تخوفًا علىٰ أمر الناس حتىٰ أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر لك ولعيرك فحذر عند ذلك(١).

وتقدم أبو سفيان أمام العير حذراً حتىٰ ورد الماء فرأىٰ مجدي بن عمرو الجهني فقال له: هل أحسست أحداً؟ قال: ما رأيت أحداً أنكره إلا أني قد رأيت راكبين. يعني بسبسًا وعديًا. قد أناخا إلىٰ هذا التل ثم استقيا في شن لهما ثم انطلقا، فأتىٰ أبو سفيان مناخهما، فأخذ من أبعار بعيريهما ففته فإذا فيه النوىٰ فقال: هذه واللّه علائف يثرب، فرجع إلىٰ أصحابه سريعًا فضرب وجه عيره عن الطريق فساحل بها أخذ بها جهة الساحل وترك بدراً بيسار وانطلق حتىٰ أسرع فسار ليلاً ونهاراً فرقا من الطلب(٢).

ومن ذلك نجد أن النبي - ﷺ - أرسل الطلائع إلىٰ حدود الشام لتتقصىٰ أخبار العير وموعد قفولها، وكان أبو سفيان حذراً يتحسس الأخبار ويسأل

---

(١) سبل الهدىٰ والرشاد (٤ : ٣٢).
(٢) المصدر نفسه (٤ : ٤٦).

الركبان ويتفحص الأبعار فعرف أنه مراقب ومتبوع، فهرب إلىٰ الساحل ونجت العير بفضل حذره وجمعه للمعلومات فكان النبي - ﷺ - يستخدم طلائعه لجمع الأخبار وكان أبو سفيان طليعة لعيره .

المطلب الثاني : السرايا

(السرية قطعة من الجيش ما بين خمسة أنفس إلىٰ ثلاثمائة - لأنها تسري في خُفية - والجمع سرايا وسريات)[1] .

وقال صاحب مختصر سياسة الحروب : (السرايا ما بين الثلاثمائة نفر إلىٰ الخمسمائة وهي التي تخرج بالليل، وأماالتي تخرج بالنهار فتسمىٰ السوارب)[2] .

والسرايا متعددة الأغراض والواجبات، فإما أن يكون واجبها استطلاعيًا بحتًا وإما أن يكون واجبًا قتاليًا، وإما أن يكون تعطيليًا، وقد يكون واجبها لإيهام العدو باتجاه الهجوم الرئيسي .

نماذج لسرايا الاستطلاع وجمع الأخبار

١- (أرسل النبي - ﷺ - زيد بن حارثة - رضي اللّٰه عنه - علىٰ سرية قوامها اثنا عشر رجلاً إلىٰ وادي القرىٰ لاستكشاف حركات العدو، وذلك في رجب سنة ست من الهجرة .

٢- وأرسل رسول اللّٰه - ﷺ - سرية عليها أبو عبيدة بن الجراح - رضي اللّٰه عنه - في رجب سنة ثمان للهجرة وكان عددهم ثلاثمائة راكب لرصد عير قريش وتسمىٰ سرية الخبط .

٣- وأرسل رسول اللّٰه - ﷺ - سرية علي بن أبىٰ طالب - رضي اللّٰه عنه - إلىٰ بني سعد بن بكر بفدك في شعبان سنة ست للهجرة، فقد بلغ النبي - ﷺ - أن لهم جمعًا يريدون أن يمدوا يهود خيبر، فأرسل عليًا - رضي اللّٰه عنه - ومن

(١) الفيومي - المصباح المنير (١ : ٢٩٥) والمعجم الوسيط (١ : ٤٢٩) .

(٢) يوضح ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار﴾ سورة الرعد الآية ١٠ .
الهرثمي - مختصر سياسة الحروب (ص ٢٨) .

معه ليستكشفوا الخبر)[1].

وهذه النماذج من السرايا وأمثالها كثير كان يرسلهم النبي - ﷺ - لجمع المعلومات ورصد الأعداء ليكون - ﷺ - على علم بما يبيته الأعداء، مع أن اللَّه - سبحانه وتعالى - حفظه بحفظه وكلأه برعايته بقوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾[2].

ومع أن الوحي ينزل عليه - صلوات الله عليه وسلامه - بواسطة جبريل - عليه السلام - ويخبره عن مكايد الأعداء ونياتهم السيئة، ومع ذلك فهو - صلى اللَّه عليه وسلم - يأخذ بالأسباب ويعلمنا كيف نأخذ بالأسباب، ويوجهنا إلى الطرق الصحيحة السليمة في جمع المعلومات سواء بواسطة العيون أو العملاء، أو الطلائع أو السرايا ليأخذ المؤمنون حذرهم، ويكونوا على أهبة تامة في مواجهة عدوهم، ولقد اقتصرت على النماذج الثلاثة المتقدمة لسرايا الاستطلاع موضع البحث ولم أتعرض للأنواع الأخرى.

استخدام الرموز (الشفرة)

ومن حرصه - ﷺ - على كتم الأسرار ما حدث في غزوة الخندق لما نقض يهود بني قريظة العهد مع النبي - ﷺ - ووصله خبر ذلك أرسل إليهم سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ومعهما ابن رواحة وخوات بن جبير ليستطلعوا الخبر «فإن كان حقًا ما بلغنا من نقضهم العهد فألحنوا إليّ لحنًا حتى أعرفه ولا تفُتّوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا بذلك للناس» فلما رجعوا إلى النبي - ﷺ - سلموا عليه وقالوا: (عضل والقارة) أي أنهم غدروا كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع[3].

فكان استخدامه - ﷺ - لهذا النوع من الأساليب حفاظًا على معنويات المسلمين وحرصًا على الكتمان، ولنتعلم ونأخذ بمثل هذا الأسلوب وهو ما يسمى الآن بالشفرة .

---

(١) سبل الهدى والرشاد (٦ : ٢٧٥ ، ١٥٤) والرحيق المختوم (ص ٣٦٣).

(٢) جزء من الآية ٦٧ من سورة المائدة.

(٣) ابن سيد الناس - عيون الأثر (٢ : ٨٢ - ٨٣) بتصرف.

تعلم لغة العدو

كما أن تعلم لغة الأعداء مهم جدًّا للمحافظة على الأسرار وإلا أدى ذلك إلى أننا محتاجون إلى عملاء لا نأمنهم ليكتبوا لنا أو يقرؤوا ما يصلنا، ولذلك اهتم النبي - ﷺ - بتكليف زيد - رضي اللّه عنه - (أمرني رسول اللّه - ﷺ - فتعلمت له كتاب اليهود بالسريانية، وقال: «**إني والله ما آمن يهود على كتابي**»(١).

فحفظ السر وصيانته أمر مهم في إعداد الدولة أو الأمة لمواجهة أخطار أعدائها، ولذلك قالوا: ما استطعت أن تحترس في كتمان سرك في حربك، فافعل فإن في ذلك إمضاء تدبيرك، وقطع مكيدة من يكيدك، أكفف لسانك عن فلتة كل منطق ينكشف بها ما تضمره من أمرك أو تخفيه من سرك واعلم أنه قد يستدل بلحن المنطق على مصون الستر ومكنون الضمير، لا تستهين في إظهار سرك بصغير لصغره، ولا بأعجمي لعجمته فرب سر مصون قد أذاعوه واطلعوا عليه(٢).

---

(١) رواه الإمام أحمد (٥ : ١٨٢) وأورده صاحب منتخب كنز العمال بالفاظ مختلفة وعزاه لابن أبي داود في كتاب المصاحف، انظر تهميش منتخب كنز العمال على مسند الإمام أحمد (٥ : ١٨٥) طبعة دار صادر، بيروت.

(٢) الهرثمي صاحب المأمون - مختصر سياسة الحروب (ص٢٢) تحقيق عبد الرؤوف عون، تراثنا، المؤسسة المصرية العامة.

المبحث الثالث

الاستخبارات (المخابرات)

الاستخبارات أو المخابرات مصطلحان عسكريان حديثان مفهومهما واحد، وهو جمع المعلومات السياسية والعسكرية والاقتصادية، وكل خبر خاص بالأعداء، والقيام بتحليل هذه الأخبار للتأكد من صحتها؛ للاستفادة منها في عمليات التجسس والتخريب المعادية، والتفويت على العدو الاستفادة من أي معلومة عن قواتنا فالواجب الأساسي لها يدور حول المعلومة في كيفية استخلاصها، ومنع أعدائنا من الحصول على أية معلومة عنا قد تفيدهم.

وتنطوي الاستخبارات على العناصر الآتية :

١ـ الحصول على المعلومات عن العدو.

٢ـ فرز وفحص وتقييم هذه المعلومات والتحقق من مدى صحتها .

٣ـ تفسير هذه المعلومات واستخلاص النتائج المفيدة منها .

٤ـ إمداد المسؤولين بهذه المعلومات المستخلصة منها.

٥ـ الإفادة من هذه المعلومات وما يستخلص منها في التخطيط و اتخاذ القرارات.

٦ـ مقاومة أعمال مخابرات العدو[١].

والاستخبارات هي عبارة عن تنظيمات خاصة مهمتها البحث عن المعلومات المتعلقة بإمكانات الخصم العسكرية في زمن السلم أو زمن الحرب، ويكون البحث بواسطة التجسس الذي هو نوع من أنواع العمل الاستخباري هدفه البحث والحصول على المعلومات المتعلقة بدولة ما ونقلها بطرق سرية، وتختلف طبيعة التجسس باختلاف طبيعة المعلومات المطلوبة.

---

(١) المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية (ص ١٤٩).

مجالات الاستخبارات

تصنف الاستخبارات بحسب مجالاتها إلى فئات ثلاث :

أولاها : الاستخبارات الاستراتيجية، وهي أوسعها مجالاً إذ تعطي المعلومات المتعلقة بقدرات الدول الأخرى ونياتها وليس هنا مجال بحثها .

ثانيتها : الاستخبارات التكتيكية (وتسمى أحيانًا بالتجسس القتالي) وتغطي المعلومات التي يحتاج إليها القائد في ميدان المعركة .

ثالثتها : الاستخبارات المضادة، وهي عبارة عن مجموعة الإجراءات المضادة التي تتخذ للمحافظة على المعلومات السرية، ومنع عملاء العدو من الوصول إليها والحفاظ على سرية عملياتنا التجسسية، واكتشاف نيات وعمليات العدو المماثلة(١) .

مصادر المعلومات في الاستخبارات

هناك مصدران للمعلومات وهما : المصادر العلنية، والمصادر السرية..

أ ـ المصادر العلنية : وهي المصادر التي يمكن الوصول إليها دون اللجوء إلى وسائل غير قانونية كالاستماع إلى برامج الإذاعة والتلفاز وتحليل محتويات الصحافة والمطبوعات والأخبار التي تكتب عن الدولة، والتقارير التي تكتب بواسطة المؤسسات العلمية المختصة أو السياسية من قبل السفارات أو العسكرية من قبل الملحقين العسكريين، وكذلك حديث المجتمع، وما يصاحبه من تصرفات فردية أو جماعية .

ب ـ المصادر السرية : وتنقسم المصادر السرية إلى فئات ثلاث :

(١) الاستطلاع الجوي والفضائي .

(٢) التنصت أو الاستماع الألكتروني .

(٣) العميل السري .

ويختلف هذا التصنيف للمصادر السرية عن التصنيف التقليدي الذي

---

(١) الموسوعة العسكرية (١ : ٢٥٠ ـ ٢٥١) بتصرف .

يجعل العميل السري على رأسها، ذلك أن دور العميل السري قد تضاءل ليحل محله وسائل آلية كطائرات الاستطلاع، وأقمار التجسس والتجهيزات الألكترونية الأخرى. وأصبح في الإمكان استخدام هذه المعدات، للرؤية والسماع والتصوير عن بعد، سواء في الليل أو النهار بعد أن تطورت تطوراً عظيماً.

كما أن المعلومات المصورة والمسجلة التي يمكن الحصول عليها بواسطة المعدات المتطورة تتضمن درجة دقة أعلى من دقة تقرير العميل السري الذي قد يتضمن استقراءات واستنتاجات واجتهادات يصعب إثباتها، إلا إذا كان هذا العميل جزءاً من الجهاز القيادي المعادي وكان قادراً استطراداً على أخذ المعلومات الصحيحة ومعرفة القرارات المتخذة(١).

الاستخبارات المضادة (مكافحة التجسس)

إن مصادر المعلومات العلنية منها والسرية تخدم بالدرجة الأولى مجال الاستخبارات الاستراتيجية والتكتيكية، لأنهما يعتمدان على المعلومات المتوافرة عن العدو ونعده جانباً إيجابياً ، وأما الاستخبارات المضادة فهي إجراءات حرمان العدو من الحصول على معلوماتنا، وشل حركة جواسيسه وعملائه، ونعده جانباً وقائياً.

ولذلك فلابد من اتخاذ الإجراءات الوقائية التي تمنع العدو من الحصول على المعلومات ومقاومة الجواسيس وتوعية المجتمع بما يجب عليه من الحفاظ على أسرار الدولة وإبلاغ المسؤولين عن كل من تدور حوله شبهة التجسس، ومن هذه الإجراءات :

أولاً : الحذر من موالاة الكُفار

لقد حذرنا الإسلام من موالاة الكُفار؛ لأن في مصادقتهم ومداخلتهم كشفاً لبعض أسرار المسلمين. فعلى المسلم ألا يقدم مصلحته الشخصية على مصلحة الأمة الإسلامية، وفي ذلك يقول اللّه تعالى : ﴿ **لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن**

(١) المصدر نفسه (١ : ٢٥١ـ ٢٥٢).

تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾[1]

وإن للفرد في المجتمع دوره الهام الحاسم في تطبيق أو هدم الأمن؛ وذلك لأنه باعتبار موقعه في المجتمع يعرف من الأسرار الهامة للدولة والكثير من المعلومات التي لو أدلىٰ بها إلىٰ العدو فقد يكون ذلك سببًا في إلحاق الضرر بالدولة وقد يعرض كيانها للتهديد، وربما لفقدان هيبتها بين الدول الأخرىٰ[2] . ولذلك يجب علىٰ المسلم أن يعامل من هو علىٰ غير دينه بالعدل والإحسان ولكن لا يمنحه مودته ويفتح له قلبه، ويأمنه ويبوح له بكل ما عنده اغترارًا بتلك الابتسامة والمجاملات من أعداء الله؛ فالمؤمن كيسٌ فَطِن .

ثانيًا : مكافحة التجسس

وذلك بمنع العملاء والجواسيس من التسلل إلىٰ داخل البلاد ومتابعة أخبارهم أولاً بأول وإلقاء القبض عليهم .

ثالثًا : الإجراءات المضادة الألكترونية من التشويش علىٰ أجهزته ليتعذر عليه الاستماع والتنصت وخداعه وذلك ببث معلومات خاطئة يعدها العدو صحيحة .

رابعًا : الإخفاء والتمويه للمعدات العسكرية والمنشآت والأسلحة بقدر الإمكان .

وربّما أشكل علىٰ بعض الناس قوله تعالىٰ : **﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرًا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضًا ﴾**[3]، وأن الآية صريحة بتحريم التجسس وهو البحث عما ينكتم عنك من عيوب المسلمين وعوراتهم . والتحسس طلب الأخبار والبحث عنها[4] للتجسس

---

(١) سورة المجادلة : الآية ٢٢ .

(٢) أحمد هاني ـ الجاسوسية بين الوقاية والعلاج (ص ١١٨) .

(٣) سورة الحجرات : الآية ١٢ .

(٤) الألوسي ـ روح المعاني (٩ : ١٥٦) طبعة دار الفكر . الزمخشري ـ الكشاف (٣ : ٥٦٨) . د. محمد محمود حجازي ـ التفسير الواضح (٢ : ٤٣٢) .

الحرام أي أن بعض الصور منه مباحة فنقول إن فعله ـ ﷺ ـ بين المباح من التجسس وهو ما يتعلق بمصلحة المسلمين في معرفة ما يخفيه أعداؤهم من المكائد، حتى يكونوا على حذر منها فلا يؤخذون من عدوهم على غرة .

وأما التجسس المعني في الآية الكريمة فهو تتبع عورات المسلمين، واستكشاف ما ستروه. فالقرآن الكريم ينهى عن التجسس الخاص بكشف العورات، والاطلاع على السوءات والقرآن يُقاوم هذا العمل الدنيء من الناحية الأخلاقية لتطهير القلب من مثل هذا الإتجاه اللئيم لتتبع عورات الآخرين وكشف سوءاتهم. ففى المجتمع الإسلامي الرفيع الكريم يعيش الناس آمنين على أنفسهم، آمنين على بيوتهم، آمنين على أسرارهم آمنين على عوراتهم، ولا يوجد مبرر لانتهاك حرمات الأنفس والبيوت والأسرار والعورات(١) .

هذه هي أهم وسائل إعداد المعلومات في القديم والحديث وهي في غاية الأهمية وعليها ينبني التخطيط والتهيؤ لحاجات المعركة .

---

(١) سيد قطب ـ الظلال (٦ : ٣٣٤٦).

الفصل الخامس

التسليح والتحصين

ويحتوي المباحث التالية:

المبحث الأول: التسليح

المبحث الثاني: التحصين

المبحث الأول

التسليح

التسليح: مصدر سلح، والسلاح ـ بالكسر ـ اسم جامع لآلة الحرب يذكر ويؤنث ويطلق أحيانًا على بعض تلك الآلات كالسيف والقوس بلا وتر والعصا، و خصه بعضهم بما كان من الحديد، وجمعه أسلحة، ويقال: تسلح الرجل إذا لبس السلاح(١).

وبناء على أصله اللغوي فإنه يشمل آلة الحرب أيًا كان نوعها، وذلك يختلف باختلاف العصور فيكون إطلاقه على آلات الحرب الحديثة كالبندقية والمسدس والرشاش، له أصل من هذا الاعتبار.

مشروعيته

ثبتت مشروعية الإعداد للمعركة بالسلاح بالكتاب والسنة.

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ**﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿**وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ⑩ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ...**﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿**وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ**﴾(٤).

ووجه الدلالة من الآيات الكريمة أن اللّه أمر عباده بالإعداد للجهاد لقتال الكفار والمشركين، لقوله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ**﴾(٥). وإعداد القوة التي أمر بها المسلمون لقتال أعدائهم لابد أن تكون

(١) الزواوي ـ ترتيب القاموس المحيط (٢ : ٥٤٦). ابن منظور ـ لسان العرب (٢ : ٤٨٦). الزبيدي ـ تاج العروس (٢ : ١٦٥).
(٢) سورة الأنفال: الآية ٦٠.
(٣) سورة سبأ: الآيتان ١٠ ـ ١١.
(٤) سورة الأنبياء: الآية ٨٠.
(٥) سورة البقرة: جزء من الآية ١٩٣.

بالسلاح الشامل لكل أنواعه .

وفي الآية الثانية إخبار وامتنان من اللَّه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ بإلانة الحديد لداود ـ عليه السلام ـ ثم أمره بعمل الدروع وهي من أنواع السلاح .

وفي الآية الأخيرة تصريح بأن اللَّه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ علم داود ـ عليه السلام ـ صنعة اللبوس ، واللبوس عند العرب : السلاح كله درعًا كان أو جوشنًا أو رمحًا ، وهو في هذا الموضع الدرع ، وكان داود ـ عليه السلام ـ أول من سرد الدروع : أي صنعها . وطلب الإعداد والامتنان والتعليم للأسلحة دليل علىٰ مشروعيتها .

ومن المعلوم أنه قد جاء في القرآن الكريم الأمر بالجهاد وقتال الكفار وذلك يستلزم الأمر بالإعداد من باب التبعية ؛ لأن ما لايتم الواجب إلا به فهو واجب .

وأما السنة : فما ثبت في صحيح مسلم : عن عقبة بن عامر ـ رضي اللَّه عنه ـ أنه قال : سمعت رسول اللَّه ـ ﷺ ـ وهو علىٰ المنبر يقول : «**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي ،ألا إن القوة الرمي**»(١) .

ووجه الدلالة أن النبي ـ ﷺ ـ فسر القوة بالرمي وهو منها وليست القوة محصورة في الرمي ، وإنما ذكر الرمي علىٰ سبيل بيان الأفضلية ؛ لما فيه من عظيم النكاية بالعدو كما قال ـ ﷺ ـ: (الحج عرفة) لأن أعظم أركان الحج في عرفة .

ويكون هذا الحديث أصلاً في أفضلية معرفة الرمي واستخدام سائر أنواع السلاح بنية الجهاد في سبيل اللَّه تعالىٰ(٢) .

وروىٰ البيهقي في سننه عن أبي نجيح السلمي ـ رضي اللَّه عنه ـ أنه قال : شهدت مع رسول اللَّه ـ ﷺ ـ حصار الطائف فسمعت نبي اللَّه ـ ﷺ ـ يقول :

---

(١) مسلم ، كتاب الجهاد ، باب قول الله تعالىٰ ﴿واعدوا لهم...﴾ (٣ : ١٥٢٢) ح ١٩١٧ .
(٢) أبو حيان ـ البحر المحيط (٤ : ٥١١) ومسلم بشرح النووي (١٣ : ٦٤) .

«من رمى بسهم فبلغ فله درجة في الجنة، فقال رجل: يا نبي اللّه إن رميت بسهم فلي درجة في الجنة ؟ قال :نعم .. الحديث وفي رواية .. ومن رمى بسهم كان له نورا يوم القيامة»(١) .

ووجه دلالته : أن النبي - ﷺ - رغب أمته في استخدام سلاح الرمي وذلك يدل على فضله ومشروعيته .

اهتمامه - ﷺ - بالسلاح .

كما نجده - ﷺ - استخدم السلاح في الغزو فكان له سيفه وترسه ومغفره ورمحه وكنانته ، واهتم به غاية الاهتمام .

وذكر ابن قيم الجوزية أنه كان للنبي - ﷺ - تسعة أسياف : مأثور، وهوأول سيف ملكه، ورثه من أبيه، والعَضْب، وذو الفقار، وكان لا يكاد يفارقه، وكانت قائمته وقبيصته وحلقته وذؤابته وبكراته ونعله من فضة ، والقلعي ، والبتار، والحتف ، والرسوب، والمخذم ، والقضيب (٢) .

وتنفل ذو الفقار في بدر، وهو سيف العاص بن منبه قتل يوم بدر فصار السيف إلى النبي - ﷺ - ثم إلى علي - رضي اللّه عنه - (٣) .

وكان له - ﷺ - سبع أدراع : ذات الفضول وهي التي رهنها عند أبي الشحم اليهودي على شعير ، وذات الوشاح، و ذات الحواشي، والسعدية، وفضة، والبتراء، والخرنق .

وكانت له ست قسي : الزوراء ، والروحاء، والصفراء، والبيضاء، والكتوم ، كسرت يوم أحد، والسداد.

وكانت له جعبة تدعى الكافور، ومنطقة من أديم منشور .

وكان له ترس يقال له الزلوق، وترس يقال له الفتق.

وكانت له خمسة أرماح يقال لأحدها المثوى، ويقال لآخر المثنى.

---

(١) البيهقي - السنن الكبرى (٩ : ١٦١) طبعة دار الفكر .

(٢) ابن القيم - زاد المعاد (١ : ١٣٠) تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤط .

(٣) المصدر نفسه (٣ : ١٠٢).

وحربة يقال لها النبعة، وأخرى كبيرة تدعى البيضاء، وأخرى صغيرة شبه العكاز يقال لها العنزة يمشي بها بين يديه في الأعياد تركز أمامه فيتخذها سترة يصلي إليها، وكان له مغفر من حديد يقال له الموشح، ومغفر آخر يقال له السبوغ أو ذو السبوغ وكانت له كنانة تسمى الجمع ومحجن، وكان له قضيب شوحط يسمى الموت، وكان له قضيب من الشوحط يسمى الممشوق، قيل: وهو الذي كان يتداوله الخلفاء[(١)].

ومما ذكر في سلاحه - ﷺ - دليل على الاهتمام به استعماله في الجهاد في سبيل اللّه تعالى، وفي كل ما هو مشروع من الدفاع عن النفس وإقامة حدود اللّه، وحماية الثغور وإرهاب العدو، وإقامة العدل.

صناعة الأسلحة:

إن الأمة الإسلامية في حاجة إلى الحصول على السلاح الفعال المؤثر المرهب للأعداء سواء كان ذلك بواسطة الشراء، أو جلب الخبراء و الاستعانة بهم، وإنشاء المصانع الحربية التي تصنع أحدث الأسلحة، لأن تسليح الجيوش أصبح ضرورة من ضرورات الجهاد في سبيل اللّه حفاظًا على الدين والكرامة والوطن.

ولما كانت هذه الأسلحة والمعدات تختلف باختلاف العصور وتتطور بتطور الأزمان وجب علينا أن نتابع هذا التطور، لأن ما كان صالحًا في وقت من الأوقات ربما لا يصلح ولا يستفاد منه في وقت آخر، ولذلك قال تعالى في محكم تنزيله: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾[(٢)]. فالآية تأمرنا بالإعداد الشامل لكل سلاح، فكان التعبير فيه شمول وفيه إحاطة ليجاري التطور ويصدق في جميع ما اخترع من الأسلحة وما سيخترع مستقبلاً.

فكان السلاح في عهد النبي - ﷺ - السيف والرمح والقوس، والنبال والسهام والمنجنيق، وكانت المعركة تحسم بهذه الأسلحة.

ثم اخترعت البنادق والرشاشات والمدافع والمصفحات والدبابات،

---

(١) المصدر نفسه (١: ١٣٠ - ١٣٣) بتصرف.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٦٠.

وكانت المصفحات والدبابات هي التي حسمت الموقف وقررت نتيجة المعركة في الحرب العالمية الأولى . ثم اخترعت الطائرات المقاتلة والقاذفات والغواصات والقنابل الذرية التي حسمت الموقف في الحرب العالمية الثانية(١) .

ثم اخترعت الصواريخ بأنواعها، والأشعة الساحقة والأقمار الصناعية، والرؤوس النووية وما يسمى بحرب النجوم، ولا ندري بعد كل هذا ما يتمخض عنه الزمان من مخترعات الفتك والدمار فكان كل ذلك داخلاً في لفظ القوة التي أُمرنا بإعدادها في الآية الكريمة بكل ما نستطيع من مال وجهد .

وقد ثبت بالاستقراء والتجارب أن غالب هذه: الأسلحة من الحديد، ولهذا نوه اللَّه به وبيأسه حيث يقول ـ عز من قائل ـ: ﴿**وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس**﴾ (٢). قال العلماء في تفسير هذه الآية ، أي وجعلنا الحديد رادعًا لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه، ولهذا أقام رسول اللَّه ـ ﷺ ـ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية، وكلها جدال مع المشركين، وبيان وإيضاح التوحيد وبينات ودلالات، فلما قامت الحجة على من خالف شرع اللَّه الهجرة وأمرهم بالقتال بالسيوف، وضرب الرقاب والهام لمن خالف القرآن وكذب به ، وقوله تعالى : ﴿**فيه بأس شديد**﴾ يعني السلاح كالسيوف والحراب والسنان، والنصال والدروع ونحوها(٣) . أخرج الحديد من المعادن وعلمهم صنعته بوحيه، وقال القرطبي ﴿**فيه بأس شديد**﴾ يعني السلاح والكراع والجنة وقيل أي فيه من خشية القتل خوف شديد ﴿**ومنافع للناس**﴾ قال مجاهد يعني جُنة (٤) .

وبعد أن تحدث القرآن العظيم عن شأن الحديد وبأسه الشديد ومنافعه العظيمة بين أن الأسلحة التي يرهب المسلمون بها أعداءهم أغلبها من الحديد فقال تعالى في شأن نبيه داود ـ عليه السلام ـ : ﴿**وعلمناه صنعة لبوس لكم**

(١) وذلك بضرب هيروشيما ونجازاكي بالقنابل الهيدروجينية فاستسلمت اليابان وانتهت المعركة .
هيروشيما : أصيبت بأول قنبلة ذرية امريكية في نهاية الحرب العالمية وذلك في ٦ أغسطس ١٩٤٥ .
نجازاكي : القيت عليها القنبلة الذرية الثانية في ٩ أغسطس ١٩٤٥م .
انظر الموسوعة العسكرية ص (١٩٢٦) و (ص ١٨٢٤) .
(٢) سورة الحديد ، الآية : ٢٥ .
(٣) ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم (٤ : ٣١٤ـ٣١٥) .
(٤) القرطبي ـ الجامع (١٧ : ٣٦١) .

لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾[1]. يعني أن الله تعالىٰ علم نبيه داود صنعة الدروع وألان له الحديد لأجل ذلك لأن اللبوس عند العرب السلاح كله درعًا كان أو جوشنًا[2] أو سيفًا أو رمحًا واللبوس كل ما يلبس والمراد في الآية الدروع وهو بمعنىٰ الملبوس نحو الركوب والحلوب يعني المركوب والمحلوب، قال قتادة: أول من صنع الدروع داود ـ عليه السلام ـ.

قوله تعالىٰ: ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ أي لتحرزكم من حربكم، وقيل من السيف والسهم والرمح، أي من آلة بأسكم فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

وعن ابن عباس: «من بأسكم»: من سلاحكم، وقال الضحاك، من حرب أعدائكم والمعنىٰ واحد ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ أي علىٰ تيسير نعمة الدروع لكم.

وهذه الآية أصل في اتخاذ الصنائع والأسباب وهو قول أهل العقول والألباب[3].

وقال صاحب أضواء البيان ما نصه: الضمير في قوله علمناه راجع إلىٰ داود والمراد بصنعة اللبوس صنعة الدروع ونسجها، والدليل علىٰ أن المراد باللبوس في الآية الدروع أنه أتبعه بقوله: ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ أىٰ لتحرز وتقي بعضكم من بأس بعض، لأن الدرع تقيه ضرر الضرب بالسيف والرمىٰ بالرمح والسهم كما هو معروف، وقد أوضح تعالىٰ هذا المعنىٰ بقوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ فقوله: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾: أن اصنع دروعًا سابغات من الحديد الذي ألناه لك، والسرد نسج الدرع ويقال فيه الزرد.

ومن الآيات التي هي أصل في التسليح قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾[4]. وإطلاق السرابيل علىٰ الدروع ونحوها

(١) سورة الأنبياء: الآية ٨٠.
(٢) الجوشن نوع من الدروع، انظر صحاح الجوهري (٥: ٢٠٩٢).
(٣) القرطبي ـ الجامع (١١: ٣٢٠ـ ٣٢١).
(٤) سورة النحل: الآية ٨١.

معروف، ومنه قول كعب بن زهير في قصيدته المشهورة :

شُمّ العرانين أبطال لبوسهم   من نسج داود في الهيجا سرابيل[(١)].

أهمية السلاح :

ومما يدل على أن السلاح من أهم الأمور التي تعني المسلمين ما يتجلى لنا من خلال الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا** ﴾[(٢)]. فتراه - جل وعلا - نوه بالسلاح في أربعة مواضع من الآية الكريمة ولم يذكر في القرآن الكريم في غيرها[(٣)]، وذكره في أعظم شعيرة من شعائر الإسلام بعد الإيمان بالله - عز وجل - وبرسوله - ﷺ - ألا وهي الصلاة (والحكمة العامة في الأمر بأخذ الحذر والسلاح حتى في الصلاة أن الكفار يودون من صميم قلوبهم أن تغفلوا عن أسلحتكم وأمتعتكم ولو بانشغالكم في الصلاة فينقضوا عليكم ويميلوا عليكم ميلة واحدة بالقتل والنهب ولكن الله يريد لكم النصر والغلبة فيأمركم بالاستعداد والحذر)[(٤)].

وقيل : لما كان الأمر بالحذر من العدو موهمًا لتوقع غلبته واعتزازه نفى ذلك الإيهام بأن الله تعالى ينصرهم ويهين عدوهم لتقوى قلوبهم[(٥)].

وقال - ﷺ - «**إن الله تعالى يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة ، صانعه يحتسب في صنعته الخير ، والرامي به ومنبله** » وفي رواية : « **والذي يجهز به في سبيل الله تعالى** »[(٦)].

وذكر الطبري أنه لما قدم فَلُّ ثقيف الطائف أغلقوا عليهم أبواب مدينتها

---

(١) محمد الأمين الشنقيطي - أضواء البيان (٣ : ٢٩٨).
(٢) سورة النساء : الآية ١٠٢.
(٣) محمد فؤاد عبد الباقي - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (ص٣٥٤).
(٤) د. محمد محمود حجازي - التفسير الواضح (١ : ١٨٨).
(٥) محمد جمال الدين القاسمي - تفسير القاسمي (٥ : ٤٣٠) وعزاه لأبي السعود.
(٦) النسائي - سنن النسائي (٦ : ٢٨، ٢٢٣) وأبو داود - سنن أبي داود (١ : ٣٩٤).

وصنعوا الصنائع للقتال ولم يشهد حنينًا ولا حصار الطائف عروة بن مسعود ولا غيلان بن سلمة، كانا بجرش يتعلمان صنعة الدبابات والضبور والمجانيق[1].

فالمتتبع للآيات الكريمة يظهر له بجلاء اهتمام المسلمين بصناعة الأسلحة، وأن اللَّه جعلها من مهن الأنبياء، وأمرنا بالاقتداء بهم وذكر ذلك في كتابه الكريم، فقال تعالىٰ: ﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾[2]. ومن تمام اقتدائنا بهم أن نتخذ من الأسباب ما اتخذوا من أسباب القوة فالحق لا يعلو علىٰ الباطل إلا إذا وجد قوة تحميه وتؤيده، وهذه القوة ترتكز ماديًا علىٰ حيازة الأسلحة المتطورة والحصول عليها.

والتصنيع قاعدة الإعداد وأساسه ولا يمكن الاعتماد علىٰ شراء السلاح دومًا إذ لا يخفىٰ علىٰ اللبيب أن الدول المصنّعة للأسلحة تبيع قديمها بأسعار مضاعفة مع شروط تعسفية ووسيلة ضغط بالأحلاف والتبعية، وعليه فالدولة الحريصة علىٰ الاحتفاظ بشخصيتها والاستقلال بسياستها وقرارها العسكري لابد لها من أن تبدأ في خط التصنيع العسكري لأحدث الأسلحة مع تدريب الأيدي الفنية المسلمة، والاهتمام بها وتوعيتها لمسؤوليتها الملقاة علىٰ عاتقها تجاه دينها ووطنها وقائد مسيرتها، ولذا لابد للأمة المسلمة من إقامة المصانع الحربية، والإعداد المهني الحربي بعناصر وطنية مسلمة لتقوم بتشغيل وإدارة وإنتاج جميع أنواع الأسلحة الحديثة.

وقد يقول قائل: إن هذا ضرب من الخيال، وأقول امتثالاً لأمر اللَّه سبحانه: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾ وقوله تعالىٰ: ﴿**وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ**﴾[3]. ولماذا يبلغ أعداء اللَّه هذه المرتبة من التصنيع ولا يبلغ جُند اللَّه هذه الرتبة؟ فهذا ليس ضربًا من الخيال، وإنما هو موجود في

---

(١) الطبري ـ تاريخ الأمم والملوك (٢ : ١٣٢)، وابن كثير ـ البداية والنهاية (٤ : ٣٤٥).
وجرش ـ بالفتح ـ: مدينة بالأردن، أنظر مراصد الاطلاع للبغدادي (١ : ٣٢٦) والدبابات جمع دبابة وهي آلة تتخذ في الحصار يدخل في جوفها الرجال ثم تدفع إلىٰ أصل الحصن فينقبونه وهم في جوفها وتسمىٰ الضبور.
انظر الرصافي ـ الآلة والأداة (ص٩٣).

(٢) جزء من الآية ٩٠ من سورة الأنعام.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٥٩.

السوق الشرقي والغربي فلماذا لا نكون على قدر المستوى الموجود إن لم نكن أفضل؟ ولماذا نستصغر أنفسنا ونستهين بإمكاناتنا؟ فمن هانت عليه نفسه كانت على غيره أهون، وقد كان المسلمون أقوى دولة حضاريًا وعسكريًا سادت العالم عشرة قرون متواصلة في التاريخ البشري؛ وليست هذه بالمدة القليلة ولم يحدث في التاريخ أن دولة ما سادت العالم عشرة قرون متواصلة .

أهمية التسليح في المعارك الحديثة

إن المتتبع لبعض الحروب الحديثة يُلاحظ أنها لا تستغرق وقتًا طويلاً أكثر من أيام أو أسابيع، وذلك نتيجة للتطور التكنولوجي في التسليح، حيث أصبحت أسلحة فتاكة مدمرة لا تحتاج إلى كثير من الوقت، وربما يكون النصر لصاحب الضربة الأولى وتنتهي المعركة في حالة الضرب النووي .

ولقد استغرقت حرب حزيران ١٩٦٧ م والتي وقعت بين إسرائيل والعرب أسبوعًا واحدًا فقط .

كما امتدت الحرب الباكستانية ـ الهندية عام ١٩٧١ م لمدة ثلاثة أسابيع، واستغرقت حرب العاشر من رمضان ، السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ م عدة أسابيع وهذا كله ناتج من تأثير الأسلحة الحديثة الفتاكة فهي قوية التأثير؛ وبشكل مذهل في قوة نيرانها وسرعة حركيتها، ومدى مرونتها .

وأما الحرب العراقية ـ الإيرانية فما كان ينبغي أن تنشب بين دولتين مسلمتين متجاورتين؛ ولكن من حيث الجزئية التي نتكلم فيها فهناك أسباب كثيرة ساعدت على إطالة مدتها ومن أهم تلك الأسباب من الناحية العسكرية :

١ـ أنها حرب حدودية بين دولتين متجاورتين .

٢ـ تفوق عسكري في التدريب والتنظيم والقوات الجوية من جانب، يقابله تفوق عددي في الجانب الآخر .

٣ـ على الرغم من طول المدة لم تكن هناك أي مكاسب لأحد الطرفين أو توغل في حدود الآخر .

العوامل المؤثرة في التسليح :

هناك عدة عوامل تؤثر في التسليح ونوعيته، وتتفاوت هذه العوامل حسب أهميتها وهي :

أ ـ **العامل الجغرافي** : إن لكل معركة حسب طبيعتها حاجة إلىٰ نوع من السلاح أكثر من غيره ليلائم وضعها فالأراضي الجبلية لها متطلبات غير السهول المنبسطة أو الأراضي الصحراوية أو الأدغال والغابات والمناطق الساحلية والجزر البحرية، فالتسليح يتأثر بالعامل الجغرافي للمعركة ليؤدي الغرض منه بكفاءة وفعالية.

ب ـ **العامل الاقتصادي** : (وسياسة الحصول علىٰ السلاح)

إن توافر المال مهم جدًا لتصنيع السلاح أو الحصول عليه بواسطة الشراء وذلك يدعو الدولة إلىٰ أن تهتم بالميزانية الخاصة بالتسليح، وتوليها أهمية كبرىٰ وأولوية علىٰ بقية حاجات الدولة سواء أكان ذلك بإنشاء المصانع الخاصة بالأسلحة وجلب الخبراء، أو بواسطة الشراء، والحصول علىٰ السلاح الحديث.

وتصنيع السلاح أفضل من شرائه، لأن شراءه واستيراده من أي دولة يعتمد علىٰ رغبة الدولة المصدرة لبيع هذا السلاح، بحيث لا يتعارض مع سياستها الخارجية. وقيل: إن من يملك المال يستطيع أن يمتلك السلاح ولكننا ربما لا نسلم بهذه المقولة، لأن الدول التي لديها الصناعة المتكاملة للأسلحة قليلة في العالم، والعقلية التي تفكر بها هي عقلية تبادل المنافع، لا العقلية العقدية فهي تنظر إلىٰ مصالحها وسياستها بأكثر من نظرتها إلىٰ المال إلا إذا كانت حاجتها إلىٰ المال تتماشىٰ مع سياستها وأهدافها (ولذلك فلابد أن نتعامل معها بالعقلية نفسها وأن نستغل حاجات الدول المصنعة للسلاح إلىٰ مطالبها عندنا من البترول والتعدين، وتسويق منتجاتها التجارية ولكل ما يقوي اقتصادها ويؤثر فيها.

ج ـ العامل البشري :

إن السلاح الحديث يحتاج إلىٰ نوعية من الأفراد يكونون علىٰ مستوىٰ معين من التعليم ليستطيعوا استيعابه والتعامل معه واستخدامه خير استخدام، وهذا يتطلب من الدولة أن تكون خطة حيازتها للأسلحة الحديثة ووجود الفنيين المستخدمين لهذه الأسلحة تسير في خطين متوازيين ليمكن الاستفادة من هذه الأسلحة، ولذلك كان العامل البشري من أهم العوامل.

د ـ العدو الرئيسي وتسليحه

وهذا العامل هو أهم العوامل السابقة علىٰ الإطلاق فالسلاح الذي لا يستطيع التعامل بكفاءة مع أسلحة العدو الرئيسية غير مفيد.

وليس من الضروري أن يكون السلاح مماثلاً تماماً لسلاح العدو ولكن المهم هو إيجابيات التسليح التي لابد لها أن تتغلب علىٰ سلبياته المقابلة لإيجابيات تسليح العدو.

أنواع الأسلحة القديمة :

والمراد بها تلك الأسلحة التي استخدمت في العصور القديمة كعصر ما قبل النبوة وما بعدها.

إلىٰ أن اكتشف البارود[1]، فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادي عند ظهور أول بندقية في التاريخ نحو عام ١٣٥٠م إذ سبقها المدفع عام ١٣٠٠م[2]

١- **السيف** : هو سلاح ذو حد يُعلق من الكتف إلىٰ الجانب الآخر عند العرب، وقد يُشد إلىٰ الوسط كالحزام عند غيرهم من الأمم، ويضرب به باليد، قيل وأسماؤه تنيف علىٰ ألف وأكثرها مُقيد بصفات كالصمصام للسيف اللين، والعضب للسيف الثقيل، ونحو ذلك، وجمعه أسياف وسيوف[3].

---

(١) الموسوعة العسكرية (١ : ١٦٤) قصة اكتشاف البارود الأسود.

(٢) المصدر نفسه (١ : ٢٠١).

(٣) الرصافي ـ الآلة والأداة (ص ١٥٦).

وللسيف أهمية بالغة في العصور القديمة؛ فهو أشرف الأسلحة عند العرب وأكثرها غَناء في القتال، يحافظ عليه كل عربي ولا يكاد يفارقه حتى امتلأت بتمجيده أشعارهم، وبلغ ثمنه قيماً باهظة، وهو السلاح الذي كان يحدد مصير المعركة [١].

ويكفي لبيان فضله قوله ـ ﷺ ـ «**الجنة تحت ظلال السيوف**» [٢]، ورغم التطور ووجود الأسلحة الحديثة، فإن الحاجة إليه ما زالت موجودة خاصة في إقامة حد القتل وعند انقضاء الذخيرة والتحام الصفوف.

٢ ـ الرمح: آلة للطعن، وأصله من فروع الأشجار الصلبة وأشهرها شجر (النبع) ويوضع في رأسه نصل من حديد [٣]. وهو سلاح قديم استعمله قدماء المصريين والشعوب القديمة، وكان له أهمية بالغة عندهم وقد قلت الحاجة له في العصور الحديثة، ولا يستعمل في الجيوش العسكرية واستعيض عنه بالحربة الحديثة المثبتة في أعلا البندقية للطعن بها اذا تلاحم الأفراد أو نفذت الذخيرة وهو المعروف بقتال السلاح الأبيض.

ومما ذكر في فضله قوله ـ ﷺ ـ «**جعل رزقي تحت ظل رمحي**» [٤].

٣ ـ القوس: ـ بالفتح ـ آلة نصف دائرة، وجمعه قسي، ترمى بها الأسهم وهي في الأصل عود من النبع جبلي صلب يحنى طرفاه بقوة ويشد فيهما وتر من الجلد أو العصب الذي يكون في عنق البعير ويسمى القوس بالذراع لأنه في طولهما ولذا كانوا يتخذونه وحدة قياسية فيقيسون به المذروع، ومنه قوله تعالى: ﴿**فكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ**﴾ [٥].

---

(١) عبد الرؤوف عون ـ الفن الحربي في صدر الإسلام (ص١٤٨).

(٢) صحيح البخاري (٣ : ٢٠٨)، وصحيح الترمذي (٧ : ١٥٩) وسنن أبي داود (١ : ٤١٠).

(٣) الزواوي ـ ترتيب القاموس المحيط (٢ : ٣٦٠)،
عبد الرؤف عون ـ الفن الحربي (ص ١٤٣).

(٤) البخاري ـ صحيح البخاري (٣ : ٢٣٠).

(٥) الرصافي ـ الآلة والأداة (ص ٢٨٤).
الزواوي ـ ترتيب القاموس المحيط (٣ : ٦٣٣).
والآية المذكورة هي الآية رقم ٩ من سورة النجم.

ومن المعلوم أن الحاجة إليه في العصر الحديث قد انعدمت حتى قل أن تجده وقد استغنت عنه الجيوش العسكرية بالآلات الحديثة كالمسدس والبندقية والرشاش .

٤ ـ **السهام** : جمع سهم وهو من آلات الرمي بالقوس، يكون إما مستديراً أو مصفحاً إذا كان عريضاً ويتكون من النصل والعقب، والعقب هو الذي يوضع فيه الريش والعرف موضع السهم من الوتر[١] .

٥ ـ **النبل** : السهام، وقيل من السهام العربية تصنع من الغاب ويطلق عليها النشاب[٢] .

٦ ـ **المنجنيق** : وهو من آلات الحرب القديمة التي عرفها العرب بشدة نكايته للأعداء في هدم القصور والحصون والأبراج وبقنابله التي تحرق الدور والمعسكرات وذكر الحلبي أن أول منجنيق رمى به في الإسلام هو الذي أرشد إليه سلمان الفارسي رضي الله عنه، قال: إنا كنا بأرض فارس ننصب المنجنيقات على الحصون فنصيب من عدونا. ويقال أن سلمان رضي الله عنه هو الذي عمله بيده .

وذكر أنه في فتح خيبر لما فتح حصن الصعب وجدوا فيه آلة حرب ودبابات ومنجنيقات إلا أن يقال أن سلمان صنع هذا المنجنيق الذي بالطائف لأنه يجوز أن يكون الذي وجدوه في خيبر لم يكن معهم في الطائف[٣] .

٧ ـ **العرادة** : نوع من المنجنيق المصغر ولم تذكر المصادر معلومات كافية عنها ولكن الذي يفهم أنها كانت تستخدم لرمي السهام الكبار دفعة واحدة إلى مسافات بعيدة وأهداف نائية[٤] .

٨ ـ **الدبابة** : عرف العرب الدبابة منذ الجاهلية وسموها بهذا الاسم لأنها تدب على الأرض دباً. وعرفها المعجم الوسيط بأنها آلة تتخذ للحرب وهدم

---

(١) ابن منظور ـ لسان العرب (١٢ : ٣٠٨) .

(٢) ابن منظور ـ لسان العرب (١١ : ٦٤٢) .

(٣) السيرة الحلبية (٣ : ٨٠) .

(٤) عبد الرؤف عون ـ الفن الحربي في صدر الإسلام (ص ١٥٦) .

الحصون وفي حديث عن أحد الصحابة قال : كيف تصنعون بالحصون؟ قال : نتخذ دبابات يدخل فيها الرجال[1].

هذه بعض الأسلحة القديمة والمشهورة والتي كانت تحسم المعركة ولم يكن غرضي الاستقصاء وانما الإشارة والتنويه إليها فقط، ومن رغب التقصي فعليه بالنظر في مظانها من الكتب والمراجع[2].

٩- الدروع والدرق والترس والبيضة والمغفر:

وسوف نعرف بكل من هذه الآلات في اختصار مفيد مع إيراد بعض الأحاديث التي وردت في شأنها:

الدرع : هو ثوب ينسج من زرد الحديد ـ والزرد الدرع المزردة، سميت بها للينها وتداخل بعضها في بعض، ويلبس على الجسم ، له أكمام قصيرة تصل إلى منتصف الذراع وهو لغرض الحماية. وللدروع أسماء ونعوت مختلفة[3].

الدرق : ضرب من الترس ، الواحدة درقة وتتخذ من الجلود[4].

الترس : جمعه أتراس ، صفحة من الفولاذ مستديرة تحمل في اليد، يتلقى بها ضربة السيف ونحوه .

البيضة : وتسمى الخوذة، تصنع من الحديد من قطعة واحدة سميت بذلك لأنها على شكل بيضة النعام ، وابتاض الرجل: لبس البيضة .

المغفر : زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس[5].

---

(١) المعجم الوسيط (١ : ٢٦٨).

(٢) ومن تلك المراجع على سبيل المثال : الفن الحربي في صدر الإسلام لعبد الرؤف عون ـ الحرب عند العرب، إبراهيم مصطفى المحمود ـ الجيش العربي في عصر الفتوحات، د. إحسان الهندي ـ مستند الاجناد في آلات الجهاد لابن جماعة الحموي، وغيرها من المراجع الأخرى.

(٣) ابن منظور ـ لسان العرب (٨ : ٨١) والثعالبي ـ فقه اللغة (ص٢٣٥ ـ ٢٣٦).

(٤) ابن منظور ـ لسان العرب (١٠ : ٩٥).

(٥) المصدر نفسه (٦ : ٣٢).

الأحاديث النبوية التي وردت في شأنها

«عن السائب بن يزيد أن النبي ـ ﷺ ـ ظاهر يوم أحد بين درعين» [1].

«وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: توفي رسول الله ـ ﷺ ـ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من شعير» [2].

«وعن الزبير قال: كان على النبي ـ ﷺ ـ درعان يوم أحد» [3].

«وعن سهل بن سعد أنه سئل عن جرح رسول الله ـ ﷺ ـ يوم أحد فقال: جرح وجه النبي ـ ﷺ ـ وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه» [4].

«وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: دخل النبي ـ ﷺ ـ عام الفتح وعلى رأسه المغفر» [5]، «وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: كان أبو طلحة يتترس مع النبي ـ ﷺ ـ بترس واحد» [6].

---

(١) صحيح الترمذي (٧ : ١٨٥).

(٢) صحيح البخاري (٣ : ٢٣١).

(٤) صحيح الترمذي (٧ : ١٨٥).

(٤) صحيح البخاري (٣ : ٢٢٩)، وصحيح مسلم (١٢ : ١٤٨).

(٥) صحيح البخاري (٥ : ٩٢)، وسنن ابن ماجة (٢ : ٨٦) وصحيح الترمذي (٧ : ١٨٦).

(٦) صحيح البخاري (٣ : ٢٢٧). وقد أطلق بعض علماء القرن السادس كالإمام السلفي وغيره كلمة صحيح الترمذي على سنن الترمذي.

المبحث الثاني

التحصين

تمهيد

التحصين من : حصن الشيء منعه وصانه، والحصن الموضع المنيع، واتخذ له حصناً للوقاية وليحتمي به(١).

ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ .. ﴾(٢).

وقوله تعالىٰ : ﴿ لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ .. ﴾(٣).

والتحصين نوع من الإعداد المادي، وقد كان الاهتمام به من أقدم العصور ولكنه تطور بتطور الأسلحة.

وكان التحصين عبارة عن بناء سور حول مدينة لحمايتها من هجمات العدو وبخاصة المدن الساحلية أو بناء القلاع والأبراج والقصور الحصينة وبناء المخابئ والملاجئ تحت الأرض وعمل الأنفاق وحفر الخنادق وشق القنوات.

كل هذه التحصينات لتكون سداً منيعًا من غارات الأعداء وتقدم الغزاة، ولقد تطور بناء الحصون الدائمة والشبيهة بها وكان لبعضها مناعة وقوة ضد أسلحة الأزمنة القديمة.. كما تطور فن الحصار للتغلب علىٰ أساليب دفاع الحصون باستخدام اللغم وحفر النفق تحت الأسوار وقذف الحجارة الثقيلة والسهام الملتهبة.

وهناك نوعان من التحصينات: تحصينات دائمة وغالبًا ما تبنىٰ في أوقات السلم من الأسمنت المسلح أو الحجارة ومن المواد الطبيعية للمنطقة وبذلك تكون أقوىٰ من غيرها، وتحصينات ميدانية وتقام هذه التحصينات حسب ما

(١) المعجم الوسيط (١ : ١٨٠).

(٢) جزء من الآية ٢ من سورة الحشر.

(٣) جزء من الآية ١٤ من سورة الحشر.

يمليه الموقف وتدعو الحاجة إليه ، وهناك سببان رئيسيان لإقامة التحصينات .

أولهما : الاستفادة من قوة الوحدة المتمركزة في الموقع المحصن إلى أقصى حد ممكن .

وثانيهما : منع العدو من الاستفادة من إمكاناته لإحراز أي تفوق ، واستخدمت الموانع الاصطناعية عبر التاريخ لمنع العدو من الاقتراب من المواقع بسهولة .

المطلب الأول : التحصينات الدائمة (الثابتة)

أ ـ التحصينات الدائمة الثابتة

لقد أدت التحصينات الدائمة دورًا عظيمًا في الحروب القديمة ، ومن أشهر تلك التحصينات عبر التاريخ سور الصين العظيم الذي بلغ طوله ٢٢٤٠ كم وبني فيه ألف برج وبلغت سماكته ٥ أمتار تقريبًا ومعدل ارتفاعه ستة أمتار ، أقيم السور لحماية الصين من غارات أعدائها(١) ، فهذا السور العظيم يعد من التحصينات الدائمة الثابتة ولكنه رغم ضخامته هذه لم يمنع الغزوات التي شنتها جيوش كبيرة ضد الصين .

ومن عهد النبوة ما يرويه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس ـ رضي اللّه عنهما قال : تنفل رسول اللّه ـ ﷺ ـ سيفه ذا الفقار يوم بدر وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أحد قال : «رأيت في سيفي ذي الفقار فلاً فأولته فلا يكون فيكم ورأيت أني مردف كبشًا فأولته كبش الكتيبة ورأيت أني في درع حصينة فأولتها المدينة ورأيت بقرًا تذبح فبقر واللّه خير ، فبقر واللّه خير فكان الذي قال رسول اللّه ـ ﷺ»(٢) .

والشاهد من الحديث قوله : «إني في درع حصينة» وفي رواية «أني أدخلت يدي في درع حصينة»(٣) ، فالدرع الحصينة التي رآها رسول اللّه ـ ﷺ ـ هي

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة (ص ١٠٣١) .

(٢) مسند الإمام أحمد (١ : ٢٧١) .

(٣) ابن سيدالناس ـ عيون الأثر (٢ : ٧) .

المدينة المنورة لأن رأيه - ﷺ - كان الإقامة بالمدينة وعدم الخروج لقريش في غزوة أحد وعلى أن يجعل النساء والذرية في الآطام، فإن أقامت قريش خارج المدينة في السبخة فهي شر مكان، وإن دخلت المدينة قاتلناهم في الأزقة فنحن أعلم بها منهم ورموا من فوق الصياصي والآطام، وكانوا قد شبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية فهي كالحصن وكان هذا رأيه - ﷺ - ورأي أكابر الصحابة(١). وقد كانت المدينة المنورة من الحصون الدائمة للنبي - ﷺ - وأصحابه وقد كان مشهوراً في المدينة أن اليهود يبنون لهم حصوناً فيها وفي غيرها كحصون خيبر لقوله تعالى: ﴿ لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ﴾(٢). وقد تحصنت بنو النضير في حصونهم فلم تنفعهم حصونهم.

وكذلك ما وقع لبني النضير بعد أن نقضوا العهد فقد حاصرهم النبي - ﷺ - وقطع نخلهم وحرق زرعهم فتحصنوا في حصونهم حتى نزلوا على أمره أن يخرجوا من المدينة بنفوسهم وذريتهم وأن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح وقبض النبي - ﷺ - الأموال والحلقة وهي السلاح(٣) فلم تنفعهم حصونهم ونزل فيهم قرآن يتلى(٤).

وأما بنو قريظة فكانوا أشد اليهود عداوة للنبي - ﷺ - فخانوا عهد رسول الله - ﷺ - في غزوة الخندق فحاصرهم في حصونهم.

والشاهد من ذلك اعتصام اليهود في حصونهم واتخاذهم لها للدفاع والحماية.

ومن الأمثلة على تحصين المدن القديمة حصن الطائف الذي حاصره رسول الله - ﷺ - فقال ابن إسحق - رحمه الله تعالى -: ثم مضى رسول الله - ﷺ - حتى نزل قريباً من الطائف فضرب عسكره وأشرفت ثقيف على حصنهم ولا مثال له في حصون العرب وأقاموا رماتهم وهم مائة رام فرموا بالسهام والمقاليع من بعد من حصونهم ومن دخل تحت الحصن دلوا عليه سكك الحديد محماة بالنار يطير منها الشرر فرموا المسلمين بالنبل رمياً شديداً كأنه رجل جراد(٥)،

---

(١) محمد بن يوسف الصالحي الشامي - سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد(٤ : ٢٧٥).

(٢) جزء من الآية١٤ من سورة الحشر.

(٣) إبن قيم الجوزية - زاد المعاد (٣ : ١٢٨).

(٤) الآيتان٢ و ١٤ من سورة الحشر، وقد تقدمتا.

(٥) سرب جراد.

حتىٰ أصيب ناس من المسلمين بجراح وقتل منهم اثنا عشر رجلا فارتفع - ﷺ - إلىٰ موضع مسجده اليوم ، الذي بنته ثقيف بعد إسلامها[1] .

والذي يهمنا من ذلك إبراز هذه التحصينات العظيمة الدائمة التي كانت تتحصن بها العرب وتدافع عنها وتحمي بها نفسها وأهلها وتقاتل من فوقها محتمية بها فكان لها قيمة عظيمة بالنسبة إلىٰ وقتها ولقد كان السبق لجيش رسول اللّه - ﷺ - في عملية نقب الأسوار كما حصل في حصن ثقيف، ثم في أواخر القرن السابع عشر الميلادي تمكن ضابط مهندس في جيش لويس الرابع عشر هو المارشال سباستيان دي فوبان من تطوير وسيلة منسقة لمهاجمة الأسوار ذات الحصون البارزة عرفت باسم (خطة حصار فوبان) وتتلخص في نقب السور من إحدىٰ الجهات، بشكل يسمح بمرور الرتل المهاجم[2] .

ب - التحصينات الدائمة الحديثة

نظرًا إلىٰ تطور الأسلحة الحديثة أصبحت الأسوار والقلاع والأبراج والتحصينات القديمة لا تمنع غزو المدن ولذلك تغير أسلوب التحصينات الحديثة بما يواجه تطور الأسلحة الحديثة الهجومية والوقاية من أخطارها والإنذار المبكر للدولة لتقوم بالأعمال المضادة لمداهمة الخطر والقيام بالإجراءات التي تقلل من الخسائر .

وذلك أصبح من الأشياء الضرورية في كل مدينة إقامة الملاجئ لكل عمارة كبيرة يراد إنشاؤها وكذلك ملاجئ للأسواق ومناطق التجمعات ، تنشأ هذه الملاجئ تحت الأرض وتكون مزودة بالمرافق الضرورية .

ومن التحصين الدائم توعية المواطنين بمايجب عليهم عند سماع صفارة الإنذار من التوجه إلىٰ الملاجئ وإطفاء الأنوار ومعرفة استعمال كمامات الغاز في حالة إلقاء قنابل غازية والمحافظة علىٰ هذه الكمامات سليمة لوقت الحاجة ، وكذلك المحافظة علىٰ المجمعات السكانية والدوائر الحكومية من المخربين وذلك بوضع أجهزة مراقبة - كاميرات - في جميع الأماكن الحساسة .

(١) سبل الهدىٰ والرشاد في سيرة خير العباد (٤ : ٥٤٨).
(٢) الموسوعة العسكرية (١ : ٢٥٧).

وتعدّ شبكات الإنذار المبكر من التحصينات الدائمة وهي عبارة عن مجموعة كبيرة من الرادارات حسب مساحة البلد المراد تغطيتها وتوزيع هذه الرادارات على مسافات تكون فيها دوائر الاكتشاف متداخلة أي بمعنى أن كل دائرة تسلم الدائرة إلى التي بعدها وملاحظة النقاط الميتة التي لا يصلها الاكتشاف لئلا تكون نقاط تسلل للأعداء.

ولقد اعتمدت السياسة العسكرية الإسرائيلية على التحصينات الثابتة بنسبة كبيرة إذ عملت منذ بداية الاستيطان الإسرائيلي في فلسطين إلى إقامة المستعمرات المحصنة ويمكن إلى حد ما عدّ المستعمرات المحصنة الممتدة على طول الحدود خطا دفاعيا ثابتا ذا قدرة محدودة.

ولم تقم القوات الإسرائيلية خطًا دفاعيًا ثابتًا بالمعنى الصحيح للكلمة إلا بعد حرب ١٩٦٧م حين أقامت (خط بارليف) ورغم وجود حاجز مائي يضاعف الصعوبات أمام أية قوة مهاجمة فقد تمكنت القوات المصرية من اجتياح هذا الخط في حرب ١٩٧٣م ولا يعني هذا أن التحصينات الدائمة قد انتهى أمرها ولم تعد لها قيمة فما زال لها أهمية كبرى خاصة في الدفاع عن مناطق محددة أو لحماية ممر إجباري[1]. ولكن مع هذا تبرز أهمية التغطية الرادارية في استكشاف أي قوة مهاجمة والإنذار المبكر فأصبح لابد من التوافق بين التحصين وشبكات الإنذار المبكر.

الحماية في العصر النووي:

تزداد المخاوف العامة من إمكانية وقوع حرب نووية ويزداد نتيجة لذلك اهتمام الناس بالملاجئ التي يمكن أن تقيهم من تأثيرات التفجيرات النووية التي ربما لا تصيبهم مباشرة.

ونظرًا إلى تطور أسلحة التدمير الشامل التي تستخدمها إسرائيل وغيرها، وهي:

الحرب النووية: NUCLEAR WARFARE

(١) الموسوعة العسكرية (١ : ٢٥٨).

والحرب الإشعاعية : RADIOLOGICAL WARFARE

والحرب الكيماوية : CHEMICAL WARFARE

والحرب البيولوجية : BIOLOGICAL WARFARE

الحرب الجرثومية(١) : BACTERIOLGICAL WARFARE

فهذه الأسلحة تشكل تهديداً عسكرياً لا يمكن تجنبه إلا إذا وقعت مفاجأة تقنية في المستقبل إذ إن هذه الأسلحة تدمر كل شيء، لذلك أصبح موضوع الألبسة الواقية والملاجئ وأنواعها من أهم التحصينات الدائمة التي تقام أيام السلم لحماية المواطنين من الإشعاع والغبار النووي .

ولابد أن يُعد لكل شيء عدته وأن نرد على الظالم بالمثل وفي ذلك يقول اللّه تعالى : ﴿ **فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ** ﴾(٢) .

المطلب الثاني : التحصينات الميدانية :

التحصينات الميدانية تحصينات طارئة يفرضها الموقف العسكري ضمن خطة عسكرية مدروسة وربما لا يكون فارق كبير بين التحصينات القديمة والتحصينات الحديثة .

بينما تمتاز التحصينات الحديثة بما طرأ عليها من تطور في الأسلحة واختراع الألغام بأنواعها ومصائد المغفلين والمكعبات الخراسانية والخوازيق والأسلاك الشائكة المكهربة .

التحصينات الميدانية القديمة

لقد عرفت التحصينات الميدانية القديمة منذ أقدم العصور ، وكان الغرض الرئيس منها تحقيق تفوق على العدو أو وضع العراقيل أمامه للحد من حركته أو حماية الجنود والمدن والأهالي من السلب والنهب .

ومن التحصينات القديمة الخندق الذي أشار بحفره سلمان الفارسي ـ

(١) محمود شيت خطاب ـ الوجيز في العسكرية الإسرائيلية (ص١٣٤) .
(٢) سورة البقرة : الآية ١٩٤ .

رضي الله عنه ـ على النبي ـ ﷺ ـ ليحتمي به المسلمون من تقدم قريش وقد استحسن النبي ـ ﷺ ـ ذلك وجاء في كتب السير في غزوة الأحزاب أن النبي ـ ﷺ ـ ركب فرسًا له ومعه عدة من المهاجرين والأنصار ـ رضي الله عنهم ـ فأراد موضعًا ينزل له فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل سلعا الجبل خلف ظهره ويخندق من المذاد إلى ذباب وراتج[1]، وقال ابن إسحق : وكان الذي أشار على رسول الله ـ ﷺ ـ بالخندق سلمان الفارسي وكان أول مشهد يشهده مع رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يومئذ حر فقال : يا رسول الله إنا كنا بفارس إذا حضرنا خندقنا علينا فعمل فيه رسول الله ـ ﷺ ـ والمسلمون حتى أحكموه وكان أحد جانبي المدينة عورة وسائر جوانبها مشبكة بالبنيان والنخيل لا يتمكن العدو منها[2] . ويظهر لنا من كلام سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ أن الفرس كذلك كانوا يستخدمون الخندق يحصنون به أنفسهم .

التحصينات الميدانية المتطورة :

التحصينات الميدانية هي التي تنشأ في الميدان وتفرضها ظروف المعركة والموقع فهي عبارة عن تحصينات مؤقتة تنتهي بانتهاء المهمة المكلفة بها الوحدة المقاتلة في الميدان .

والتحصينات الميداينة غالبًا ما تكون من قبل المدافع لأنه يتشبث بالأرض وهي على نوعين :

أ ـ **التحصينات الدفاعية** لإعاقة الخصم وتعطيله وإرباك خطته والضغط عليه بأن يستخدم مواضع معينة من الأرض ليتم اصطياده فيها والتغلب عليه بالقيام بهجوم مضاد من وضع الدفاع .

ب ـ **التحصينات الوقائية** والغرض منها توفير بعض الحماية للأفراد والمعدات .

---

(١) المذاد موضع بالمدينة حيث حفر الخندق النبي ـ ﷺ، وقيل هو : بين سلع وخندق المدينة، وقال السمهودي صاحب وفاء الوفاء : ذباب وراتج وسلع من جبال المدينة . أنظرسبل الهدى والرشاد (٤ : ٥١٤ ـ ٥١٥). وانظرالسيرة لابن هشام (٢ : ٣ـ٤ / ٢٦١) بتحقيق وضبط وشرح السقا والإبياري والشلبي .

(٢) وفاء الوفاء للسمهودي (٢ : ٣٠٢ ـ ٣٠٣) مطبعة الآداب والمؤيد بمصر ١٣٢٦هـ .

أ ـ التحصينات الميدانية الدفاعية

إن مهمة هذه التحصينات الدفاعية هي حماية الجبهة المدافع عنها وتدمير قوات العدو المهاجمة وصدها أو على الأقل إنهاك القوات المهاجمة وتشتيت تشكيلاتها وخلق الظروف الملائمة للهجمات المعاكسة الصديقة الرامية إلى تدمير قوات العدو، تشمل هذه التحصينات: الخنادق : الدشم الخرسانية المسلحة ، المكعبات الخرسانية والخوازيق، حقول الألغام ، الأسلاك الشائكة وحلقات الكونسرتينا، شبكات الإنذار المبكر .

١ ـ الخنادق : هناك ثلاثة أنواع من الخنادق تستعمل في الخطوط الدفاعية وهي الخنادق المضادة للدبابات التي تعيق تقدم الدبابات وتكون عبارة عن فخ للدبابات تسقط في داخلها فلا تستطيع الخروج وهناك خنادق المواصلات ، وأخيراً الخنادق القتالية للأفراد والأسلحة وهي توفر للأفراد الحماية من شظايا القنابل المتفجرة وميدان ضرب نار جيد للمدافع وتسبب إعاقة وتدمير قوات العدو.

٢ ـ الدشم الخرسانية المسلحة : وهي عبارة عن غرف خرسانية مسلحة تنشأ في المناطق الحيوية وعلى طرق الاقتراب وهي عبارة عن قلعة مصغرة مزودة بأسلحة كثيفة النيران تمنع أي تقدم لأي وحدات.

٣ ـ المكعبات الخرسانية والخوازيق :

وهي عبارة عن قطع من المربعات والمستطيلات وبعضها على شكل خوازيق مسلحة توضع في المناطق المفتوحة وخطوط المواصلات وتشبك بسلاسل من حديد ليصعب فصلها، وتمنع تقدم آليات العدو.

٤ ـ حقول الألغام:

الألغام أنواع عديدة فمنها ما هو مضاد للأفراد ومنها ما هو مضاد للدبابات وعند تحصين الموقع الدفاعي تزرع حقول الألغام في المناطق الأمامية المواجهة للعدو، ترصد هذه الألغام بزوايا محددة وكمية معروفة كما تحدد المداخل والمخارج المأمونة في الحقل ومعروف لدينا مواقع الألغام جميعها ليسهل علينا

رفعها في حالة الاستغناء عنها ، كما يجب تغطية الألغام بالنيران ، وإلا أصبح الحقل لا قيمة له حيث يمكن أن يتسلل إليه العدو وينزع تلك الألغام وذلك باستعمال مجسات الألغام التي تكشف له عن مواقع الألغام ، فإذا كانت حقول ألغامنا مغطاة بالنيران تغطية جيدة كان من الصعب على الأعداء نزعها أو الاقتراب منها .

٥ ـ الأسلاك الشائكة وحلقات الكونسرتينا :

إن الأسلاك الشائكة والحلقات الحلزونية تقام كمانع وقائي في المراحل الأولى لاحتلال الموقع الدفاعي ، ولزيادة صعوبة هذا المانع يوضع أكثر من خط من الأسلاك الشائكة بعمق ، وتوضع بينها اللفات الحلزونية الشائكة ويمكن توصيله بتيار كهربائي .

٦ ـ شبكات الإنذار المبكر

وذلك باستعمال الرادارات وطائرات الاستكشاف وإبلاغ القيادة أولاً بأول عن تحركات قوات العدو المتصدى لها .

ب ـ التحصينات الوقائية :

وهي التحصينات التي تعطي حماية للأفراد من شظايا الأسلحة أو الغاز وتتلخص في :

١ ـ المتاريس والدراوي : وهي عبارة عن أكياس الرمل التي توضع أمام أبواب المنازل ويختبئ خلفها المقاتلون وهي على شكل جدار مبني من أكياس الرمل والتراب .

٢ ـ كمامات الغاز :

توجد ملابس واقية وكمامات للغاز وذلك لمواجهة الحرب الكيماوية وهذه الكمامات عبارة عن نسيج يغطي الوجه ولها فتحات للنظر وصمامات لدخول الهواء وكانت الكمامات تنقع في محلول واق من مادة : فينات الصوديوم SODIUM PHENATE استبدلت فيما بعد بمادة : (الهكسامين HEXAMINE) .

وبعد ذلك طور البريطانيون قناعًا لاصقًا بالوجه به عوينات واقية مزودة بعلبة للتنقية وقد أصبح هذا القناع فيما بعد نموذجًا لجهاز التنفس التقليدي الذي اعتمدته القوات المتحالفة على نطاق واسع[1].

(١) الحرب الكيماوية، موسوعة السلاح المصورة (٨ : ٣٩٥) دار المختار للطباعة سويسرا.

الخاتمة

نتائج البحث

أحمد اللّه العلي القدير الذي وفقني للوصول بهذا البحث إلى مرحلة استخلاص النتائج والثمرات، وأسأله سبحانه أن يعينني على تقديمها بما يُحقق الفائدة والنفع فمن خلال دراسة البحث وإعداده توصلت الى النتائج التي يمكن تلخيصها فيما يلي من نقاط :

١ ـ أن السلام هو الأصل في الإسلام وأن الحرب ضرورة تقدر بقدرها ، لا يخوضها المسلمون إلا حينما لا يكون لهم بد من خوضها ، وأن الحرب تنتهي بمجرد انتهاء الحاجة إليها وزوال بواعثها التي نشبت من أجلها، فالغاية من الحرب في الإسلام هي أن ينتشر السلام ويقوم العدل وينعم الناس في ظله .

٢ ـ إن كون السلام هو الأصل في الإسلام لا يعني بالضرورة أن الحرب في الإسلام هي حرب دفاعية فقط كما هو شائع عند بعض الكتاب، أو هجومية كما اصطلح عليه بعضهم الآخر، فوصف الجهاد في الإسلام بأنه هجومي فقط أو دفاعي فقط لا يصح إطلاقه على الجهاد الإسلامي البتة، فالجهاد اسم شامل لجميع العمليات الحربية يؤخذ من كل منها بما يمليه الموقف ويرتضيه الإسلام دون تخصيص الحرب باسم الدفاع أو الهجوم، فبواعث الجهاد وأغراضه وغاياته نتلمسها في الإسلام نفسه ونستمدها من مصادر التشريع وليس من المرحلة المؤقتة التي تفرضها الظروف والأحداث دفاعية كانت الحرب أم هجومية .

٣ ـ إن هناك خلطًا عند كثير من الكتاب الإسلاميين حول مفهوم العسكرية الإسلامية ومبادئها، وذلك الخلط ناتج من سببين أولهما : غياب التصور الشامل لدى كثير ممن كتبوا في مبادئ العسكرية الإسلامية وذلك راجع إلى ندرة المؤلفات والبحوث في هذا الشأن ، وثانيهما : أن كثيراً من الكتاب يستمدون تصوراتهم من المؤلفات المتداولة اليوم وهي مؤلفات كتبت أساساً عن العقائد العسكرية غير الإسلامية .

٤ ـ أن بواعث الحرب في الإسلام تتمثل في حماية الدين والنفس والوطن والمال والعرض، وتأمين سلامة الدولة وأمنها وقتال أهل الردة والبغي وقطاع الطريق وناكثي العهود ولدفع العدوان وتأمين الدعوة وحماية الدعاة ونصرة المظلوم، وإن الدين هو أوجب ما ينبغي الدفاع عنه، لأن حماية الأموال والأنفس والأعراض والوطن تأتي بالتبع لحماية العقيدة وتأمينها، فبحماية

العقيدة يسود العدل والسلام وتحمي بقية القيم الأخرىٰ بالتبع .

٥ـ إن غايات الحرب في الإسلام ثابتة لا تتغير وهي إعلاء كلمة اللّه ورفع راية التوحيد في كل مكان وحمل الخير للناس بتأمين الهداية لهم وعصمة الدماء وتأمين حقوق الإنسان ونشر القيم الإسلامية كالعدل والمساواة والوفاء بالعهود واحترام الإنسان وتكريم البشرية والأخوة في اللّه ، وإن الإسلام يتميز في ذلك عن جميع الأنظمة والعقائد الموجودة علىٰ وجه الأرض التي تُخالط غايات الحرب فيها أهواء البشر ومطامعهم وتتحكم فيها المصلحة والمنفعة الشخصية وبقية القيم الأرضية الأخرىٰ .

٦ـ إن الأمة الإسلامية مأمورة بالإعداد للجهاد واتخاذ القوة في كل الأوقات والأماكن سواء أكان ذلك في وقت السلم أو الحرب ، وأن كل سبب مُباح يؤدي إلىٰ زيادة قوة المسلمين وإرهاب أعدائهم وتوهين قواهم هو من القوة المأمور بها شرعًا والواجب علىٰ الأمة السعي لاتخاذها وإعدادها .

٧ ـ إن إعداد الجندي المسلم معنويًا وماديًا هو من أوجب واجبات الأمة المسلمة في سبيل إعداد القوة التي تُرهب الأعداء وإن بناء النفس المؤمنة بربها هو من أسباب القوة ويجب علىٰ الأمة الاهتمام بالإعداد المعنوي لكل أفرادها بتزكية الأنفس وتطهيرها وتربيتها وتدريبها علىٰ طاعة اللّه وامتثال أوامره واجتناب معاصيه والإكثار من ذكره وتمثل القيم الإسلامية وتطبيقها علىٰ واقع حياة الجندي وإن من تلك القيم الإيثار والصبر والرغبة في الشهادة والرهبة من المعاصي والخصال المذمومة وتطهير النفس من الخيانة وعدم التولي يوم الزحف وإظهار الشدة والبأس علىٰ الأعداء والإقدام في الحروب .

٨ ـ إن تهيئة الأمة جميعها للمعركة يدخل في باب الإعداد لتكون مستعدة ومتيقظة لكل ما يخططه العدو ويحيكه ضدها وتكون مستعدة للتصدي لتلك المخططات وإفشالها وإن من وسائل ترغيب الأمة في الجهاد بيان فضل المجاهدين وتهيئة السبل للقادرين علىٰ الجهاد للمشاركة فيه ويتم ذلك من خلال شتىٰ وسائل الإعلام إضافة إلىٰ تنشئة الأجيال في المراحل التعليمية علىٰ حب الغزو والجهاد وبث الروح الجهادية في الشباب وإدخال أنظمة التدريب

الطوعي والإلزامي وإقامة المعسكرات وإدخال المادة الجهادية ضمن المقررات الدراسية وتشجيع الأمة للتكفل برعاية أبناء المجاهدين وأسرهم واستنفار العلماء لندب الأمة للجهاد.

٩- إن حث الأمة على البذل والتضحية والإنفاق للجهاد بالأموال والمتاع هو من ضمن إعداد القوة وإن الجهاد بالمال لا يقل في أهميته عن الجهاد بالأنفس.

١٠- إن بيان فساد الغاية التي يُقاتل العدو من أجلها وعدالة الغاية التي يُجاهد المسلمون من أجلها يجعل الأمة مستيقنة من النصر ومستعدة للقاء العدو إذ إن الأمة التي تدرك عدالة القضية التي تحارب من أجلها تقف خلف جيشها وتواجه التحديات.

١١- إن الأمة يجب أن تعلم بأن شرف الغاية التي تحارب من أجلها يستوجب الصبر على ما يصيبها وأن الصبر سبب أساسي من أسباب النصر على الأعداء وأنه لابد من التضحيات والبذل حتى نظفر بالنصر ونصل إلى ما نسمو إليه من أهداف سامية.

١٢- إنه يجب إعلاء شأن الشهداء وإظهار مناقبهم وإحياء ذكراهم وعرض مواقفهم على الأمة ليكون ذلك حافزاً للأجيال المسلمة لأن تحذو حذوهم وتلحق بركبهم وتتمثل مواقفهم في الجهاد.

١٣- كفالة أسر الشهداء والاعتناء بهم والإشفاق عليهم وبرّهم وتوفير كل ما يحتاجون إليه من رعاية ونفقة وتعليم والمحافظة على معنوياتهم والحنو عليهم.

١٤- العمل على إنقاذ الأسرى والمستضعفين من المسلمين في بلاد الكفر وتخليصهم من الاضطهاد والعنت، وفي ذلك عدم الاستكانة للأعداء وعدم تمكين الكفار من المسلمين مع ما في ذلك من رفع معنويات المستضعفين والأمة بأسرها وصون كرامتها.

١٥- التصدي للدعاية والحرب النفسية التي يشنها الأعداء بشتى أنواعها

ويهدفون منها إلى تثبيط الأمة وتوهينها وتخذيلها أو بث الفرقة وإشاعة الرعب والفساد ، وكشف جميع الوسائل التي يستخدمها الأعداء في ذلك من بث الشائعات وافتعال الأزمات وإثارة الرعب والفوضى ومحاولات تفريق الصفوف أو استظهار القوة أو محاولات إشغال الأمة وصرفها عن مهامها الأساسية وتوعية الأمة حتى تكون مستعدة في الحرب النفسية وكشف محاولات التخذيل وتثبيط العزائم، إضافة إلى منع ترويج الشائعات والقضاء عليها في مهدها والاستخدام الإيجابي لجميع وسائل الإعلام والاتصال المتاحة وكشف المخططات التي تحاك ضد الأمة وكتمان الأسرار لحرمان العدو من الاستفادة منها .

١٦ـ توجيه الحرب النفسية إلى صفوف الأعداء والسعي إلى امتلاك ناصية كافة الوسائل الحديثة المستخدمة في ذلك التي تؤدي مفعولها في قهر الأعداء، وذلك بإظهار التفوق الحربي وإشعار العدو بضعفه وبث اليأس من نصره وإذاعة الهزائم التي تلحق به واستخدام الدعاية المضادة وإضعاف الروح المعنوية للأعداء والتأثير في الجبهة الداخلية وإحداث الفرقة بين صفوفه والتأثير في القوى العالمية لكسبها في صفنا وحرمان العدو من صداقتنا .

١٧ـ تحريض الأمة على القتال يُحصنها من الانتكاس ويرفع معنويات المقاتلين ويمنحهم الثقة بأنفسهم، والتحريض من أهم وسائل كسب المعركة وتستخدم في ذلك الوسائل المختلفة شعراً ونثراً وبالخطب الحماسية التي تحض على الإقدام والثبات وترغب فيما عند اللّه وترهب من عاقبة الفرار، وللكلمة المنثورة وغير المنثورة وقعها في الأنفس وأثرها في المقاتلين .

١٨ـ لما كانت القوة المعنوية وحدها لا تكفي لصد العدوان وقمع الظلم كان لابد من اتخاذ قوة مادية تسندها وتكون مرهبة للأعداء وتلك القوة تتمثل في الرجال الأقوياء والآلة القوية .

١٩ـ إن القوة المأمور باتخاذها وإعدادها ليست قوة دون قوة ولكنها كل قوة ترهب الأعداء وتحقق الغايات ويُستعان بها على العدو مهما اختلفت تلك القوة باختلاف الأزمان أو تعددت وسائلها أو تنوعت أشكالها ، وإن المسلمين

مأمورون بالسعي لامتلاك تلك الوسائل وتطويرها والتفوق في مجالاتها .

٢٠ـ إن المسلمين مطالبون بوضع الاستراتيجيات القتالية منطلقين من المبادئ العسكرية الإسلامية، كقاعدة لوضع تلك الاستراتيجيات والخطط التي تعكس تصور الإسلام للنظم الأساسية للصراع المسلح بين الإسلام وخصومه، وكدليل ومرشد في ممارستهم لأداة القوة المسلحة كواحدة من وسائل الصراع .

٢١ـ إن التخطيط للمعارك قبل وقوعها ضرورة لابد منها، حيث يجب أن يتم وفق أحدث الأصول العلمية مصحوبًا بالتنسيق وتقسيم العمل وتوزيع الأعباء حسب الأزمنة والأمكنة المختلفة حتى يخرج العمل منسجمًا متكاملاً مع غيره من أشكال الإعداد ليقود إلى نتائج مادية محسوبة وفق تلك المقدمات المادية، وإن العمل دون تخطيط يكون مصيره الفشل في الغالب لأنه يزيد من احتمال الخطأ ويُقلل من فرصة الإتقان والصواب .

٢٢ـ إنه لابد من دراسة العناصر الأساسية لأية معركة ووضعها في الاعتبار حيث إن أي إهمال لعنصر من تلك العناصر قد يكون وحده كافيا لإيقاع الهزيمة والفشل . ومن تلك العناصر :

* إعداد القوات المشتركة في المعركة من حيث العدد والتأهيل وكفاية التدريب والمعدات الأساسية التي تحتاج إليها الوحدات لإنجاز مهامها ومن حيث التسليح والإمدادات المتواصلة والصيانة وقطع الغيار والإمدادات الطبية وغير ذلك .

* جمع المعلومات الكافية عن قوات العدو ومعرفة نياته وسياساته واستراتيجيته وتنظيماته وإعداد جنوده ومستوى تدريبهم وروحهم المعنوية والقيادات ونوعية السلاح المستخدم .

* معرفة طبيعة الأرض التي ستجري عليها المعركة حيث إن اختلاف طبيعة الأرض يحدد نوعيات التسليح والآلات والتدريب لكل جيش .

* معرفة الطقس حيث إن الظواهر الجوية المختلفة تؤثر في الاستخدام القتالي للمعدات والمقاتلين وتحدد طبيعة المعارك .

٢٣ـ إنه لابد من اللجوء إلىٰ التنظيم الذي يُحقق الأهداف وينجز العمل بطريقة منظمة تمنع ازدواجية المجهود وبعثرته وتقلل من التكاليف كما أنه لابد للتنظيم أن يتم وفق مراحله المختلفة من تحديد للمهمة وبناء الهيكل العام وتعيين للمصادر مع مراعاة المبادئ الأساسية للتنظيم من توحيد القيادة والسيطرة علىٰ إدارة العمل، والمرونة ، والبساطة علىٰ مختلف المستويات القيادية إلىٰ غير ذلك من مبادئ التنظيم وذلك حتىٰ يتم العمل وفق نسق يقود فى مجمله إلىٰ الاستفادة من كل الطاقات إلىٰ أقصىٰ حد ممكن.

٢٤ـ إنه لابُدّ من تعبئة الجيوش من اتباع أحدث وأنجح أساليب التنظيم التي يتوصل إليها خبراء التنظيم وذلك أخذاً بأسباب التطور في مجال إدارة الحرب الحديثة .

٢٥ـ إن الأمة الإسلامية مطالبة باتخاذ الجيوش المنظمة وإعداد المسلمين من طريق التجنيد ليتهيأوا للجهاد وفق شروط معينة للتجنيد تتلخص في الإسلام، العقل ، البلوغ الحرية ، الذكورة ، السلامة من الضرر، ووجود النفقة، ورأوا أن التجنيد يأخذ حكم الجهاد عملاً بالقاعدة الفقهية (من لا يتم الواجب إلا به فهو واجب) وجعلوا التجنيد علىٰ نوعين : أولهما التجنيد لطلب العدو في عقر داره ورأوا أنه فرض كفاية ، وثانيهما : التجنيد للدفاع ورأوا أن حكمه فرض عين علىٰ عموم المسلمين.

٢٦ ـ إن التطور السريع في هذا العصر في مجالات التسليح واستخدام الأسلحة وطبيعة الحروب يتطلب تجنيد كافة القوىٰ المادية والمعنوية لمجابهة الأخطار التي تحدق بالمسلمين وإن ذلك يتضمن استطراداً تجنيد كل قادر علىٰ القتال وتدريبه علىٰ استخدام السلاح لدرء الأخطار المحدقة بالمسلمين ، وحيث إنه أصبح ضرورياً قضاء أوقات طويلة في التدريب علىٰ الأسلحة قبل إتقان استخدامها نسبة إلىٰ اختراع الأسلحة المعقدة والمطورة، لذا أصبح لزاماً مواكبة ذلك التطور بزيادة الإقبال علىٰ إنشاء الكليات العسكرية ومدارس التدريب لامتلاك ناصية السلاح والإبداع في مجاله.

٢٧ ـ إنه يدخل فى إعداد الجندي المسلم وتهيئته للمعركة إعداده وفق ثلاث

مراحل للتدريب وهي : تمرين اللياقة والتربية البدنية ، ويسعىٰ لكسبها بالتمرينات العسكرية الغرضية والوظيفية والسويدية وتدريبات الدفاع عن النفس بتعلم المهارات والفنون القتالية الفردية كالكراتية والتايكوندو والجودو والكونغ فو وغيرها ، إضافة إلىٰ مرحلة الدراسات النظرية لتزويد الجندي بالمعلومات النظرية والخبرات الفنية في مواد النظام الداخلي للجندية والإسعافات الأولية والتربية العسكرية وقراءة الخرائط وتعلم الأسلحة المختلفة من خلال المدارس والكليات العسكرية من طريق دورات خاصة تعقد لذلك أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة التطبيقات العملية الميدانية ليكتسب الجندي الخبرة العملية من خلال مراحل التدريب المختلفة مثل مرحلة تدريب الفرد الأساسي والمتقدم وتدريب الوحدة الأساسي والمتقدم والتدريبات المشتركة وغيرها .

٢٨ـ إنه ينبغي اختيار القيادات وفق ضوابط دقيقة وقواعد ومواصفات حددها الإسلام إدراكًا لأهمية القيادات وأثرها في جميع المستويات مما يتطلب من القائد أن يتحلىٰ بصفات معينة تؤهله لتحمل المسؤولية وثقة مرؤوسيه حتىٰ يقودهم إلىٰ النصر . وإن الإسلام قد حدد العلاقة بين القادة والجنود وضبطها بالضوابط ووضع لها أطرها وأخلاقياتها التي ينبغي علىٰ الجميع أن يسعوا إلىٰ التحلي بها ، كما أن الإسلام حفظ للقائد هيبته ومكانته وجعل له منزلة خاصة وأرشد الأمة إلىٰ احترام شخصيته وطاعته في غير معصية اللّٰه ، وفي المقابل فإن الإسلام قد حدد أساليب معاملة القادة لمرؤوسيهم حتىٰ يمكن كسب ثقتهم وقيادتهم إلىٰ تحقيق الأهداف المرجوة .

٢٩ـ إن الإسلام قد عُني بالشورىٰ كواحدة من دعائم القيادة الناجحة لتنأىٰ بالقرارات من الزل وتجنب القادة مزالق الاستبداد بالرأي أو الانفراد بالسلطة أو الوقوع في الخطأ أو التسرع ، وتجمع الآراء كلها علىٰ رأي واحد وتؤلف القلوب وتشرك الجميع في الأمر وقد دعا الإسلام إلىٰ الأخذ بالشورىٰ وتطبيقها في مختلف المستويات القيادية .

٣٠ـ إن المعلومات تُشكل إضافة إلىٰ السلاح والرجال العنصر الثالث الأساسي والحاسم في المعارك إذ عليها يتوقف وضع الخطط وخوض المعارك وإنها نوع من أنواع القوة أصبح يأخذ في هذا العصر وضعًا متميزًا من حيث

الأهمية، وإن المسلمين مطالبون باتخاذ كافة الوسائل الممكنة للحصول على المعلومات من طريق الجواسيس والعيون والعملاء واستخدام الوسائل الحديثة المتقدمة من أقمار صناعية وطائرات تجسس وآلات ألكترونية للالتقاط وغير ذلك، وإنه ينبغي العناية الخاصة بأجهزة الاستخبارات وأجهزة جمع المعلومات والعناية باختيار الجواسيس والعيون وتدريبهم واتخاذ العملاء لدى الأعداء لجمع المعلومات.

٣١ـ إنه ينبغي العناية باختيار الطلائع وعناصر الاستكشاف والاستطلاع لجمع المعلومات الميدانية حيث أن صعوبة المهام التي يكلفون بها وأهمية المعلومات التي يحصلون عليها تتطلب مجهوداً خاصاً من الرجال ومستويات خاصة من التدريب والإعداد.

٣٢ـ إنه ينبغي مراعاة اتباع الطرق السليمة في جمع المعلومات لكل حالة بقدرها مع المحافظة على المعلومات من التسريب باستخدام الطرق المتبعة في ذلك من استخدام الرموز والشفرات وغير ذلك من الوسائل الحديثة.

٣٣ـ إن تعلم لغة الأعداء من الأهمية بمكان للمحافظة على أسرارنا والحصول على المعلومات من الأعداء.

٣٤ـ إن دور أجهزة الاستخبارات في حسم المعارك هو من الأهمية بمكان حيث إنها تقدم المعلومات التي تفيد في التخطيط واتخاذ القرارات، وإنها تعمل في مجالات مختلفة من حيث تغطية المعلومات ومن أنواعها الاستخبارات الاستراتيجية التي تغطي معلومات عامة عن الدول، والاستخبارات التكتيكية لتغطية معلومات التجسس القتالي والاستخبارات المضادة لمنع العدو من الوصول إلى معلومات عن عملياتنا وقواتنا، إضافة إلى قيامها بمكافحة التجسس المضاد والقيام بعمليات الإخفاء والتمويه والتعمية على المعدات العسكرية والمنشآت والأسلحة وغير ذلك من المرافق الحيوية. وإن للاستخبارات في ذلك وسائلها ومصادرها السرية والعلنية.

٣٥ـ إن الأمة الإسلامية في حاجة إلى الحصول على السلاح الفعال المؤثر المرهب للأعداء سواء من طريق الشراء أو جلب الخبراء والاستعانة بهم أو إنشاء

المصانع الحربية التي تصنع السلاح، وإن السعي لامتلاك وتصنيع الأسلحة داخل البلاد الإسلامية هو أحد مصادر القوة التي يجب على المسلمين العمل من أجلها، فالتصنيع قاعدة الإعداد وأساسه ولا يمكن الاعتماد على شراء السلاح دومًا وإن المسلمين مطالبون بالتصنيع الشامل لكل سلاح من الأسلحة يحقق القوة ويحفظ للأمة المسلمة استقلالها وشخصيتها وسياستها وقراراتها وتحررها من التبعية لهذا المعسكر أو ذاك.

٣٦ - إن الدول المسلمة مطالبة بتطوير مجال التسليح وتصنيع أحدث الأسلحة وتدريب الأيدي الفنية المسلمة وإقامة المصانع الحربية والإعداد المهني الحربي بعناصر مسلمة تقوم بتشغيل وإدارة وإنتاج جميع أنواع الأسلحة الحديثة.

٣٧- إنه ينبغي مراعاة العوامل التي تؤثر في التسليح كالعامل الجغرافي والاقتصادي وسياسات الحصول على السلاح والعامل البشري لمواكبة خطط حيازة السلاح واستخدامه إضافة إلى مراعاة التوازن مع أسلحة العدو الرئيسي من حيث الكفاءة والحداثة وتحقيق التفوق.

٣٨ - إنه ينبغي على الأمة الاهتمام ببناء وإعداد التحصينات العسكرية المختلفة لكونها تتيح فرصة الاستفادة من القوى المتمركزة في الموقع المحصن إلى أقصى حد ممكن إضافة إلى منع العدو من الاستفادة من إمكاناته لإحراز أي تفوق، ومن تلك التحصينات إقامة الملاجئ وتزويدها بالمرافق الضرورية والتجهيزات اللازمة للإنقاذ والمؤن، وتوعية المواطنين إلى طرق استخدام تلك المرافق والملاجئ والأجهزة الملحقة بها، كما أن المحافظة على المجمعات والدوائر الحكومية من المخربين يدخل ضمن التحصينات أيضًا ويتم ذلك بوضع أجهزة المراقبة في الأماكن الحساسة وإقامة شبكات الإنذار المبكر والرادارات وغير ذلك من وسائل التحصين.

٣٩- الاهتمام بالملاجئ التي يمكن أن تقي الأمة من تأثيرات الحروب النووية أو الحرب الإشعاعية والكيماوية والبيولوجية والجرثومية وغيرها من أنواع الحروب الأخرى والاهتمام بمجال الدراسات في اختراع الألبسة والأقنعة

الواقيـة من الإشعـاع والغبـار النووي والتحـصينات المخـتلفـة المضـادة لتلك الحروب .

٤٠ ـ الاهتمام بإقامة التحصينات الميدانية الدفاعية لحماية الجبهات المدافع عنها وتشمل تلك التحصينات الخنادق والدشم الخرسانية المسلحة والمكعبات والخوازيق وحقول الألغام والأسلاك الشائكة ، وحلقات الكونستـرينا وشبكات الإنذار المبكر . إضافة إلى الاهتمام بالتحصينات الوقائية مثل المتاريس والدراوي وكمامات الغاز وغيرها من التحصينات .

وختاماً . . . هذا جهدي المقل ، فما كان فيه من صواب فبفضل اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ وما كان فيه من خطأ فمني وأستغفر اللَّه ، ولم آل جهداً في البحث والاستشارة والسؤال راجيًا منه ـ سبحانه وتعالى ـ أن يجعل عملي هذا صالحًا ولوجهه خالصًا ولا يجعل لأحد فيه شيئا ، وصلى اللَّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

قائمة
المصادر والمراجع

أولاً : المراجع العربية

القرآن الكريم .

- ابن الأثير - أبو الحسن عز الدين علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري (٥٥٥ - ٦٣٠هـ) .

الكامل في التاريخ ، مطبعة دار صادر ، بيروت ، عام ١٣٨٥هـ .

جامع الأصول ، من أحاديث الرسول .

- ابن تيمية - شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الدمشقي .

مجموع الفتاوىٰ ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي .

- ابن حجر العسقلاني - شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن علي بن أحمد الكناني العسقلاني المصري الشافعي .

الإصابة في تمييز الصحابة ، تحقيق د. طه محمد الزيني ، مكتبة الكليات الأزهرية بمصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م .

فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ، رئاسة إدارات البحث العلمي والدعوة والإرشاد ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

طبعة دار الفكر بيروت ، بتحقيق وإشراف محب الدين الخطيب .

- ابن حنبل - الإمام أحمد بن حنبل الشيباني .

المسند ، طبعة دار صادر ، بيروت ، لبنان .

- ابن رشد - محمد بن أحمد .

بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر ، الطبعة الثانية، ١٩٥٠م .

المكتبة التجارية الكبرىٰ ، مصر .

- ابن سيد الناس - محمد بن محمد بن محمد بن يحيىٰ بن سيد الناس (ت٧٣٤) .

عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ، دار الآفاق بيروت .

دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان .

- بن عابدين - محمد أمين الشهير بابن عابدين .

حاشية رد المحتار .

- ابن عبد البر - أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي (٣٦٨ - ٤٦٣هـ) .

الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، ضمن كتاب الإصابة ، تحقيق د. طه محمد الزيني ، الناشر مكتبة الكليات الأزهرية بمصر ، الطبعة الأولىٰ ، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م .

- ابن عبد الوهاب - عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب .

مختصر سيرة الرسول ﷺ ، الطبعة السلفية .

مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م ، راجعه وحقق أصوله محمد حامد الفقي .

- ابن عبد ربه - أحمد بن محمد الأندلسي (ت ٣٢٨ هـ) .

العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، طبعة دار الفكر ، الطبعة الثانية .

- ابن العربي - أبو بكر بن محمد .

أحكام القرآن ، مطبعة عيسىٰ البابي الحلبي ، القاهرة .

- ابن القيم - شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية .

تهذيب مدارج السالكين ، طبعة وزارة العدل والشوؤن الإسلامية بدولة الإمارات العربية المتحدة .

زاد المعاد في هدي خير العباد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، بتحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط .

- ابن كثير - أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (٧٠١ - ٧٤٧)

البداية والنهاية ، ١٤ جزءاً في ٧ مجلدات ، الطبعة الثالثة بيروت ، ١٩٧٩م .

الطبعة الأولىٰ ، مكتبة المعارف بيروت ، ١٩٦٦م .

تفسير القرآن العظيم ، دار المعرفة ، بيروت ١٩٦٩م - ١٣٨٨هـ ، طبعة عيسىٰ الحلبي .

- ابن ماجة - الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٩٧٥) .

سنن ابن ماجة ، تحقيق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث

العربي ، ١٩٧٥م ـ ١٣٩٥ هـ .

وطبعة دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٣م .

ـ ابن منظور ـ محمد بن مكي .

لسان العرب المحيط ، قدم له العلامة الشيخ عبد الله العلايلي ، إعداد وتصنيف يوسف خياط ، نديم مرعشلي ، طبعة دار لبنان العرب ، بيروت .

ـ ابن خلدون ـ عبد الرحمن بن خلدون المغزلي .

المقدمة ، مقدمة كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، طبعة دار الكتاب اللبناني لعام ١٩٨١ .

ـ ابن هشام ـ محمد بن عبد الملك .

السيرة النبوية ، بتحقيق وضبط وشرح مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي ، تراث الإسلام ، الطبعة الثانية ، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م .

مطبعة مصطفى البابي الحلبي .

ـ أبو دود ـ سليمان بن الأشعث السجستاني .

سنن أبي داود ، مراجعة وترقيم محمد محي الدين عبد الحميد ، دار إحياء السنة النبوية .

ـ أبو زهرة ـ الشيخ محمد أبو زهرة .

الجهاد ، من أعمال المؤتمر الرابع للبحوث الإسلامية .

ـ أبو سليمان ـ د . عبد الحميد أبو سليمان .

السياسة والحكم في الإسلام ، مجموعة محاضرات بعنوان (من قضايا الفكر المعاصر) أصدرتها الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م .

ـ أبو شريعة ـ د . إسماعيل إبراهيم محمد أبو شريعة .

نظرية الحرب في الشريعة الإسلامية ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م .

ـ أبو هيف ـ د . أبو هيف .

القانون الدولي العام ، الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية ، الطبعة السابعة .

ـ الأزهري ـ أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري ، (٢٨٢هـ ـ ٣٧٠هـ) .

تهذيب اللغة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة .

ـ الأصفهاني ـ الراغب الأصفهاني .

المفردات في اللغة .

ـ البحتري ـ أبو عبادة بن الوليد .

الحماسة .

ـ البخاري ـ الإمام محمد بن إسماعيل البخاري .

الجامع الصحيح ، طبعة مصطفى البابي الحلبي .

وطبعة المكتبة الإسلامية استانبول تركيا .

ـ البغدادي ـ عبد القادر بن عمر البغدادي .

مراصد الاطلاع على الأمكنة والبقاع .

ـ البغوي ـ أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي (٤٣٦ ـ ٥١٦هـ) .

شرح السنة .

ـ البنا ـ الإمام الشهيد حسن بن عبد الرحمن البنا .

السلام في الإسلام ، طبعة دار الفكر الإسلامي ، القاهرة .

ـ البيهقي ـ أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت ٤٥٨) .

السنن الكبرى ، طبعة دار الفكر .

ـ التارزي ـ الشيخ مصطفى التارزي .

دور الإعلام الإسلامي في بناء المجتمع المعاصر ، مقال منشور بمجلة رابطة العالم الإسلامي ، العدد الوثائقي عن أول مؤتمر عالمي للإعلام الإسلامي، العددان (١١) و(١٢) لعام ١٤٠٠هـ .

ـ التشامبي وشاكر ـ محمد يحيى صالح التشامبي ، ومحمود محمد شاكر .

المسلمون في الهند الصينية .

ـ الترمذي ـ الإمام الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي .

سنن الترمذي ، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ، دار الفكر ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٤هـ ، المطبعة المصرية القاهرة ، ١٩٣١م .

الشمائل المحمدية ، ٤٠٠ حديثاً في صفات النبي ﷺ الخلقية والخلقية ، تحقيق عزت عبيد الدعاس ، مطبعة الصفاة ، حلب ومطابع دار العلم ، جدة ، ١٤٠٤هـ .

ـ التهامي ـ د. مختار التهامي .

الرأي العام والحرب النفسية ، دار المعارف القاهرة ، الطبعةالثالثة ، ١٩٧٤م ـ ١٣٩٤هـ .

تحليل مضمون الدعاية في النظرسة والتطبيق ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٥م .

ـ التوحيدي ـ أبو حيان .

البحر المحيط .

ـ الثعالبي ـ أبو منصور الثعالبي ، المتوفى سنة ٤٣٠هـ .

فقه اللغة وسر العربية .

ـ الجرجاني ـ علي بن محمد بن علي (٧٤٠ـ ٨١٦هـ) .

التعريفات .

ـ الجصاص ـ إسماعيل بن حماد .

الصحاح ، تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق أحد عبد الغفور عطار ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م .

ـ الجويني ـ إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني (٤١٩ ـ ٤٧٨) .

غياث الأمم في التياث الظلم ، تحقيق ودراسة د. عبد العظيم الديب ، الطبعة الأولى لعا ١٤٠٠هـ ، مطابع الدوحة الحديثة بقطر .

ـ الحلبي ـ علي بن برهان الدين الحلبي .

السيرة الحلبية .

ـ الخرشي ـ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن علي الخرشي المتوفى سنة ١١٠١هـ .

الخرشي علي خليل ، دار صادر ـ بيروت .

ـ محمد الخضري ـ الشيخ محمد الخضري بك ، المفتش بوزارة المعارف المصرية .

محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ، الطبعة الثانية ، مطبعة مصطفى محمد .

ـ الخطابي ـ أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي (ت ٣٨٨هـ) .

معالم السنن ، شرح سنن أبي داود ، إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس ، الطبعة الأولى عام ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م ، المطبعة العلمية بحلب .

ـ الخطيب ـ عبد الكريم الخطيب .

الحرب والسلام في الإسلام ، دار نجد للنشر والتوزيع ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م .

ـ الدردير ـ سيدي أحمد بن محمد .

الشرح الصغير على أقرب المسالك .

ـ الدوسري ـ عبد الرحمن بن محمد الدوسري .
تفسير صفوة الآثار والمفاهيم ، مكتبة دار الأرقم ، الكويت .
ـ الذهني ـ الشيخ محمد الذهني .
شرح مسلم ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٣٧٧هـ .
ـ الرازي ـ أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم (ت ٣٢٧هـ) .
مختار الصحاح .
ـ الراشد ـ اللواء الركن يوسف عبد الرحمن الراشد .
دراسات في الاستراتيجية العسكرية ، مسلسل تصدره الشؤون العامة بوزارة الدفاع والطيران بالمملكة العربية السعودية .
دقة المعلومات وأثرها على التخطيط الاستراتيجي ، مسلسل تصدره الشؤون العامة بوزارة الدفاع والطيران .
ـ الرصافي ـ معروف .
الآلة والأداة .
ـ الركابي ـ زين العابدين الركابي .
نحو نظرية للإعلام الإسلامي ، مقابل منشور بمجلة المسلم المعاصر عدد يوليو ـ أغسطس ـ سبتمبر ١٩٧٨ .
ـ الزبيدي ـ محمد مرتضى الزبيدي .
تاج العروس من جواهر القاموس ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية بمصر ، ١٣٠٦هـ .

- الزحيلي - وهبة الزحيلي .

ثار الحرب في الفقه الإسلامي ، دار الفكر ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨١م ، بيروت .

- الزحيلي - د. وهبة الزحيلي .

الفقه الإسلامي وأدلته ، الطبعة الثانية ، دار الفكر ، ١٩٨٥م - ١٤٠٥هـ .

- الزمخشري - محمود بن عر الجار الله .

أساس البلاغة ، بتحقيق الأستاذ عبد الرحيم محمود ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢ .

الكشاف ، دار الفكر ، بيروت .

- الزواوي - الطاهر أحمد الزواوي .

ترتيب القاموس .

- الزواوي - طارق جعفر الزواوي .

فنون وأساسيات التايكوندو ، مطابع الخالد للأوفست ، الرياض .

- الزيلعي - العلامة جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف .

نصب الراية .

- السعدي - عبد الرحمن بن ناصر السعدي .

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، تحقيق وضبط وتصحيح محمد زهدي النجار ، الرياض .

- السمهودي - نور الدين علي بن أحمد المصري المتوفى سنة ٩١١هـ .

وفاء الوفاء ، مطبعة الآداب والمؤيد بمصر ١٣٢٦هـ .

ـ السهارنفوري ـ الشيخ خليل بن أحمد السهارنفوري .

بذل المجهود في حل أبي داود ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .

ـ السهيلي ـ الإمام الحارث السهيلي (٥٠٨ ـ ٥٨١هـ) .

الروض الأنف ومعه السيرة النبوية لابن هشام ، قدم له وعلق عليه وضبطه طه عبد الرؤوف سعد ، دار المعرفة للطباعة والنشر ١٩٧٨م .

طبعة دار النصر القاهرة ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م تحقيق وتعليق وشرح عبد الرحمن الوكيل .

ـ السيوطي ـ عبد الرحمن بن أبي بكر .

الدر المنثور في القول بالمأثور .

ـ الشافعي ـ الإمام محمد بن إدريس الشافعي .

الأم .

ـ الشامي ـ محمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت ٩٤٢) .

سبل الهدىٰ والرشاد في سيرة خير العباد .

ـ الشلبي ـ شهاب الدين أحمد الشلبي .

حاشية شهاب الدين أحمد الشلبي علىٰ شرح الكنز ، مطبوعة مع تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق ، لعز الدين عثمان بن علي الزيلعي الحنفي الطبعة الثانية ، دار المعرفة بيروت .

ـ الشنقيطي ـ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني (ت ١٣٩٣هـ) .

أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٩م ، المطبعة الأهلية بالرياض ، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م .

ـ الشوكاني ـ محمد بن علي الشوكاني .

فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٤م .

نيل الأوطار ، دار الجيل بيروت ، ١٩٧٣م .

ـ الطبري ـ أبو جعفر .

جامع البيان عن تأويل القرآن .

اختلاف الفقهاء ، تحقيق الدكتور شخت .

ـ العسلي ـ بسام .

فن الحرب ، دارالفكر ، بيروت .

ـ العويني ـ د. محمد علي .

الإعلام الدولي بين النظرية والتطبيق .

ـ الغزالي ـ محمد .

فقه السيرة ، طبعة دار الكتاب العربي بمصر ، الطبعة الثانية لعام ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م .

ـ الفار ـ د. عبد الواحد محد .

الثقافة الإسلامية ، دراسة تأصيلية لمضمون الرسالة الإسلامية في ضوء القرآن والسنة ، سلسلة الكتاب الجامع ، الكتاب الرابع .

ـ الفيروزابادي ـ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي .

القاموس المحيط .

ـ الفيومي ـ أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي المتوفى سنة ٧٧٠هـ .

المصباح المنير ، تصحيح مصطفى السقا ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي .

ـ القادري ـ د. عبد الله بن أحمد القادري .

الجهاد في سبيل الله ، حقيقته وغايته ، الطبعة الأولى ، دار المنار ، جدة ، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .

ـ القاسمي ـ محمد جمال الدين القاسمي .

تفسير القاسمي ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

ـ القرطبي ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي .

الجامع لأحكام القرآن ، الناشر دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧م .

ـ القلعي ـ الإمام أبو عبد الله محمد بن علي القلعي .

تهذيب الرياسة وترتيب السياسة ، تحقيق إبراهيم عمير .

ـ الكاساني ـ أبوبكر بن مسعود .

بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، مطبعة العاصمة بالقاهرة ، تخريج أحمد مختار عثمان ، الناشر زكريا علي يوسف .

وطبعة دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٤م .

ـ الكاندهلوي ـ محمد يوسف .

حياة الصحابة ، دار الفكر .

ـ اللحيدان ـ صالح .

الجهاد في الإسلام بين الطلب والدفاع .

ـ الماوردي ـ أبو الحسن علي بن حبيب الماوردي البصري البغدادي (ت ٤٥٠هـ) .

النكت والعيون ، تفسير الماوردي .

الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٧٨م ـ ١٣٩٨هـ .

ـ المباركفوري ـ صفي الرحمن .

الرحيق المختوم ، طبعة رابطة العالم الإسلامي ، مكة المكرمة .

ـ المراغي ـ محمد مصطفى .

تفسير المراغي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

ـ المناوي ـ المحدث محمد المدعو بعبد الرؤوف .

فيض التقدير شرح الجامع الصغير .

ـ المنذري ـ الحافظ محمد زكي الدين عبد العظيم المنذري .

الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، دار الفكر بيروت ، مطبعة السعادة ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٠هـ .

ـ المودودي ـ أبو الأعلى .

الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية .

الجهاد في سبيل الله .

ـ المؤسسة العربية للدراسة والنشر ، بيروت .

الموسوعة العسكرية ، الطبعة المنقحة ، ١٩٨١م ، بيروت ، لبنان . رئيس التحرير المقدم الهيثم الأيوبي .

ـ النووي ـ يحيىٰ بن شرف .

صحيح مسلم بشرح النووي ، طبعة دار إحياء التراث العربي ، الطبعة الأولىٰ ، ١٩٢٩م .

محمود توفيق ، مطبعة حجازي ، القاهرة .

طبعة دار الفكر .

ـ الهرثمي ـ أبو سعيد الشعراني الهرثمي ، صاحب المأمون (ت بعد ٢٣٤هـ) .

مختصر سياسة الحروب ، تحقيق عبد الرؤوف عون ، سلسلة تراثنا المؤسسة المصرية العامة ، مطبعة مصر .

ـ الواقدي ـ أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي .

المغازي ، طبعة دار الجيل ، بيروت .

ـ بدر ـ د . أحمد بدر .

الاتصال بالجماهير والدعاية الدولية .

بعثة الرياضة التقليديةاليابانية ، مؤسسة اليابان ، ١٩٨٣م .

- جرادات - اللواء وليد محمد جرادات .

استراتيجة الفتوحات الإسلامية .

- جريدة الأهرام المصرية الصادرة بتاريخ ٢٥ يوليو ١٩٧٥م .

الجغرافية التاريخية الإسلامية ، طبعة لجنة البيان العربي .

- جميل - روحي جيل .

الموسوعة الرياضية ، دار العلوم ، الرياض ، ١٩٨١م .

- حجازي - د. محمد محود حجازي .

التفسير الواضح ، جامعة الأزهر ، كلية أصول الدين ، دار الكتاب العربي .

- حميد الله - د. محمد حيد الله .

مجموعة الوثائق السياسية .

- حنا - جميل حنا .

فن الكاراتيه ، ترجمة الأستاذ جميل حنا ، المكتبة الحديثة للطباعة والنشر .

- حوىٰ سعيد حوىٰ .

المستخلص في تزكية الأنفس .

- خطاب - اللواء الركن محمود شيت خطاب .

الوجيز في العسكرية الإسرائيلية .

دروس في الكتمان .

الرسول القائد .

العسكرية العربية الإسلامية ، كتاب الأمة ، مطابع الأمة ، الدوحة ـ قطر ، الطبعة الأولىٰ ، ١٤٠٣هـ .

ـ عبد الباقي ـ محمد فؤاد .

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

ـ عثمان ـ عبد الكريم عثمان .

معالم الثقافة الإسلامية .

ـ عزام ـ عبد الرحمن عزام .

الرسالة الخالدة ، دار الشروق ، بيروت ـ لبنان .

ـ عفيفي ـ محمد صادق .

المجتمع الإسلامي والعلاقات الدولية .

ـ عون ـ عبد الرؤوف عون .

الفن الحربي في صدر الإسلام ، دار المعارف ، مصر .

ـ غربال ـ محمد شفيق .

الموسوعة العربية الميسرة .

ـ فرج ـ محمد .

العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ .

ـ قطب ـ سيد .

السلام العالمي والإسلام ، دا الشروق ، بيروت ، الطبعة الثامنة ، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م .

في ظلال القرآن ، دار الشروق ، جدة ، الطبعة الثالثة .

- قطب - محمد .

وامعتصماه ، محاضرة ألقيت بجامعة الملك عبد العزيز ، جدة ، رجب ١٣٩٩هـ .

- كحالة - عر رضا كحالة .

سيف الله خالد بن الوليد .

- كلاونفيتز - كارل فون كلاونفيتز .

الوجيز في الحرب ، ترجمة أكرم ديري والهيثم الأيوبي .

- كلية القيادة والأركان السعودية .

مبادئ الحرب .

- مالك بن أنس - الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة .

الموطأ ، تخريج محمد فؤاد عبد الباقي .

- محفوظ - اللواء حمد جمال الدين محفوظ .

النظرية الإسلامية في الحرب النفسية .

المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٧٦م .

- محمود - حافظ .

الإعلام العربي والإعلام الصهيوني ، القاهرة ، معهد البحوث والدراسات التطبيقية ، قسم البحوث والدراسات الفلسطينية ، المطبعة العالمية القاهرة ، ١٩٧٣م .

ـ مجمع اللغة العربية .

المعجم الوسيط ، تأليف : د. إبراهيم أنيس ، د. عبد الحليم منتصر عطية الصوالحي ، محمد خلف الله أحمد .

ـ مسلم ـ أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري .

صحيح مسلم بشرح النووي ، المطبعة المصرية ومكتبتها .

ـ معوض ـ د. محمد معوض .

دور وسائل الإعلام في الحرب الحديثة ، مقال منشور بمجلة كلية الملك خالد العسكرية ، العدد ١٥ .

ـ منصور ـ د. عبد المجيد سيد أحمد منصور .

الحرب النفسية ، مقال منشور بمجلة الدفاع السعودية ، العدد ٥٨ ، السنة ٢٣ ، ذو القعدة ١٤٠٤هـ يوليو ١٩٨٤م .

ـ منظمة الأمم المتحدة .

الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ، الصادر في ١٠ ديسمبر ١٩٤٨م .

ـ موسوعة السلاح المصورة ، دار المختار للطباعة ، سويسرا .

ـ نصر ـ صلاح نصر .

الحرب النفسية .

- هارت - سير بازل ليدل هارت .

الفكر العسكري عند ليدل هارت .

- هاني - أحمد هاني .

الجاسوسية بين الوقاية والعلاج .

- هويدي - د. حسن هويدي .

الشورىٰ في الإسلام .

فهـرس
المـوضـوعـات

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
كلمة شكر وتقدير	
المقدمة : أسباب كتابة البحث	٥
التمهيد : الحرب والسلام في الإسلام	١٣
المبحث الأول : السلام وما يعنيه	١٥
المبحث الثاني : الحرب وما يرادفها	١٧
المبحث الثالث : علاقة الإسلام بالحرب والسلام	١٩
علاقة الإسلام بالحرب	١٩
علاقة الإسلام بالسلام	٢٧
هل الحرب في الإسلام هجومية أم دفاعية	٣٦
الباب الأول : الإعداد المعنوي للمعركة	٣٩
الفصل الأول : المبادئ الأساسية للعسكرية الإسلامية	٤٣
المبحث الأول : العقيدة العسكرية	٤٤
المبادئ العسكرية الإسلامية	٥٠
المبحث الثاني : بواعث الحرب في الإسلام	٥٣
المبحث الثالث : غايات الحرب في الإسلام	٥٩
المبحث الرابع : القيم الإسلامية	٦٣
الفصل الثاني : تزكية النفس	٧٤
المبحث الأول : معنى التزكية والمراد منها	٧٥

الموضوع	رقم الصفحة
المبحث الثاني : حب الله والحب في الله	٧٩
المطلب الأول : محبة الله تعالىٰ	٧٩
المطلب الثاني : الحب في الله	٨٤
المبحث الثالث : الإيثار	٨٧
المبحث الرابع : الصبر والمصابرة	٨٩
المبحث الخامس : الترغيب في الشهادة	٩٤
المبحث السادس : الترهيب من المعاصي	٩٩
المبحث السابع : الترهيب من الخيانة	١٠٥
المبحث الثامن : الترهيب من التولي يوم الزحف	١١٣
الفصل الثالث : تهيئة الأمة للمعركة	١٢١
المبحث الأول : ترغيب الأمة في الجهاد والبذل والتضحية	١٢٣
ترغيب الأمة في الجهاد	١٢٣
البذل	١٢٤
التضحية	١٢٧
المبحث الثاني : التهوين من قوة العدو من حيث فساد الغاية التي يحارب من أجلها	١٢٨
المبحث الثالث : إعلام الأمة بأن شرف الغاية التي يقاتلون من أجلها يستوجب الصبر علىٰ ما يصيبهم	١٣١
المبحث الرابع : إعلاء شأن الشهداء وكفالة أسرهم	١٣٧

الموضوع	رقم الصفحة
المبحث الخامس : إنقاذ المستضعفين وفداء الأسرى	١٤٣
الفصل الرابع : الحرب النفسية	١٥١
المبحث الأول : مفهوم الحرب النفسية	١٥٦
المبحث الثاني : أسس وأهداف الحرب النفسية	١٦٠
المبحث الثالث : وسائل الحرب النفسية	١٦٣
المبحث الرابع : طرق الوقاية من الحرب النفسية	١٧٥
الفصل الخامس : التحريض على القتال	١٨١
المبحث الأول : تعريف التحريض ومشروعيته وأهميته	١٨٣
المبحث الثاني : أساليب التحريض	١٨٦
المبحث الثالث : نماذج من التحريض على القتال	١٩١
الباب الثاني : الإعداد المادي للمعركة	١٩٩
التمهيد : القوة في الإسلام	٢٠٣
الفصل الأول : الاستراتيجية والتخطيط والتنظيم	٢١١
المبحث الأول : الاستراتيجية العسكرية	٢١٣
المبحث الثاني : التخطيط للمعركة	٢١٦
التعريف بالتخطيط للمعركة	٢١٦
العناصر الأساسية للمعركة	٢١٩
المبحث الثالث : التنظيم	٢٢٤
الفصل الثاني : التجنيد والتدريب	٢٣١

الموضوع	رقم الصفحة
المبحث الأول : التجنيد	٢٣٢
المبحث الثاني : التدريب	٢٤٣
الفصل الثالث : القيادة	٢٥٥
المبحث الأول : أهمية القيادة	٢٥٧
المبحث الثاني : اختيار القيادة	٢٥٩
المبحث الثالث : من صفات القائد	٢٦٢
المبحث الرابع : العلاقة بين القائد وجنوده	٢٦٨
المبحث الخامس : الشورى	٢٧٦
الفصل الرابع : إعداد المعلومات للمعركة	٢٩١
المبحث الأول : العيون (الجواسيس) والعملاء	٢٩٣
العيون (الجواسيس)	٢٩٣
العملاء	٢٩٩
المبحث الثاني : الطلائع والسرايا	٣٠٠
المبحث الثالث : الاستخبارات (المخابرات)	٣٠٦
الفصل الخامس : التسليح والتحصين	٣١١
المبحث الأول : التسليح	٣١٣
المبحث الثاني : التحصين	٣٢٨
الخاتمة : نتائج البحث	٣٣٩
المصادر والمراجع	٣٥١
فهرس الموضوعات	٣٧٣